دموع الندي

دينا درويش

دموع الندي
دينا درويش
تصميم الغلاف : عبير محمد
تدقيق لغوي: عبدالله أبو الوفا
رقم ايداع: 2017/28920
ترقيم دولي: 9-30-6594-977-978

دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الاولي يناير ٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

دموع الندى

دينا درويش

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى أسرتي الصغيرة ووطني الكبير،
إلى خليلتي الوفيتين، ورفيقتي دربي الطويل،
إلى كل من وقف بجانبي في الخفاء، وساندني في عملي المتواضع،
آمن بموهبتي، وحثني على الإبداع،
إلى كل إنسان مر في حياتي يوم وترك جرح لا ينسى أو ابتسامة لا تموت،
إلى كل نسمة هواء تخللت أنفاسي المختنقة عبر لحظات الانكسار والألم فبثت بقلبي روح جديدة،
إليكم جميعا أهدي كتابي.

عزيزتي، قطرة الندى،
إليكِ أنحني شكرًا وعرفان.
فبموتك غاليتي،
مُنحتُ فرصة جديدة للبقاء.
وبحكمتك،
فَطنتُ أعظم درس في الحياة. الوردة البيضاء.

إلى القارئ،
أن كُنت في انتظار مقدمة،
فلتغفر لي،
فأنا امرأة لا تجيد استخدام الفرشاة ومزج الألوان.
فالبدايات ما أكثرها عندما تكون زائفة.

(1)

لطالما دارستها الحياة أن العمر لحظات،
لحظة قوة وأخرى ضعف، لحظة انكسار وأخرى شموخ، لحظة سعادة وأخرى ألم، لحظة إخفاق وأخرى نجاح، أو ربما لحظة بكاء وأخرى ابتسام.
ولكن لم يخبرها أحد عن قسوة تلك اللحظات التي يتوقف عبرها الزمان، فتصبح أثقل من الموت وأشد وطأة من الخوف.
في لحظة غابرة من تلك اللحظات غير المبررة، وقفت هناك، تتسارع أنفاسها بقوة لتلاحق بعضها الآخر في لهاث متواصل دون توانٍ أو توقف، غير عابئة بصمود الدهر من حولها، بينما يتحرك صدرها صعودًا وهبوطًا، لا تعلم كيف توقف حركاته المتتابعة في ديناميكية قاتلة، إلى حد يوشك أن يفتك بما تبقى بقلبها المرتجف من سكون، حتى قطرات العرق التي تجمعت أعلى جبهتها الصغيرة وهبطت في بطء وانسيابية، تتغنج في تؤدة مبالغة، تكاد تبار تكاسل الزمان من حولها، ثم انحرفت في النهاية إلى جانبي وجهها الممتقع لتبلل حجابها الملتف حول عنقها المرتعش.
تسمرت عيناها بقوة وقد اتسعتا عن أخرهما حيث وقفت أمام باب القاعة الرئيسية، اشرأبت في هدوء توقفت معه الأنفاس، تزحف لمحاتها في تواتر معجز كزحف جندي شلت أطرافه بعد أن باغته الأذى في معركة حربية انتهت للتو، تتفحص بنظرات عينين ذاهلتين الباب الخشبي الضخم بشطريه العاليين، تراه ينفتح ببطء شديد يصدر معه صوت صريرٍ قوي زاد من ارتعاب قلبها المرتجف، في حين زاغت نظراتها يمينًا ويسارًا، تنتظر اللحظة التي تتقدم وتخطو من الباب المفتوح أمامها لترى مستقبل غامض في الانتظار. هبت رياح باردة تسللت باندفاع من دفتي الباب المواربتين، وتلولبت بعنفوان أمامها في دوامات هوائية عارمة تغازل ثكنات جسدها المرتعش، تلوك عظامها المتصلبة بنفحاتها العاتية،

وتراقصها كجارية تتلوى حول فريستها المستسلمة فتثلج أطرافها الملتهبة بفعل حرارة الخوف، أطبقت جفنيها في ذعر تتحاشى ذرات الغبار الخانقة، بينما تعالى ضجيج مزعج انبعث من القاعة الفسيحة بعد أن فتح الباب على مصراعيه، أطلقت السراح لجفنيها المطبقين فتعالت أهدابها في دلال وأناة تعلن عن إطلاق ساعة البدء وعادت تطل بنظراتها نحو الأمام، تنفست الصعداء، تتصيد أنفاسها الهاربة حتى تسكن صدرها المرتجف، استجمعت قوتها الواهنة ثم تقدمت في تؤدة صوب الباب.

خطت أولى خطواتها الرشيقة في القاعة، تدب بحذائها الأنيق ذي الكعب العالي فوق الأرض الرخامية فينتج عنه صوت دبيب قوي تهتز له الألباب، وحلتها السوداء المؤلفة من جونلة ضيقة تبرز تقاسيم جسدها الملفوف مع سترة مهندمة تحيط بكتفيها وخصرها النحيل وتهبط بسلاسة لأسفل قليلًا، وفي الأعلى حجاب أبيض يحيط بنعومة ملمسِه عنقها الرشيق وملقى بطرفيه خلف كتفيها النحيلتين بإهمال، تداعبه نسمات الهواء فتحركه خلفها بخفة وهي تسير .

سارت في القاعة بخطواتها المتأنية والثابتة خطوة تلو الأخرى، تحاول جاهدة أن تبث الثقة بروحها الضائعة، رافعة بشموخ أنفها إلى الأعلى، تشق بساقيها المستقيمتين في قوة وعزيمة الممر المتسع بين الصفين عن اليمين واليسار وقد امتلئا عن أخرهما بأولئك الحاضرين الذين يترصدونها بشغف وأحداق منفرجة بينما تكمل طريقها في حماس، تسابق أنفاسها شهقات الجالسين والواقفين حولها على الجانبين في ذهول يتابعونها بعيون ملؤها التساؤل والترقب، وهي تمشي في الممر غير عابئة بأصواتهم الصادرة عن همهمات وهمسات ذاهلة، تابعت سيرها تمضي قدمًا إلى أن وصلت إلى منصة الدفاع ووقفت بهدوء وصلابة أمام القضاة الثلاثة الذين اصطفوا أمامها في حزم وكبرياء، ينظرون إليها بقوة لم تعهدها من قبل. توقفت، استنشقت بعض نسمات الهواء مع تذوق بعض قطرات من ريقها، تتابع نظراتها المكان في ذهول لا تعرف له سببًا، ثم استدارت بجسدها تلتفت حول نفسها ببطء، تفحص كل ركن وكل شبر في أرجاء القاعة

الواسعة وتسأل نفسها: "لماذا؟"

لم تكن تدرك السبب الحقيقي لتواجدها في مكان لم تعتد ارتياده، نظرت إلى نفسها ومظهرها، تفحصت ردائها الرسمي ثم عادت بنظراتها التائهة بين عيون الحاضرين المصوبة نحوها بجرأة ينتظرون منها الخطوة التالية.

نعم، هي المرة الأولى التي تدخل فيها قاعة محكمة، إنها ليست متهمة في قضية ما حتى تتواجد هنا، ولم ترتد كلية الحقوق حتى تصبح محامية وتقف في ساحة القضاء تدافع عن متهم أو مجرم، ولكن هل أتت كشاهدة في قضية؟!، إذاً لماذا تقف هنا في ذلك الوقت؟ ومن كل هؤلاء الذين يتفرسونها بعيونهم الباحثة عن شيء ما، وماذا ينتظرون منها أن تفعل؟!

*****

(٢)

الصمت، ولا حاضر سوى الصمت، كل شيءٍ في المكان هادئ وساكن حتى أصوات تِلك الأنفاس التي حبست في صدور أصحابها، لا شيء يعطي معنى للحياة، ألوان قاتمة وقلوب باردة وعيون شاردة في كل حدب وصوب، كل ركن من أركانه يوحي بالقدم، الحوائط البالية والملطخة باللون الرمادي الباهت، أثاث بالٍ عفا عليه الزمان، وصالة مغطاة بأعداد لا حصر لها من أشباه أناس متراميين في كل ركن وطرقة.

كانت الستائر المنسدلة فوق نافذة زجاجية كبيرة تهادت أركانها وتآكلت سكناتها تتوسط صالة المنزل الواسعة هي الشيء الوحيد الذي يتحرك لتتسلل نسمة هواء باردة محملة ببرودة شتاء فبراير، لعلها فرصة ذهبية أن تأتي تلك النسمة الرقيقة لتنعش وتداعب أنفاس وقلوب هؤلاء الرابضين في كل الأرجاء، كتلك الفرصة التي تمنح لمريضٍ على شفا حفرةٍ من الموت يُضرب مرارًا وتكرارًا بصدمات كهربائية عنيفة ليعود قلبه للحياة بعد التوقف، ربما هي جثث آدمية تحمل قلوب ميتة، وأرواح أدماها شقاء الحياة، وأنفاس تزفر مرارة من دائرة الحياة اليومية.

ظل الهدوء هو سيد الموقف يطبق بكيانه على كل شيء، لا كائن يتحرك ولا صوت يسمع إلا ذاك الصوت الصادر من مذياع كبير قديم وضع على منضدة صغيرة كسرت إحدى قوائمها وضبط مؤشره على إذاعة القرآن الكريم، ومن أعلاه برواز متوسط الحجم لصورة عروسين في ليلة زفافهما، يحده إطار خشبي ضخم كان في الماضي ذهبي مطعم بالفضة، ولكن حالت عوامل الدهر أن يبقى على لونه اللامع لتحوله إلى لونه الباهت كما حولت قلوب أصحاب هذا المنزل. إنه اليوم الثالث ولا زالت كما هي، تلك النظرة الغامضة التي تتملك كل لمعة من عينيها السوداوين، عينان كانتا دومًا مجال لتغزل الرجال كبار وصغار بسحرها

الشرقي الغامض، بحيرة سمراء تألفت قطراتها من حبات الزمرد المترشحة من عنان سماء الحب والجمال، تسبح وسط موجات من اللبن المصفى، وأطرافها الكاحلة دون أن يمسها الإثمد،تجتذب كل من وقعت نظراته عليها في الخفاء أو ابتغى التلصص على أسرار نظراتها الفتاكة والانسلال بين شعيراتها الرقيقة ليقع في النهاية فريسة لأهدابها الناعسة والتفاتاتها الساكرة أسفل حاجبين باذخين، غير أنها الآن لا تحوي سوى نظرة شاردة لصغيرة ريم هاربة وسط صحراء مكفرة من ماضٍ أليم ما زال يسكن روحها، وغد مجهول طمس الحاضر القاتم بجبروت معالمه.

ظلت عيناها تحدقان في الصورة المثبتة على الحائط وقد عقدت ذراعيها على صدرها منذ أن جلست واتكأت برأسها على الحائط خلفها، جسدها متكور على نفسه من شدة الأم الجلوس لساعات طويلة فوق ذات المقعد، تسحب أنفاسها الواهنة في توال دقيق ثم تعود عقب ثوان لتطلق سراحها حارة ومريرة كأنها حبست دهرًا، تملكتها حالة من تساؤلات واستفهامات غريبة استحوذت على ذهنها وسيطرت على تلابيب عقلها للحظات، بل ربما لساعات لا تعرف مداها، إنها متأثرة حتمًا بذلك المشهد الدرامي الذي يوحي بالبهجة والسعادة الأبدية يجتذبها في لحظات ليسلبها من عالمها الحاضر إلى نحو خمس وثلاثين عامًا إلى الوراء.

فتاة صغيرة في السن، ترتدي ثوب أبيض من الدانتيل الرقيق المتهدل على جسدها الأبيض الناعم، خصلات شعرها الذهبية تتدلى أعلى جبينها الصغير وتهبط في دلال لتلامس نعومة وجنتيها الورديتين وتداعب حافتي وجهها الأبيض المستدير، بينما ترقد جديلتان مدمجتان بحرفية نسائية فوق صدرها الشامخ، تعلو ابتسامة رقيقة ثغرها الصغير الممتلئ كعنقود عنب تبلورت حبّاته الياقوتية وتدلت على عودها تنتظر موسم القطاف.

إنها حتمًا ابتسامة توحي بالسعادة المنتظرة والتأمل في غد حافل بالأحلام الوردية لزواج سعيد مكلل بالورود والقبلات والأبناء الأصحاء، أما عيناها البنيتان فقد رسمت بمهارة رسام مبدع بكحل أسود زادها بهاء. لا يوجد لها وصف سوى

أنها جميلة، فتاة ساحرة، أميرة جنية خرجت للتو من ملحمة أسطورية لتعلم العالم معنى الرقة والعذوبة حينما تتجلى في أنثى، ومن خلفها وقف هو ليطبق بكلتا ذراعيه حول خصرها النحيل، يرتدي بدلته القاتمة وعلى شفتيه تجلت ابتسامة غامضة لا تعرف ماهيتها، تُرى حقيقية كانت أم مصطنعة؟ فالرجال غامضون عندما يتعلق الأمر بالابتسام، شاب يافع قوي البنية، زانته أشعة الشمس بسمرتها المتوهجة لتترك آثارها الواضحة على ملامحه الحادة، وعيناه الواسعتان بنظرتهما الثاقبة، تشعر عندما تنظر إليهما بسهم يخترق ما بداخلك ليصل إلى المكان المحدد وينفذ إلى روحك المخبأة خلف ردائك المصطنع، وشعره الكث كأسد هارب من عرينه لينقض أخيرًا على فريسته الحسناء. جالت بنظرها للحظات فاغتنم منها شعور بانقباض مفاجئ اعتمل صدرها التعس، رباه؟ ما هذا المكان البائس؟! كل شيء مغطى بالسواد، ليس فقط تلك السمرة الساكنة بعينيها الواسعتين ولا بهذا الحزن الرابض على روحها المنهك، إنه أيضًا يلبس كأغطية لكل تلك الأجساد المطروحة في كل ردهة وطرقة، لتشعر وكأنها في أرض الظلام وهؤلاء ليسوا سوى سرب من غربان تعشش في إحدى جحور كهف غابر مظلم.

دموع تتساقط، ومناديل مبللة، وآهات مكتومة، ونظرات شاردة، وصوت مذياع يتلو فيه القارئ الآية الكريمة: "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"، حتى ملامحهم المصطنعة للحزن، كل شيء يوحي للناظر من الوهلة الأولى بأنه عزاء! فجأة، صدر صوت قوي ليسارع من دقات قلبها الموجوع، إنه صوت بندول الساعة المعلقة على الحائط منذ دهر يعلن تمام السابعة مساءً، أتاها ذاك الصوت في الوقت المحدد لينقذها من صمتها العميق ودراما أفكارها الخيالية ويعود بها إلى أرض الواقع بعد أن حلقت لفترة مجهولة في آفاق ماضٍ بغيض لا ترغب في تذكره. التفتت حولها في دهشة لتتفحص الموجودين، أصوات وهمسات مكتومة وغمزات بالأعين والشفاه وإيماءات بالأيدي والوجوه، لا يوجد صمت أو هدوء مثلما كانت تعتقد، لم يخلق ذلك السكون إلا بداخلها هي فقط!

أما في هذا العزاء، فكان الكل حاضرين بكلماتهم وأنفاسهم وحركاتهم وإيماءاتهم حتى حكاياتهم النسوية المحفوظة منذ قديم الأذل، الكل موجود فهل يعقل أن يحل الصمت ضيفًا في مجلس نساء حتى لو كان مجلسًا لعزاء فقيد أو غالٍ؟! لماذا أتين؟ كانت تحادث نفسها في اعتراض لم يفسده حالة الهدوء البادية على محياها أو يعيقه نوبة صراع داخلي فاضت بصدرها، إنها حالة من امتزاج مشاعرها المترنحة ما بين الضيق والأسى والملل، يقولون دائمًا أن التشارك هو مبدأ من مبادئ الحياة في جماعة، نتشارك أحزاننا وآلامنا حتى أفراحنا مع الآخرين، ولبرهة تهادت مقولة والدتها إلى أذنيها وتذكرت حينما كانت تراها دومًا متشبثة بذيل عباءتها السمراء وعلى وجهها رسمت علامات حزن تكاد تكون مفتعلة بينما تخاطبها وهي ذاهبة إلى عزاء إحدى الجيران: "حبيبتي، إنه واجب، والناس في مثل تلك الظروف تحتاج أن تجد بجوارها من يواسيها، يحنو عليها، يحمل همها ويداوي جرحها لفراق الأعزاء والأحباء"، ربما هي تنعي حالها فكلٌ يبكي على ليلاه، وكلٌ بداخله عزاء على أحلامه التي وئدتها قسوة الظروف، ثم تستطرد في اقتناع وإصرار بعد أن ترى علامات التأفف والامتعاض تطفو على وجه ابنتها: "لقد تربينا على ذلك ولن نتغير!"

ولكنها الآن تخالفها الرأي، تعترض في صمت، تصرخ وتشجب في كتمان يكاد يمزق حشايا قلبها الشجي، هن لم يأتين ليؤدين واجب العزاء كما زعمن، كل واحدة منهن لها سببها الخاص وفي نفسها شعور مخبأ نحو أهل البيت، ولكنهن اتفقن على هدف واحد ليأتين من أجله: "الثرثرة"، نعم ليثرثرن! جمع من ذباب يطنطن في كل الأنحاء لتزداد الهمسات المسروقة مع الكلمات المخطوفة والشفاه المقلوبة والأجساد الملتوية ولا ننسى الأفمام المنتفخة برشفات أقداح القهوة الساخنة.

وهل تترك فرصة كهذه لمعرفة من تزوج من؟ ولماذا طلقت تلك من زوجها؟ وأين سافر فلان ولماذا رسبت ابنة فلانة؟ وكيف استطاعت تلك اللعوب الإيقاع بعريس ثري محمل بالأموال وكنوز مغارة على بابا، حتى لتكاد إحداهن أن تسأل عن مقياس الملابس الداخلية لجاراتها. لا شعور سوى الامتعاض يسيطر

عليها، شعور بالتأفف والغضب، الثورة على أي شيء وكل شيء حينما يحل الحزن ضيفًا على القلب، وللحظة تمنت لو انتفضت من مكانها بقوة، آه لو واتتها الشجاعة وأمكنها جسدها الهزيل أن تطردهن جميعًا من منزلها، وتلقي بهن كأكوام من أكياس القمامة المتحللة، إنهن حقًّا كذلك، نساء بدينات لا يمللن الثرثرة، كما لا يمللن الطعام والثياب والذهب. الآن فقط سوف تنفض عنها هدوء سيطر على فكرها لفترة من الزمان وتعود إلى الواقع حولها، أطلت بنظرها على الموجودات فوقعت عيناها عليها، يا لبئس تلك المرأة العجوز، جلست على أريكة متوسطة الحجم أزلية الطراز ومهترئة المعالم، كسيت بقماش متهتك الأطراف صبغ بلون أحمر داكن، لم يمنع من زيادة قتامة لونه بدرجة ميوله إلى السواد ذلك الضوء الواهن الذي تناثر في كآبة من ثريا أزلية التراث تدلت في رهبة من السقف خشية أن تهوى على حين غرة إلى الأسفل، تلك الأريكة التي دومًا كانت المكان المفضل لجلوس زوجها الفقيد. رمت بجسدها على الأريكة في إعياء تاركة ساعديها ملقيين في تراخ فوق مخدعيها العريضين، رافعة رأسها إلى الأعلى، تحلق كطائر بري جريح يلفظ أنفاسه الأخيرة أو عصفورة تائهة في سماء غير سمائها التي عرفتها ودنيا بديلة بدنياها التي عاشت بها، كأنما تريد أن تنسلخ عن هذا الواقع الأليم، تلحق بزوجها الذي تركها لا تعرف كيف ستقضي حياتها بدونه وهو الذي لم يعلمها يومًا كيف تعاش الحياة.

بجوارها على اليمين كانت تجلس السيدة انشراح بجسدها القصير البدين ووجهها الأسمر الممتلئ الذي طغى عليه الزمان قسمات الشيب والكبر، فأرداه قتيلًا في معركة الشباب، كانت تتحدث عن ابنتها وردة زينة الشارع كما كانوا يطلقون عليها، لكنها وللأسف لم تعد سوى بقايا لحطام امرأة بائسة بعد أن طلقها زوجها المسافر لإحدى دول الخليج، فلم يعد يستهويه جمالها البلدي وقدها المرشوق باللحم الخمري اللامع وطقطقة كعب نعليها فيما مضى، لتلهب بعيون وقلوب المارين أشواق لا يطفئها إلا نظرة بابتسامة رضا من ذات القد الميال. سألت السيدة فردوس السيدة انشراح وهي تصدر صوت ينم عن التحسر: " عزيزتي، وكيف حال ابنتك وردة الآن؟" أجابت السيدة انشراح والدموع تكاد

تلمع بعينيها النصف مغمضتين بعد أن طبع عليهما الحزن بصمته الواضحة: "وماذا ستفعل يا فردوس وليس بيدها حيلة، بنيتي الصغيرة إنها في حالة يرثى لها بعد أن تزوج عليها زوجها الغادر واحدة أخرى من ذوات الجسد المشدود وعمليات التجميل والعينين الملونتين". فعادت السيدة فردوس تتساءل في دهشة استكمال لحديث الثرثرة اللانهائي وعلى وجهها علامات الإمتعاض: ـ " ترى، تلك المرأة كيف تعرف عليها، وأين؟ " أجابت انشراح مرة أخرى، تراقص شفتاها يمينًا ويسارًا وتشير بيدها في الهواء: "من الشركة الكويتية التي يعمل بها، يقال أن جنسيتها، لا أعلم ولكنها تحمل نفس جنسية الراقصة صافينار، تلك اللعوب التي ألهبت الجنون والشغف بعقول الرجال والشباب، يا إلهي، أن هذا حقًا ما كان ينقصنا". وبسرعة تدخلت مريم الطالبة بالفرقة الثالثة بكلية الآداب في الحوار لتعطي انطباع بأنها الفتاة المثقفة: "تقصدين أرمانية خالتي، صافيناز أرمانية"، فتكمل انشراح بعد أن تنظر إليها نظرة استهجان وتعجب: "أرمانية كانت أو حتى ابنة إبليس بذاته، لا يهم، في النهاية هي دناوة رجال يلهثون وراء شهواتهم وأعينهم الزائغة نحو الأخريات، حقًا صدق من قال أعين رجال لا يملؤها سوى حفنة من تراب". استمر الحديث بين السيدتين فردوس وانشراح على هذا المنوال، أما على اليسار فكانت السيدة سعاد الجارة في العمارة المجاورة أم لثلاث فتيات وولدين تجلس في صمت وتستند بوجنتها على راحتها مطرقة الرأس، لعلها تنتظر دورها في المأساة الكبرى، قد تكون تلك الشيخوخة المبكرة والخطوط العريضة التي تجلت في جبهتها وعلى جانبي فمها الدقيق، هزالة جسدها النحيل، والجلد المتهدل من يديها المنكمشتين ما هي إلا نتاج لكثرة تحمل المسؤولية والشقاء بعد إصابة زوجها عم صابر ومرضه الذي جعله طريح الفراش ليل نهار، أما بناتها الثلاث، فالأولى تزوجت بعد أن حصلت على دبلوم تجارة، والثانية الفتاة المدللة، لا تترك المرآة من يدها وحقيبتها المتخمة دومًا بمستحضرات التجميل بألوانها الصارخة متبعة نظرية كيف تصطادين عريسًا من زوار شارعهم المصون.

أما الثالثة فهي العضو الشارد عن باقي أفراد الأسرة، فتاة طموحة مجتهدة

بنظرة عينيها، تلك النظرة اللامعة لفتاة ليست عادية تعلو أحلامها سقف حياتها وواقعها، لا تتطلع إلى الخطبة والزواج ورجل وأولاد مثل قريناتها ولكن طموحها العلمي كان دومًا يتجلى من وراء منظارها الساكن فوق أنفها، لباسها غير المهندم ومشيتها الصارمة كشويش دورية في خمسينيات القرن الماضي يبحث عن هارب في جنح الليل.

وفي طرف الغرفة كانت توجد السيدة فيفي وما أدراك ما الست فيفي صاحبة الضحكة اللولبية والوجه اللامع وحكايات ثرثرة لا حصر لها، والأهم من ذلك كله تلك العلكة التي لا تفارق لعابها في أي وقت منذ أن تستيقظ حتى تخلد إلى النوم، فإن استحدث منصب شيخة للحارة، فحتمًا ودون تردد ستكون الست فيفي هي أولى من تتولى هذا المنصب في الشارع، صاحبة الألف حكاية عن كل سكان المنطقة، لا تترك شاردًا أو واردًا إلا وتعرف حكايته ومن أين أتى وفيما أتى ولماذا هو ذاهب، هي مثال للتفاهة الاجتماعية والفضول الإنساني، كل ذلك متمثل في الكائن الحي المسمى بالست فيفي الجالسة دومًا أمام باب منزلها لتتعقب وتتلصص على أخبار جيرانها. وهل لها من عمل آخر بعد أن فر زوجها هاربًا بصدور حكم ضده بالسجن المؤبد بسبب انضمامه لجماعة الإخوان؟ فكيف ذلك وهو لا يعرف عن الدين شيئًا!، وابنها الذي يتاجر في المزاج علنًا دون خوف أو خجل، توليفة عجيبة، مشهد ينطوي على الازدواجية الفكرية لمئات العقول والأسر، ولكن فيما العجب وأنت في مصر؟! مالت فيفي على منى، العروس الجديدة الساكنة بالدور الثالث في نفس البناء، وهي تغمز بطرف عينها الكاحلة ثاغرة فمها الكبير، تلوك علكتها وتديرها داخل شدقيها في مهارة دون توقف قائلة: "حسنًا عزيزتي، أليست هناك أخبار جديدة؟"، نظرت إليها منى مستغربةً لفضولها الفاضح وتدخلها السافر في شؤونها الخاصة، وبداخل عينيها شرر متطاير: "أي جديد؟ ماذا تقصدين؟" هتفت فيفي بنظرة ملؤها الخبث بينما تدور بعينيها الجريئتين حول جسدها وتلوح بيدها غير عابئة بالزمان أو المكان: "أقصد، ألم تحمل أحشاءك بعد يا عزيزتي؟ مولود جديد يناديك بأمي، يلهو بالمنزل ويملأ عليكم الأرجاء ضجيج وصراخ، فهل يكون البيت

بيتًا من دون أطفال كثر؟» ثم تابعت تهز رأسها يمينًا ويسارًا كدمية تستمتع بتردد صدى حكمها المأثورة عبر أذنيها: «ولا أريد أن أسمعكِ ترددين تلك المقولة الباهتة التي يرددنها بنات جيلك الخائبات، أنا لا أريد الإنجاب في الوقت الحالي ولا أفكر في الأمر جديًا؛ فما زلت عروس أريد أن أستمتع بحياتي، أقوال تافهة، فالعمر عزيزتي يمر كالبرق، والمرأة منا تذبل عافيتها وتذهب صحتها مع الأيام، فلتسأليني أنا!»

لم تجاريها منى في حوارها السخيف، بل اكتفت بأن رمقتها بطرف عينيها باشمئزاز نظرة ملؤها الحسرة والنقمة على أيام بائسة دفعتها للتواجد بنفس المكان مع أمثال تلك الكائنات الفضائية. من بعيد كانت تجلس هناك في مكانها تراقب الموقف، تنظر إلى منى وتتساءل في قرارة نفسها، تُرى، هل هي سعيدة في زواجها هذا؟ لقد مر عام ونصف على الزواج وهي ما زالت كما هي جميلة هادئة ورشيقة لم يتغير فيها شيء مثلما لم يتغير في زوجها الأستاذ فتحي مدرس الرياضيات، فتحي؟ وهل يعقل أن تتزوج فراشة مثلها من ذاك المخلوق السمج صاحب الأنف الأفطس والرأس الصلعاء وكرشه الممتد أمامه، لو لم يكن لرجل لكان لامرأة أوشكت على الوضع، فراشة رقيقة تُجود بجمالها وعمرها على رجل في أواخر العقد الثالث دميم الملامح سليط اللسان، يقضي نهاره في استقبال أعداد الوافدين من التلاميذ لتلقي دروسهم الخصوصية، ويحشو جيوبه ليلًا بأموالهم المعطرة بعرق أوليائهم المغمسة بدموع الشقاء والفقر.

سؤال دومًا كان يتبادر إلى ذهنها من حين لآخر حينما ترى منى أو غيرها من الفتيات اللاتي تزوجن بغير حب، زواج تقليدي من دون رغبة معلومة وهدف مجهول، هل يعقل أن يصل بنا الحال نحن النساء أن نتزوج لمجرد الزواج؟ هل تجبرنا الظروف وتسارع الأحداث مع مرور سنوات العمر كالبرق بالإقدام على تلك المخاطرة، حتى الخوف من تلك الكلمة التي أصبحت كالشبح يطارد كل فتاة على مشارف سن الثلاثين؟

«عانس» إنها وحش كاسر حقًا، خيل إليها لبرهة مشهد مرعب، نساء عازبات كثيرات ينطلقن في الشوارع والميادين، يصرخن من شدة الرعب والهلع، ينظرن خلفهن

بعيون متسعة وأنفاس متقطعة، تتساقطن واحدة تلو الأخرى غير مكترثات بنظرات الآخرين الذين وقفوا في سخرية واستمتاع مكتوفي الأيدي يطلقون ضحكاتهم السافرة وأنفاسهم الملوثة، ومن خلفهن ذلك المارد المرعب يطلق صرخاته الموجعة في أذانهن، هذا المارد ليس سوى كلمة "عـــــــــانس".
أين ذهب الزواج عن حب، هل انقرض؟ هل باتت قصص الزواج الناجحة شيئًا من الماضي البعيد لا تُرى إلا في كلاسيكيات أفلام السينما البائدة؟
لا تعرف كل الحاضرات ومع ذلك هي تنتقل بعينيها بينهن واحدة تلو الأخرى، كل واحدة منهن لها حكاية يمكن أن تملأ صفحات عشرات الأدباء وتلهم آلاف الشعراء، ولكن في داخل كل منهن كتاب مغلق، فقط وحدها تعرف عدد صفحاته، هي من تكتب بدايته وهي أيضًا من تعرف كيف تسطر نهايته، كتاب يحوي أسرارها الكامنة داخل روحها المكبوتة، رغباتها الصارخة، وجراح مشاعرها من قسوة الماضي وبشاعة الحاضر. بما أن المكان كله نساء، عالم صغير مستقطع من عالم أكبر، فماذا لو كان العالم يحوي نساء فقط بدون رجال؟ عالم بلا رجال؟! ولكن كيف ستكون الحياة؟
نساء يحكمن العالم بدون رجل واحد، فهل يعقل؟ حتى وإن وجد الرجل فهل يمكن أن تطغى قوة المرأة على وجوده وتقلص سلطاته وكيانه في المجتمع لتنفيه خارج عالمها الأنثوي؟ ضحكت في قرارة نفسها وهي تفكر في تلك الفكرة العجيبة؟ سيصبح العالم كله بشتى بلدانه وأقطاره صورة كبيرة لقبيلة (الموسو)؟ تلك القبيلة الصينية التي قرأت عنها يومًا بإحدى المقالات، يمتد وجودها لأكثر من ألفي عام، تهادى إلى ناظريها مشهد تلك القبيلة البسيطة وهي ترى أفرادها يسكنون بيوتهم الريفية المطلة على ضفاف بحيرة (لوغو) الصينية، قبيلة أمومية، نساؤها يحكمن مجتمعهن بدون أي سلطة للرجل بعد أن همشن دوره وأصبحن يؤمن بقوتهن الساكنة خلف أجساد ناعمة وقلوب رقيقة، فوضعن قوانينهن الخاصة وجعلن المرأة هي صاحبة السلطة الأولى والكلمة العليا، تتولى السلطات وتُمنح فرص العمل وتصبح مسؤولية العائلة من مهامها الخاصة، ينسب الأطفال إليها ولها كل الحقوق في الميراث والمناصب والعمل ووضع القوانين وإصدار الأوامر،

في حين يقتصر دور الرجل على ملازمة البيت لمساعدة ذويه من كبار السن وبعض الأعمال البسيطة، والمهمة الكبرى المتمثلة في المساعدة على امتداد نسل القبيلة لأجيال وأجيال، دون أن يكون له حق المساواة في الميراث أو أي حقوق تتمتع بها المرأة الحاكمة في تلك القبيلة الغريبة الأطوار. إنها فكرة غريبة حقًا، ولكنها ليست مستحيلة، أليست المرأة هي من تحمل وتلد وتربي؟ أليست هي من تحب وتحنو وتعلم وتطعم؟ أليست هي من تبث الآمال والأحلام في نفوس صغارها، تبني أجساد ومعها تنمي عقول وتغرس أخلاق، هي من تبكي لآلامهم وتفرح لفرحهم وتأوي بحنان وشوق! ولكن بالمقابل، هل يستطيع ذلك الكائن المسمى (امرأة) أن يعيش بدون ذلك الكائن المسمى (رجل)؟ رجل يمتلك جميع المفاتيح التي توصله لكل الغرف المغلقة بداخلها ودهاليز خباياها الأنثوية، يعلم كل الطرق الوعرة في روحها المشبوبة، رجل يعرف كيف يشعل نار الحب والحرمان المتأججة تحت ذلك الجسد المنحوت، يعرف مكامن ضعفها، يلهب مشاعرها الخامدة بكلمة، وبكلمة أخرى يطفئ نار الشوق في أرجائها، هو فقط يعرف كيف هي المرأة ومن تكون، حينما يروي ظمأ أذنيها بكلماته المعسولة، يرسم البسمة على شفتيها المتعطشتين للحب، ويطفئ أجيج عينيها التائهتين في بحر الاحتياج العاطفي. أما وإذا اختفى الرجل، من غيره سيوجد ليجرح قلوب معذبات أشقاهن الهوى والوجد؟ من سيتركهن خلفه ذبيحات بعد أن أذاقهن خمر الحب وعسله؟! إذا اختفى حقًا، من سيعبث بقلوب ويعطش قلوب؟ من سيضرب ويهين ويسب؟ من سيجرح ويخون ويبخل؟ من سيقفز من سفينة الحياة ويهرب ليترك أم وحيدة تصارع الأمواج محاولة أن تنجو بصغارها إلى شاطئ النجاة؟ من سيأتي ويمتص رحيق شبابها ثم يتركها ويذهب باحثًا عن زهرة أخرى وأخرى ليطفئ بهن نار غريزته المحمومة وشوقه اللا متناهي؟! حاولت أن تطرد تلك الأفكار الغريبة من رأسها، كثورين يتناطحان على حلبة المصارعة، إنه حقًا صراع لا ينتهي، ولو انتهى حتمًا ستكون نهاية مؤلمة، هكذا تكون الحياة بين الرجل والمرأة صراع لا نهائي، ورواية لن ندرك نهايتها يومًا!

*****

----

(٣)

كانت لا تزال قابعة في مكانها، تراقب باب المنزل الخشبي، وتلاحظ الجميع وهن ينصرفن في سلاسة وتتابع، مودعين السيدتين بوابل من الكلمات المواسية والضربات المطبطبة على الأيدي والأكتاف والعناقات الحارة، وحتمًا لم يخلو المشهد الدرامي المعتاد من الشهقات والدمعات الزائفة وعبارات متأثرة لموت الفقيد، إلى أن انفض الجمع أخيرًا وانتهى الأمر بها وحيدة تغوص في غمار أريكة صغيرة في نهاية الصالة الكبرى، وعلى الجانب الآخر كانت العجوز البائسة، إنها لا تزال مرتمية بجسدها المنهك ووضعيتها التي ينفطر لها القلب منذ الصباح تتلقى واجب العزاء، لم تتحرك من مكانها إلا للوضوء وأداء الصلوات المفروضة إلى أن خارت قواها بفعل الجهد الذي بذلته في الأيام الماضية. عاد الصمت يملأ الفراغ من حولهما مجددًا لينعكس بفعل قوته الطاغية على المرأتين، حتى الضوء الخافت المنبعث من ركن الصالة البعيد زاد الأجواء اختناق وتسلط بأشعته الباهتة على جسديهما فزاد من شحوب وجهيهما كجثتين لمرأتين تنتظران وقت الخلاص، وكل واحدة منهما تجول بنظرها في الفضاء البعيد وتسرحان في المستقبل المبهم، ولكن ليس هناك من بد إلا الانتظار والصبر، ولا أمل في النجاة سوى أن تعتادا على الوحدة والهدوء، ليصبح ذلك الصمت القاتل واحدًا من ساكني هذا المنزل في الأيام القادمة، حاولت أن تلملم نفسها وتستعيد قوتها، ترفع رأسها، ثم تفتح عينيها في خمول وتكاسل وتلقي بنظرة خاطفة على الأخرى، لتجدها قد أغلقت جفنيها في سكون ومن ثم أدركت أنها غاصت في نومها من شدة النصب، شعور بالشفقة والحزن تسلل إلى نفسها إزاء رفيقتها في سكنها ووحدتها، والآلام الجسدية التي لحقت بها في الآونة الأخيرة، وكل ذلك مع قلبها الذي لم يعد يحتمل مرارة الحزن والفراق، مدت يدها تمسح وجهها وعينيها المزدحمتين بالعبرات، هبت واقفة وهي تضغط بكلتا

يديها على مقبضي الأريكة تحاول أن تتماسك حتى لا تسقط من شدة النصب، اتجهت بخطوات مترنحة إلى رفيقتها تنظر إليها، ثم تمد راحة يدها وربتت على كفيها بحنان وتهزها باليد الأخرى تحاول أن توقظها بسلام هامسة بكلمات هادئة في أذنيها: "حبيبتي، هيا لترتاحي بحجرتك". انفرجت عيناها في بطء شديد وقد غلفت مقلتاها بحمرة قانية كقطرات الدم، والنعاس يداعب جفنيها المتورمتين من شدة البكاء والنحيب، حاولت النهوض قابضة بيدها على معصم رفيقتها واليد الأخرى تتكئ بها على الأريكة تجاهد عضلات جسدها الهزيلة في الاستمرار، حتى أطلقت تنهيدة قوية محملة بالألم الذي أصاب جسدها المريض من شدة الجلوس لساعات طوال. مرت دقائق وكانت راقدة في فراشها تغط في سبات عميق بعد أن ساعدتها في تبديل ثيابها وارتداء عباءة من الصوف الثقيل لتمنحها الراحة والدفء، ناولتها الدواء ثم أسدلت عليها لحافًا يقيها من برودة الليل القارصة، طبعت على جبينها قبلة ناعمة متمنية لها ليلة هادئة ونومًا هانئًا. خرجت من الغرفة بعد أن مدت يدها على مقبس الكهرباء لتتركها في ظلام دامس، أغلقت الباب خلفها في هدوء، تودع المكان بنظرات شاكرة وتحمد البارئ في قرارة نفسها بعد أن اطمأنت على الأخرى التي سافرت إلى دنيا بعيدة تاركة أفكارها المحملة بألم الفراق لشريك عمرها الوحيد في مثل تلك السن، هي نامت ولكنها لم تدرك أن الأفكار لم تترك صغيرتها وحيدة لتصبح من اليوم صديقتها المؤنسة وخليلة أوقات فراغها، وذكرياتها التي تحوم حولها في كل وقت لتعود إليها بأيام تتمنى لو أنها لم تعاش، وأناس ترجو من الخالق أن يمحو كل ذكرى بائسة خطوها داخل قلبها المحطم. دلفت إلى غرفتها في تباطؤ متخلية عن نشاطها المعهود لكأنها تحاكي الفراغ الذي يداعب سكنات المكان والظلام الدامس الذي أسدل ستاره على المنزل، نظرت إلى الساعة الموضوعة بجانب مخدعها فوجدت الوقت قد تجاوز منتصف الليل بنصف ساعة، سارعت إلى تبديل ملابسها وارتداء ملابس النوم المريحة ثم انطلقت إلى فراشها تحاول النوم والاسترخاء، قرابة الساعة قد مرت وهي تتلوى في فراشها يمينًا ويسارًا دون أن تجد وسيلة للخلود إلى نوم غاب عنها وتركها فريسة التفكير والذكريات، أيام

بعيدة ذهبت عنها ولكنها تركت في نفسها الأكثر، وبموت الأب أصبح الواقع أقسى من ذي قبل. فتحت عينيها في هدوء، ثم أطلقت نظرات إلى سقف الغرفة البعيد، لن تتمكن من استرداد النوم الآن، فعادت بنظرة متفحصة إلى الساعة مرة أخرى لتجدها قد تجاوزت الواحدة صباحًا، ماذا بإمكانها أن تفعل في مثل تلك الساعة المتأخرة؟ هل تذهب لتفتح التلفاز أم تتصفح الإنترنت والفيس بوك أم تقرأ كتابًا جديدًا؟ ولكن ليس لديها رغبة في فعل أي شيء يضيع الوقت هباءً أو ينم عن التسلية! وبدون تردد هبت واقفة بعد أن واتتها فكرة بعثت في نفسها الانشراح والراحة، لعلها فرصة رائعة أن تتوضأ وتصلي ركعتين قيام الليل مثلما اعتادت أن تفعل حينما تشعر بالضيق الذي يجتاح صدرها ويرسمه كغمام ليل يطبق على قلبها ظلمة، بعد برهة واحدة مدت يدها وكشفت عنها الغطاء، لملمت شعرها المتناثر على كتفيها الدافئين وعكصته أسفل عنقها، فتحت باب الغرفة ثم توجهت على الفور إلى المرحاض ووقفت في ثوانٍ أمام الحوض بعد أن شمرت ساعديها وشرعت في الوضوء لتشعر براحة خبيئة تتسلل إلى أوصالها، كيف لتلك القطرات الباهتة المعالم أن تنسل إلى مسام الجلد وتسرح داخل شقوق الروح الخربة فترمم في صمت وهوادة ما أتلفته الخطايا والأثام وما طمسه الحزن والشقاء بالغمامة والسواد؟ حدثتها نفسها كأنما تبحث عن منفذ تسكب فيه ألامها الحبيسة بينما تنظر لصورتها المنعكسة في انكسار على المرآة أمامها، لقد انتهت، تتفحص ملامح وجهها الذي زانه الحزن شحوبًا وذبولًا، مرت بكفيها على عينيها الحزينتين لتهرول قطرات من ماء اختلطت بدمعة فرت من مآقيها واستقرت على فمها البارد، سحبت نفسًا عميقًا في هدوء ثم عادت أدراجها بخطواتها المترنحة إلى حجرتها والتقطت جلبابًا فضفاضًا خصصته للصلاة وغطاء كبير للرأس لتقف بعد لحظات متجهة للقبلة وقد استقر في قلبها الإحساس المعهود بالطمأنينة والسكينة في كل مرة تلجأ فيها إلى خالقها بالصلاة. إنها الركعة الأخيرة، كانت لا تزال رافعة يديها إلى السماء وقد أسدلت رأسها بين كفيها وانغمست في دعاء طويل لا تعرف له نهاية، تتمتم شفتاها المرتعشتان ببعض أدعية تعلمتها على يد والدتها التقية، تلك الأم التي اعتادت على رؤيتها

تقنط عبر ساعات السحر تتوسل للخالق أن يرعى أولادها ويحفظ زوجها من كل شر ويبعد عن محبيها كل ضيق وهم، لقد مرت الساعة وهي تصلي وتدعو ولا تمل من الدعاء أو البكاء، فرغت من الصلاة واتجهت إلى الفراش ثم ارتمت بجسدها في إهمال، لمحت صورة والدها تمر أمام عينيها وكثير من ذكريات الأمس، حتى صورة العجوز حضرت إلى ذهنها في تلك اللحظة مع بعض أحاديثه معها، ثم تذكرت كلماته. "لماذا لا أخذ بنصيحته؟" تساءلت في قرارة نفسها بعد أن استعادت حواراته الودودة وابتسامته الهادئة، "بدءًا من الغد، سوف أفعل"، خاطبت نفسها للمرة الثانية ولكن في تلك المرة كان بصوتٍ مسموع ردده عقلها وابتسامة رضا باهتة علت شفتيها المتشققتين. لحظات تلتها لحظات وهي تفكر، إلى أن شعرت بالإرهاق يتسلل إلى أطرافها الباردة وعينيها الناعستين، فيخدر كل شبر من جسدها المنهك، وفي النهاية استسلمت للنوم بعد أن أطفأت نار قلبها الموجوع بركعات بين يدي خالقها.

*****

(٤)

أدار مقبض الباب النحاسي بيده، فتح الباب بهدوء وحذر صاحبه هبوب بعض ذرات من تراب اختلطت بنسمات الهواء الهائمة في السكون فأزكمت أنفه المستقيم بأجوائها المختنقة، مد يده يتلمس مقبس أزرار الكهرباء الملتصقة على الحائط بجوار باب غرفة المكتب، فانقشع الظلام عن أنسجة ضوء تلألأت بين ثنايا عينيه الراقدتين كلؤلؤتين سوداوتين تسبحان وسط بحيرة من الذكريات، إنها الشيء الوحيد الذي يجزم بوجوده في هذا المكان الذي لم تطأه قدماه منذ سنوات، فالأثاث بعضًا منه قد استبدله صاحبه بغيره، المكتب لم يعد مثل ما كان بل صار موديلًا حديثًا، والآرائك المترامية في أرجاء الغرفة لم تتغير عما كانت في الماضي ولكن تبدلت أماكنها إلى حد ما، حتى موضع المسجل الذي كان يستخدمه ويعبث بأزراره المتهالكة كلما واتته الفرصة لم يعد في مكانه المعتاد، ولكن هناك شيء ما في الغرفة كان يعشقه في الماضي ويشعر بالحنين إليه، وبعد أن أمعن التفكير تذكر، إنها الأريكة الممددة. انطلق نحو النافذة الكبيرة المطلة على الشارع الرئيسيِ، أدار مقبضها بقوة وفتح شطريها الزجاجيين إلى الداخل ثم دفع بدفتيها الخشبيتين إلى الخارج تاركًا نسمات الهواء العليل المنبعثة من الفضاء أن تنسل بانسيابية إلى الغرفة فتبدد أجواء المكان الخانقة وتبعث بها حياة جديدة، ظل واقفًا للحظات يتنفس نسيم الهواء المنعش، ثم استدار بجسده إلى الغرفة يتأمل كل شبر فيها بعيون متسعة وأنفاس لاهثة مشتاقة تبحث بين رفاتها عن أمس ليس بقريب.

يا له من مكان عتيق يحمل الكثير من الذكريات الغابرة في موضع تركه منذ أكثر من خمس سنوات وسافر بعيدًا، هربًا من شيء ما، خاطب نفسه متأثرًا بينما ترك عينيه تدوران في الأرجاء، وفي طرفة عين حاول أن يطرد بعض الأفكار وينفضها كذباب عن عقله، فهناك جوانب من حياته لا يريد تذكرها.

الحنين إلى الماضي يعود إليه حتى ذلك المكتب الذي غمرته الأتربة، الكتب المتناثرة في كل ركن وعلى كل رف وكل موضع، ومسجل كبير كان يعتبره قطعة أثرية يعتز بها والده، وهنالك المقتنيات التذكارية التي اصطفت على الحوائط والمكتبة الصغيرة المتدثرة بكومة من الغبار، حتى صورته الباسمة التي اشتاق إليها كدرجة اشتياقه لحضن أبيه الدافئ، جعل يتحسس كل الأشياء بيديه تاركًا الغبار يداعب أنفاسه المتعطشة للماضي كأنما يتلمس بها موضع في قلبه، وتذكر كلمات والده الحانية: "ربما ستعود يومًا ولن تجدني، تذكر أن الأحباب لا يعودون مثل أشياء جميلة نفقدها ولا تعود!"، صورته التي وضعت على المكتب تذكره بماضٍ ولى واندثر تحت التراب، أيام شبابه وزهرة عمره التي قضاها في اللهو والمرح، لم يعرف معنى للمسؤولية أو التدين، صورة وضعها والده على المكتب ليملي عينيه من ابنه الغائب والذى سافر وأخذ معه أشواق والديه وقلبيهما المنفطر على بعاده. لم يعد هناك وقت للتفكير في أمور مضت، أو كلمات صارت في عداد الأموات مثل أصحابها، لا شيء سيعود ولا الماضي سوف يمحا، ولكنه لا ينكر أن السفر والبعد قد أكسباه الكثير من الحكمة والإيمان بالمعنى الحقيقي للحياة، أشياء ما كان ليكتسبها لولا التجربة والمغامرة، وبينما كان يدور بعينيه بين الأشياء المتناثرة على المكتب، لفت نظره وجود مجموعة من الأوراق المصطفة داخل غلاف ورقي، ربما هو ملف لإحدى الأشخاص الذين اعتادوا التردد على المكان في حياة والده، ولكن الكلمات التي سطرت داخل الأوراق لا توحي بذلك. لفت نظره عنوانها الكبير خط في وسط الغلاف: "رسائل بلا عنوان"، مع كلمة كتبت بخط صغير أعلى الورقة الأولى،"خواطر؟"

"شيء غريب، ما هذا؟ هل هو من كتبها أم لشخص آخر؟ وإن كانت لشخص آخر فما الذي أتى بها إلى هنا؟" كان يحادث نفسه وهو يتفحص غلاف الأوراق ثم يفتحه بشغف وعينيه ملئوهما التساؤل، بينما يتأهب استعدادًا لقراءة أولى صفحاته.

*****

،الرسالة الأولى،

ربما جَمِيعُنا عَالِقون
في عَالم النّسيان.

"إلى محمد،
كالصندوق الأسود، كنت بالنسبة لي منذ اللحظة الأولى، منغلق أنت على نفسك صندوق أسرار لبقايا حطام طائرة في قاع محيط غائر، فقط معك أنت السر، ستظل دومًا أنت السر نفسه الذي لن تتمكن أي امرأة أن تفك شفراته، وأسطورة بشرية عندما تتلخص في عقل رجل. لم أفهمك يومًا ولن أفهمك، كانت تلك هي كلماتي لك دومًا، وكنت تردد في تمرد رجل لا يهاب القدر أو يعرف المستحيل: "لا يهم فالألغاز هي سر الحياة تلمع لها الأعين وتشعل العقول فكرًا، أوليست الحياة هي لغزنا الكبير؟!"، إلى الآن يا عزيزي لا أدرك المغزى الإلهي لظهورك في حياتي، تلك الحكمة التي جهلتها وأشقاني التفكير والتفكير، رجل غامض يقتحم عالمي، يلهب بأرجائي مشاعري الأُنثوية، يشعرني أني امرأته الوحيدة، يجعلني أميرته المتوجة على عرش مملكته القوية، مملكة رجل لا يعرف معنى المستحيل، ثم يعود ليختفي كحبات رمل في عاصفة صحراء، يخوض معركة قلبي المتشوق للحنان، ينتصر عليه، ثم يحمل بقايا غنائمه ويتركني وحيدة، ممزقة الفؤاد، مشتتة الذهن. هكذا أنت أغرب الرجال على وجه الأرض، لم تنهرني يومًا، لم توبخني يومًا، ولكنك تركت جراحًا لا تداويها الأيام، فيا ليتك لم تأت!

*****

(ا)

الجو هادئ وجميل على كورنيش النيل، الشمس توشك على المغيب وتغطس في وسط مياهه الزرقاء كعروس بحر تتغنج في دلال لتُري محبوبها أجمل ما لديها من حسن، وألوانها السبعة ترسم أشعتها في كبد السماء فكأنما فتحت للرائي بابًا للدخول إلى جنة الجمال، المنظر بديع يوحي بالرومانسية وهي تسير مع الأخرى وعلى وجهها تجلت علامات الغبطة والسرور، فارتسمت على ملامحها ابتسامة عذبة لتزيد من إشراق وجهها الصبوح إنه شعور بالتفاؤل في غد قريب، نعم كل شيء بات في المستطاع، كل أحلام الماضي قد أشرفت على التحقق وصارت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح واقعًا، لن تعود أوقات التفكر ولا القلق لتحتل لحظات شبابها الضائعة ولن يغدو لها من إمرة في تنغيص نسمات سعادة وبركة ستلوح عما قريب في سماء مستقبلها، نعم لم يعد لها مكان ولن يعود، تدفقت بجسدها هرمونات السعادة فأنعشت جميع حواسها وعلا دبيب قلبها فرحًا ليعلن عن بدء احتفاله بحلم العمر، ولكن، ما لهذا الشعور الغامض بالانقباض والخوف يحتل مكانة في صدرها ولا تدرك له سببًا؟ على الرغم من كل ذلك الانشراح والحماس، ثمة شعور مبهم يجثم على أنفاسها ويهاجم لحظات سعادة تمتلك كل خلية من جسدها الرشيق، ومع ذلك فهي سعيدة متفائلة، وهل ستترك لرياح محملة بخيبة وشك وأرق لا تعرف لها من مستقر أو سبيل أن تأتي لتعكر صفو ماء سعادتها، وتشتت شمل مشاعرها المتدفقة من سيل هناء وانشراح وتفاؤل كم حاربت لسنوات لتكون من مالكيها وأصحابها؟ وكيف ذلك وهي لم تعرف اليأس يومًا ولم تستسلم رغم ما مرت به من ظروف، وإيمانها القوي الذي اكتسبته كان كترياق يقيها من سموم الأيام . كانت تتبختر وهي مبتهجة، يتمايل جسدها مع دقات قلبها المترنحة على أنغام السعادة وتكاد قدماها لا تلامسان الأرض من فرط السرور، ولم لا وسماء

أحلامها باتت قريبة من أن تلامس أناملها الصغيرة، ولا بد أن تمنحها الحياة أملًا جديدًا يمكنها من القدرة على الاستمرار، إنها مصرة على السعادة، ستحكم قبضتها عليها حين تواتيها فرصة الإمساك بها، وتقسم على القدر أن يدعها في سلام تتلذذ بمذاق مستقبلها الهانئ. وضعت ذراعها وشبكته بذراع صديقتها منى التي أصابتها عدوى الانشراح فعلت وجنتيها ابتسامة واسعة، كانتا تسيران على الكورنيش وهما تتحدثان عن التجهيزات المطلوبة في الأيام المقبلة، قالت ندى والانفعال يطغى على صوتها الناعم وعيناها ترقصان فرحًا وقد زانتهما المسرة اتساعًا وإشراقًا: "أنا مش مصدقة نفسي، خلاص يا منى، أخيرًا حلمي هيتحقق، الحمد لله يا رب بحمدك وبشكر فضلك على كل شيء في حياتي وعلى نعمك عليا". فبادرتها منى بعد أن تنهدت لتطلق هواءً ساخنًا اختلط بانشراح في صوتها: "الحمد لله يا ندى، خلاص يا حبيبتي أيام الحزن والزعل ولت خلاص يا قمر ومن غير رجعة والأيام الجاية كلها فرح وسعادة وحب، آه يا قلبي عقبالي يا رب". وضعت يدها على قلبها في دلال كأنما تحاكي مشهد رومانسي، ضحكت ندى وأطلقت نظراتها اللامعة إلى السماء بينما تخبئ وجهها بين راحتيها خجلًا من تعبير الأخرى. ليت الوقت يمتد حتى تستأنف نزهتها الطيبة، تباطأت خطواتها مع فكر بالسعادة سكن خلدها فجعل من مقلتيها مستقر وموطن، ترفع أنفاسها لتستنشق عبير الهواء وتعتق ناظريها إلى العنان تتوق لو تمتد أناملها فتغترف من نعيم فتح بابه أمامها للتو، لكن حالة من التعب ثبطت من عزيمتهما فدفعتهما لاستوقاف سيارة أجرة لتقلهما إلى البيت . كانت ترقب الطريق عبر نافذة السيارة الزجاجية على جانبها الأيسر في المقعد الخلفي، كل الأشياء تتراقص في عينيها فتحدث لوحة بهيجة من ألوان الفرح والسرور، أشعة الشمس وقت الغسق بينما تغيب في هدوء يداعب نسمات الهواء العليلة، ومرأى النيل الخلاب مع جمال الأشجار المصطفة على جانبيه الصامدين، حتى زرقة السماء الصافية؛ كلها أمور تبث بداخلها شعور بنشوة الفرح وكأنما هي فراشة تتراقص على أنغام عبير الجو الجميل وتتنقل من زهرة لأخرى لتستخلص أزكى ما لديها من رشفات الهناء. الآن فقط أصبح لكل شيء

طعم آخر، كانت شاردة في أفكارها حينما رن هاتفها برسالة ليخرجها من عالمها الفردوسي، دست يدها وأخرجت الهاتف من حقيبتها الملقاة بجانبها ونظرت إلى الشاشة ثم اتسعت عيناها في دهشة تبعتها حالة من ذهول، انتقل الشعور بالقلق إلى منى، فالتقطت بسرعة نظرة صديقتها الساهمة والتي اعترتها منذ أن أمسكت الهاتف فسألتها مستفهمة بينما تنظر في عينيها الشاخصتين: "مالك يا ندى؟ فيه حاجة؟"، نظرت إليها ندى في شرود ولم تبادرها بإجابة، علها تاهت الكلمات في دنياها أثناء رحلتها الشاقة للوصول إلى فمها الملعثم أو ماتت باردة على شفتيها اللتين باتتا قطعتين من جليد ولن تعود للحياة، همست بصوت هادر يرتعش كأنما يأبى الخروج عقب لحظات من شرود، تهز رأسها في تردد وتبذل جهدًا مضنيًا في أن تبدو طبيعية: "لا، لا أبدًا مفيش"، ثم عادت بنظراتها الساهمة إلى الرسالة، لا ريب أنها أتت في الوقت المحدد لتنغص عليها بعض من لحظاتها القادمة، لقد ألفت ذلك، لم تكن سوى رسالة من رقم هاتف اعتادت على رؤيته، رسالة تحوي صورة رومانسية لشاب يحمل فتاة من خصرها ويرفعها في الهواء، بينما تعقد ذراعيها في تغنج حول عنقه المشرئب لاثمًا فمها الوليد بقبلة حارة، ومن أسفلها خطت كلمة واحدة: "غلاسة بقا،!"، حاجباها معقودان في دهشة ومقلتاها متسعتان تطلان بنار الشرر على الرسالة الغامضة، تسك أسنانها على شفتيها حتى كادت تدميها دون أن تشعر، نظرة الحيرة تتراقص في عينيها التائهتين ولا تدرك كيف السبيل؟ ما مغزى تلك الرسالة من رجل غريب الأطوار مثله؟ لماذا يعود الآن؟ لماذا اعتاد أن يعود إليها في أكثر الأوقات حرجًا في حياتها؟ لكأنه منجم أو عالم فلك يبرم حساباته المعقدة فيعرف مسار حياتها وبدقة، أو ساحر لسحر أسود يطلق خدامه من العالم الآخر يراقبونها في الخفاء ليهبط عليها وقتما يشاء راكبًا منطاده السحري، يملي عليها رسائله الآسرة وخطبه الفلسفية ثم يتركها في حيرة من أمرها بعد أن يسعر نار بصحفها البالية، يدعها ذبيحة تقاوم سكرات موتها الثقيلة وتلفظ أنفاسها الأخيرة حينما تعود إليها ذكرياتها المريرة، أمنيات بترت جذورها بأرض صباها قبل أن تنبت، إنه وفي كل مرة يعود بها إلى الوراء سبع سنوات مضت! هل هي لعبة جديدة وحيلة

ساقطة من حيله المعتادة؟ لماذا يداوم على مخاطبتها برسائل رومانسية من وقت لآخر؟ يلهب خاطرها بذكرى أيام طويت في صحيفة ماضٍ مؤلم، يطاردها بصور حب وهيام ويرسل رسائل المحب القلق لمعشوقته البعيدة؟ ماذا يريد وما المغزى من وراء تفكيره الخبيث؟ أغلقت جفنيها المثقلين بحمل أفكارها البائسة، تنهدت بعمق، زافرة عناء لحظات متخمة بمزيج كريه من ذكريات متوحشة نهشت بقسوة قلبها المرتق، تسارعت أنفاسها ورفرفت أهدابها في بأس تعلن عن مقاومتها كسلاح أخير للدفاع عن لحظات من الاستقرار، ولتنفض عنها تلك الأفكار النكدة، ستجتازها وبمهارة كما اعتادت وتخطو عليها بخطوات قدميها نحو المستقبل كما تصعق العربة الطريق بعجلاتها، أغلقت الهاتف وألقت به داخل حقيبتها بإهمال ثم عادت بنظرها إلى النافذة مجددًا، لن تستسلم لرسائله ولن تعود للتفكير أو التحسر فما عاد من وقت لكل ذلك، مصيرها قد تحدد وقريبًا ستستهل حياة جديدة لطالما رادوتها عبر أحلام اليقظة لسنوات وسنوات!

*****

(٢)

"محمد، لماذا عدت الآن؟ ولماذا اعتدت الظهور في أوقات غريبة بحياتي؟"
أحاديث مع النفس وخواطر عابرة طرأت على ذهنها لفترة ليست بالهينة لتزيد من أوقات القلق والتشوش، قد تستطيع أن تتناسى قصتها معه ربما، ولكن هل تتمكن من أن تمحو ذكريات كلماته وأحاديثه الرقيقة وعذوبة صوته حينما يطربها بهمساته الدافئة؟ يخبرها أنها أقرب الناس إليه بعد والدته المتوفاة، الأم التي كانت أقرب وأحب إنسانة في الوجود إلى قلبه وليست لأخرى مكانة في حياته ولن توجد من تضاهيها أو تملأ الفراغ الذي تركته داخل قلبه الحزين، قلب طفل يبكي كل ليلة على فراق أحضان أمه الغالية في جسد شاب يافع يضخ بالرجولة والشباب والحيوية.
قصة تعارف غير مألوفة بين اثنين والأغرب هي تلك العلاقة الغامضة والمتشابكة التي جمعت بينهما ولم يعرفا ماهيتها حتى الآن. سبع سنوات مضت على تعارفها به ولم تعرف كيف تحلل رموز عقله العبقري وشخصيته المعقدة، رجل عادي عندما تراه للوهلة الأولى أو تلمح طيفه، هادئ ربما لدرجة السذاجة التي يوحيها هدوئه وتكاسله في إبداء الكلمات والملاحظات، ولكن داخل عقله يحمل الكثير والكثير من أسرار الحياة. وكعادتها لم تتردد في أن تحمل هاتفها وتمحو رسالته، لا تحب أن تترك أي أثر لبصماته المشوبة فوق صحيفتها، تزيح كل أثر لخطواته الغامضة في مسار مشوارها نحو الحياة، نحو العيش والاستقرار وبناء كيان لحياة من الاستقرار والنعيم، حياة ستجود عليها برشفات من نبع سعادتها لطالما ضنت عليها بشربة رقراقة تروي ظمأ سنوات عجاف.
كل تلك اللحظات المتاخمة بالأفكار تراودها في عراك فترديها قتيلة فوق ساحة المنطق والعدالة، بينما تقبع شاردة على طرف الفراش بحجرتها واضعة رأسها بين كفيها المتكئتين على النافذة الزجاجية تتأمل الموقف وتشرد بفكرها نحو الماضي.

وبصورة عفوية هبت بسرعة ووقفت أمام المرآة، تتأمل بنظرات فاحصة نفسها الواقفة أمامها، تمد يدها لتخلع حجابها بهدوء، تفك أزرار عباءتها بدلال وأنوثة عفوية وتلقي بها بقوة صوب ركن الغرفة المعتم، إنه شعور صرخ بداخلها وانتفض بقوة يريد التحرر من محبسه، إنه التمرد الذي تولد ضد أي كائن يطعن بأنوثتها المكتملة وجمالها الدفين تحت كل تلك الأغطية من الثياب، بيد أنها تحب أن تدثر نفسها بملابس واسعة وحجاب متهدل ينير وجهها الصغير بشاشة وبراءة، فهي مقتنعة بمبادئ دينها عن الحجاب، عن كيان المرأة الذي يجب أن يصان من غدر عيون الرجال الحادة وشهواتهم نحو النظر إلى كل جسدٍ عارٍ، دائمًا ما كانت تطلق شعار أني لؤلؤة مكنونة لا يجب أن يحظى بي إلا من يستحقني، ولا يرى مني شيء إلا من حافظ عليّ وحارب ليكون بجواري، الصدفة هي ديني وأخلاقي وأنا بداخلها كالجنين أنتظر ولادة جديدة وخروج للحياة. لم يكن هناك تعارض بداخلها على الإطلاق بين حجابها وأنوثتها، ولم يقف الحجاب عائقًا دون تقدمها في الحياة أو استئثارها على نظرات الإعجاب بجمالها الطبيعي من أولئك الرجال الذين صادفتهم عبر السير بدروب حياتها المعوجة. ولم يمنع حتى محمد وهو بعيد عنها أن يكتشف روحها الجميلة التي تفوق جمال عينيه الكاحلتين بسواد ليل شرقي دافئ، وقدها الفاتن الذي يضخ أنوثة حتى وهي تتأزر بتلك الملابس المحتشمة. ولكنها الأقدار والعقول، مجتمعات ترزخ بالمظاهر، تبحث عن كل مكشوف تحوم حوله كسراب نحل يخرج كل صباح ليمتص الرحيق من كل زهرة متفتحة ويسحب أجمل ما فيها، ثم يتركها بابتسامة باردة تصنع نفسها من جديد حتى تزهر وتتفتح مرة أخرى . ولكنها لن تدع نفسها لتكون ضحية لكل من أراد أن يذوق طعم الحلوى وعسلها، ستخبئ كل جمال بداخلها للشخص الذي سيحارب من أجلها، سيشهر سيفه في وجه كل معتدٍ وباغٍ على محراب أنوثتها الطاهرة. بلمسات لطيفة متأنية لامست بشرة وجهها الخمري تستكشف البصمات التي تركها الزمان على ملامحها، تداعب شفتيها الورديتين بأطراف أناملها، ثم تعود بكفيها إلى الوراء تطلق خصلات شعرها الحريري للهواء ليباري بسمرته أجفان ليل المساء،

ويحاكي ظلام أمسيات العشاق في قصائد شعراء البيداء، ثم تهبط بنظراتها في تغنج عذب وتسرح بيديها على قدها المنحوت بمهارة إبداع الخالق حين يهب الأنثى كل عذوبة ورقة تلتف لها الأعناق، كالمارين ببستان معبأ بالورود البرية ينثر عبير ورداته في الهواء الطلق.

إنها تستحق الحياة، تستحق العيش والسعادة مع من يكرمها ويهبها لذة الاطمئنان والسكينة، لن تعود لتجتر آلامها مرة أخرى، ولن تمنح لمثله العبث بقدرها بعدما حطمها لسنوات طوال وأذاقها مرارة اليأس والألم، ستعيش وتتزوج وتنجب أطفال وتحب زوجها وتعيش ملكة في مملكتها هي فقط، حتى وإن كانت مملكة وهمية من أحلام وأشعار وحكايات العاشقين في الأساطير، ستعيش كل لحظة بسعادة وتفانٍ، ستعصر كل هفوة من حياتها لتتلذذ بكل قطرة من قطراتها الهنية وتجلس لترتشف كأس النصر في غبطة وفخر، لن تضيع الوقت فيما مضى وما فات؛ فكله أوهام والآتي هو الأجمل حتمًا. مدت أناملها في خفة تطفئ أنوار الغرفة ليحل الظلام في الأركان، تتمايل في رشاقة باليرينة حافية القدمين على سطح القمر وتردد أنغام موسيقى قلبها الهائم، تلقي بنفسها على الفراش تسرح في المستقبل القريب، وتترك جفنيها تقبضان بحب على عينيها المخدرتين بفعل السعادة، فيطلق صدرها زفرة حارة مفعمة بالتفائل، وتبتسم!

*****

(٣)

إنه المساء، في ذلك اليوم لم ينبلج القمر كعادته في الأفق أو يتجلى ويبسط أشعته الساحرة فوق سطح الأرض فينير المنازل ويضيء الطرقات، ولكنه توارى في الدجى وأمعن في الخفاء حتى غاب بين سكنات فضاء كاتم الظلمة، حتى الغيوم التي تكاثرت من حوله وتكونت من قطرات المطر الكثيفة باتت تنتظر الإذن من الرياح القادمة من الفراغ أن تأذن لها بالسقوط. عله طقس خانق تكالب عليها ليزيد من شقائها الحالي، نعم لم يكن هناك شيء يمكن أن يصف حالتها في تلك الأيام سوى البؤس والدمار، أحلامها الوردية جميعها قد انهارت والتأمل في الغد المشرق بات أشبه ما يكون بضوء شمس ذهبي لن يسطع يومًا فوق سطح القمر. دموع ممطرة وآهات صارخة في كل وقت، لا يوجد شيء يمكن أن ينتشلها من حالة الضياع تلك ولم يستطع كل المطبطبين والمواسين لها أن يطفئوا لهيب نار الحزن بداخلها، نار تلتهمها كل يوم عندما يحل عليها المساء بستاره، مثلما تأكل النيران المتسارعة جذوع الأشجار في الغابات الاستوائية، تتسلل في خلسة مع عتمة الليل في الخفاء وتطلق شرارة صغيرة بإحدى الجذوع فتلامس غيرها في هدوء، وتشعل نارًا عظيمة بدقائق معدودة في غفلة من العالمين، ولا تتركها إلا سعير مؤججة، نارلا يمكن لكائن أن يطفئ لهيب شظاياها المتلاحقة، فلا تخمد حتى تنتهي من مهمتها المهلكة، تبيد كل ما وطأته ألسنتها وتقضي في رعونة على كل مظهر للحياة من حولها. تتسارع دقات قلبها خوفًا كلما تذكرت وحدتها وليل طويل تدرك أنها ستقضيه في التفكير والتحسر على أمانيها التي دمرها هو بيديه، بعدما انتهب منها سنوات عمرها الخمس ومضى بعيدًا دون أن ينظر خلفه لضحيته الحسناء. لم يعد هناك أي وعد للفرح، ولن يكون هناك أمل في سعادة قريبة ولا زفاف أسطوري حتى وإن كان في إحدى الأكواخ الصغيرة على ضفاف بحيرة ريفية، أو جلسة محبة بين أسرتين على أسطح إحدى

المنازل، فأبرز معاني السعادة كانت بالنسبة لي هي اكتمال ملحمة العشق التي عاشتها لسنوات، والعيش بسلام مع أمانٍ روتها بسنوات عمرها الماضية، ولكن هيهات أن ينساق القدر خلف إرادتها الساذجة أو يبارك عقدها الأبدي مع السعادة ليمنحها بطاقة أمنة للولوج إلى عالم الهناء. في ذلك المساء كان الطقس شديد البرودة وصوت الرعد يُصفر بقوة في أرجاء السماء كأنما ينذر عن غضب الطبيعة التي تتأسف على حالتها وما آلت إليه من شقاء. كانت تجلس مع الآخرين لتناول طعام العشاء وهما يتحدثان ويتبادلان الكلام والنكات قاصدين بذلك أن يخرجاها من حالتها البائسة ولكن دون جدوى، فهي كما هي، وستظل على حالتها فترة من الزمان، لن يستطيع مخلوق أن يخرجها من بوتقتها المغلقة ومقبرة قلبها المحطم أو يجعلها تتنفس هواءً جديدًا، وحده الزمان هو القادر على أن يداوي جُرحها الوليد ويطمس بلياليه على كل شق مفتوح بقلبها المفتق. تناولت لقيمات من الطعام ثم فرت كعادتها إلى الغرفة، تتحاشى أن تتلاقى عيناها بعيون رفيقيها اللذين سيطلعان على الفور بقدر الألم الساكن داخلهما فيزداد حزنهما على الصغيرة، جلست بغرفتها كالعادة منعزلة عن العالم الخارجي كأنما توقف الزمان بعدد دقات ساعاته ودقائقه عند ذلك اليوم المشؤوم، وصار العالم برمته بقعة من ضوء خافت وقاتم يغلف بطغيانه غرفتها المنعزلة عن كل مظاهر الحياة. إنها لا تريد أن تحدث أحدًا ولا تسمع صوت أحد، راحتها كانت في الخلوة مع نفسها والسكون برفقة دموعها الهاطلة على خديها دون ردعة مع ذكرياتها البعيدة وتلك الحالة من شقاء نفسي لا تقوى على الفرار منها، رغم محاولات كل من حولها في إخراجها من تلك الحالة المريرة وجهود البعض في التخفيف عنها وأحضان الأم ودموعها المتساقطة في ساعات الليل المتأخرة بينما تسجد في تضرع وتدعو الله أن يخفف عن فلذة كبدها آلامها ويبدلها خير مما هي فيه، حتى صديقاتها وزملائها المقربين بعدما رأوا ما أصابها من حالة مزرية وذبول شديد في ملامح وجهها وفقدان كبير في الوزن، فتلك الحالة واضحة لمريض بالاكتئاب عانى من ضغوط نفسية شديدة فأحنت كاهله وناء بها صدره . كان المطر ينهمر، ومعه تتساقط دموعها كحبات اللؤلؤ المتتابعة، جلست

على فراشها وأسندت ظهرها للخلف مطلقة ساقيها المتجمدتان أمامها بعد أن تلحفت بلحاف ثقيل من الصوف؛ خشية أن تنال منها رصاصات هواء مثلجة تنفذ من خصاص النافذة على الجانبين؛ فتزيد نوبة التجمد بأوصالها وتقتل ما تبقى بها من دبيب حياة، وفي الخارج تنهال الأمطار بقوة تأبى التوقف، أحضرت جهاز اللاب توب ووضعته على ساقيها، فتحته على صفحة الفيس بوك الخاصة بها، إنها تريد أن تصرخ، تريد أن تشتكي وتنوح ليعلم الجميع بوجعها الدفين، تريد أن تبعث له برسالة، تشق الجموع وتخترق الحواجز والبلدان لتغدو أمام عينيه القاتلتين وتنعق بين ذراعيه معاتبة: "لماذا فعلت كل ذلك بي؟ لماذا تركتني وحيدة وضعيفة بعد أن منحتك كل تلك الذكريات الجميلة، بعد أن وهبتك أجمل شيء أملكه؛ هو قلبي؟!"، ولكن كيف لها بمرسالته وقد انتهى كل شيء ولن تتمكن بعد الآن من البوح بمكنون صدرها المقهور؟ حقًا بكل تلك السهولة قد فني الأمر برمته، ولم تعد سوى لحظات من ذكريات تحز كسكين بليد بخلجات قلبها الكليم! خريطة من لحظات وضحكات ودموع نقشها فوق جسدها العاشق فأرداها قتيلة غريقة في بحر الماضي. لم يعد سوى كلمات تطرق أذنيها ليل نهار كلما تذكرت أخر كلماته لها وهو الذي لم يرحمها يومًا، لم يرفق بها حينما اقتحم عالمها بكل جرأة وسلاسة ليبث الطمأنينة بروحها الوحيدة ويخبرها بوصول بطل منتظر طالما حلمت به لسنوات، ولم يشفق عليها في أخر أيامه معها بكلماته القاسية وجفاء قلبه المتصحر من كل معنى للحب والرحمة . لم تجد سوى أن تكتب مقولة في الشريط المخصص للحالة، كلمات علها تعبر عن ثورة القهر بداخلها، كلمات عله يراها يومًا ليعرف ما يعتريها من حزن وألم؛ ويعود ليحتضن راحتيها بين كفيه الحانيتين، ويقبلهما بشفتيه الناعمتين، فيبث الدفء بأوصالها التي اغتيلت عنوة في شتاء قارص وتجمدت بفعل الهجر والحرمان، يجثو على ركبتيه ويعترف لها أمام العالم أنه يهواها، يتمناها، يريدها ولن يتخلى عنها، أوهام وأحلام ليست إلا، فهو لن يرى كلماتها يومًا ولن يعود بعد الآن. وعقب لحظات من تدبر لم تجد سوى أن تكتب: "ليت قلوبنا كالأوراق نمزقها وننثر أجزائها مع الرياح في كل اتجاه، لنطفئ بها لهيب الحزن والألم

والقهر والحب!"، لم تكن مقولة، ولكنها سمة نقشت بقطرات دمائها النافرة فوق سطح قلبها المعذب لتعبر عن أقسى إحساس يجتاحها، عن حالتها الرثة لقلب لو استطاعت أن تنتزعه من بين أضلعها وتمزقه لألف قطعة وقطعة ثم تضرم به نار تختلج كل خلية منها وتلقي رماده مع مقدرات الرياح مثلما تفعل بعض القبائل البدائية، نعم لم يعد سوى الرماد لبقايا حياتها الماضية والرفات لقلبها الشقي. مرت لحظات حتى انهالت عليها كلمات الإعجاب والتعليقات من أصدقائها على الفيس، دعوات بالسعادة والحب، ولكنها مجرد كلمات! حقًا حروف باهتة الملامح قاحلة الشعور تكون كلمات، وهل كان للكلمات تأثير في إخماد نار مشتعلة تأكل أصحابها كل يوم وكل ساعة وكل رمشة عين؟! تجمعت الغيوم في قلب السماء وتكاثفت مع الرياح تعلن عن سقوطها الاضطراري حتى انسابت زخات المطر في رقة وانسيابية ثم تسارعت بعد لحظات تضرب قطراتها بقوة وبطش. ظل المطر ينهمر وهي تفكر، لا زالت على حالتها من التأمل، تطل بنظراتها من نافذة حجرتها العالية لترى حبات المطر تضرب الزجاج تم تختفي بهدوء لتلاحقها أخرى. المطر إنه خير كثير، وللحظة حدثت نفسها، لماذا لا تخرج كعادتها إلى الشرفة لتترك وجهها للمطر يداعبه برقة قطراته وتلامس يداها رذاذه البارد؟ لطالما كانت تسمع أن الشتاء كله خير، مطره الذي يروي أراضي الفلاحين ويبعث الرغد الوفير، وهوائه حينما يتخلل البيوت فينعش الأنفس ويبث الحياة، حتى الساعات التي يغمر فيها الأرض بمياه أمطاره الغزيرة هي ساعة استجابة دعاء. لماذا لا تخرج وتشتكي همها لخالقها؟ تتضرع إليه أن يزيح الهموم بصدرها الذي أثقلته كحجر عتي لا تزحزحه الرياح؟ مدت يدها ترفع الغطاء عنها وتزحف بقدميها المثقلتين حتى تدنيهما من طرف الفراش وتسقطهما في النهاية فوق الأرض الباردة، توجهت صوب الباب الخشبي المطل على الشرفة وأحكمت أناملها الدافئة فوق مقبضه المعدني ثم دفعته بهدوء إلى الخارج لتلاقي بوجهها عواصف بئيسة محملة بقطرات مطر كانت في انتظار لحظة الولوج، تدنو بخطواتها نحو أرض الشرفة الباردة وتلامس أصابعها المرتعشة سورها الغارق تحت الأمطار، علها فرت للتو من الجحيم إلى الفردوس،

عسى برودة تلك الرياح أن تخمد نار الشوق في أرجائها وتطهر قطرات المطر درن هواه من قلبها المستغيث. ظلت الأمطار تسيل ودموعها تسيل، لا تستطيع أن تفرق بينهما، لقد سنحت لها الطبيعة أخيرًا بفرصة جديدة، ستغرق وجنتيها بعبراتها الخفية ولن يتمكن أحد من رؤيتها وهي تدمع في صمت كما تدمع السماء فوق سطح الأرض مثلما قال تشارلي شابلن: "أحب المشي تحت المطر؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يرى بكائي!". وبصورة درامية رفعت وجهها إلى السماء وتلاقت مع صدور برق خفيف وصوت الرعد يهز أرجاء الكون، مدت يدها تدعو بالرحمة كأنما تدعوها الطبيعة أن تلجأ لبارئها بدعوة علها تكون ساعة إجابة: "يا رب، يا خالق الكون بعظمتك وقدرتك، يا أرحم الراحمين على عبادك الضعفاء، ماليش غيرك يا إلهي يسمع شكواي وألمي، أدعوك يا رب أن تخفف عني حزني وتعوضني عن كل ما قاسيته في حياتي، اللهم يا فارج الهم ويا كاشف الغم فرج همي ويسر أمري واشرح صدري وارحم ضعفي وقلة حيلتي، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني". انغمست في نوبة بكائها المعتادة وأجهشت في النحيب حتى طوقاها ذراعان من الخلف، لقد أتت والدتها في الوقت المناسب كعادتها تربت على رأسها وتهمس بصوتها الحاني: "حبيبتي، توكلي على الله، وثقي في الله فهو القادر على كل شيء".

*****

(٤)

لو كان القدر هو الفراق لكل للمحبين فلم اللقاء؟ لماذا يكون الفرار والابتعاد عن كل مشاعر نخاف منها إلى أن تنثر عبر دروب حياتنا الوعرة كحبة ثمرة طازجة تروي ظمأ نفوس تتوق للارتواء، نمد أيادينا المرتعشة ونلتقطها بعيون مغمضة، نلتهمها بحب وشغف ثم نستفيق بغتة على مرارة في الحلق بعد أن تذوب حلاوتها بأفواهنا وبعد أن نعتاد على التهام لذتها بين شفاهنا المتعطشة للسعادة؟! أسئلة مبهمة لن نعرف لها إجابة، ولكنه القدر، القدر وحده هو الذي يسطر في كتب البشر كل مقدور ويرسمه في صحافهم مع كل يوم تشرق فيها الأعين على شمس نهار وليد، نتنفس معه خبرات جديدة ممزوجة بابتسامة أمل في غد قريب وتألم من أهوال أمسنا البائس. هل ستظل على تلك الحالة الرثة من الاستسلام للألم الذي يعتصرها؟ ولكنها لا تستطيع أن تتماسك، فماذا عساها أن تفعل؟ ليس سوى التفكير والتفكير والتفكير والألم، لم تعد تقوى على ممارسة حياتها الطبيعية مع أسرتها أو صديقاتها، حتى العمل لم يعد بمقدورها أن تداوم فيه كما اعتادت أن تؤديه على أكمل وجه يرضي رئيسها وزملائها، ومن ثم قامت بتقديم إجازة طويلة تحت مسمى فترة نقاهة لتشفى من بقايا آثار الماضي ولتحاول لململة أشلاء قلبها المحطم وروحها المنهارة، وكي تتمكن من استعادة نفسها وتعود قوية كسابق عهدها، فلا أحد له الحق في أن يلمح آثار ذاك الحزن المغطي لوجها البريء،عيناها اللامعتان بالألم في كل لحظة يهم أحدهم بالحديث معها، ودموع حارة ترقد على أبواب جفنيها الذابلين بتأهب كأنما توشك على السقوط في أي وقت، لا أحد سوى وسادتها لها الحق في أن ترى تلك الصرخات المكتومة في عتمة الليل وأحضان والدتها الحنون، وأخيرًا فرشها المخصص للصلاة، كم من مرات أمطرتها بعبارتها الدافئة وأقسمت عليها أن تصغي لدعواتها الصارخة.

بدأ يوم جديد ولكن لم تشرق فيه الشمس كما اعتادت أن تراها، حتى وإن افترشت الكون كله بخيوط أشعتها الذهبية فأضحت عروس ترتدي أجمل فساتينها المرصعة بالألماس وخيوط الحرير، وحدهم السعداء فقط من يلمسون تلك السعادة ويبصرون هذا الجمال أما الأشقياء فلا يرون إلا ظلام يعشش في جنبات حياتهم المعتمة.

استيقظت وهي تلملم نفسها الخائرة وتفتح عينيها في تكاسل لتستقبل أشعة الشمس التي تسللت عبر النافذة الزجاجية بجانب الفراش، كانت ترنو إلى أصوات العصافير المغردة وهي تتسابق في التحليق حول أسطح المنازل والشرفات، وتتأمل النور الذي تخلل الثقوب الصغيرة المنتشرة على جانبي النافذة وافترش أرض الحجرة بنقاط من نور، فتجلت أمامها كعيون آدمية نفذت من الخارج لتتلصص عليها وتخترق عزلتها الحصينة، ومعها أنفاسها الأنيسة تراقبها في صمت . رغم كل تلك المغريات التي دومًا ما اجتذبها في الماضي لتستيقظ وتبدأ يوم جديد، ولكنها في تلك اللحظة لم ترد القيام أو ترغب في الحراك قيد أنملة، إلى أن رن هاتفها دون توقع يخبرها بوصول رسالة جديدة، ذلك الهاتف الذي باتت تكره أن تسمع نغماته عند إصدار رنين برسالة أو اتصال، لقد صار شبحًا من الماضي يطاردها بأصواته المفزعة ليقرع أجراس الذكريات النائمة داخل سرداب عقلها المنهك ويوقظ جروح تجاهد كل يوم في جعلها تلتئم. إنه الشاهد على كل ما عانته في الأيام الأخيرة فلا بد أن تستبدله بغيره كما ستفعل بحياتها القادمة.

مدت يدها في خمول وأمسكت به، فتحته ونظرت إلى الرسالة، حدجتها للحظات لا تصدق عينيها، إنها من محمد! يــا له من قدر عجيب، القدر الذي وضعه في طريقها منذ سبع سنوات هو ذاته القدر الذي يعود به إليها في ذلك الوقت وفي حالتها هذه. لقد مر قرابة الشهر بعد أن أرسل لها الرسالة الأخيرة، فقد اعتادت على غرار تلك الرسائل من شخص غريب وغامض مثله خلال السنوات الماضية، كانت تتمنى أن تفهمه ولو لحظة واحدة، ساحر هو عندما كان يحادثها، يهبط عليها من السماء بعباءته السوداء المفتوحة والمعقودة أعلى صدره، وصوته الحنون الخافت يدخل إلى مسامعها ليهدئ ثورة الحياة بداخلها، يشعرها إنه

يحملها على بساطه السحري ليحلقا معًا في فضاء بعيد عن كل الناس يترقبان الهمسات والآهات وعيون العالمين الباحثة عن كل معنى للبقاء، معنى السكينة كان في صوته وكلماته التي تحب أن تسمعها من رجل مثقف وواثق من ذاته، مطلع على أمور الدنيا وخبراتها، ولكن كل تلك الخبرات قد اختزلها في عينه وصمته. لا يتحدث إلا عما يشغله ويعنيه، ولا يخاطب إلا من يهتم لأمرهم فقط، لو نظرت إليه لوجدته شخص عادي أو اعتقدت لبرهة أنه أصم وأبكم ولربما أعمى من كثرة هدوءه المصاحب لكل حركاته وأفعاله، شهر مر على أخر رسالة منه ولكنه كان بطول العمر، فشهر واحد كفيل أن يقلب حياتها رأسًا على عقب، وكل الأمور قد تبدلت وتغيرت ولم تعد مثلما كانت من ذي قبل. فتحت الرسالة وفي نفسها فضول وعيناها تتأهبان، تأبى القراءة: "طمنيني عليكِ؟ أنتِ بخير؟"، كيف ستكون بخير وهي امرأة لا تقوى على أن تطلق سراح عينيها لترى ضوء النهار؟ كيف تكون بخير وهي لا تملك القدرة على أن تفتح فمها لتعبر عما بها من قهر، علاقة زائفة كانت تعتقدها هي أبدية الارتباط والحب الطاهر. أحست لبرهة أنها تريد أن تكتب له: "لست بخير، لم أعد بخير بعد الآن، فقط كومة من العظام والعيون الجاحظة وقلب توقف عن الخفقان وبقايا جثة لامرأة فنيت حياتها قبل أن تبدأ". لم تجب رسالته وظلت تنظر إليها إلى أن بادرها برسالة أخرى.

"مالك؟"، إنه يسأل عما بها، هي تتساءل ولا تعرف هل الضحك هو الأنسب في تلك الحالة العجيبة أم الصراخ والبكاء والعويل! ألم يشقيها هو أيضًا قبل سبع سنوات بعد أن أوهمها بصدق حبه البريء؟ سيحارب من أجلها الدنيا، سيحطم كل جدار عازل ويخترق المصاعب ويثب فوق المسافات؟ ولكن ماذا حدث؟ إنه حي يرزق يعيش ويلهو ويرتع في الحياة، فرس جامح لفظ لجامه من بين يدي مروضه ليكون أكثر حرية. برهة واحدة كفيلة بإرجاعها إلى الماضي، ذكريات طاردتها وصور من الأمس، شعور معاناتها طوال الأشهر القليلة التي أذاقها مرارتها، كانت ترى صورتها تلاحقها، صورة فتاة في مقتبل العمر فقيرة التجارب وهزيلة الشعور، لا تقوى على مواجهة الأيام وقسوتها، عادت من الجامعة

لتصطدم ببشاعة الحياة وجبروتها على عائشيها لترى خلف كل قناع وجه آخر يخبئ الأسوأ والأردأ من أوجه آدمية قبيحة. "لا مفيش"، أجابته برسالة عبر برنامج الرسائل القصيرة. "بخير؟ أمال ايه الصورة الكئيبة دي؟"، شعرت بشيء من العداء نحوه فسألت بلهجة حانقة: "بتسأل ليه وعاوز منى ايه؟"، "بطمن يا ندى، بجد قلقان عليكى"، أجابها في حين لا زالت تشعر بالضيق: "قلقان عليا؟! يا سلام على قلبك الحنين، بجد مش مصدقة إنك أنت اللي بتقولي كدا؟"، فأجابها باستهجان عبر رسالة أخرى: "وليه ما اقولش كدا؟ غريبة يعنى، انتي ماتعرفيش انتي بالنسبة لي إيه؟! أنا قلت لك قبل كدا حتى لو ماكناش لبعض أو القدر فرق ما بينا، بس علاقتي بيكي أقوى من علاقتي بأي حد قابلته في حياتي، انتي الإنسانة الوحيدة اللي بخاف عليها وبرتاح معاها". لم يزدها حديثه إلا حنقًا وكرهًا، فقد اعتادت على تلك الكلمات. "لو كنت فعلًا كدا بالنسبة لك كنت ماتتخلاش عني، بس أنت عملت ايه؟"، صمت قليلًا ولم يبعث برسالة أخرى، في حين تصاعدت نار الغضب بالأخيرة التي صمدت تنتظر ردًا منه. لحظات من ترقب ثم كانت رسالته: "مش وقته الكلام ده بس أنا عاوز اطمن عليكي الأول، لو سمحتي احكي لي فيكي ايه حالا"، كانت تكتب الرسائل وكعادتها تنهال الدموع، لم تكن تلك النوبة من البكاء هي نتيجة فرضية لحالتها الحالية، إنه عراك داخلي ما بين الماضي والحاضر ولا غلبة لطرف على الآخر، لا وجود لقوي أو ضعيف أو ظالم أو مظلوم، فكيف تكون العدالة والجميع ظالمون، الكل سواء في الشقاء والألم والكل مخضب الأيدي بدماء روحها المعذبة. إنها تلك العبرات التي تترقرق مع كل ذكرى تذيب عظامها المتأوهة بنار الظلم والعذاب، حتى إنه كان أول من أشقاها وعلمها كيف تصير كسرة القلب وموت الروح، ولكن كيف تصير تلك التوليفة الغريبة من المشاعر المتباينة؟ إنها وبعد مرور تلك السنوات لم تكرهه يومًا ولم تستطع أن تنسى عذوبة قلبه المليء بالطيبة والدفء، على الرغم مما اعتاد أن يلاقيه من ردة فعلها القاسية وطلقات كلماتها القاتلة حد الرصاص، ووصفه بأبشع الصفات لشاب اقتحم حياة فتاة بريئة ثم تركها بعد أن تعلق به قلبها الوليد. هل تعد فكرة صائبة أن تخبره عن السبب الرئيسي

وراء حالتها أم تكتم تلك الصرخات داخل جوفها فلا تبوح بأي شيء؟ يكفيها أن ترشقه بعضًا من كلمات جارحة، تتلذذ بمرأه يتعذب حينما تذيقه قدرًا مما أذاقها قبل سبع سنوات؟ أفكار عبثت بخلدها الدائر لدقائق ولكنها استسلمت في النهاية لإلحاحه، فكيف السبيل أمام طغيانه عليها، فهي لا تستطيع أن تكون كتومة في كثير من الأحيان.

"مفيش يا محمد، مفيش"، أجابته باقتضاب، تتنهد بقوة وتعالت أنفاسها تكاد تشق صدرها المستعر بجمر الألم حتى لكأنه يستمع إلى أنفاسها المتلاحقة عبر رسائلها القصيرة، فبادرها كاتبًا: "طيب خلاص أنا هتصل عليكي وتردى عليا فاهمة ولا لا؟!"، وفي نفورألقت الهاتف بجانبها على الفراش، تسترجع كل تجربة عبرت بداخلها فتركت بصمتها الخالدة، مرت الدقيقة حتى دق هاتفها برقمه، إنه يتذكر رقم هاتفها ولم يغادر ذاكرته رغم مرور كل تلك السنوات، ليس لسهولة أرقامه بل إنه مطبوع بقلبه كما أخبرها منذ زمن، هي أيضًا لا زالت تتذكر رقم هاتفه، وكيف يكون النسيان لأول اتصال من رقم هاتف أول رجل يمر بكيانه الطاغي عبر حياتها القاحلة؟ حياة فتاة كم سارعت لإغلاق كل الأبواب والنوافذ حتى تمنع نفاذ نسمات محملة بمشاعر ليست لزوجها المقدر، ولكن كم من أنفس أبدعت في رسم مستقبلها ليفاجئها القدر برأي آخر!

أمسكت الهاتف وتطلعت إلى رقمه، لحظة من حنين عادت بها لسنوات مضت، تساءلت بحسرة، أين فنيت تلك البراءة؟ متى قبرت أحلامها بفعل سنوات مضت؟ هي لا زالت عفيفة نقية ولكنها الأيام والتجارب لقنتها أن البراءة لا تجوز في عالم لا يعرف معنى للبراءة، فكم من سذاجة دفنت وبراءة اغتيلت تحت مسمى التجارب، فالطهر بداخلنا والسذاجة لا بد أن نقتلها بأيدينا بعد أن نتجاوز مرحلة طفل تخطى عملية الحبو والكلام، ليسير في الدينا ويستقي من شدتها. لا زال الهاتف يدق، ينير شاشته ومعه تنشط ذكرياتها، تتردد ولا تعرف كيف العمل، إلى أن انتهى الاتصال الثاني والثالث ليبادرها باتصال أخير فاستسلمت لترد عليه، أتاها صوته من الطرف الآخر بنبرته المعهودة الناعمة وهدوئه السابق:

ـ "أزيك يا ندى عاملة إيه؟"، كان هناك شيء يحبس صوتها، ربما مشاعر متخبطة تحكم قبضتها حول عنقها المرتعش فلا تتمكن من إطلاقه، وعند خروجه يحمل مزيج من الانفعالات المتقاربة في الألم كصوت مريض يئن من شدة العذاب: "الحمد لله على كل حال".
بادرها متسائلًا: "الحمد لله دايما، بس أنا حاسس إنك مش بخير وتعبانة، أرجوكى احكي لي مالك وماتخبيش عليا أي حاجة".
ـ"اللي هحكيه مش هيفرق كتير عن الذنب اللي أذنبته معايا زمان ولا نسيت؟"، لم يتمكن من الرد عليها، وظلا لحظات صمت قاتلة يسترجع خلالها كل منهما أحداث الماضي البعيد وتعارفهما ببعض، إلى أن قطع الصمت إلحاحه بعد سماع صوت نحيبها المنبعث من الهاتف، عصفورة صغيرة تبكي وحيدة أعلى غصن شجرة باسقة: "صدقيني مش بقدر أحس في لحظة بحزنك ولا بدموعك، أرجوك اهدى وقوليلي فيه ايه يا ندى، بالله عليكي".
بعد سكون منها أحست برغبة جارفة في التحدث، أن تفصح عن كل ما عانته في الفترة الأخيرة وما يعتمل صدرها من هم بعد أن فقدت ما بين ليلة وضحاها كل ما كانت تتوق إليه من أحلامها الوردية، لم تجد نفسها إلا وتعود كسابق عهدها معه، كصديق مخلص يظهر في الوقت المناسب حينما ترده بجوارها ليمسح بصوته الحاني وكلماته الحكيمة على قلبها المتعب، أخبرته بكل ما حدث ولم تكتم عنه شيء وهو ظل ينصت إليها دون أن يتحدث: "أنا مصدومة ومش مصدقة اللي أنا فيه، حاسة إني في كابوس!" قالت متألمة، فأجابها على الفور: "أنا حاسس بيكي، الموقف فعلًا صعب وخصوصًا على واحدة في طيبة قلبك، بس لازم قبل أي حاجة تقولي الحمد لله على كل شيء وأي شيء". أجابت بصوت يرتجف ترتشف دموعها: "والله بقول وبصلي وبدعي إن ربنا يخفف عني اللي بشوفه وبعانيه مع ذكريات بتزورنى كل دقيقة وكل ثانية عشان تحسسني بألمى الكبير"، فقال مواسيًا: "صدقيني أكيد دا اختبار من ربنا ليكي بس دايمًا أعرفي إنه خير، يمكن ربنا مش مقدر لك إنك تخوضي التجربة دي دلوقتي وأكيد الخير ليكي لسه جاي وبكرة تقولي محمد قال". شعرت براحة غريبة تتسلل

إلى أوصالها عبر كلماته المطمئنة، روح من الأمل عادت إليها برياحها الحاملة بالتفاؤل والخير، لا غرابة أن يتمكن من إزاحة نسمات خانقة كانت تجثم على صدرها لأيام، كان حاله دائمًا منذ أن عرفته، قلما عرف اليأس طريقه إلى قلبه رغم ما مر به من أزمات، ولكنه إصرار استوطن داخل نفسه منذ القدم كان المعين له كي يتغلب عليها ويحقق ذاته التي يعيشها الآن ومكانته العلمية والاجتماعية. محادثة تدور والحكايات تعود، جاهد كي يخرجها من حالة كآبة تسيطر عليها، يصدر بعضًا من نكاته القديمة وأحاديث يعرف حق المعرفة كيف يستنفر بها روحها الطيبة إلى

أن انتهت المكالمة. أغلقت الهاتف وعيناها لا تزالان متعلقتين بشاشتها الباهتة ورقمه المبهم، لقد عادت بها الذاكرة نحو سبع سنوات مضت، أنفاسها ترتفع تتوق للسكينة ونظراتها مثبتة فوق تلك الآلة الصغيرة قطعة حديد صماء، نقطة الاتصال الوحيدة بشخص تمنت قربها منه لآخر العمر، ما كانت تريد أحدًا سواه، ولكن الأقدار وحدها تقرر من يبقى ومن يذهب.

*****

(٥)

قبل سبع سنوات، ـ "ماما، أنا رايحة الكورس دلوقتي وبعدين هفوت على عُلا صاحبتي، هتعوزي مني حاجة؟"، كانت تخاطب والدتها، تحمل حقيبة في يدها واليد الأخرى تبحث عن حذاء تنتعله وتذهب لتهندم ملابسها في المرآة للمرة الأخيرة. لم تعتد أن تقف كثيرًا أمامها، فهي تعرف أن الجمال الحقيقي ينبعث من الداخل كما أن وجهها البريء لا يحتاج الكثير من الاهتمام ولم تلجأ يوما لتلوينه بألوان مستحضرات التجميل التي تستخدمها مثيلاتها. إنها ما زالت صغيرة، فتاة في الثانية والعشرون، لماذا تحتاج أن تخفي تجاعيد أو خطوط لم يرسمها الزمان على وجهها بعد، أو تظهر للغير جمال ليس له من وجود لتبهر عقول شباب لا يشغلهم إلا حمرة شفاه تضعنها الفتيات ليبدين أكثر إثارة، حتى قبل ذلك بسنوات عدة، كانت في نفسها تعي حدودها جيدًا. انطلقت من المنزل وفي نفسها نشاط مثير وطاقة متجددة لفتاة في مقتبل العمر، أنهت دراستها الجامعية في القاهرة وعادت إلى محافظتها بقلب جديد وشخصية قوية اكتسبتها خلال فترة الدراسة، فقاهرة المعز ليست فقط قاهرة العداة والبغاة والمعتدين، إنها قاهرة البشر وصانعة الرجال، الشخصيات والقلوب المليئة بالتحدي والصمود في أوجه العقبات والعثرات، ذهبت بشخصية الفتاة الساذجة النازحة من إحدى المحافظات وعادت بشخصية امرأة قوية تحمل أمانيها بتحقيق النفس وإثبات الذات، وفي اعتقادها أنها اكتسبت الكثير، ولكن لم تكن تدرك أن ما عاشته هو فيلم درامي قصير من أفلام دنياها الواسعة لا يتعدى الدقائق في حين أن ما ستلاقيه بعد ذلك سيشعرها بجهلها الأكبر وسذاجتها المطلقة. ثلاثة أيام في الأسبوع هو موعدها مع دورة الحاسب الآلي واللغة الإنجليزية في إحدى المراكز التعليمية، هكذا كانت خطتها بعد إنهاء الدراسة، أحلام كثيرة وطموحات متعددة بنجاح في العمل وفي الحياة، شهادة جامعية

من أرقى جامعات القاهرة وأعرقها، ودروس في الحاسب الآلى وتقوية اللغة هي نقطتها للبحث عن عمل جديد، بعدها يأتي التفكير في الدراسات العليا. تبتسم في قرارة نفسها كلما فكرت في النجاح الذي ينتظرها، حياة مزدهرة وبساط ممددة من الأمنيات التي ستحقق حتمًا، ولكن هل الحياة كذلك حقًا؟ أم أنها تلك السذاجة التي تُبنى بأحلام ما لها من سبيل أو واقع؟ أماني ما كانت ملك يمينها يومًا، وأحلام لن تصير يومًا من حقها، سذاجة المراهقة واندفاع الشباب، لا يوجد وصف آخر لما كان يسيطر عليها من أفكار وتنبؤات بغد زائف، إنها رشفات دواء مغشوش يمنح لمريض أشرف على الموت علها تمنحه الأمل في حياة لن يحياها غدًا، أو يتنفس ذرات هوائها ذات يوم.

مرت النصف ساعة بعد خروجها من المركز، تقف أمام منزل صديقتها عُلا وتنظر إلى شرفة غرفتها في الطابق الثالث والمطلة على الشارع الرئيسي في أحد الأحياء البسيطة تلتقط نظراتها ضوء الغرفة الساطع وتتأكد من وجودها، أحست بنشوة سعادة لمجرد شعورها أنها في الانتظار. صعدت الدرج في رشاقة وقد ازدان وجهها بابتسامة سرور، وصلت إلى باب المنزل القديم ووضعت يدها على الجرس، صدر معه صوت زقزقة عصافير ومع انفلات الصوت ضحكت في هدوء مثلما اعتادت في كل مرة سمعت فيها ذلك الصوت، إلى أن فتح الباب بعد لحظات، "مش ممكن، مش مصدقة اللي أنا شيفاه ده، ندى! عاملة ايه يا حبيبتي؟"، كان صوت والدة عُلا بعد أن تفاجأت بزيارتها غير المتوقعة. ـ "طنط زوزو وحشاني اوى اووى"، لم تترد في أن تلقي التحية ثم ترتمي كل منهما في كنف الأخرى، وعقب لحظات من تبادل القبلات الحميمية والعبارات الحارة قالت فرحًا وهي تدرك قدر السعادة البادية على ملامح الأخرى والتي كثيرًا ما سألتها أن تأتي لزيارتهم في أوقات متباعدة. ـ "وحشاني أوى يا طنط والله، أخبار حضرتك ايه؟"، ـ"لا لا، لا سلام ولا كلام دا أنا زعلانة منك خالص يا ندى"، كطفل متهور يخشى عليه من الهرب، كانت تحزم قبضتها فوق يدها وتسحبها إلى حجرة المعيشة، تضحك في قرارة نفسها، أن مبعث فعلها التلقائي هو حب شديد تكنه لصديقة ابنتها منذ أن نشأت علاقتهما القوية، في حين هتفت الأخيرة في

خنوع محاولة تهدئة الموقف وعلى وجهها ابتسامة المحبة: "ليه بس يا طنط، بلاش تزعلي مني أنا ما أقدرش على زعلاك ياحبيبتي"، هتفت السيدة زينب في استياء امتزج بدلالها الطفولي ونظرت إلى ندى: "يعني تفوت كل المدة دي لا تسألي ولا تحاولي تيجي تزورينا، ولا حتى على البت علا اللي مطلعة عينينا دي عشان اشتكي لك من عمايلها مع طنطك زوزو؟!"، كانتا جالستين على آرائك متقاربة بجوار بعضهما البعض وقد أسندت والدة عُلا يدها على ركبة ندى واليد الأخرى احتضنتها بين كفها الأيسر لكأنها وجدت ضالتها التي تبحث عنها وتشعر بصحبتها بالراحة وحسن المعشر، إنها تعوضها عن جنون ابنتها بعد أن توفي زوجها منذ عام. نظرت ندى إلى طنط زوزو في حنان كما اعتادت أن تناديها باسمها المدلل وقد تجلت علامات القلق على وجهها وهمت قائلة: "ليه بس يا حبيبتي؟ هي مزعلاكي في ايه البنت المجنونة دي؟ يعني حد يبقى عنده ماما زي ماما زوزو ويزعلها بردو؟"، أجابت الأم بصوت حزين: "ابقى اسأليها أنتي يا ندي أنا خلاص تعبت منها". ـ"ايوة، حلوة اوى القعدة دي اللي بتقعدوا فيها تقطعوا فروتي زي كل مرة، بس عارفين ناقصكم اتنين ليمون وشجرة مانجة فوقكم وكدا يبقى تمام". وقفت عُلا تطل بجسدها الرشيق الفارع القوام تتكئ بمرفقها على باب حجرتها المطل على الردهة الواسعة، واليد الأخرى تتوسط خصرها المتمايل كأنما أعلنت حربها النسائية على المرأتين ولكن أتت ابتسامتها المشرقة لتكسر هذا التكلف.

ـ "لولو، وحشتني يا مجنونة والله". ألقت ندى بكلماتها في انفعال بالمرح طغى على صوتها الصاخب، حملت نفسها وأسرعت نحو صديقتها تبادلها الأحضان والقبلات، فقابلت عُلا كلماتها في تأثر: ـ "انتي كمان وحشتني يا نونة يا كلبة، كل ده وانتي مختفية فين يا أستاذة؟"، ـ "والله مشغولة بس شوية، الأيام دي باخد شوية كورسات وبدور على شغل"، هتفت عُلا بنبرتها الساخرة بعد أن جلست على أريكة في مقابل صديقتها ووالدتها: "شغل، ههههههه شغل ايه اللي بتدوري عليه؟ هو فيه شباب عارفين يلاقوا شغل عشان حضرتك تلاقي". بينما أجابت ندى في حماس لا يفتر: "أيوة هلاقى إن شاء الله ما انتى عرفاني لما بحط حاجة

في دماغي لازم أنفذها"، لوت الأخرى شفتيها في امتعاض وعادت تقول بصوت ينم عن الضجر: "شغل ايه ده اللي بتشوفيه، بدل ما تقعدي وتعيشي حياتك كدا لحد ما يجيلك الراجل الهمام اللي يستتك ويهنيكى!"، كان الحديث دائرًا بين الاثنتين ووالدة عُلا تستمع دون تدخل مؤثرةً الصمت، ولكن كلمات ابنتها الأخيرة حثتها على المشاركة في الحديث، فرمقت عُلا بنظرة استنكار وخاطبتها بنبرة حادة: ـ" بتفكر كويس وعندها طموح مش زيك يا ست هانم اللي مقضيهالي أكل ونوم لحد العصر كل يوم، حتى مايهونش عليكي تريحيني في حاجة أبدًا"، ثم تحولت بنظرها إلى ندى وقالت بصوت أكثر عذوبة ومحبة: "ربنا يسعدك يا بنتي وينولك اللي في بالك قادر يا كريم، ويرزقك بابن الحلال اللي يفرحك"، ـ"أيوة أيوة، دعوتين حلوين أهم يا ست ندى بس ابقى عدى الجمايل واحسبي بقا، والله يا ست زوزو ما أنا عارفة مين بنتك فينا أنا ولا هي!"، جلسة ممتعة، لا ضير من دعابة تعيد بعض الضحكات المفقودة داخل بيت تناسى ساكنوه منذ أمد معنى السعادة، ربما احتاج ثلاثتهن لتلك اللحظات المغتنمة من الزمان . ابتسمت ندى وهي تستمتع بحوار الأم وابنتها وتشعر بسعادة تغمر قلبها حينما تكون بجوارهما. ـ"أنتم الاتنين بناتي، وربنا العالم بحبكم قد ايه وندى دي بنتي التانية اللي اتمنالها الخير وادعيلها في صلاتي، ربنا يسعدكم يا حبايبي يا رب". ثم سحبت نفسها لتنصرف إلى المطبخ قائلة: ـ "أما يا ندى والله حماتك بتحبك، أنا عاملة كيكة برتقان إنما إيه اللي انتى بتحبيها، يلا يا بنات اقعدوا مع بعض على ما اجبلكم الشاي والكيك"، ندى في محبة: "ربنا يخليكى يا طنط بس أنا مش عاوزة اتعبك"، ـ "تعبك راحة يا حبيبتي، هو انتى يعنى بتجلنا كل يوم، يلا ادخلوا على اوضتكم وانا هجبلكم الحاجة الحلوة هناك"، ـ "ميرسي يا زوزة يا حبيبتي يا مدلعانى أنا وصحباتى"، صاحت عُلا بعد أن طبعت قبلة على وجنتها وحضن يحمل حب وتقدير. اصطحبت صديقتها ودلفتا إلى حجرتها الصغيرة، جالت ندى بنظرها في أرجاء الغرفة تتذكر تفاصيلها، فمنذ مدة طويلة لم تأتي لزيارتها ولم يجلسا معًا بعدما أنهيتا دراستهما، مشاغل الحياة كالعادة والتهاء كل واحدة في أمورها الخاصة، لا زالت الغرفة على حالتها القديمة بملامحها

المتمردة التي تشير لجنون وطيش مالكها، الحائط المطلي باللون الوردي الفاقع وقد توارت معالمه خلف لافتات وصور لمشاهير الفن والمطربين، الفراش الخشبي الصغير وعليه تكدست العرائس والدمى القديمة، وبالنظر نحو الجانب الأيسر للغرفة وضع المكتب الخشبي القاتم وعليه جهاز الحاسوب بشاشته العريضة ولوحة الأزرار الموضوعة أمامه. ـ "هتقعدى تبحلقي في الاوضة كدا كتير يا حَاجّة؟!"، نهرت عُلا صديقتها مازحة في حين تنهدت ندى من أعماقها وهي تتذكر أيام ماضية اختلستها في الإجازات، تأتي لصديقتها تجلسان بالساعات، تتسامران وتفيض كلتاهما بمكنون أسرارها للأخرى، إنها ليست أيام بعيدة ولكن مع كل لحظة تمر تبعد كل منهما عن الماضي لتنجلي أشياء جديدة لم تر من قبل . قالت ندى مازحة وقد اتسعت عيناها: "أيوة ابحلق براحتي، بصراحة الاوضة وحشتني اوى، من زمان ما اتكلمناش مع بعض ولا قعدنا في الاوضة دي وعلى السرير ده". عُلا بصوت يحمل الحنين: ـ "أيوة بقالنا كتير يا ندى ما اتجمعناش، فين أيام الكلية والمدينة والتنطيط والمحاضرات والفسح أخر الأسبوع وحكايات البنات اللي مابتخلصش، بجد كل حاجة وحشتيني زي ما انتى كمان وحشتيني" . التقت عينا ندى بصديقتها تميل برأسها في شوق لذكريات لا تمحى وأيام لا تنسى، أردفت في ثقة تامة اتبعتها بنظرة من طرف عينيها المتأثرتين: "فعلا أحنا بعدنا عن بعض أوى، أوعدك إننا نكون مع بعض على طول ونشوف بعض أكتر"، في تلك اللحظة طرقت الأم على الباب، لتدخل حاملة صينية وضعت عليها أكواب من الشاي الساخن وقطع من الكيك، تناولتها ندى من يدها بهدوء بعد أن شكرتها في محبة ولطف: "تعبك راحة يا حبيبتي، بس انتى تعالى كل يوم وأنا اعملك كل اللي بتحبيه"، همت الأم بالخروج من الغرفة لولا أن توقفت فجأة، التفتت بنظراتها إلى ندى فتجلت بداخلهما لمحات شجن: "ابقى ودينا يا ندى أديكى شايفة احنا قاعدين لوحدنا أزاي بعد ما المرحوم سابنا لوحدنا، الله يرحمه"، تحدثت والفتاتان تستمعان إليها في هدوء إلى أن باغتتها دمعة فرت من محبسها، هبت عُلا ومسحت بيدها الدمعة واحتضنتها بكلتا ذراعيها: "خلاص بقا يا ماما يا حبيبتي، عشان خاطري بطلى تفكري في أي حاجة". مشهدًا

مؤثرًا بمعنى الكلمة، أم وابنتها تعيشان وحيدتان في منزل بلا ونيس ولا رجل يدفع عنهما غدر الأيام وقسوة الظروف، توفي والدها بعد صراع مع المرض وابنة ماتت منذ أربع سنوات بالمرض اللعين والذي كان السبب نفسه في وفاة الأب . لم تتمالك ندى الدموع التي انجرفت من عينيها إثر المنظر المبكي فقامت تحاول التهدئة، احتضنت كلتاهما بقوة وخاطبت الأم بلهجة فكاهية تجيد التمثيل: "وبعدين بقا يا زوزة، هو أنا جايلكم النهاردة عشان نضحك ونفرفش ولا جايبين نقلبها فيلم عربي قديم ونقعد نعيط زي عواجيز الفرح، يلا بقا اضحكوا بلاش غم"، ابتسمت الأم في تصنع تباريها عُلا في حَبك دورهما التمثيلي ولكن دون جدوى. تبتسم ندى في مرارة فتؤثر الصمت، حتمًا تشعر بصديقتها وبالألم القابع بين جدران صدرها الهرم، حمل أنهك قلبها اليافع فلم يعد يشفيه نداءات السعادة ودعوات الألسن بالغبطة والتفاؤل، تبذل جهدًا مضنيًا في أن تخفيه طوال الوقت وراء تمردها وادعائها القوة والصلابة، كفكفت الأم دموعها وأبتَّ الرجوع لطبيعتها الفكاهية: ـ "خلاص بقا يا بنات بلاش نكد الله، صحيح بنات أخر زمان اللي ما تصدق وتقعد تعيط دي"، ثم استطردت تلوح بيديها في الهواء كأنما تنفض لحظات الحزن الأخيرة: "خلاص أنا هسيبكم بقا تكملوا رغى دلوقتى وتقولوا كل الأسرار، بس هستناكى برا يا نونة عشان نتفرج ع المسلسل الأجنبي مع بعض دا هيعجبك خالص"، روح الطفولة قد عاودتها من جديد فحمدًا لله على سلامتها،ضحكت ندى في ارتياح: "حاضر يا طنط من عينيا مش هتأخر عليكى". خرجت الأم وأوصدت الباب خلفها، جلست عُلا في مواجهة ندى على الفراش تتأهب لبدء حديث من الثرثرة والنميمة، مدت يدها وأتت بكوبي الشاي وطبق الحلوى ووضعته أمام ندى: "اتفضلي يا ستي الشاي والكيك"، تناولت بيدها كوب الشاى الساخن تنظر نحو الأخرى وتسأل في تشوق لسماع الأنباء: "اخبارك إيه يا علا، بقالي كتير مش بعرف عنك حاجة؟"، ربما الهروب هو السبيل للنجاة من الإجابة على سؤالها المتوقع، نظرت عُلا في الهواء تشيح بنظرها بعيدًا عن نظرات صديقتها، ثم كانت الإجابة والتي تبعتها تنهيدة وزفرة في الهواء: "زي ما انتى شايفة هعمل ايه يعني، مقضياها أكل ونوم زي ما قالت لك

ماما". سارعت ندى بالتساؤل بعد أن أصابتها حالة من خيبة الأمل إثر إجابتها المحبطة: "ليه يا بنتي سايبة نفسك لليأس والتحطيم ده بعد الكلية والشقاوة والطموح بقيتي بتفكري كدا؟!"، حدجتها عُلا بقوة تعترض على كلماتها المؤنبة ولهجتها المعترضة: "يا سلام يا ست ندى؟ وأنا هعمل ايه أكتر من اللي عملته، كلية واتخرجت كورسات كمبيوتر ولغة وخدت واديني كل فترة بدور على شغل ومش لاقيه حاجة لما زهقت!"، ضربت بيدها في الهواء حنقًا على سوء الحال وكرهًا للواقع المرير، في حين قالت ندى: "مش انتي كنتي قولتيلي إنك قدمتي في شركة استيراد وتصدير قبل كدا وقبلوكى ولا أنا بيتهيئلى؟"، أجابت عُلا عاقدة حاجبيها وهي تمرر يدها على جبهتها العابسة: "أيوة يا ستي قبلوني واشتغلت لمدة أسبوع وبعدها سبته"، "طب ليه يا بنتي حد يلاقى شغل ويسيبه الأيام دي؟!"، صاحت ندى مندددة: "أيوة كان لازم اسيبه، أصل بعيد عنك الباشا المدير ما كنش عاوز سكرتيرة بالمعنى الحرفي ولكن حضرته كان بيبحث عن سكرتيرة من نوع آخر ومواهب تانية خالص"، مع حركات تغنج،تراقص أهدابها وغمزات عينيها الناعستين تابعت:

- "سكرتيرة من نوعية هايفا وروبي ونانسي وما خفي كان أعظم". شهقت ندى شهقة قوية كادت تخنق أنفاسها، وضعت يدها على فمها بعد أن أصدرت ضحكة عالية تردد صداها بين جدران الغرفة المستكينة خشية أن تسمع الأم حديثهما، ثم قالت بعد لحظات: "مش ممكن، يخرب بيت كدا!"، "يخرب بيت كدا وأبو كدا كمان، بعد ما حضرته عرف إني ماليش دهر ولا أب ولا أخ فضل يحاول معايا وأنا بسذاجتي ماكنتش فاهمة، لحد ما عرضها عليها عيني عينك مقابل مرتب مغري ماتحلمش بيه أي واحدة في ظروفي، وعشان كدا يا أوختي لطشته بالقلم وسبت الشغل على طول، بس ماحبتش أقول لماما على السبب، وهي لحد دلوقتي فاكرة إني سبت شغلانة العمر من ايدى". سألت نفسها ساهمة تحدق بصديقتها، تداهمها أحاسيس متباينة فتخلق بداخلها صراعًا جديدًا، لا تعلم هل الضحك هو الأنسب أم الحزن والعويل، ودون تخطيط مسبق لم تدرك نفسها إلا وتدمع ضحكًا بعد أن خيل إليها مشهد صديقتها ترفع

يدها بكل ما أوتيت من قوة وتنهال بها لتصفع مديرها اللعوب على وجهه فتكدره دمًا بعد أن تلقي عليه وابل من اللعنات والسباب، "اضحكى يا أختي اضحكى، طبعا فرحانة فيا؟!"، هتفت باعتراض فأجابت ندى مستغرقة في نوبة الضحك: "هههههههههه لا والله يا لولو بس كل ما اتخيلك في الموقف ده وتقومي رافعة ايدك كدا ولطشاه بالقلم بحس انى بتفرج على فيلم أبيض وأسود قديم"، أطرقت عُلا رأسها في أسف: "أيوة فعلا قديم أوى، لأن الأخلاق والاحترام بقوا حاجة قديمة ونادرة يا ندى، حاجة قديمة أوى زي أفلام الأبيض والأسود بالضبط". استوقفها تعبيرها الأخير فخفتت نوبة ضحكها لتفكر في تعبيرها الصادم، وما العجب؟ فما قالته إلا حقيقة. ـ "ماقولتليش بقا، عاملة ايه في الكورسات اللي بتاخديها؟" تنهدت ندى بملل مع هزة من رأسها بصورة اللا مبالية وأجابت: "اهو الحمد لله شغالة، انتى عارفة مفيش شغل دلوقتى إلا بالكورسات دي، ومجرد انى بخرج من البيت وبشغل نفسي بحاجات جديدة برتاح نفسيًا"، أومأت عُلا برأسها تعلن انضمامها لرأيها: "عندك حق قاعدة البيت تزهق، خصوصًا لو عندك أخ زي أخوكي (دا يطفش بلد)"، هتفت ندى معاتبة وابتسامة تملأ شدقيها المشرقين: "بتفكريني ليه بس ماتخلينى ناسية شوية، هو علاء بس، يلا بقا خلينا في نفسنا أحسن". فجأة، قطع الحديث بينهما صوت وصول رسالة. ـ "ايه الصوت ده يا علا؟"، سألت ندى بعد سماعها ذلك الصوت الصادر من جهاز الحاسوب الموضوع على المكتب، أما عُلا فنهضت من فورها واتجهت لتجلس على الكرسي المبطن أمام شاشة الجهاز. "دي رسالة من صديق ليا على الياهو"، تنبهت ندى بعد إجابتها ورنت إليها في تأمل واستغراب: "صديقك! من امتى بقى وحضرتك ليكي أصدقاء غيرى يا هانم، وكمان شباب؟!" قالت معاتبة: "ايه يا بنتي، اوعى تقولي إنك لحد دلوقتى مفيش عندك حساب ع الياهو، هو فيه حد لسه مش عنده ياهو ولا بيدخل ع الانترنت؟" سألت الأخرى مستهزئة. ـ "لا طبعا عندي حساب ع الياهو بس ماليش أصدقاء ومش بستخدمه إلا في التواصل مع زمايلى في الكورس"، "وايه السبب في الجهل اللي انتي عايشه فيه ده إن شاء الله؟!" رمت عُلا بكلماتها في استهزاء حيث جلست

أمام شاشة الجهاز، تحرك أصابعها يمينًا ويسارًا فوق لوحة المفاتيح بمهارة فائقة، تطلق رسائل متوالية عبر بريدها الخاص، الأمر الذي أصاب ندى بعدم الارتياح رافعة حاجبيها في ضيق تحاول الفهم: "أنا مش عارفة ليه بخاف من عالم النت ده، أو أتعرف على ناس غريبة وأقعد أكلمهم ع الشات، بحس النت عالم تانى غريب وغامض". أصدرت عُلا ضحكة عفوية فتراقصت نغماتها في الأثير تعلن عن سخريتها المعلنة، حتمًا تعتبر رأي صديقتها لا يعد سوى كونه بلاهة أو سذاجة لا غير. ـ "عالم غريب؟! يا شيخة هو فيه كدا؟!"، "بتضحكى على ايه يا ست علا؟ أيوة عالم غريب كلامي مش عاجب حضرتك؟". تركت عُلا الحاسوب لتتحول بجسدها في مواجهة صديقتها الجالسة على طرف الفراش وتفصح لها عن وجهة نظرها: "أيوة طبعا مش عاجبنى، هو لسه فيه حد بيفكر تفكيرك المتخلف ده واللي عفا عليه الزمان؟"، "أنا تفكيري متخلف وعفا عليه الزمان يا علا؟!" صاحت ندى مستنكرة، ترمقها بنظرات غاضبة، كيف لها أن تعارض تفكيرها المحافظ رغم معرفتهما الطويلة الأمد؟ ـ" أيوة طبعا تفكير متخلف، يا بنتى أمال بتاخدى كورسات ليه عشان تحطيها في الدرج وخلاص؟! " ثم أشارت إلى جهاز الحاسوب وأوضحت: "يا ندى الكمبيوتر أو الحاسب الآلي هما سمة العصر دلوقتى وبعد فترة كل حاجة هتبقى عن طريق الانترنت حتى الشغل كمان، وبردو الشات والنت بيفتحلك مجال تتعرفي على ناس كتيرة ومختلفة من كل أنحاء العالم مش في مصر بس، لازم تنفتحي شوية وتبطلي قفلة دماغك دي" . رنت ندى إليها في شرود واضعة يدها على وجنتها تفكر، تنظر بحماس لتلك الدنيا الصامتة، لقطعة غامضة بكماء حوت بداخلها عالم متكامل، وقفت عُلا وأحضرت لندى مقعد آخر وطلبت منها الجلوس بجوارها. ـ"على الأقل هتتعرفى على ناس جديدة وبكدا هتفتحى مجال إنك تلاقى شغل وتكسبي صداقات لناس ممكن تفيدك في حياتك، بصي أنا عندي أصدقاء كتير ومنهم بنات كانوا معانا في الكلية فاكرة سالي بتاعة كلية آداب وكمان نهى بتاعة حقوق وغيرهم كتير"، أطلقت كلماتها في حماس، ثم استطردت: "حتى على الأقل لو بعدنا والظروف خدتنا نعرف نطمن على بعض يا ستي، يلا ضفي لي ايميلك هنا".

وبينما تنظر ندى إلى شاشة الجهاز في صمت وتستمع لشرح عُلا المفصل عن مميزات شبكة الإنترنت المتعددة حدث ما لم يكن في الحسبان، نافذة حوار ظهرت بغتة على الشاشة، رسالة جعلت ندى تتسمر في ذهول بعد أن التقطتها عيناها بسرعة، لم تكن سوى كلمات معدودة من شخص يدعى أحمد جاء فيها: "وحشتيني، انتى فين؟ من بدرى برن عليكى ومش بتردي؟". التقت نظراتهما، تفاجئت عُلا بصديقتها التي رأت رسالة لم تكن متوقعة فأسرعت بإغلاق نافذة الحوار، في حين تسمرت نظرات ندى فوق ملامحها المتصلبة وسألت في استنكار: "مين دا يا علا؟" حاولت التهرب من الإجابة، جاهدة في تشتيت أفكارها كي تنسيها ما رأته منذ لحظات، ولكنها أبت التوقف فعادت تسأل من جديد: " مش ناوية تقوليلي مين سي أحمد ده؟"، صمتت للحظات وحينما أخذت قرار بالتحدث تلعثمت تحاول البحث عن إجابة. "مصممة يعنى تعرفي؟"، سألت زامة شفتيها، ترمقها بنظرة خاطفة كالمستغيثة فأجابت ندى بإصرار وبلهجة أمرة: "أيوة مصممة يا ست هانم"، "أحمد اتعرفت عليه عن طريق الشات"، "الشات يا علا! ومن أمتى وانتى بتتعرفى على شباب وبتسمحيلهم يكلموكى كدا؟!"، "هو قال لي ايه يعنى؟" قالت تتدعى البلاهة، فهتفت ندى بشرر واضح أطل من عينيها الشاخصتين: "لا والله بيقولك وحشتيني، ولا ماخدتيش بالك من الرسالة؟" أشاحت عُلا بنظرها بعيدًا عن صديقتها التي تلبست منصب المحقق الرسمي منذ دقائق، حتمًا لن تستسلم ولن تتركها قبل أن تمنحها إجابة شافية على جميع استفساراتها، "بصراحة يا ندى هو بيحبني، وقررنا نرتبط!"، مرت ساعة ونصف عقب إعترافها الأخير، ودعت ندى السيدتين بعد أن اتفقت مع صديقتها على اللقاء مرة أخرة في أقرب وقت لتعرف منها أخر المستجدات وما آلت إليه الأحداث بأمرها الغامض، انصرفت وعادت إلى منزلها في هدوء لتجد والدتها في الانتظار، سألتها في قلق عن السبب وراء تأخرها، جلست ندى بجوار أمها وقصت عليها الحوار الذي دار بينها وبين عُلا والخالة زينب وكعادة الأم شعرت بشيء من الأسى ودعت لهما بالخير وراحة البال. تركت الأم على وضعها وذهبت إلى غرفتها لتبدل ثيابها، لا زال أخيها على وضعه اليومى، أفلا

يمل من عدد ساعات يقضيها أمام شاشة الحاسوب كعادته في إهدار الكثير من الساعات كل يوم أمام صفحات الشات والتحدث مع غرباء؟ وحين سؤاله يخبرها مدعيًا أن هؤلاء قد يأتي من ورائهم ذات يوم علاقة مصلحة أو عمل، أو تكوين معارف جديدة تساعده في السفر إلى الخارج. حادثت نفسها في طريقها إلى حجرتها مارة بحجرة أخيها، ولكن ما الفائدة! فلتصمت أفضل. دلفت إلى غرفتها في هدوء وأشعلت الضوء الخافت ثم ارتمت على الفراش تغوص بين وسائده المترامية وفوق شرشفه الناعم، أغلقت عينيها المثقلتين بعناء اليوم، تذكرت زيارتها إلى عُلا، حديث دار بين ثلاثتهم والحياة الصعبة للمرأتين الوحيدتين، حتى فاجأتها ذاكرتها بهبوط تلك الرسالة فوق جفنيها المغمضين، أطلقت العنان لهما بعد أن حاصرتهما ذكرى الموقف، كلمة رأتها على جهاز عُلا من المدعو أحمد (وحشتيني)! لماذا يتردد صداها بين ثنايا عقلها الخفي ويوقظ شيئًا مجهولًا لا تعلمه؟ هل حقًا ما تشعر به الآن؟ لقد أدركت في تلك اللحظة حقيقة خفيت عنها زمنًا ثم انكشف غطاؤها بغتة وبدون سابق إنذار ليجعل عقلها يرتبك وقلبها ينتفض. إنها لم تسمع أحدًا من قبل يهمس لها إنه افتقدها، لم يأت من يدغدغ أوتار روحها الفتية أو يلهب قلبها ولو شرارة من شغف، خيل إليها تعابير وجهها بعد أن تسمع أذناها أنغام كلمات مثل تلك الكلمات، أو ترى بمقلتيها الواسعتين شفاه ذكورية تنفرجان في بطء مشهد رومانسي ثم ينطق هامسًا دون تردد (وحشتيني)! شعور غريب لم تعتد عيناها رؤيته أو أذناها سماعه، بل بمعناه الأحرى والأعمق لم تشعر به من قبل روحها العذراء وتمر بهيبتها الشعورية فوق قضبان قلبها المهجور لتترك آثارًا تاريخية فوق منحنيات خارطة أنوثتها فتظل عالقة بجسدها اليافع، دعنا نقل بصورة أدق، لم تذقه من قبل، ربما سيكون شعور رائع وله سحره الخاص، سحر لا يستحق أن ينسى، حتى وإن أقسمت مع نفسها على نسيانه لن تتركها ذاكرتها دون أن تحتكره ليكون ملكًا لها أو تختزله داخل إحدى غرفها السحيقة لتستدعيه متى شاءت، مثل شعور طفل صغير يلتهم قطعة من حلوى الشيوكولاتة لأول مرة ويفترسها بسرور، ثاغرًا فاه وفارجًا عينيه في دهشة وبداخله سؤال ثائر: " كيف يكون في

الدنيا أمثال تلك الأشياء الرائعة والجميلة ولم أذقها بعد؟"، ثم يعود في حماس ليتلذذ بحلاوتها من جديد. عادت فأطبقت جفناها مجددًا، سرحت، ربما ظلت تتساءل وهي شاردة واضعة يدها على جبهتها في تفكر عميق، ترى هل هكذا تبنى العلاقات؟ هل أصبح للإنترنت دور كبير في الحياة؟ لم يقتصر هذا الدور على العلم والمعرفة ولكن تطوره تجاوز مرحلة الحياة العلمية واقتحم عنوة الحدود الشخصية، يثب فوق أسوار المنازل ويتسلق الجدران، يتلولب في دهاء بين أزقة العلاقات الأسرية ويخترق الحصون الاجتماعية التي نفرضها نحن البشر بعقائدنا المتينة والراسخة ثم نعود لنهدمها بأيدينا مرة أخرى! لقد صار فردًا وهميًا في كل منزل، فنجد معه أشخاص يتسللون إلى حياتنا ويصبحون جزءًا منها بإرادتنا نحن ليشبعوا جانبًا كان مظلمًا في جحور أرواحنا اليائسة؟! إلى متى سوف تستمر قصة عُلا مع هذا الشاب؟ وهل ستكون نهاية سعيدة أم ستنتهي بسرعة معلنة فشلها الذريع؟ ولكن لم التفكير والإرهاق؟ فالتجربة خير دليل والأيام القادمة سوف تثبت كل شيء وتجيب عن جميع الأسئلة، فلم العجلة إذا؟!

*****

(٦)

قام بإطفاء شاشة العرض الكبيرة، وضع القلم على المكتب أمامه رافعًا منظاره المربع إلى عينيه، نظر لجميع الحاضرين بثقة يتأهب لإلقاء أخر كلماته إليهم بعد أن التفوا نحوه بمقاعدهم المتحركة من وراء حواسيبهم المتراصة أمامهم ليستمعوا إليه بإنصات واهتمام كعادته عندما يتحدث إليهم في كل مرة، فقد كان مثال للمدرب القوي المتمكن من أدواته: "أنا هطلب من حضراتكم إن كل واحد يسجل الميل الياهو والهوت ميل الخاص بيه في الابليكيشن ده عشان نقدر نتواصل مع بعض قبل الاختبارات اللي هتتعمل لتقييم حضراتكم أخر الشهر، ودا عشان لو فيه أي شخص عنده استفسار أو سؤال يقدر يراسلني ويسألني وأنا هجاوب عليه على طول في رسالة ويتواصل معايا، وهيكون فيه جروب خاص بأعضاء المجموعة وأتمنى للجميع النجاح والتوفيق في حياته العملية". تعالت الهتافات تعبيرًا عن الامتنان لمحدثهم، هب الجميع وقوفًا يهمون بالرحيل من القاعة بعد أن تبادلوا كلمات الوداع والمصافحة، كانت ندى تخاطب إحدى زميلاتها وتتبادل معها أرقام الهاتف إلى أن جاء مصطفى الذي كان يجلس على الجانب الآخر من القاعة، انتظر حتى انتهت من حوارها مع الأخرى، تقدم إليها بخطوات مترددة وخاطبها في تلعثم حتى كادت يداه ترتعشان على دوى قلبه المتخبط ليسقط في النهاية بين قدميه من شدة الارتباك: "أنا مش عارف أقولك ايه يا آنسة ندى بس فعلًا اتشرفت بمعرفتك وكنت أتمنى تكون فيه فرصة أكبر من كدا". لم ترد ندى أن تنظر إليه حين تحادثه فخاطبته بشيء من الجدية ونبرة ثابتة: "وأنا كمان اتشرفت بحضرتك يا أستاذ مصطفى وأتمنى لك التوفيق" . انطلقت كالسهم حاملة حقيبة يدها واتجهت صوب الدرج حتى خرجت من باب المبنى، لا يجول بخاطرها إلا فكرة وحيدة، تريد أن تسرع قبل أن يراها وينتظرها كعادته بالخارج، ظلت تسير إلى أن استوقفت إحدى سيارات الأجرة

ورمت بنفسها داخلها.

*****

----

(٧)

كانت السّاعة الثّامِنة مساء في يوْمٍ قائظٍ مِن أيام شهرِ يوليو، في حُجرةٍ صغيرةٍ فتحت نافِذتِها الخشبيّةِ العتيقةِ والمُطِلّة على أرضٍ فضاء، لتمنحُ فُرصةً ليْست موَفّقةٌ في ترك مجالًا لبعضِ النّسماتِ أن تفرّ إلى الدّاخِل دون أن تتمّكنّ مِن تبديدِ حرارةِ الطّقسِ، وبِسقفِ الغُرفةِ كانت مُروِّحةُ كبيرةُ تلفُّ حوْل نفسها بريشاتها السّميكة دون توانٍ لتبعث القليل مِن هواءِ الصّيْفِ السّاخِنِ، وفي أرضيّةِ المكانِ كان الفِراشُ الخشبيُّ القديمُ بِلوْنِه القاتِم، ومِن أعلاهُ لُصِقتِ صورة كبيرةٍ لِلمُصارِعِ فندام وبعضُ من أبطالِ السّينما الغربيّة وصورةٌ أخرى لِلبطلِ محمد علي كلاي، وبِجِوارِهِ على الأرضِ طُرِحتِ الأثقال الحديديّة وبعضُ الألعابِ الرّياضيّةِ القاسيَةِ. وبِطرفِ الغُرفةِ، كانت هُناك، جلستِ أمام طاوِلةٍ مُتوَسِّطةِ الحجمِ ومِن فوْقها جِهازُ الحاسوبِ، تنظُرُ لِشاشتِهِ وتحادث صديقتها عُلا عبرُ البريدِ الإليكتروني، كانت تجلِسُ في حُجرةٍ أخيها علاء، مُستغِلّةُ فُرصة عدمِ تواجُدِهِ بِالمنزِلِ لِتنفرِد بِالحاسوبِ قبل أن يعود في المساءِ. طمست على أُذنيها بِمُكبِّراتِ الصّوْتِ، تُخاطِبُ عُلا وتقولُ في تأفُّفِ علا وجهِها وطغى على أحبالِها الصّوْتيّةِ: "طبعًا قُمت سَيباه وماشية على طُول، عاوزاني اقوله ايه يعنى؟"، جاء الرّدُّ مِن عُلا عبر السّماعاتِ: "طب وليه يا بنتي قفلتي معاه كدا على طول؟ مش تستني تشوفي هيقولك ايه؟"، "يعني هيقول ايه بعد اللي عمله حضرته؟!"، قالت ندى بينما تساءلت الأخرى: "ليه هو كان عمل ايه يعني؟" أخذت ندى تشرح الموقف: "أنا في الأول كنت حاسة إنه يعني ممن يكون حابب يكلمني أو معجب بشخصيتي، وفترة والتانية ألاقيه بيستنانى بعد ما الكورس يخلص"، ـ "ها وبعدين؟"، سألت عُلا. ـ" المهم في يوم لقيته بعد الكورس بيقرب مني وقالي عاوز اتكلم معاكي، اتحجج بموضوع وإدانى سي دي كنت محتاجاه وهو جابهولى، قبلته منه وشكرته عليه، بعد كدا لقيته بيطلع جواب وبيقولي يا ريت تقبليه

مني وتقريه كويس". عُلا بصوت ساخر: "هههههههههه جوابات! هو لسه فيه حد بيبعت جوابات! المهم وبعدين؟" -" مش دي المشكلة، المشكلة إنه في المرة التانية لقيته بيتكلم معايا بأسلوب مش مريح، بيتعصب عليا وبيطلب منى ارجعله الجواب تانى، وان دا ما كنش ينفع يحصل منه وندمان على إنه ازاى يعمل كدا"، "طب وايه اللي خلاه يتغير معاكي كدا؟"، "بعد ما صارحته وقلت له انى بعتبره أخ مش أكتر وإن طموحاتى أكبر من كدا، قلب عليا ياستى وحب يوريني العين الحمرا، شفتي بقا؟!" انفجرت عُلا ضاحكة حتى كادت ضحكاتها تصل عبر الأثير وتخترق أذن محدثتها، ثم تابعت: "هههههههههه والله العظيم شباب غريبة فعلًا، يلا أدينا ياما هنشوف! "، "سيبك مني بقا يا ست لولو واحكي لي حضرتك عاملة ايه في الموضوع إياه؟" اقتنصت ندى فرصة حديثهما لتسألها عن أخر المستجدات وعلاقتها مع الغريب.

تمتمت عُلا في تردد، وحينما لم تجد بدًا من الفرار قالت بثقة انطوت على بعض من الإدعاء: "تمام طبعا يا بنتي وكل شيء على ما يرام وتحت السيطرة، دا أنا لولو والأجر على الله!"، "تمام. اممممم طيب ربنا يستر!"، غمغمت ندى بصوت خفيض لا يسمع تحادث نفسها وتحاول بث الطمأنينة داخل قلبها الذي أبى التصديق، وفي تلك اللحظة دخل علاء إلى الحجرة دون أن يطرق الباب أو يستأذن، وبصورة لا شعورية انتفضت في ذعر بعد أن أفزعها صوت الباب وهو يفتح بعنف دون سابق إنذار. -"يا ما شاء الله! حضرتك داخلة وقاعدة على الكمبيوتر من غير حتى ما تستأذني؟"، عادت بصوتها المختنق إلى محدثتها وأنهت الحوار، حدث أمر طارئ وستعاود الاتصال بها في وقت لاحق، التفتت نحو أخيها في ضيق ارتسم على ملامحها الحادة فأعطى انطباع بشرر قادم، لتتم معه الحديث بل المشاجرة بمعنى أدق: "واستأذن ليه بقا؟ مش أنا ليا حق فيه زيك بالظبط ولا ايه؟!"، صاح بغضب وبلهجة فظة خلت من أي معنى للذوق والكياسة: "لا طبعا ما دام في أوضتى يبقى خاص بيا لوحدي، وماينفعش تدخلي هنا من غير ما أكون موجود في البيت!" اقترب منها في سرعة حيوان بري يهجم على فريسته الصغيرة، مد كفه العريض يقبض على رسغها ليزيحها من أمام

الجهاز، تأوهت بشدة فارتفع صوتها يتردد بين أرجاء الغرفة ثم التفت بجسدها نحوه تحكم راحتها حول رسغها المتألم وتتركها واضعة يديها حول خصرها في سخط تزفر في اعتراض على معاملته الفظة وأسلوبه الديكتاتوري: "ليه بقا يا أستاذ علاء؟ يمكن يكون فيه خصوصيات وأنت مش عاوزني أعرفها أو خايف أشوف حاجات من اللي مخبيها! اتفضل قول؟"، نظر إليها والشرر يتطاير من عينيه كوحش ثائر ألهبه وقع سياط من غريب، وبطريقة همجية حملها وألقى بها خارج الحجرة دون تفكير. ـ"طب يلا بقا عشان عاوز اغير هدومى". صاح وهو يطرق الباب خلفها بعنف. وقفت الأم في ذهول تسأل ابنتها التي بدورها لم تتردد في أن تطلق دعوات باللعنة إيذاء تسلط أخيها الأكبر ووحشيته في التعامل وتسلطه الذي بات جزء من شخصيته المعقدة، تصاعد الدم إلى وجهها حتى بات قطعة من اللحم النيء يوشك على الاحتراق ـ" عجبك كدا يا ماما اللي بيعمله الأستاذ، طردني من الاوضة ومش عاوزني اقعد على الجهاز خالص هو أنا مش ليا الحق فيه زيه تمام؟!" كانت تعبيرات الأم الهادئة مبعثًا لإثارة نار الغيظ والحنق داخل صدرها المستطر بنار الفرقة والتي في كل مرة تشعرها أنها على خطأ وأن من حقه وحده أن يفعل ما يحلو له دون حساب أو ملامة. ـ" معلش يا ندى ما هو بردو مايصحش تدخلي أوضته وهو مش موجود!" رنت إليها في ذهول فانفرج فمها واصطكت أسنانها رغمًا عنها على الرغم من معرفتها مسبقًا بردودها المتوقعة: "مايصحش أدخل أوضته وهو موجود! اه صح ودا طبعا لأن حضرته أكيد حاطط عليه حاجات مش مظبوطة وصور للهوانم اللي بيكلمهم وخايف إنى أشوفها، أنا فهماه كويس". لم تستطع الأم أن تتمالك نفسها بعدما سمعت، فسارعت بكتم أنفاسها بوضع يدها على فمها في محاولة لإسكاتها عما ستنوي استئنافه من كلمات لاذعة، لا تريد حتمًا أن يستمع الأب لحديثها المخزي فيخرج ليطلق لعناته وسبابه النزقة دون تفاهم، أو يحيل البيت لقطعة من جهنم لا تحتمل لأيام وربما لأسابيع، جذبتها من رسغها ودلفت بها إلى حجرتها ثم أغلقت الباب. ـ"انتي بردو مفيش فايدة فيكي، انتي مش عارفة أن أبوكى هنا وممكن يخرج يقلب لنا

البيت في لحظة!" نظرت إلى والدتها وقد انزلقت دمعة من عينيها بعد أن عاودها شعور بالضغط والتفرقة في المعاملة الذي تتبعه ثم قالت بصوت متهدج: "يعنى انتى عجبك يا ماما كدا مش كفاية الخنقة في كل حاجة، ثم حضرتك بتفرقي في المعاملة بينا ودا باين اوى!" ابتسمت الأم في هدوء، اجتذبت يد ابنتها واحتوتها بين كفيها تهدئ من روعها: "مش بفرق ولا حاجة يا ندى، ومسيرك تكوني أم هتعرفى وقتها ازاى بيكون احساس الأم، ولازم تاخدى بالك من حاجة مهمة جدًا وأنا قلتها لك قبل كدا، عرفاها ولا لا؟"

ـ" ايه هي الحاجة دى بقا ياست ماما؟ سألت في ضيق. ـ" يا ندى يا حبيبتي، أخوكي دلوقتى في مرحلة التشتت زي شباب كتير مش عارف يعمل حاجة ولا قادر يحقق نفسه، لا عارف يلاقي شغل ولا عارف يبدأ منين، عشان كدا الكائن الهايج اللي جواه ده بيخرج غضب عنه ودا بسبب الضغوط النفسية اللي هو فيها". غاصت نظراتها بين ضوء الغرفة الخافت، تنظر نحو الجانب الآخر من المكان، تطرق أذناها كلمات الأم، تخترق رأسها فتملأها بصور وحكايات. ـ" فلو أحنا فضلنا نضغط عليه هو هيضيع مننا أكتر وممكن مانلاقيهوش في البيت خالص ولا بينا وانتى عارفة أبوكى قد ايه عصبى وماعندوش تفاهم وممكن حاجة زي دى تكبر وتجيب وراها مشاكل اكبر أحنا في غنى عنها!"

وبتلقائية شعورية حملت نفسها وخبأت رأسها داخل صدر والدتها فسرى الدفء في أوصالها وتحركت كل أنملة منها مبعثه حرارة قلب الأخرى المليء بالحب والعطاء، دومًا ما تميزت برجاحة عقلها وفطرتها الطيبة لأم تحابي على أولادها ضد تيار الزمان وعوامله، انغمرت الأم في البكاء تلقي بأحمالها بين أحضان صغيرتها لتمر لحظات تتقاسماها من البكاء والشجن، كفكفت الأم دمعها وقالت مواسية: "معلش يا ندى انتم الاتنين ولادي بس لازم نصبر ونتحمل عشان حياتنا تمشى، خلاص اتفقنا؟" ارتشفت عبراتها في هدوء، همست وقد سكن الدمع بمقلتيها مثلما انطفأ الغضب بصدرها بعد أحضان والدتها الحنون . ـ"حاضر يا ماما عشانك هعمل أي حاجة".

عقدت حاجبيها بعد أن تذكرت شيئًا هامًا وعادت تسأل:

" بس يا ماما أنا محتاجة جهاز خاص بيا في أوضتى، انتى عارفة انى كنت باخد كورسات ومحتاجة أدرب نفسي عليه كل فترة وأذاكر، كمان لازم ادخل ع النت كتير عشان دا هيسهلى انى ادور على شغل". مدت الأم شفتيها في حيرة وزفرت نفسًا مختنقًا وقالت: "امممممم طيب خلاص هنبقا نشوف الموضوع ده، هكلم ابوكى يمكن يوافق يشترى جهاز كمان وتحطيه في اوضتك، ربنا يستر ويوافق". تساءلت في قلق: ـ "طب لو ما وافقش يا ماما؟ هفضل كدا؟" ـ "ربنا يسهل بقا وبلاش تقطيم، سبيها لله". جاءت إجابتها بعد تردد وزفرة مختنقة من أعماق قلبها لتنهي حوار ربما لم تحن نهايته بعد.

*****

(٨)

لحظة واحدة قادرة على تغيير كل شيء، تلك الغفلة من الزمان، وذلك الجسر الذي يربط بين ماضٍ انطوى ومستقبل ملثم يمهد السبيل لحياة أخرى قد تختلف عن كل ما يتوقعه المرء أو ينتظره، خاصة إذا تمازجت تلك الهفوة مع الملل وما يمكن أن يفعله عندما تتوقف العقول عند الدوران، ليحل محلها روح من الرتابة والخمول فتطبق على النفوس وتمنع العقول من التفكير أو العمل.

هذا ما كانت عليه في تلك الليلة البعيدة منذ سنوات غابرة من سنين عمرها الشقية، لم تستطع الأيام أن تنسيها تلك اللحظة التي تحولت حياتها بضغطة زر وهي جالسة أمام شاشة حاسوبها الشخصي بحجرتها بعد أن أصبح الملل رفيق لها، والوحدة خليلة لياليها وأحلامها التي باتت سرابًا، ومع كل يوم ينطوي كان السؤال نفسه الذي تحول إلى رغبة صارخة تلح بداخلها في كل لمحة ونظرة من عينيها التائهتين، حينما تسير في الطرقات وترى اثنين من المحبين وكل منهما يتلهف بنظرة العشق والهيام إلى شريكه الآخر، في كل مرة تقابل إحدى رفيقاتها القدامى في الدراسة وتدعوها لحضور حفل عرسها القريب، أو الأخرى وهي تسير جنبًا إلى جنب متأبطة زراع زوجها الحبيب، أو تلك التي ما تفتأ أن تروي لساعات عن مغامراتها العاطفية المشتعلة مع حبيب سيعود ليتقدم لخطبتها بعد إنهاء دراسته في الكلية الحربية. قصص عشاق وآهات قلوب يافعة تأتي إلى مسامعها لتحرق قلب وحيد لم يزره طائف الحب يومًا، ضغطة زر واحدة كانت بدايتها لحياة جديدة، فتحت لها بابها على مصراعيه لتجعلها تمر إلى عالم لم تعرفه من قبل، ساحرة شريرة خرجت إليها من أسطورة سرمدية ذات ليلة من ليالي وحدتها القاتلة، تبتسم، تمد يدها، تجتذبها فتستسلم بين يدي القدر، تحكم قبضتها على كفها الخانع مثلما تقبض بسحرها الأسود على عقلها المسحور، تفترش الأرض وتفتح الأبواب في غمضة عين لتعبر برفقتها من بوابة

الحقيقة إلى عالم أخاذ لم تتوقعه يومًا، كأنما تخطو بقدميها فوق جسر من الوهم ليحملها من واقعها إلى حياة أخرى تبدأ بضغطة زر وتنتهي بضغطة أخرى . إنه الإنترنت، شبكة الاتصالات المتشعبة والعملاقة، حقًا لم يخطئ من أطلق عليها الشبكة العنكبوتية التي تجتذب كل مرتاديها بخيوطها الحريرية البراقة وفروعها المتشعبة لتجعل منه في النهاية فريسة لحبائلها المتشابكة، بعد أن تنسج حوله الخيوط الواهية والقيود الوهمية وتجعله عبدًا لها وأسيرًا لعالمها الزائف، فتشبع حاجة في نفسه المتخفية، حاجة لا يدركها في الواقع فيهرول باحثًا عنها في عالم الخيال والأكاذيب. الليل طويل وهي وحيدة، كيف بإمكانها أن تقتل تلك الوحدة التي تخنق لحظاتها المتخللة ساعات الليل أو تتركها بسلام دون أن تشعرها بالملل والشقاء؟ الآن انصرف عنها كل من عرفتهم وبات لكل واحدة حياتها الخاصة ومستقبل تبنيه مع شريك العمر، أو عملها الذي أصبح كيانها الخاص وشغلها الشاغل، إذًا فماذا بعد؟ وضعت يدها على الزر ودلفت إحدى غرف المحادثات الاجتماعية، جديًا لماذا لم تفكر حتى اليوم في الدخول ولو مرة لإحدى تلك الغرف أو التعرف على أصدقاء جدد يملئون الفراغ المقيت الذي يجثم على حياتها في كل الأوقات؟ فلا عمل بعد ولا صديقة تتحدث معها أو مشروع جدي بالارتباط، وفي لحظة غابرة ولجت إحدى الغرف بعد أن اختارت واحدة من تلك الظاهرة على صفحة الشات لترى الكثير من الرسائل تنهال عليها بدعوة التعارف. "مساء الخير، ممكن نتعرف يا جميل!" وأخرى: "صورتك حلوة أكيد انتى أحلى منها طبعًا!" وثالثة ورابعة، لا تعرف من تجيب أو من تخاطب، ومع كل رسالة تزداد دهشة من إلحاحهم في التعرف والحديث، وكأنه لم يوجد غيرها لينهالوا عليها برسائل المغازلة. مر وقت كثير، لا زالت تمارس هوايتها الجديدة في التعرف على عالمها الحديث، ترد السلام على البعض وتتبادل الأحاديث مع البعض الآخر، ولكن ليس هناك من شيء يدعوها للانجذاب أو الاستمرار في الأكذوبة التي اصطنعتها بنفسها، لعبة تمارسها للخروج من عالم الواقع الخانق وتنطلق خارج حدود غرفتها المظلمة بعد أن ظلت تخرج من غرفة شات وتدخل أخرى وتتعرف على الكثيرين الذين ملأوا بألقابهم المستعارة قائمة

الأسماء في بريدها الإليكتروني. حقًا هي وإن كانت مستمتعة بتواجد الكثيرين معها حتى وإن كان تواجدًا وهميًا ببضع كلمات كاذبة وحكايات حمقاء ليعبقوا بكلماتهم وأنفاسهم تلك الهالة الفارغة من حولها، هالة لا يملؤها سوى الفراغ والصمت، غير أن قلبها الذي تحمله بين جنبات صدرها العذب يأبى هذا الزيف المطوق لها من كل اتجاه، يدعوها للعودة مرة أخرى لفطرتها الطيبة وروحها المستكينة. إنه عالم صغير مستقطع من عالم كبير، ولكن الفرق هي تلك الأقنعة التي يرتديها كل فرد من الموجودين ويبدي للآخر صورة ملاك سماوي في هيئة بشر، لتظل الأحاديث تتبادل والحكايات تروى ولكن في النهاية الكل يبحث عن شيء واحد اسمه الوهم. الوهم الذي يجعل المتصفحين يفرون من الواقع، من حقيقة يعيشونها ليرموا بأنفسهم بالساعات أمام شاشة لا تتعدى البوصات، ينسجون لأنفسهم خيال يحلمون بتطبيقه ولكن لا وجود له في العالم الحقيقي . الكل هارب من شيء يود نسيانه ليمتع نفسه بلذة الحديث مع أشخاص غرباء، شخص لا يعرف عنه شيئًا ولا يود أن يعرف سوى ما يمليه عليه بملء إراداته الخاصة، إنسان لا تربطه به أي علاقة أو عمل أو صلة سوى الحديث فقط، ساعات تمضي في حديث نفوس مخبئة داخل أجساد مريضة، النفوس التي تفر من أحضان آلامها وتلقي بنفسها في أحضان الحديث مع غريب. إننا في عالم مريض، ليس سوى عالم مكتظ بالمرضى النفسيين الذين يبحثون في كل لحظة عن طبيب يستمع إلى ما بداخل صدورهم المشرذمة وأحلامهم المتطرفة، والتي ينكرونها عن أنفسهم ويخافون لو تطلع عليها عقولهم التي تموت ليلًا بفعل سكرات السعادة الزائفة، أشخاص يهرولون كل مساء من واقعهم الذي ترفضه عقولهم للقاء بطبيبهم النفسي، يستمع إليهم بالساعات دون مقابل، يشبع رغبتهم في إطلاق العنان لآلامهم الحبيسة ونزوات صارخة تطوق إليها روحهم المتمردة. ولبرهة فكرت في أن تنهي هذه المهزلة وتخرج من غرفة الشات، تغلق الجهاز وتخلد إلى النوم، ولكن ها هي اللحظة الفاصلة قد أتت لتصنع لها مستقبل ما كانت تعرفه ولم تتمناه يومًا، هفوة من الزمان تمنت لو أنها لم تعاش، أو يعود بها الدهر لتفر منها خارج نطاق الزمان والمكان. رسالة

من شخص جديد: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". نظرت إلى الرسالة، تحولت عيناها بعفوية نحو صورة وضعها صاحب الرسالة في المربع الخاص بملفه الشخصي، صورة حزينة لوجه مخبأ بين كفين، نظرت للصورة، رمقتها بلا اكتراث، فعاد إليها برسالة جديدة: "أزيك يا آنسة علا، يا ترى لسه فكراني؟" نظرت في دهشة إلى الرسالة بعد أن ناداها باسم آخر، ثمة لبس في الأمر، سارعت إلى المحادثة وكتبت: "أكيد حضرتك فيه خطأ في الموضوع أنا مش عُلا!"، أغلقت نافذة الحوار وهمت بإغلاق الحاسوب تباعًا، إلا أن رسالة أخرى استوقفتها للحظات، حدجتها بنظرة حيرة. "ازاى خطأ؟ لا مفيش غلط ولا حاجة، أنا فاكر حضرتك كويس دخلتي ع الشات يوم، وكنت موجود وضفتينى في دقايق بس مالحقتش اعرف أي شيء عن حضرتك إلا اسمك وبس، الآنسة علا".

ما هذا الهراء، هل ظهر هذا المتطفل في تلك الساعة من الليل ليلقي عليها بهتارات عقله اللا وعي؟ ولكن هناك شيء من الثقة في كلامه؟ ظلت تحدق في الرسالة لبضع لحظات وتسأل نفسها لماذا يناديها بهذا الاسم على وجه الخصوص؟ إنه اسم صديقتها عُلا، حتى كأنه يتذكر اليوم الذي حادثها؟ ولكن لم تستمر طويلًا في التفكير بعد أن أيقنت السر وراء مناداتها بهذا الاسم، ومن ثم استشاطت غضبًا وأطلقت لعنات من فمها على ما فعلته تلك اللئيمة. تذكرت ما حدث في ذلك اليوم عندما كانت في زيارة صديقتها عُلا، لقد استغلت انشغالها فترة خروجها من الغرفة لمحادثة والدتها (طنط زينب) بعد أن قامت بفتح بريدها الإليكتروني ونسيت إغلاقه، لتقوم الأخرى باستخدامه والولوج إلى إحدى غرف الشات وإضافة بعض الغرباء بقائمة الأصدقاء، حقًا لا بد أن تنال منها فيما بعد، أخرجتها رسائله المتتابعة من تفكيرها الانتقامي نحو صديقتها التي جن عقلها وفقدت الصواب، قامت بالعودة للرد عليه حتى تنهي تلك المسألة: "هو فعلا فيه غلط حصل أنا مش بتخيل حاجة". "ازاى أنا مش فاهم كلامك؟" رد عليها عبر رسالة قصيرة. "يعنى اللي كلمت حضرتك فعلا اسمها عُلا بس مش أنا". "دا لغز ولا إيه ممكن توضحي لو مش يضايقك؟" شعرت بالامتعاض من إصراره على إكمال الحديث، فقالت بشيء من الملل: "يعنى عُلا

دى صديقتي وواضح أنها استخدمت إيميلي وكلمت حضرتك، بس عموما حصل خير يا أستاذ؟" "محمد، أنا محمد، وحضرتك؟" "مش لازم تعرف اسمي، فرصة سعيدة وعن إذنك هقفل دلوقتي". لم تنتظر منه ردًا فأسرعت بإغلاق البريد الإليكتروني والجهاز بالكامل وجلست بجوار النافذة وهي تفكر في تلك الصدفة الغريبة وتتوعد صديقتها بالعقاب فيما بعد.

*****

(٩)

الأيام تمر ومعها اعتادت على الجلوس لساعات أمام جهازها الأصم، تتصفح المواقع، تقرأ بعضًا من القصص، وتطلع على معلومات وأشياء جديدة، وفي بعض الأحيان تختلس لحظات من الزمان، وتدخل غرف الشات، ترى محادثات دائرة بين رواد تلك الغرف لترضي نداء عقلها الدائم نحو المجهول، والخوض في غمار النفوس البشرية لمعرفة الكثير من الأسرار التي يخبئها البعض خلف أقنعتهم الزائفة بالنهار ليعودوا باليل وينتزعونها أمام شاشات حواسيبهم وفي غرف المحادثات. علمت الكثير وتعرفت على الأكثر من الأشكال والأنواع الآدمية، وفي كل مرة كان اشمئزازها يزيد كلما علمت قدر الكذب الذي تحويه النفس البشرية، أسرار يوارونها حتى عن أنفسهم خوفًا من أن تفوح رائحة عفنهم الآدمي، فالكل يهرب من شيء، البعض يهرب من الوحدة والثاني من علاقة حب وحياة فاشلة، والثالث يهرب من زواجه التعيس، وأخرى تبحث عن رجل يروي عطشها للحنان والاهتمام فرارًا من قسوة زوجها، الكل يهرب حتى ولو لبضع ساعات في كل ليلة، نهر يطهرون فيه درنهم وآلامهم وشقاوتهم ثم يفيقون في الصباح وكأن شيئًا لم يكن، ليعود النزاع ما بين التضاد في الحياة، الصباح بنوره الذي يملأ الأرجاء ويكشف كل هفوة بأشعته الفاضحة، والليل بستاره المنسدل على بساط الأرض والخليقة، خافيًا لكل الخطايا والآثام، فيه تكبر كل الآلام ومعه تعظم كل الخطايا والذنوب. جلست في نهاية ذلك اليوم كعادتها بعد أن أنهت كل الأمور المتعلقة بالمنزل، فلا شيء يشغلها في تلك الفترة بعد أن أنهت الدورات الخاصة بها لتضم شهادة جديدة إلى شهاداتها الملقاة بأدراج مكتبها، وبعد أن أرهقت في البحث عن عمل بدون أمل أو جدوى. البيت يعلوه السكون فالكل منشغل بحاله وهي اعتادت على الجلوس بمفردها لا تعرف هل أصبحت عادة لديها، أم أنها مؤشر لبداية إصابتها بحالة اكتئاب. ضغطت على إحدى الملفات

المحفوظة بالحاسوب وأطلقت زر التشغيل لينطلق صوت أم كلثوم بعد ثانية بأغنيتها الآسرة: "أمل حياتي". عادت بظهرها إلى الخلف واستندت برأسها إلى كتفها المتكئة على المكتب وذهبت بعيدًا تحلق في دنيا الأحلام، إلى حب تتمنى أن يدق بابها، وزوج يأخذ بيدها إلى جنة الحب والعشق الحلال، إلى متى ستظل تنتظر ولا أحد يأتي؟! الجو في الغرفة يوحي بالرومانسية، الأضواء الخافتة وصوت أم كلثوم يصدح في الأرجاء فيملأ الأجواء بالشجن ويسمو بروحها نحو سماء الهيام، تتوق نفسها إلى عالم من الخيال، عالم تحلق فيه عبر صورة رومانسية لعاشقين يسيران على إحدى الشواطئ الساحرة، العريس ببنطاله الأسود، قميصه الأبيض والبيبيون المعقودة حول رقبته، مشمرًا أكمامه البيضاء حتى رسغه ونهاية بنطاله الطويل ليظهر مقدمة قدميه، ينظر بلهفة نحو عروسه الشقراء، ترتدي فستان أبيض جذاب يكشف عن كتفيها اللامعين تحت أشعة الشمس المشتعلة، التف حول خصرها النحيل شريط من الستان الأبيض الرقيق، وخلف نحرها شعر ذهبي ثائر يتمايل في غرور شلال حب متدفق، يمسك بيدها بقوة، يرفعها إلى أعلى وهي تلتف حول نفسها مثل بالرينة ترقص على أنغام حبه الفاني وعشقه المجنون ومعها تعلو الابتسامات. لم تتعد كونها صورة فوتوغرافية فوق سطح مكتب شاشة الحاسوب، ولكن معها شعرت بالحياة، إنها متلصصة، تسللت خلسة إلى المشهد على غفلة من العاشقين دون أن يشعرا، متوارية خلف إحدى الأكواخ المتراصة على الرمال ترقبهما من بعيد، ترى الاثنين ينطلقان معًا على شاطئ البحر، تنعكس صورتهما المشرقة فوق سطح مياه البحر الزرقاء، يتجاذبان بعضهما البعض، يتراشقان في مرحٍ قطرات الماء، ومعها تعلو الضحكات المترددة إلى عنان السماء، لكأنهما يريدان أن تشاركهما طيور النورس المحلقة، ونسمات الهواء السارحة وزبد البحر الهارب إلى الشاطئ على بداية قصة هواهما الأبدي. تتعلق نظراتها الشاخصة على الصورة ذاتها فتسلبها لحظات تفكر، هل من الطبيعي أن ينتابها شعور بالغيرة من صورة صامتة؟ هل ما ألم بها هو لحظة من يأس الشعور؟ تراه حالة طبيعية من الفراغ أم إنه صراع نفسي ربما هو بادرة لبدء مرحلة من التشتت الوجداني؟ لا زالت تتمنى ولو

للحظة أن تكون هي تلك العروس ويكون هذا محبوبها الذي تنتظره، ولكنه لم يأت بعد. ولبرهة تبدد حلمها واستيقظت من غفلتها فزعًا بعد سماع صوت رنين ينبئ بوصول رسالة من بريدها الإلكتروني، التفتت نحو الرسالة التي ظهرت بغتة فوق سطح المكتب، من ذلك البائس الذي أتى ليخرجها من أجمل أحلام الصحوة ويعيدها إلى عالمها الخالي من كل الروايات والأساطير، نظرت للشاشة وقرأت الرسالة: "ياترى لسه مضايقة من كلامي؟" دهشت أن تأتيها رسالة كهذه من أحد لا تعرفه، إنها لا تتذكر أنها حادثت شخص بهذا الاسم! ضغطت على المربع الصغير المنبثق من شاشة المحادثة لتكشف صورة ملفه الخاص، بعثت له برسالة بعد أن علمت من الصورة ماهيته وتذكرت المحادثة التي دارت بينهما في تلك الليلة: "وأنا هزعل من إيه، دا كان سوء تفاهم وأنا وضحته والموضوع انتهى".

فبادرها في رجاء: "بس الموضوع حاسس إنه مش هينتهي، يا ريت تدينا فرصة نتعرف أكتر لأني حابب أتعرف على شخصية زيك، تسمحي لي؟" شعرت بالتردد في استكمال الحوار، رغم تلك الحيرة التي التبستها ولكن شعور داخلي يجتذبها إليه بأسلوبه اللبق واحترامه الجم في التعامل، صمتت تفكر حتى تتخذ القرار الصائب في حين بادرها برسالة بعد مرور العشر دقائق: "أنا بعتذر لو كنت ضايقتك، وأتمنى إنك ماتخديش عنى فكرة سيئة". احترامه البادي في كلماته وعدم تطفله منحها شعور بالاختلاف، شخصية مختلفة عن كل من حادثتهم ولعلها فرصة جديدة للتعرف على أشخاص جديرين بدخول حياتها وبداية صداقات تمنحها بعضًا من الألفة والحياة، قالت بشيء من الخجل: "أرجوك بلاش تعتذر، مفيش حاجة تدعو للاعتذار يا أستاذ محمد". عاد إليها برسالة جديدة:" إحساسي إنك شخصية مختلفة ودا شجعني أقرب منك أكتر يا،." توقف عن الكتابة ثم تابع بعد أن تذكر: "ياترى ممكن أعرف اسم حضرتك يا آنسة؟" ترددت في البوح عن اسمها الحقيقي ولكن شيء آخر دفعها للحديث دون تردد: " اسمى ندى، حضرتك كنت محترم معايا وانا أقدر الشخصيات المحترمة" . "اسمك جميل أوى، ودا أكيد بيدي انعكاس على صاحبة الشخصية". استمر

الحديث ما يقرب الساعة بينها والشخص الآخر عبر البريد الإلكتروني لينتهي الحوار في النهاية بوعد باللقاء مرة أخرى.

*****

ربما يصبح الاعتياد أشد قوة من الحب، وأشد خطرًا من الإدمان، وأشد وطئًا من الارتباط الروحي والتلاحم الجسدي، الحاجة لوجود من يُشعر الآخر بكيانه الحقيقي ليصنع منه غَدَّاءً يبحث ويهرول عن كل معنى للسعادة، حتى لو كان في أحلام تصنعها العقول في الخيال وتحفها بالغبطة والتفاؤل، ولكن هل التعود هو بداية الحب؟ أم هو رفيق له يسيران معًا في درب الوهم الإنساني ويعودا ليفترقا في نهاية الطريق؟! كثيرًا ما كانت تطرح على نفسها هذا السؤال وهي مختزنة في غرفتها أمام جهازها اللعين تنتظر رسالة جديدة منه، لعله إدمان لشغف لم تعرفه من قبل أو ربما هو عشق التجربة والخوض في غمار المحبين لترتوي عيناها قبل أذنيها بكلمات اهتمام وعبارات لم تذق لذتها ولو مرة، كل يوم كان يبعث لها برسالة وهي اعتادت على محادثاته القصيرة بالرغم من سكونه الذي ألفته وشخصيته المستكينة وكلماته المقتضبة، ولكن شيء ما كان يجذب كل منهما للآخر، يومًا تلاه أيام وهو يحاول الاقتراب وهي تأبى الابتعاد، تستسلم لأحاديثه الودودة وتهرول إليه مع كل رسالة تأتيها، ومع ذلك لا تعرف إلى أين يأخذها، ولكن ما تدركه حق المعرفة إنه صار جزءًا من حياتها اليومية وركنًا أساسيًا في كل لحظة تعيشها، وفي إحدى الحوارات: " تعرفي، أول مرة ألاقى نفسي مع إنسانة غير أمي وبعد ما،." قطع حديثه ولم يرد أن يتم جملته كأنما خرجت منه عن غير قصد، في حين تنبهت لتوقفه عن الحديث وفهمت على الفور ما تبادر إلى ذهنه فسارعت تخفف من وطأة الموقف:

ـ" المفروض تنسى كل اللي فات، وزي ما اتفقنا قبل كدا دى صفحة وانطوت!"

ـ" أكيد، من غير ما تقولي". عادت تكتب بعد أن قرأت رسالته فغمرتها السعادة: "بس بجد يا محمد الكلام اللي انت قلته؟" "بجد يا ندى، أنا عمري ما بقول إلا اللي قلبي بيحسه، وانتي أول بنت أرتاح في الكلام معاها، مش عارف انتي عملتي لي إيه!" ثم استطرد في الحديث: " رغم إنك عذبتينى في الأول، بس

عمري ما تخيلت إن جواكى كنز كبير أوى". قالت ببراءة غلفت بدلال عفيف:
"كنز إيه بقا ده، ليه شايفنى مغارة على بابا يا أستاذ!"
" أيوة انتى كنز كبير، بس محتاج اللي يحس بقيمته، الكنز هو قلبك وعقلك الاتنين".
لحظات صمت بين الاثنين لم يقطعها إلا كلماتها الراجية:
" محمد؟" "أيوة". "أوعدني ماتجرحنيش!"

*****

(٩)

خرجت من المنزل مسرعة، تجيل بنظرها يمينًا ويسارًا في قلق، مدت يدها وأشارت لإحدى سيارات الأجرة بالتوقف وما هي إلا لحظة واحدة وكانت جالسة في المقعد الخلفي بالسيارة لتقلها إلى منزل عُلا بعد أن حادثتها بالأمس عبر الإنترنت وأطلعتها عن رغبتها في زيارتها والاطمئنان عليها، طوال المسافة التي قطعتها السيارة تنظر من النافذة وتتأمل المارين في الطرقات. شردت تفكر في محادثة ليلة أمس، حوار دار بينها وبين السيدة زينب لم يكن في الحسبان، كانت جالسة في غرفتها كالعادة حينما سمعت طرقات والدتها على الباب تخبرها أن هناك اتصال من أجلها، والدة عُلا تريد محادثتها في أمر هام، إنها المرة الأولى التي تتصل بها شخصيًا على هاتف المنزل مما جعل شعور بالقلق يتسرب إليها، تُرى هل المحادثة تتعلق بعُلا؟ هل أصابها شيء أو وطئها مكروه؟ لعل السيدة زينب مريضة ولا تجد من يسعفها أو ربما أرادت مساعدتها في أمر ما؟! أفكار تهادت على عقلها دفعة واحدة في تلك اللحظات القليلة التي استغرقتها في الخروج من غرفتها حتى الإمساك بسماعة الهاتف والشروع في المكالمة. "أرجوكى يا بنتي، أنتى الوحيدة اللي هتقدرى تخرجيها من حالتها دى"، قالت السيدة زينب في انكسار أحنى أحبالها الصوتية فجعلها ترتعش عبر الأثير، بعد أن أخبرتها عن رغبتها الملحة لحضورها في أقرب فرصة حتى تكون بجوار ابنتها، فمنذ أيام وهي على وضعيتها المريبة ولم تتمكن الأم من معرفة السبب الحقيقي وراء تلك الحالة الرثة التي تلبست صغيرتها فأحالتها جثة هامدة أشرفت على الموت. استمعت ندى لحوارها البائس، حاولت جاهدة تهدئتها بعد أن قطعت وعد بالتحدث مع عُلا وزيارتها في الغد دون أن تخبرها عن أمر المحادثة أو السبب الجلل وراء زياتها المفاجأة. وصلت سيارة الأجرة وتوقفت أمام المنزل بعد الربع ساعة تقريبًا، حملت حقيبتها وهرولت بالخروج من

السيارة بعد أن منحته بضع جنيهات وشكرته، رفعت رأسها كعادتها تستكشف بنظراتها شرفة عُلا لتجد ظلامًا خيم على البناء فجعل الليل أكثر دهمة. رغم الهدوء البادي على ملامحها إلا أن شعور بالانقباض اندس عنوة مع نسمة هواء مختنقة عبر فتحة ثوبها العلوي ليحتل رغمًا عنها مكانه بصدرها القلق، إنها رهبة مما ستعلمه بعد قليل، ترى ما الأمر؟! اللهم سترك.

في نسق متتابع، طرقت بيدها طرقات خفيفة فوق باب الغرفة، "ادخل". تهادى إلى مسامعها نداء من الداخل كصوتٍ قادم من بعيد من أخر مكان في العالم، أحكمت يدها على المقبض وفتحت باب الغرفة بهدوء لتفاجأ بظلام دامس طغى على كل شبر منها، ولم يبق سوى نسمات مختنقة بعد أن أغلقت كل منفذ للتنفس أو مدخل للنسيم فأحكمت النافذة الزجاجية وباب الشرفة المطلة على الطريق، مدت يدها تستكشف مكان مقبس الكهرباء على جانب الحائط، أنارت ضوء الغرفة الخافت ونظرت بعينيها بحثًا عن أحدهم. " تعالي يا ندى أنا هنا " رنت نحو مصدر الصوت، فعلت نظراتها دهشة من منظرها الغامض، حتمًا هناك سبب قوي وراء حالتها المتردية، أمر دفعها للعزلة والانزواء وحيدة داخل حجرتها المظلمة، متكورة على نفسها وسط الفراش تكور جنين اغتيلت حياته عنوة بعد أن أسقط إلى الدنيا دون سابق إنذار، فعاد يمني نفسه بالعودة إلى عالمه البريء، وارت وجهها بلحاف ثقيل رغم حرارة الطقس الخانقة. يا له من انتحار بطيء، زفرت نفسًا متأففًا تضيق عيناها في عفوية ثم هتفت في استنكار لمشهد رفيقتها الرث: ـ " ايه يا بنتي اللي عملاه في نفسك ده؟ حرام عليكى الجو نار، انتي شكلك حابه تموتي مخنوقة؟ "لم تتريث في انتظار إجابة من الأخرى الراقدة على فراش من الانتحار البطيء فانطلقت صوب النافذة في تعجل وفتحتها على مصراعيها، أطلت بوجهها خارجًا واشرأبت بعنقها نحو السماء تتوق جاهدة في سحب أنفاس جديدة عبر فتحتا أنفها المتزايدة اتساعًا لتطلق زفرات من هواء مكدرة احتبست داخل رئتيها لثوانٍ، عاودت كرتها مع باب الشرفة الخشبي وفتحته بالمثل، قاصدة ترك ذرات هواء الغسق أن تخترق أجوائها الحصينة فتتخلل الأركان وتمشط كل ذراع منها؛ حتى تقتل حالة

الركود والاختناق التي خيمت عليها منذ فترة، مع نسمات أخر النهار المنعشة وبرفقتها ضياء شمس الغروب تطلق أشعتها الهزيلة فتضيء سكنات الغرفة الحزينة، كمرأى محاولة بائسة لبريق نجوم السماء في الدجى تسلط عنوة لتنير مقابر موتى رقدوا تحت التراب ـ" الساعة خمسة المغرب وحضرتك لسه نايمة؟!" صاحت ندى مزمجرة تتسمر بجسدها قبالة الفراش، لم تمنحها عُلا أي ردة فعل مما دفعها الفضول أن تنطلق نحوها كالسهم، أزاحت بقوة الغطاء المدثر لوجهها المحتقن في سرعة ما استطاعت معها المقاومة، لماذا كل هذا؟ خاطبت ندى نفسها سرًا، تكورت عُلا على نفسها في المنتصف تخفي ملامحها التعسة براحتها، ولكن هل بإمكان كفها الصغير أن يخفي خلفه وجعها الأكبر وملامحها البائسة!

أصابها ما أصابها بعدما رأت حالتها الرثة، فهتفت في ذعر تلبس قسمات وجهها المتيبسة وعينيها الجاحظتين مع فمها المنفرج: " علا، مالك عاملة كدا ليه؟!" أبت عُلا الكلام فبادرتها ندى تنكزها بيدها على ساقها وتهز جسدها المتصلب دون أن تفلح، وبعد محاولات يائسة جلست بجوارها على الفراش: " ردى عليا يا علا مالك؟ " شهقة مكتومة احتبست دون الانطلاق، قلما رأتها في حالة مماثلة من اليأس والتحطم، يوم وفاة والدها العزيز ومشهدها المبكي بعد فراق شقيقتها الكبرى، صدمة نفسية أخرى حتمًا، إن الأمر يدعو للقلق! تلك الثواني من الأفكار الخاطفة راودتها بعد أن مدت يدها وأزاحت كفيها المواريين لوجهها المكفر، عيناها المتورمتان وقسمات وجهها الشاحبة ودوائر سوداء طمست بريق عينيها العسليتين، مع دموع حفرت سبيلها على وجنتيها الذابلتين تسير في تأن عبر مسام جلدها الناعم لتلقي حتفها فوق شفتيها الباهتتين.

صرخت ندى في ذعر " ايه اللي عمل فيكي كدا يا علا؟ ايه اللي يوصلك لمرحلة اليأس والاكتئاب اللي انتى فيها دى؟!" انحشرت الكلمات في الصدور، وباتت العيون هي المرآة لمشاعر التحطم وخلجات النفس البائسة، أجهشت عُلا في بكاء عميق اهتز معه قلب ندى، كيف بإمكانها أن توقف نوبة انهيار نفسي يتمثل أمامها، نزيف آهات متوالية بين ذراعيها الحاضنين. ـ" خلاص يا ندى

خلاص، كل شيء راح".
أدت ندى دورها الأمومي على أكمل وجه، تحتضن صديقتها بين ذراعيها لتخفف عنها معاناتها المجهولة حتى نطقت عُلا بكلماتها الأخيرة، نظرت إليها تسأل في حنان الأم حين تحتضن وليدها لتخفف عنه معاناته الطفولية: " هو إيه اللي خلاص يا علا؟ انتي كدا قلقتينى عليكي؟!" لم تتوقف عن وصلة بكاءها العنيف، حاولت لملمة نفسها المتهاوية وأطرافها المرتعشة بفعل النحيب: " خلاص يا ندى مابقاش فيه أي حاجة، كله انتهى". انتقلت عدوى الانتفاض إلى جسدها المحتضن لرفيقتها، فانتزعت عُلا من بين ذراعيها ونظرت نحوها في جزع، تتسع عيناها عن أخرهما خوفًا من تصديق ظنون شائنة تهادت على رأسها دفعة واحدة: " لا يا علا انتى لازم تفهميني ايه دا اللي راح وانتهى"، تهزها في عنف دون توقف: " ايه فرطتي في نفسك يا هانم؟" رغم درامية المشهد إلا أن ردها العفوي أضفى على الموقف طابعًا هزليًا، فابتسمت عُلا في عفوية اختلطت بدموع وجنتيها المتقدتين بعد أن سحبت ذراعيها من بين قبضتيها وهمست ساخرة: " فرطت في نفسي ايه يا زفتة انتي، ايه جو التار ولا العار ده؟ انتى فعلا قديمة أوي!" زفرت ندى بقوة: " يخرب بيتك خضتينى، دا أنا كنت قتلتك يابت انتى!" أرخت راحتها فوق صدر ألهبته حرارة الشك وغابت عنه السكينة، تطلق هواء حار جثم على صدرها للحظات: " خلاص، كلكم شايفنى مستهترة وضايعة لدرجة انى اعمل حاجة زي دى؟" عاودت ندى اجتذابها إلى كنفها مجددًا، تستدرك بينما ترى علامات القهر المرتسمة على قسمات وجهها الشاحب وصوتها المنكسر: "لا يا لولو ما تقوليش كدا، انتى عارفة أنا بثق فيكي إزاي زي نفسي بالظبط، بس كلامك قلقني ورعبني بجد". التفتت تسحب منديلًا ورقيًا من حقيبتها، تسرح بأناملها فوق وجه الأخرى لتجفف به دموع أقسمت بعدم الكف أو التوقف، تابعت عُلا حديثها ناظرة لموضع قدميها مطأطئة الرأس:" بس خلاص يا ندى أنا بجد انتهيت، قلبي انكسر وحياتي انتهت". كفاها عبثًا بأعصابها، أم تراها تختبر درجة تحملها وذكاءها الكارثي حد معرفتها السبب وراء حالتها دون اعتراف منها؟ دوت صرخة ندى تنم عن نفاد صبرها: " ممكن بقا تبطلي عياط

وتحكيلى مالك عشان نقدر نتكلم وافهمك أكتر!" محاولات ندى للفرار بها من عالم الصمت لتعرف ما غاب عنها كان أشبه بعملية انتزاع معلومات سرية من أسير حربي، وبعد مثابرة تحسد عليها أفصحت أخيرًا: " أحمد يا ندى، أحمد!" رفعت ندى إحدى حاجبيها ومطت شفتيها في تساؤل: " أحمد مين؟ إنتي تعرفى حد بالاسم ده؟!"

"يوووووه لحقتي تنسى؟ انتى كمان جالك زهايمر!"، قالت غاضبة.

ـ" اه والله بتقولي فيها " ثم هتفت في سرعة كأنما عاودتها الذاكرة: "استني استني، الشاب اللي اتعرفتى عليه من على النت، صح؟ "

وبصوت خفيض يشوبه الانكسار قالت: " أيوة هو دا أحمد".

ـ" امممممممم وماله بقا سي أحمد عمل ايه الجدع؟ " ندى بنبرة قلق.

ـ " لقيته بعتلي رسالة وبيقولي اننا مش هنقدر نكمل مع بعض".

تفوهت عُلا بحزن، فعادت ندى تتساءل: ـ "مش دا اللي كنت بتقولي إنه هيموت عليكى وبيحبك وكلها فترة بسيطة وهييجى يطلب إيدك من خالك؟"

ـ " أيوة كل حاجة كانت ماشية كويس يا ندى لحد ما بلغني بالرسالة دى!"

ـ" طب وإيه اللي يخليه يقول كدا أو يبعد عنك ما دام بيحبك؟ وألا هو كان حب تيك أواي وخلاص!" اعترضت عُلا وقالت كأنما انتقلت لموقف المدافع:

ـ " غصب عنه يا ندي، طول الفترة دى كان مخبي عليا سر وكان خايف عليا لأعرفه ونبعد عن بعض". استمعت في دهشة لحديثها، ما زال الغموض هو سيد الموقف، صمتت تحاول أن تستقطب صبرها الذي نفد ثم هتفت بنبرة مختنقة: "سر؟ سر ايه بقا إن شاء الله يا حبيبة قلب ندى؟!"

مرت لحظات من الحديث حتى انكشف سرها المبهم وانجلى عنه الغموض، لم تتمالك ندى ضحكاتها المتدفقة من فمها المنفرج عن أخره، تضرب بيدها على الأخرى وتهز رأسها في انتشاء، هل هذا هو سره الخطير؟ يالها من بلهاء لا زالت تجهل الكثير!

حادثت نفسها سرًا، تطايرت نظرات الغضب من عيني عُلا المحدقتين بوجه ندى بعد أن شاهدت نوبة السخرية التي تلبست رفيقتها فأحالتها لدمية خرقاء.

-" ممكن اعرف حضرتك بتضحكى على ايه دلوقتي، بدل ما تواسيني في اللي أنا فيه
وتدعي له؟! "
-" طبعا لازم اضحك ولا هو الضحك بقا حرام كمان اليومين دول، بس أنا بضحك على هبلك انتى يا ست هانم يا اللي عملالى البت المسيطرة، أتاريكي طلعتي بلونة على الفاضي".
صاحت مندده:
-" أنا بلونة يا ندى؟ تقصدي ايه بقا بكلامك ده؟" -" اقصد أن سي الأستاذ أحمد كان بيشتغلك يا هانم كل الفترة دى وكنتي يادوب بالنسبة له مجرد واحدة في قايمة الحسناوات اللي عنده ع الميل ولما زهق منها وحب يخلص اخترع لها حجة حلوة أوى عشان يظبط الكدبة كويس!"
استنكرت عُلا ما تسمع، تحتج أذناها عن ثورة من الشك التي تسربت إليها مع كلمات الأخرى، هل حقًا أذناها الرافضتان لكل ما سمعت أم تراه عقلها الذي استيقظ بغتة من غفلته الطويلة! انتفضت عُلا في مقاومة، كناجٍ من غرق مفاجئ يحاول أن ينفض عنه بقايا قطرات شعور اللحظة:
- "ازاى تقولي كدا؟ أنا عمري ما حسيت إنه بيكدب عليا، كل كلامه ليا كان صدق ومشاعره..." صمتت لبرهة ثم عادت تلهث في بؤس: "لا لا لا يمكن يكون بيكدب!"
توقفت عن الكلام فجأة بعد أن تهادى إلى مسامعها صوت طرقات على باب الغرفة، أطلت الأم برأسها المطمرة بشال من القطن الخفيف من وراء دفة الباب كأنما تطالع الأخبار قبل أن تأخذ قرار بالدخول، انتزعت ابتسامة خفيفة من شفتيها الحزينتين بعد أن التقت نظراتها بعيني ندى، تقدمت تحمل صينية عليها قطع من الحلوى وأكواب من عصير، انفجرت أساريرها بعد رؤية عُلا جالسة بجوار الأخرى، لم تخطئ في قرارها، كان من الحكمة أن تطلب منها المجيء، فهي خير جليسة لابنتها الوحيدة ومكمن أسرارها الدفين.
- "شكرًا اوى يا طنط يا زوزو يا قمر، أنا هاكل كل الحاجات الحلوة دى لوحدي"

.

ابتسمت السيدة زينب في هدوء بعد أن بادرت ندى بحمل الصينية ووضعها على المكتب "أنا عوزاكى تاكلى وتخلى علا كمان تاكل".

قالت ندى مازحة ترغب في التخفيف من وطأة الموقف: "حاضر يا طنط من عينيا ما تقلقيش عليها، هو بس فيه عفريت عليها وأحنا هنحاول نطلعه سيبي الموضوع ده على نونة وأنا هظبطها لك!"

التفتت نحو عُلا وغمزت بعينها في مكر لتجعل الجميع ينفجر في الضحك، بعد لحظات عادتا للحوار مرة أخرى عقب انطلاق الأم خارج الغرفة، ـ" ممكن بقا تفهميني انتى ايه اللي خلاكي تقولي عنه إنه كداب؟" ـ" عشان الموضوع ده قديم أوووووى يا علا وحجة تافهة من شباب كدابة".

صمتت عُلا وهي مشدوهة تنصت في هدوء إلى حديث صديقتها التي تابعت: "أصلها للأسف بقيت موضة دلوقتى وأنا بنفسي قريت نفس تفاصيل المشكلة دى من اكتر من واحدة بتحكيها في منتديات بنات، الواحد من دول يرسم لنفسه دور الشاب المحترم ويدخل على البنت بشخصية الرجل المثالي وزوج المستقبل المنتظر ويلعب عليها دور العاشق الولهان ويعلقها بيه وهي في الاخر مجرد واحدة من ضمن قايمة طويلة عريضة من البنات على الايميل بتاعه، دا لو ما كنش عنده أكتر من ايميل وبأسماء مختلفة، ومع مرور الوقت لما البنت تبدأ تحبه وتتعلق بيه ويوهمها إنه خلاص هيتقدملها فجأة يطلع بحجة إنه مريض بمرض خطير خدي عندك بقا، مريض قلب ولا كنسر ولا حتى شلل أطفال وكساح مايضرش، المهم حاجة تمنعه من الجواز وتخلى البنت دى تبعد عنه".

عُلا تحدق في وجه صديقتها للحظات، لا تستطيع أن تصدق ما تسمع وفي نفس الوقت لا يمكنها أن تبعد تفكيرها عن الدرجة الكبيرة من المصداقية الذي ينطلي عليه حديثها ومنطقها، تنبهت الأخرى لشرودها، فقالت: "ايه هتفضلى سرحانة في وشى كدا كتير حضرتك؟ طب خلاص تحبى آكدلك صدق كلامي حالا وتعرفي إنه كداب؟" هتفت عُلا بالموافقة بدون تردد لكأنها قد ألقت إليها بطوق النجاة الذي سينتشلها من الغرق في بحر الأفكار والظنون:

-" ازاى؟ هتدخلى على ايميله؟"
-" أيوة، هفتح إيميلي من عندك وهدخل عليه وهكلمه قدامك وهطلب منه رقمه كمان وفي ثواني هيكون عندي وهيكلمنى".
انتفضت عُلا من مكانها وجلست في ثوانٍ أمام شاشة الحاسوب وإلى جانبها ندى التي فتحت البريد الإلكتروني الخاص بها، وفي لحظات كانت تحدثه وعُلا بجانبها تتابع الموقف في توتر:
"هاهاها والله أنت دمك خفيف خالص، بس بردو مش فاكر إننا اتكلمنا قبل كدا ازاى؟" كانت عُلا تحدق في المربع الصغير الظاهر على الشاشة والذى يعرض المحادثة بينهما وتترجم كل كلمة وكل رد من ردوده على ندى، في حين كانت الأخيرة تبعث الرسائل، ومع إجاباته تلتفت إلى صديقتها مبتسمة لتبين لها صدق وحقيقة ظنونها
"لا ازاى مش معقولة اكون كلمت العسل ده وانسى، دا أنا انسى الدنيا كلها ولا يمكن انسى الضحكة الحلوة دى". أطلقت ندى ضحكة عالية وهي تقرأ كذبه الفاضح عبر رسائله، ثم عادت ورمقت عُلا الجالسة بجوارها وقالت في نشوة الانتصار: - "شفتي حضرتك؟ ودلوقتى بقا أنا هثبتلك الاثبات القاطع على كدبه استني عليا"، عادت وبعثت له برسالة أخرى: "طب بقولك إيه يا أحمد معلش هضطر اقفل دلوقتى لان بابا بينادى عليا وأخاف يشوفني بكلمك". استقبلت منه رسالة على الفور جاء فيها: "طب هتفتحى تاني امتى؟ عاوز اتكلم معاكي كتير".
"لا مش عارفة هفتح تانى امتى حسب الظروف بقا، يلا سلام".
" لا استني استني ما تمشيش، أرجوكى أنا ما صدقت لقيتك، طب عندي فكرة حلوة ايه رايك تديني رقمك وابقى اطمن عليكى؟! اظن دى سهلة؟". عادت ندى للضحك مرة أخرى وهي تضرب بيدها على المكتب تعبيرًا عن الانتصار عليه وفي نفس الوقت تتابع عُلا ونظراتها المليئة بالغضب والحنق.
" امممممممم مش عارفة والله يا أحمد، بس أنا مش بدى رقمي لأي حد".
" وهو أنا أي حد بردو، ولا انتى مش بتثقى فيا؟"

" لا بثق فيك طبعا".
"يبقى خلاص ابعتى رقمك دلوقتى وانا هسجله عندي وابقى اطمن عليكى بالليل، أوك يا قمر؟"
"لا انت ابعت لي رقمك في رسالة وأنا هكمك". "طيب خلاص بس توعديني إنك ترنى عليا". قالت ندى بصوتٍ عالٍ كأنما تحدثه مباشرة بعد أن ابتسمت للشاشة في مكر وأرسلت له برسالتها الأخيرة: "أوعدك طبعًا يا عزيزي!" أنهت المحادثة ثم أغلقت بريدها الإلكتروني، وهو بدوره لم يتردد في أن يبعث لها برقمه الخاص في رسالة ثم التفتت إلى عُلا التي كانت لا تزال مشدوهة لا تصدق ما رأته بأم عينها: "ودلوقتي بقا هرن عليه عشان اسمعك صوته في التليفون". أخرجت هاتفها المحمول من حقيبة يدها ودقت رقمه في ثوانٍ بعد أن أخبرتها عُلا أن هذا الرقم يختلف عن رقم الهاتف الذي اعتاد محادثتها منه، فيصبح ذلك دليلًا آخر على وضوح نواياه الدنيئة وكذبه الاحترافي، اتصلت بالرقم ثم أغلقت الخط بسرعة لتجد منه اتصال بعد لحظات معدودة. ـ" اتفضلي يا ستي، الحبيب الولهان بيتصل". منحت الهاتف إلى صديقتها التي تناولته بيد مرتعشة، فتحت المكالمة فوجدت صوته على الطرف الآخر: "ألو، ألو يا أميرة فينك؟" وبسرعة انطلقت عُلا في وجهه كقنبلة كانت تنتظر لحظة نزع الفتيل. ـ "أميرة مين يا أستاذ أحمد، هو المريض اللي بيعمل عملية قلب مفتوح الصبح بيقعد آخر النهار يتكلم ع النت يا باشمهندس؟!" ـ" مين معايا أنا مش فاهم حاجة؟"
ـ "مش فاهم يا كداب يا سافل، أنا بكرهك وبلعنك في كل لحظة كدبت عليا فيها بس دلوقتى بتمنى إنك تكون مريض فعلا وبتمني الموت لأمثالك، أنا علا يا أستاذ، علا اللي كدبت عليها وفهمتها إنك مريض عشان تعملها ديليت من حياتك، بس الحمد لله إنك ظهرت على حقيقتك قدامى!" "تيييييت تيييييت تيييييت". الصوت على الطرف الآخر كان الرد المتوقع، أغلق المحادثة بوجهها في الحال وبدون تردد بعد أن انجلت مؤامرته الرخيصة وانكشفت أوراقه الكاذبة أمامها، وما كان منها إلا أن منحت الهاتف لصديقتها وألقت بنفسها على الفراش بسرعة، ووارت وجهها بين طياته وهي تجهش في البكاء والنحيب،

كالتي ترمي بخيبة أملها بين أحضان وسائده. أما ندى فما كان منها إلا أن تراقب المشهد في صمت، وضعت يدها على جبينها في تألم وهي ترى الحالة التي آلت إليها عُلا، استقامت من مكانها لتكون بجوارها وجلست على جانب الفراش ثم مدت يدها تربت على ظهرها في حنان وترمي بكلمات مواسية على مسامعها: "علا، أرجوكِ ممكن تبطلي عياط!"، لم تجد منها ردًا سوى أصوات لهاثها المتتابع وشهقات أنفاسها بفعل البكاء، فاستطردت: "صدقيني انتى ربنا بيحبك عشان نجدك من شخص كداب زي ده، مجرد واحد بيتسلى ببنت ومش عارف أو مدرك أن كل شيء بيعمله ربنا هيحاسبه عليه، وهتلف الأيام وتدور ويتمنى من كل إنسانة كدب عليها وظلم قلبها لو يرجع بيه الزمان ويطلب منها تسامحه، بس وقتها هيكون خلاص الأوان فات، وأكيد ربنا هيرزقك بشخص يستاهل حبك وقلبك الطيب ده، بس بلاش تتسرعي وعليكي بالصلاة والدعاء، الخير دايما لسه جاي ومكتوب يا علا".

*****

(١٠)

خاطبت نفسها في حيرة تامة وهي جالسة أمام الحاسوب بحجرتها تنتظر بالساعات اللحظة التي يظهر ويحادثها عبر الإنترنت، أو تنتظر أيام أخرى اتصال منه ليطمئنها عليه، يخبرها أنه بخير، ولكنه لا يأتي! النصيحة عندما تنطلق من أفواه المحيطين، فتستقر في عقول المتلقين، وترسو على ضفاف قلوبهم الحائرة، لتخط من جديد بأناملها الحكيمة مسارًا مستقيمًا لحياة البعض الذي انحرف بفعل أخطاء ارتكبت بدون وعى. ولكن هل من الطبيعي أن يقع الناصحون في الأخطاء ذاتها ليجدوا أنفسهم يرتكبون نفس الحماقات التي كانوا يومًا ما حكامًا وقضاة على مرتكبيها؟ هل هو ضعف في العقل البشرى الذي يتحكم باتجاهاته وأفعاله في كثير من الأحيان تلك الحقيقة المسماة عاطفة؟ تتملك وتفرض سيطرتها على جانب العقل فتجعله رهن إشارتها وجانب مسلوب الإرادة والتحكم؟ أم الحاجة للشعور بالتواجد الإنساني والمتعة المصحوبة بإحساس بالذات الذي يمنحه الآخرون؟! كثيرًا ما كانت تلك اللحظات التي يبتعد فيها ويختفي وتظل تنتظر ظهوره من جديد، ومع كلماته تُخلق الأعذار والظروف الطارئة التي تمنعه من محادثتها بالأيام، ويظل السؤال الذي تطرحه على نفسها الحائرة في كل مرة يبتعد عنها: هل أصبحت عبدة له ولحديثه؟ أم هل تستمتع بشعور التواصل واللهفة التي يبديها لها من حين لآخر ويشعرها أنها أميرة عالمه الصغير ورفيقة دربه المنتظرة؟ ولكنه الغموض الذي دومًا ما صاحب أفعاله وأقواله كثيرًا ما كان يضفي على تفكيرها شيئًا من الحيرة، شعور بعدم
الراحة والخوف من البعيد المجهول والذي وضعت بين راحتيه قلبها الصغير الذي لم يعرف قبله رجل ولم يسكن بشغافه ساكن.

غريب هو في نفسه، رجل فريد الطراز، باهت المعالم وغامض في كل الأوقات، ربما هي تلك الشخصية الفنية التي تحويها جنبات نفسه التائهة في عالم الفن

والإبداع، نفس ازدواجية لرسام موهوب يحمل أقلامه وأوراقه ويفر من واقعه باحثًا عن مكان بعيد تحت ظل شجرة وارفة الأوراق، أو على ضفاف نهر صغير في بلدته الريفية، تاركًا ليده المبدعة أن تخلق عالمًا من الخيال بعيد عن كل ما في الواقع. لعل إحدى الأسباب الكثيرة التي جمعت بينهما هو الحس المرهف والروح الفنية الساكنة بداخل كل منهما، هو رسام مغمور تخرج من كلية التجارة وعمل محاسبًا بإحدى الشركات الخاصة، مثال للشاب المكافح الذي اعتمد على نفسه رغم مكانة أسرته العريقة ومنصب والده المرموق، في حين لم يطغ حبه للأرقام ودراسته العملية على شخصية الفنان الهائم برومانسيته الطاغية على لوحاته وكلماته الهادئة وصوته الرصين الناعم، صوت فنان عاشق تشعر معه بدفء الرجل حينما يحتضن محبوبته داخل قلبه ويسافر إلى عالم لا يعرف معنى للقسوة والألم. هوايته للرسم والفن كانت النبتة الصغيرة داخل شخصية مركبة تحمل الكثير من التضاد والتباين في جسد شاب نحيل مهندم الطليعة متوسط القامة وهادئ الملامح، بينما هي بشخصيتها الفنية وعشقها للأدب والشعر وتذوقها لكل بيت من أبياته التي حفظتها لكبار الشعراء. أشياء كثيرة ومتعددة جعلت لعلاقتهما معنى جميل وغريب لا يشعر به إلا من ذاق حلاوته يوم من الأيام، ولكن مع ذلك لا تعرف كيف ستكون النهاية! يوم تلاه يوم حتى مرت الخمسة أشهر وهما يتحدثان ويقترب كل منهما للآخر إلى أن أصبح للقلب الكلمة الأولى والسيطرة الكاملة على النفوس. شعور الجميع بتغيرها يزداد يومًا عن الآخر، بينما كانت تحاول جاهدة أن تخفي تغيرها عن المحيطين، والمعاناة التي تلاقيها في إخفاء مشاعر تكنها لشخص لم تستطع حتى الآن أن تراه أو تجالسه ولو برهة لتستكشف شخصيته البعيدة، أو أن يمنحها لمحة أمل عن ارتباطهما في يوم من الأيام، إنها علاقة تتلخص في رسائل إلكترونية وبضع كلمات عبر الهاتف وصورة فوتوغرافية لشخصان يتشوق كل منهما للقاء الآخر، ومع كل تلك الأحاسيس المتراكمة كانت تزداد آلامها الدفينة وإحساسها العميق بالتشتت والضياع في علاقة غريبة مع إنسان هو الأغرب، إلى أن أتى اليوم الموعود ليكون الحد الفاصل لحب كتب له الموت قبل أن يبدأ، النقطة

التي وضعت نهاية قصة من ارتباط وهمي وبداية لحياة جديدة خطت معها أولى خطواتها بتفكير وروح أشد قوة من السابق، يوم تبدأ فيه حياة إنسان مع من اختاره له القدر، ليكون هو نفس اليوم الذي ينهي بساعاته حياة أناس آخرين، إنها مفارقات الحياة وعلى الجميع أن يتعلم. خرجت مع عُلا في ذلك اليوم إلى السوق لشراء بعض الأغراض المتعلقة بالزفاف، فاليوم الموعود قد اقترب ومن واجبها أن تكون بجوارها إلى أخر هفوة حتى تطمئن عليها في عش الزوجية، اختارت ندى كل الأشياء بعناية شديدة وبشغف الأنثى حينما تسارع لاقتناء كل قطعة في مملكتها الصغيرة وعش السعادة المنتظر كأنما تتهيأ لتكون هي العروس في ليلة زفافها. انتهى التسوق ومعه خارت قواهما وتسلل الإرهاق والنصب ليجتاح جسديهما المنهكين من كثرة السير والتنقل من محل لآخر ومن سوق لأخرى، ولكنها نظرات السعادة قد أطلت من عيني صديقتها لتبدد كل شعور بالآلم، وحدها فرحتها بليلة العمر كفيلة بزحزحة أي شعور آخر إذا ما حاول أن يدنو ليعكر صفو لحظات لن تكرر مع الزمان. لم تتمكن من إمداد لحظات الاسترخاء المختلسة بحجرتها بعد أن بدلت ملابسها وألقت بها على المخدع دون اكتراث، فهل تستطع التملص من استجوابها الدائم عقب رجوعها كل مرة من الخارج، الأم حتمًا تتشوق لسماع أخر الأنباء بحجرة المعيشة.

حملت نفسها بتثاقل تجر ساقيها المتورمتين بعد ساعات من التبختر في الأسواق وحمل أثقال من أكياس الحاجات والمشتروات حتى وصلت لحجرة المعيشة وألقت بنفسها فوق الأريكة الكبيرة المتسعة لفردين لتأنس بقرب والدتها مع ابتسامة شوق لسماع ثرثرتها حين تحدثها عن تسوقها المثمر مع صديقتها العروس، مصورة الأخرى بفرحتها وهي تفرز كل قطعة، تسرح بخيالها وتتذكر أين ستضعها بمكانها المناسب. قرابة الساعة والحديث مستمر والأم ترنو إليها في بهجة أطلت على وجهها الباسم وعينان تلمعان بنظرة اشتياء لرؤية ابنتها بثوبها الأبيض وبجوارها رجل حقيقي يمنحها قدر ما تستحق من السعادة والقرب . اعتدلت الأم بجلستها، تزحزح جسدها المتخم بثقل وزنه الأزلي واقتربت في هدوء من ابنتها ثم وضعت يدها على فخذها في حنان مائلة برأسها قليلًا في

تأثر وقالت: "عقبالك يا حبيبتي يا رب، شيفاكى مبسوطة أوى وانتي بتتكلمى عن فرح علا؟!" ابتسمت ندى في خجل بعد أن دنت منها دعوة الأم بالزواج القريب، كأنما اتحدت مع ترانيم قلبها العاشق فرقشت لوحة بديعة من أمنيات سكنت لسنوات بقلبٍ عذري، لتمر لحظة استقطعت بغتة من الزمان، تنقلها بخيالها إلى الحلم المنتظر. من تلك الآتية المقتربة في صمت رغم تعالي أصوات المهنئين؟ ثوبها الأبيض يختال على جسدها اليافع ويضيء وجنتيها المتقدتين بشعلة سعادة خمدت لسنوات أسفل جوانحها المشتاقة للفرح، باقة من زهور بيضاء تفتحت خصيصًا في ذاك الصباح لتغدو منتعشة بين راحتيها الرقيقتين، ترنو نظراتها نحو البعيد المنتظر في تأنق ببدلته السوداء المهندمة وجسده الأهيف، قامته المنيفة وصدره العالي، تسرع خطاها لتقترب من حلم العمر، تتلقف يداها كفه القوي فتلتقى العيون ويستهل حديث الروح، تزف وسط زغاريد المدعوين وابتسامات الأبوين المنفرجة عن أخرها. أطبقت جفنيها فوق بريق تلألأ بعينيها الحالمتين مع أنفاس مسكرة بحلاوة اللحظات الماضية، انطلقت في سرور من بين شفتيها المواربتين، فقد عادت للتو من رحلة الأحلام وهبطت مرساتها فوق أرض الواقع لتترك الأمانى بيد القدر.
التفتت إلى الأم في غمرة سعادتها وهتفت: "طبعا يا ماما فرحانة أوى عشان علا، ما تعرفيش أنا بحبها ازاى، زي أختي بالظبط وصديقتي اللي عاشت معايا أحلى سنين عمري". ثم استطردت في حزن كمن تروي ملحمة من الشجون الإنساني: "ما تعرفيش يا ماما علا دى عانت في حياتها إزاي، وتعبت أوى بعد وفاة والدها وقبله وفاة أختها الكبيرة، يمكن ربنا بعت لها خطيبها ده في الوقت المناسب عشان يعوضها عن حاجات كتير". أوثقت الأم قبضتها فوق يد ابنتها بعد أن ربتت عليها بحركات ناعمة وهمست في حنو: "طب وانتي يا نونة، مش نفسك تستقري كدا زيها وتلاقي ابن الحلال اللي يسعدك ويهننك؟" ابتسمت في مزاح وقالت: "وهو فين ابن الحلال ده يا ماما اللي هيقدر يعوضني ويفهمني، وفي نفس الوقت أحس إنه راجل ويكون شريك حياتي وبالمواصفات إلى بتمناها؟" اعتدلت الأم في جلستها لتكون مباشرة في مواجهة الأخرى وهتفت

في حماس: ـ "موجود، وكله تمام وزى ما انتى عاوزة بالظبط". عقدت ندى حاجبيها في اندهاش بينما تنظر للأم وقالت: "هو مين دا اللي موجود يا ماما، ايه هتشتريهولى من السوبر ماركت ولا هتعمليهولي تفصيل؟" صاحت الأم بابنتها موبخة: "يوووووه يا ندى على هزارك أنا بتكلم بجد، العريس اللي انتى عوزاه بنفس المواصفات دى موجود وعاوز يتقدم!" مس من السحر ربما قد طالها بيده الغاشمة فطغى على ملامحها الشرود والصمت وانحشر الصوت بحلقها يأبى النفاذ، تناولت مسرعة كوبًا من الماء من فوق المنضدة الصغيرة وتجرعته دفعة واحدة لتزيح نوبة من سعال قوي رافقتها لثوانٍ، ثم عادت تستقطب بعض من نسمات الهواء المتجددة، في حين تابعتها الأم في دهشة: "بسم الله الرحمن الرحيم ايه يا ندى مالك؟ كل دا عشان قلت لك إن فيه عريس؟ امال لو عرفتي هو مين هتعملى ايه؟ وإن أبوه جاي بكرة عشان يشوفك، هننقلك العناية المركزة؟!" في تلك المرة لم تضحك كعادتها على مزاج الأخرى بل كان الشرود وحده المسيطر عليها ومؤنس تفكيرها الذاهب بعيدًا. هل يمكن أن تتزوج في نهاية المطاف زواجًا تقليديًا من رجل لا تعرفه أو ترتبط دون قصة حب مثلما رغبت منذ نعومة أظفارها؟ أم ستنطوي صفحات حكايتها بتلك السهولة والسطحية ليسدل الستار على حياة شابة بمقتبل العمر بالزواج العادي والأسرة والأطفال؟ دفعها إلحاح الأخرى لاستكمال الحديث فقالت في تلعثم: "انتى عارفة يا ماما إني مش بحب الجواز بالطريقة دي ولا عمري فكرت إني أتجوز جواز صالونات، أنا مش عروسة حلاوة عشان حضرته يجي يعايني ويشوف البضاعة وبعدين يقرر يتقدم ولا لا". صاحت الأم في اعتراض واضح ولهجة حازمة: "عروسة ايه وبضاعة ايه يا هبلة انتي؟ دا أبوه مختارك انتي من بين كل البنات عشان عارف أدبك وأخلاقك وهو اللي رشحك لابنه كمان!" علها مبادرة لقلب الحقائق وإخفاء توترها البين قد تفلح في إنهاء الأمر، حادثت نفسها المرتعبة وقالت في استنكار: "يا صلاة النبي أحسن، هو كمان أبو حضرته هو اللي مختارنى وسيادته لسه ماشفنيش ولا يعرف شكلي! هو لسه فيه جواز بالمنطق ده يا ماما، حرام عليكم؟!" الأم وقد التفتت بكامل جسدها

كالتي تستعد لنشوب قتال: "حرام عليكى انتى لما تضيعي فرصة زي ده، انتى عارفة العريس مين ولا بيشتغل ايه؟ لما تعرفي ابقى احكمي الأول عليه وعلى شخصيته". ضربت ندى بيدها على الأخرى تصفق في غيظ مكتوم: "يلا اشجيني يا ماما، يا ترى مين العروسة الحلوة؟ يوووووووه آسفة، قصدي عريس الهنا!" رفعت الأم حاجبها الأيسر في غضب تتابع انفعالات ابنتها المعتادة وهتفت: "آه، اعملي لي الشويتين بتوعك زي كل مرة، بس المرة دي بجد عريس مايترفضش". ثم تابعت في إصرار: "خالد ابن طنط رتيبة الله يرحمها فكراها". وبحركة عفوية وضعت يدها فوق رأسها تتحسس خصلات شعرها المنسدلة على جبهتها ولا زال التوتر يسيطر عليها وسألت: ـ "خالد، ابن طنط رتيبة! تقصدي أبوه عمو حسين ابن خالة بابا؟" ابتسمت الأم لمجرد ذكر الأمر وأجابت: ـ "أيوة هو يا ندى، بس دلوقتي بقا ايه حاجة كبيرة أوى، اتخرج من كلية هندسة واشتغل في القاهرة في شركة طيران وكفاية أن له شقة في القاهرة، يعنى هتعيشى هناك زي ما كان نفسك من زمان، ها ايه رأيك؟" تساءلت في اندهاش كالتي تحادث نفسها: "بس ايه اللي فكرهم بينا ولا بيا وليه باباه اخترنى من بين كل البنات؟!" تابعت الأم شرحها بحماس شديد: ـ "انتى عارفة إن الحاج من زمان بيعزك قد إيه، من أيام ما كانت مراته بتقعد تقول عاوزة ندى لحد من أولادي، وسبحانك يا رب أهو جه اليوم اللي يفكر إنه ياخدك لابنه خالد بعد ما كبر وما شاء الله بقاله شغل مضمون ومستقبل كويس".

ـ"بس ازاى يا ماما شاب عايش في القاهرة لسه بيفكر إنه يتجوز بالمنطق ده؟ أكيد فيه عيب ولا حاجة؟!" لن ترفع راية الخنوع أو تعلن الانهزام قبل أن تجود بكل ما أوتيت من حيل فطنة واستراتيجيات حربية للدفاع عن حقها المشروع في اختيار شريك العمر، فحاولت بأسلوب ذكي تشتيت تفكير الأم وصرفها عن الموضوع الرئيسي، مع إبراز عيوب تجعل من الموافقة على مشروع الزواج منه أمرًا صعب المنال، إنها محاولة بائسة في إخماد الحرب المشتعلة داخل رأسها المترنح وصراع قائم بعقل يتمنى الارتباط بشاب يحمل نفس مواصفاته، وبين قلبها الذي يرنو لقصة حب تشعل لياليها بالسهد والأشواق، وإلى محمد ذلك

الغريب، فهل سيوجد حقًا من يحدث ذلك التجانس العاطفي والتألف الروحي مع نفسها الفنانة؟! باءت كل محاولاتها بالفشل وهي تحاول إبعاد الأم عن التفكير في الأمر، في حين لم تهدأ الأخيرة أو تتوقف لحظة واحدة عن الحديث والثرثرة بعد أن قذفتها بالقنبلة الأخيرة، سيحضر والده في الغد ليراها ويتحدث مع والدها عن الأمور إلى حين نزول ابنه في إجازة أسبوعية حتى يحدث اللقاء المنتظر بين الطرفين في وجود الأهل.

كلمات الأم كانت تدق في عقلها دقًا مدويًا كنواقيس خطر أو حفلة مسائية لفرقة طبول على أنغام عقلها المشتت، دومًا ما تأتيها الفرص في أوقات غير متوقعة، ولكن كيف الخلاص من تلك الورطة التي وضعها القدر بها كالعادة؟ تلك الحالة التي اجتاحتها من التخبط والتفكير طوال الوقت والبكاء ليلًا وهي تفكر في الارتباط بشخص غيره، عساها مشاعر حب أو عاطفة لهفة لأول رجل يشعرها بوجودها الملح في حياته والحاجة إليها ليلعب بحرفية فوق نقطة ضعفها الكبرى، ألا وهي العاطفة فيجعل القلب يطغى بسهولة على العقل . أتى اليوم الثاني، وجاء الضيف المنتظر والد العريس، جلس كالمعتاد في غرفة الصالون ببدلته العتيقة وجلسته الواثقة، ولحيته التي كساها الشيب فطغى على ملامحه وقار وطيبة. لم يكن هناك من جديد، لحظات ترحاب وأحاديث حنين وذكريات من الماضي، حتى أتت اللحظة الموعودة، تطرق الضيف إلى الأمر طالبًا يد الفتاة لابنه المصون، انشرح صدر الأب وهو يسمع كلمات الضيف، فانفرجت أساريره واندفع بظهره إلى الوراء مستندًا إلى الأريكة وارتفع صدره بحركة لا إرادية ظاهرًا العزة والكرامة، متفاخرًا بمجيء اليوم الذي يأتي فيه من يتقدم لابنته الصغرى. ـ "طبعا طبعا يا حاج احنا أهل ولينا الشرف بمجيتك النهاردة، اتفضل اتكلم وادخل في الموضوع". لا زالت محتجزة بغرفتها قرابة الساعة في انتظار لحظة انطلاق الضيف خارج المنزل مودعًا أهل البيت الكرام، وعلى الرغم من ذاك الشعور بالضيق حين تطرأ عليها فكرة الزواج من رجل لا تعرفه حق المعرفة، لم تره منذ سنوات ولم تعتد الحديث معه، أو إبعاد خلدها عن محمد المجهول الذي امتلك بشخصيته الفريدة جزءًا من قلبها الوليد في

دروب الحب، كل ذلك لم يتمكن من إخماد شعور الفضول الأنثوي لفتاة حين يتقدم لها من يطلبون يدها الشريفة، ومن ثم فقد ارتدت ملابسها في تأنق كعادتها وجلست خلف الباب تتلصص على الجالسين بالخارج وتنصت لثلاثتهم في تمعن، بداية من الترحيب الحار بالضيف العزيز وتقديم الحلوى والمشروبات ونهاية بالتطرق للماضي والحنين لذكرياته القديمة، مرورًا بالحديث عن العريس المنتظر ونزوله في إجازة أسبوعية حتى تحدث المقابلة بين الاثنين.
سمعت كل شيء، كم يكون الصمم أحيانًا أكثر نعمة من الإنصات، أو عله العلم بالأمور يصبح نقمة على أصحابه! ليتها الكلمات لم تتطرق إلى أذنيها المصغيتين من خلف الباب الخشبي، أو تنساب في رعونة إلى عقلها المترقب لتزيد من شتات سينمو بداخلها مع الوقت حين يمنحها والديها مساحة من التفكير لتبت في الأمر وتبدي رأيها في العريس المنتظر. إنه التباين بين عقل يقبل به كشاب يحمل مواصفات تؤهله للارتباط والزواج الناجح، ما زال بمقتبل العمر، حقًا ناجح بكل المقاييس العرفية للزواج؛ شاب يعمل بمكانة مرموقة ومعه ستحقق كثير من أحلامها بالاستقرار والرفاهية ومستقبل علمي ينتظرها بعد أن تبدأ في استكمال دراستها حلم العمر. الآن قد منحتها الحياة فرصة جديدة تُرمى تحت قدميها القويتين وهي الفتاة المتطلعة في بلد لا يقدر معنى للطموح الأنثوي سوى الزواج وتربية الأبناء وخدمة الزوج، في بقعة لا يشعر بها أحد وسط آلاف الفتيات المجهولات واللاتي ينظر إليهن على أنهن فقط مشروع مثمر للزواج وإنجاب ذرية قوية من الأطفال الأصحاء، ولكنه ما زال هناك، يقف على الجانب الآخر من الشاطئ، يرقبها بعينيه العسليتين وقامته المعتدلة بينما تضرب الأمواج بإصرار حتى تلقى أنامله الصغيرة بين راحته الدافئة ليقبلها في ود ويزفها إلى عش السعادة والوئام، منزل تصبح فيه سيدته الأولى ورفيقة سيده ومولاه، أمًا لأولاده وخليلته بمشوار العمر. دقات هادئة فوق باب حجرتها أيقظتها على حين غرة من أحلامها المتناطحة، أمواج بحر تتلاطم ولا ينتصر أي منها على الآخر. ـ "يلا يا ندى تعالي، عمو عاوز يشوفك". التفتت إلى الأم بعصبية: "عاوز يشوفني ليه بقا إن شاء الله؟ ما هو عارفني كويس وحافظ

شكلي كمان؟!» حبست كلماتها بعد أن باغتتها قبضة الأم فوق فمها النافر اعتراضًا على أسلوبها الفظ وخوفًا من أن تطرق كلماتها أذان الأب أو يسمع الضيف شيئًا من الحديث. نظرت نحوها بحزم وقد اتسعت عيناها في غضب: «وطي صوتك، الراجل يقول عليكى ايه قليلة الأدب؟! بقاله كتير ماشفكيش فيها ايه دى؟ يلا تعالي ورايا». زفرت بحرارة ترفض واقع فرض عليها، بينما تطأ الأرض بقدميها المتمردتين وتلوح بيدها في الهواء تأبى الخروج لتأدية مشهدها التمثيلي في رحلة البحث عن الزوج المناسب. أتى الليل أخيرًا بعد زيارة امتدت للساعتين، سكنت الأجواء وساد الصمت في الأرجاء ولكن كيف لروحها الثائرة أن تخبو لحد سلبت منها لذة النوم وهناءه، لم يدعها الفكر بحالها أو تستمتع بساعات راحة وسكينة، وبعد تفكير عميق حسمت أمرها، إنه أمر واحد لا ثان له، قرار سوف ينهي الأمر برمته ويضعها على الطريق الصحيح، وبسرعة هتفت تخاطب عقلها المتخبط بين أفكاره الكثيرة، ستحادثه اليوم عبر الهاتف أو تراسله عبر بريده الإلكترونى، ستبحث عن أي وسيلة للوصول إليه وتخبره عن كل ما حدث، ستطلب منه أن ينقذها من غرقها المحتم وينتشلها من بئر حيرة رماها بداخله ثم تركها وحيدة تحاول النجاة، قرار صائب هديت إليه حتى وإن كانت الحقيقة صادمة، فالأمنيات بعض منها يختفي والأحلام الوردية تذهب ولا يبقى سوى واقع حتى وإن كان قاسيًا في كثير من الأحيان.

*****

(١١)

حملت الكوب بكلتا يديها المرتعشتين ورفعته صوب فمها، ارتشفت منه القليل لتسقط قطرة من دموع تلألأت كحبات الكريستال بعينيها الباكيتين، حملت الأخرى الكوب من يديها ووضعته فوق المنضدة الصغيرة وهما جالستان بحجرة الصالون بمنزل عُلا العروس الجديد. عُلا وقد اقتربت من ندى وجلست بجوارها على الأريكة ذاتها: "ندى يا حبيبتي، ممكن تهدي عشان نعرف نفكر كويس مع بعض؟!" عادت أنفاسها في تتابع ما بين شهيق قوي وزفير متقطع ورعاش يهز أطراف يديها الصغيرتين: "مش عارفة اهدى يا علا، مش عارفة أتصرف ازاى أو أعمل إيه، مش عارفة الاقيها منين ولا منين". تلقفتها زراعي ندى من خصرها لتضمها في حنان إلى صدرها، فاستطردت وهي تبكي: "من ناحية عريس كويس ومتقدم لي وفيه كل المواصفات اللي بتمناها، ومن ناحية تانية محمد اللي مش عارفة اعمل معاه إيه، وفي كل مرة بسأل نفسي هل هو بيحبنى بجد وعاوز يكمل معايا ولا إنسانة بيرتحلها وخلاص وواحدة بتعوضه عن حاجات بيفتقدها وفي الاخر موضوع وهينتهي؟!" ثم تابعت كأنما تحادث نفسها بينما ترتشف دموعها المتدفقة: "ولا يمكن القدر عشان يعذبني أكتر حطني في طريق شاب فقد الثقة في كل البنات عشان تجربة مؤلمة مر بيها زمان، تفتكري هو بينتقم منها فيا؟! أنا مابقتش فاهمة حاجة يا علا!" - يا ندى يا حبيبتي، الأمور عمرها مابتتحلش بالطريقة دى، لازم تهدى عشان نعرف نفكر مع بعض وصدقيني أكيد هتلاقى حل". ندى وهي منخرطة في البكاء: "حل ازاى بس يا علا، انتى لو مكاني هتعملى إيه؟" أطلقت عُلا ضحكة رقيقة وأفلتت ندى من بين ذراعيها ونظرت إليها: "ياه يا ندى، شايفة الأيام ازاى بتلف وبتدور بينا، فاكرة لما جيتلك وطلبت مساعدتك وكنت في نفس الموقف ولقيتك بتمديلى ايدك وبتنتشلينى من حالة اليأس اللي كنت فيها، دلوقتي أنا مش هقدر أشوفك بتنهارى وأسيبك

تدمري نفسك، انتي لازم تكوني أقوى من كدا".
شردت ندى برهة تتمعن في حديث صديقتها، حقًا يا لعجب الأقدار! كم يحمل ذلك القدر بين طياته كل جديد ويخبئ فوق صحفه مفاجآت لا تخطر على بال أحد! منذ شهور كانت هي من تواسي الأخرى، تلك الجالسة على مقربة منها تحتضنها بين ذراعيها وتشد من أزرها وتواسيها على كربها، كانت يومًا من تحتاج للعون والمؤازرة، واليوم هي من تبغي ذلك العناق وتلك الضمة الدافئة لتلقي إليها بسر ما عادت تقوى نفسها الواهنة على حمله. استأنفت عُلا حديثها ناظرة بتمعن في عيني صديقتها البائستين: "لازم تكوني أقوى من كدا، مش لازم تجربة زي دى تهزك أو تضعفك، صدقيني نصيبك مكتوب عند ربنا، وافتكري إن الخير لسه جاي وأفضل ليكي، مش دى جملتك ليا بردو ولا نسيتي؟!"

*****

انتهت جلسة اعترافات مُعذبة، الآن تجلس وحيدة تسترجع أخر كلمات رفيقتها النصوح، طاحونة تدار على دقات قلبها المرتعب فتزيد من تدفق الأفكار بشرايين لب أشعلته نيران الحيرة والخوف، كل ما تفوهت به شفتاها صحيح، ما من سبيل إلى النجاة سوى الصبر والتحلي بقوة الإرادة، حتى لو كان فيه شقاء لقلبها المعلق به، فالمستقبل لا زال أمامها بساط ممهد من الأحداث الغامضة. هل هناك مفاضلة ما بين القلب والعقل؟ كيف بإمكان البشرية أن تحل تلك العقدة الأزلية لصراع ما له من سبيل؟ حقًا سأتمكن من العبور من بوابة تلك الأزمة الجديدة وسأجتاز بمهارة اختبارها الأول في قوة تحمل الصبر وقسوة الفراق؟ علها لم تكن عقبة جديدة أو عائقة أبدية الحل، بل هي معضلة تافهة في حياة الآخرين وجريمة كاملة في حق قلبي الصغير! ماذا عساني أن أفاضل؟ تراه الزواج من رجل ميسور يحقق لي كل ما تاقت له نفسي الغارقة في بحر أمانيها البعيدة أم أسير معصوبة العينين ملثمة العقل خلف نداء قلبي الوليد يهتف لي بقصة حب تفوح بأريج الرومانسية والخيال؟!
رافعة يدها كانت، تبتهل بالدعاء إلى الباري أن يمن عليها بالهداية وينير دربها بنقطة ضوء من أمل، إنه ضجيج مزعج يزيد من معاناتها في تلك اللحظات

الطويلة، ولكن مهلًا، لا يمكن أن يحيلها القلق في تلك الحظات إلى حالة من التشوش والهلوسة حد جعلها تسمع أصوات عقلها المنزعج! إنه صوت منبعث من الخارج، ضجيج ينفذ في الظلام ويخترق الصمت المخيم على المنزل في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

هبت واقفة واتجهت صوب باب الغرفة، أدارت مقبض الباب النحاسي وفتحته، ما من شيء عدا تلك الظلمة الممتدة تحتل الأركان، حد بسطها نفوذها على نسمات الهواء المحتبسة في الصالة الكبيرة المتوسطة للمنزل، فالكل نيام وما من أحد، لا يمكن أن يصل بها الأمر لتهيء الموقف.

عادت تجر أفكارها المندية من طرفها المرتعب خلفها تهم بالعودة إلى غرفتها حتى تهادى إلى أذنيها صوت صراخ ينبعث من الجوار، إنها غرفة علاء! هل أصابه من مكروه؟ حملت نفسها ببطء صوب الباب، طرقت عدة طرقات ولكن ما من مجيب، أطلت بعنقها المشرأب من خلف ضفتيه المواربتين بعد أن فتحته في خوف، لاحت نظراتها بحثًا عن إجابة. ـ "انتي واقفة عندك بتعملى إيه، ازاى تدخلي عليا أوضتى من غير ما أسمحلك؟" انتفضت في ذعر، كان صوت الآخر الغاضب بعد أن لمحها بقامتها الهزيلة تلوح خلف الباب، شرعت تشرح الموقف ولكن كيف لها وهو لم يمنحها فرصة للحديث ليحملها كالعادة ويلقي بها خارجًا دون تردد، صفعة أخرى أمام الباب ولكن كيف تنسى أخرى كبرى اخترقت أذنيها بغتة لتحيلها كدمية مسحورة لا تصدق ما تسمع. لحظات من شرود قبل أن تحمل نفسها وتعود أدراجها نحو غرفتها لتبدأ في نوبة بكاء مجددًا.

جفاها النوم في تلك الليلة العصبية واحتل مكانه حالة من الأرق والذهول، كلمات الآخر عبر الهاتف تترد بأصداء أذنيها مرارًا وتكرارًا، أسطوانة تعذيب لن تنساها كلما عاودتها الذاكرة لتلك الليلة بينما تراه ينعق بقوة عبر الهاتف: "وأنا مالي بالدكتور النفسي ولا غيره؟ وتروحيله ليه أو تحكى عن علاقتنا ليه؟" تعالت عقيرته بصراخ مزعج: "وهو حضرته عاوز يشوفني ليه بقا كان من باقي أهلك؟ لا ياستي أنا مش هروح لحد ومش مستعد للارتباط دلوقتي، وانتي عارفة كدا كويس!" إنها تشعر بها، تلتمس ذاك الوجع المستتر خلف ابتسامتها الباهتة

وروحها الهائمة ودموعها الساقطة دون دعوة من أحد! ألم تشاطرها نفس الألم والوجع والكرب؟ تلك الأنثى المجهولة اللقب والذائعة الصيت لرواية من الشقاء الأبدي تسطر كل يوم في صحف صاحبات القلوب العذبة وتكتب بماء عيونهن المراقة بشراب الألم. كيف ستثب فوق رفات قلبها الذبيح؟ إنها تدرك معاناتها الحالية، ألم تصبح رفيقتها منذ تلك اللحظة في قصة من الوهم اسمها الحب؟ حقًا أشرقت بصوتها المتهدج وآهاتها المستكينة عبر الهاتف لتذكرها بروايتها المغمورة عن العالمين، قصة نسجت من خيوط العتمة لتحيا في الظلام وتعود لتموت في الظلام، شهور معك يا محمد ولا زلت أجهل نهايتي على يديك وقصة تلك الدمية التي صنعتها بيديك وغدوت تحركها بين أصابعك الرشيقة وتلقي بها وقتما تشاء. لن تدمع كالبلهاء، بل ستنتحب في صمت كالعادة، ماذا عساها أنت تفعل حين تسقط الأقنعة وتظهر الوجوه؟ أجساد متعددة والوجوه متطابقة حتى الأنفاس الكريهة هي ذاتها برائحة غدرها وأنانيتها! محمد هو أنت يا علاء وأنا لست سوى شبح لجسد فتاة أخرى تتعذب في بقعة أخرى على سطح البسيطة، كلنا متشابهون في الآسى متقاربون في الآثام.

لم يخيل لها يومًا أن تمر عليها تلك اللحظات وهي ترى أخاها بموقف الثاني وتسقط نفسها بدور تلك الفتاة الضحية بمسرحية مأساوية اسمها دوائر القدر، في حين لم يدرك يومًا أن ما اجتره من ألم ومرارة للغير سيأتي من يذيق شقيقته كأس من المرارة والخداع. "يا لجبروتك أيها القدر وما أقساه من انتقام!"، حوار سري في جلسة مغلقة ما بين قلب ملتاع وعقل مشتت وعينين تجهش بالبكاء بين جدران غرفتها الشاهدة الوحيدة في صمت. ولكن ربما هي إشارة إلهية منحتها إياها الظروف على طبق من ذهب لتكون الاختبار الأقوى لصدق نواياه، ورقة رابحة ستلقي بها بين عينيه وفوق طاولته، ستقامر على حبه لتظهر لها المواقف ما أخفته الأيام!

*****

(١٢)

حان الوقت، إنها تلك الليلة الموعودة التي أهدتها قرارها الحاسم، ستتوقف عن محادثته، ستغلق كل باب يمكن أن ينفذ منه إليها من جديد، ستسد ثقوب خلقها بقلب أنثاه الضعيفة وترتق فراغات روحها الضالة بحثًا عن السكنى، إنها أخيرًا وبعد تفكر وتدبر ستتوقف عن محادثته! لم يكن قرارًا هينًا بالنسبة له، شعر بابتعادها المفاجئ مع تلاشي اهتمامها المعهود وسؤالها الدائم عنه، لم يتردد في الاتصال، سيلاحقها في كل وقت كلما واتاه الشوق أو قتله الحنين ليلًا إلى صوتها الدافئ وعباراتها العنبرية، دون أن تفلح محاولاتها القتالية في الاةبتعاد أو الصمود في وجه هجماته المفاجئة في كل الأوقات، حتى استسلمت. ـ "أزيك؟" ـ"الحمد لله". ـ"اختفاءك مفاجىء!" "أمممممم، أنا بخير، أتمنى تكون تمام!" ـ "مش عارف أقولك إيه، ظروف كالعادة وأمور متلخبطة". ـ"خير ياترى؟" ـ "عمي كان في المستشفى، حادثة كبيرة نجا منها بأعجوبة والدنيا مقلوبة في البلد، يمكن دا سبب إنشغالى الأيام الأخيرة". ـ "آها والله، امممممم طيب ربنا يعينك، دى اختبارات مش أكتر!" ـ"مختفية بقالك فترة؟ وعلى فكرة وحشتيني" . ـ "أحيانًا الاختفاء بيكون نجاة". ـ"وكتير بيكون هروب، والهروب ضعف". "لو الضعف هو النجاة بالنفس من الاستسلام والذل يبقى أهلا بيه". ـ" وعلاقتنا ضعف؟" ـ"تقصد خضوعى ليك واستسلامي زي مريضة بتتشبث بالحياة ضعف، تقصد انتظاري ليك بالأيام بس عشان تقولي إنك افتقدتني ضعف، تقصد قبولي التخفي وكأني مجرمة خايفة من العقاب باسم الحب ضعف، تقصد انقيادي لمشاعري وأنا مغمضة عيوني وراك ضعف، تقصد إن بكرة مجهول ومع ذلك لسه متمسكة بيه معاك بردو ضعف!" ـ"لسه مصممة على فلسفة كل شيء في حياتنا وكأنك قديسة!" ـ"زي إصرارك على إنكار الحقيقة مع إنها واضحة ومكشوفة" . ـ"وإيه هي الحقيقة؟ البعد؟" ـ "محمد، أنت عاوز مني إيه؟" ـ "عاوز منك

إيه؟ سؤال غريب ومش بتزهقى من ترديده". ـ"وأنت عمرك ما زهقت وأنت بتهرب من إجابته أو تواجهني بشجاعة". ـ"يا ريت توضحي أكتر يا ندى وبلاش ألغاز!" ـ"اللغز هو غموضك، هو هروبك بالأيام بحجة الظروف، هو صمتك اللي بيقتلني وسكوتك حتى وأنت بتكلمني، أعتقد مابقاش فيه فرصة للرجوع، ٦ شهور كفيلة بكل شيء". ـ"مش فاهمك؟ يا ريت توضحي أكتر!" ـ"الفراق يا محمد!" ـ"مش هو الحل يا ندى". ـ"وأيه هو الحل من وجهة نظرك؟ رسايل بين اتنين ع النت؟ مكالمة تليفون في السر زي اللي بيسرقوا لحظات من السعادة وهما بيخبوا عن كل الناس مشاعرهم؟ ولا مسرحية كوميدية بيمثل كل واحد فيها ع التانى إنه سعيد مع شريك حياته الوهمي وهو بيتخيل ملامحه لما بيتسم أو تكشيرته لما بيزعل أو لمعة عيونه لما بيكدب ويقول بحبك؟" ـ"أنتى شايفه إني كدا؟" ـ"شريك خرافي يا محمد، شريك من نبرة صوت وخيال ودموع الانتظار، شريك لا عمره شافه يوم ولا قعد معاه لحظات وشاف أنفاسه بين ضلوعه أو ضحكته السعيدة أو حتى دموع فرحه!" ـ"كفاية فلسفة أرجوكى، انتى كل مرة تتكلمى في نفس النقطة، قلت لك خلينا نسيب كل حاجة لبعدين خلينا نتكلم لحد ما نشوف الدنيا هتاخدنا لفين". ـ "هترجع تفتح باب جديد لدايرة علاقتنا المقفولة، هترسم لي الحياة جنة وتقول لي ادخلي مملكتك الجديدة، هتقفل عليا وتسبنى لوحدى أدور على منفذ جديد يحينى وألاقى نفسي اللي ضاعت بعد ما عرفتك عشان بس بحبك، بس ياترى هتحطنى في أي ركن المرة دى؟ في قسم الصداقة ولا الأخوة ولا حب ملعون في السر لحد ما تفرج وفي الأخر تتخلى عنى وأنت بتشوف غيرك بيقرب مني، وعادى أتخطب أو أتجوز من أي شخص، وتظهر أنت في نهاية المسرحية بدور البطل الهمام وتقولي بكل تفاني وتضحية: أتمنى لك السعادة مع غيري؟ انتى تستحقى الأفضل! أنت شايف إني كدا؟ رد عليا؟" ـ "عاوزة ايه يا ندى؟" تذكرت الخطة، ستبدأ في اتخاذ تدابيرها اللازمة بعد أن أحكمت تفاصيلها وحبكت مفرداتها في تلك الليلة عقب محادثة أخيها المفجعة، اختلافات بسيطة وسينكشف أمامها كل شيء، فردة الفعل وحدها هي سيدة الموقف. قالت بدهاء: ـ "أنا حكيت لجدو عن حكايتنا وطلب مني

إنه يقابلك بعد ما شرحت له كل حاجة، أنت لازم تقابله يا محمد". اعترته الدهشة والتخبط فسأل مستفسرًا: ـ "جدو؟ جدو مين؟ أنا مش فاهم حاجة؟ وليه ماقولتليش عن الحكاية دى؟" تابعت روايتها الوهمية دون أن تفتر عزمتها: ـ "محمد، أنا أعصابي كانت تعبانة ومنهارة، كنت محتاجة أحكي لحد، وبعدين العريس اللي أتقدم لي ده أنا مابقتش عارفة اعمل ايه أو اتصرف ازاى". جاء صوته مترددًا رغم هدوءه المعتاد: "بس انتي فاجأتيني بكلامك ده، لا طبعا عمري ما هعمل كدا، ولا هروح اتكلم مع حد". ـ"لو ماروحتش، اعتبر علاقتنا منتهية". ـ"ايه الكلام ده يا ندى؟ اعتبر دا تهديد؟" حاولت التماسك مُظهرة قوة تفتقرها رغم ترقرق دموع أبت الانتظار: "هو دا قراري النهائي ومش هستمر في كلام مع شخص مش تربطني بيه أي شيء غير شات وتليفون، مشاعري وحبي وكل شيء ملك لشخص واحد بس، هي ملك زوجي في يوم من الأيام!"

*****

(١٣)

اللعنة عليك أيتها النهايات! ماذا لو تركتنا ننعم بسعادة لحظاتنا الأخيرة برفقتك، ألقمتنا نشوة الانتصار على الأقدار، أو أغفلت محاسبتنا عن أمانينا الساذجة؟! لا منك أذقتنا شربة من هناء تاقت لها أرواحنا العطشى، ولا أسقطتنا من جدول أعمالك القدرية! حديث روحها المعذبة منذ فترة ليست بالبعيدة، تعرف أن نهاية قصتها القصيرة قد لاحت من بعيد، تحزم أمتعتها للمغادرة وتطلق أشرعتها البيضاء لترسو فوق شاطئ رواية أخرى. أعرف إنك لن تتركني بتلك البساطة يا عزيزي، فأنت لم تعهدني يومًا سوى فتاة مطيعة وعاشقة بلهاء، تشير لي بالبنان فأهرول لأنصت لأحاديثك التافهة وكلماتك المواسية لعواطفي العذراء في عالم لا يدرك معنى طهارة قلوب تنقب عن صفاء القرب وعذوبة الأفئدة. أوقن ذلك حق اليقين، حق تفانيك في ترديد عبارات الوحشة والغربة على مسامعي ليل نهار حين تلتفت في دنياك الغامضة لتجدني لست بالجوار، لم أعد أتصنع الجلد ولم تعد رنات هاتفي باسمك أو اهتزاز أوصالي حين أمسك به حاملًا لي رسالة شغف منك تثير قشعريرتي الأنثوية أو توقظ أمالًا نامت في سباتها العميق.

اليوم باتت أكثر قوة، الصد والمنع والأبية هي ردة فعلها، تصد كل محاولاته، تطلق عليه محاضرتها الأبدية وتصرخ باكية: "الحب هو التواجد مع من تحب، الحب هو القرب والجوار والأنس، الحب هو محاربة كل الصعاب من أجل التواجد مع من تهوى لا عبر لحظات سرقت في غفلة عن العالمين أو كلمات عبر الهاتف".

الأيام تمر، تحاول وتجاهد أن تنفصل عن كل أمر من شأنه أن يزيد معاناتها النفسية أو ينكل من ضعفها نحوه، تدعي القوة وفي القرارة حزن عميق وروح ممزقة وعقل يأبى المضي نحو المجهول.

إنها الحكمة الإلهية، كيف لها أن تنساها وهي نور سراج أضاء لها عتمة دربها الحالك! ستنهي كل شيء، لن تكمل السير فوق رفات قلبها الخانع لتجربتها الأولى والمجهولة، لن ترتضى أن تغدو رهن إشارة من رجل يستغل مشاعرها وقتما شاء ملقي بها وحيدة وقتما أراد، عزمت أمرها وأرسلت برسالة نصية إلى بريده الإلكتروني: "محمد، على قدر ما تمنيتك زوج قدام كل الناس، وهبتك أول تجربة حب مع قلبي البريء وصبرت على أمل اللقاء، بس خلاص قدرنا الفراق، أنا هنساك، هنسى إنى قابلتك في يوم، يمكن قدرنا البعد من الأول، أو قدرنا أجمل من إننا نكتشفه غير بالبعد، مش هقدر أكمل في المجهول وأخون ثقة أهلي ونفسي".

أطبقت أناملها المرتجفة في خوف مع إغماضة من عينيها المترقرقتين بعبرات تأبى السقوط فتغلق أخر صفحات قصتها الحزينة، أغلقت الحاسوب بسرعة كالهاربة من الموت، ليس موت لجسدٍ ما زال ينبض بالحياة ولكنه موت روح تملكها الحب. "انتى ممكن تنسيني يا ندى، بس صدقينى عمري ماهنساكى، عمري يا ندى!" حدقت برسالته الأخيرة فتسارعت دقات قلبها المتوجع، ليتها لم تفتح بريدها في ذلك اليوم، الدموع تُزرف من جديد والقلب يرتجف من حرارة الأشواق ولكن ما عاد هناك وقت للرجوع، لا بد من بداية جديدة حتى وإن كانت على أنقاض قلب أشقته تجربة بترت قبل أن تنشأ.

ما أبأسها من ذكريات! لكأنها كانت في الانتظار! كم تريثت لأعوام حتى يسنح لها الزمان بمأذونيته كي تفر من خلف محسبها الأليم، تهب مع نسمات ماضٍ لسبع سنوات بعيدة، فتملأ صدرها شجون وهي جالسة على فراشها المكدر بمراراتها المتلاحقة. لن تقوى على إغلاق صفحاته بسهولة بعد أن فتح للتو، إنها أول كل شيء حين لم يخلق أي شيء ولم يبتدئ أي شيء، أول هتافات وعبارات لقلب صغير مع أول رجل خط بيديه أولى كلمات الحب بكتاب هواها المهترئ وارتشف من نعيم عذوبة روحها الوليدة في عالم الحب والرجال، كيف بإمكانها أن تثني صفحاته عن إرسال ذكرياته المعتقة لروحها فتزيد من معاناتها المتخمة بتجاربها المتوالية؟

لم يتوقف عن غموضه حتى وإن لاحقها عبر تلك السنوات في كل مرة كان يظهر بطلته الباهتة، في حين لم تتمكن من التخلي عن نوبة دهشتها المتكررة. لا، ما هو بملاك حين يهبط عليها بعذوبته الأخاذة ليعود إليها بصوته الهادئ وعباراته العذبة، أو عبر رسائله الطيبة للاطمئنان عليها، يخبرها بشوقه للماضي، حنينه للأيام الخوالي وقرب حرم من لذته الروحية، لم يتمكن من الارتباط بأخرى، لم توجد في هذا الكون من استطاعت أن تخترق قلبه الحصين وعقله العبقري سواها، حتى بعد تلك السنوات الطوال وانعكافه على الدراسة وتحصيل العلم وحصوله على درجة الماجيستير والدكتوراه لتتبدل حياته ويصبح أستاذ بكلية التجارة بجامعة القاهرة. كم تغيرت الحياة وصار لكل شيء معنى آخر وشكل مختلف! كل أحلام تمنتها معه في الماضي صارت حقيقة، تجربة نجاح حقيقة لشاب صنع المستقبل بجهده ونقش القادم القريب بأظفار مقاتل فوق ندوب الزمان، تنوح ألمًا وتبكي تحسرًا! لم تكن موجودة داخل إطار من أحلامه الواقعية، فقط مجموعة من ذكريات قصيرة اصطفت في ذاكرة عقله الكبير. ليتها علمت معنى لحكمة القدر، كيف قذفت به الحياة مع رياحها العاتيات أمام خطواتها نحو الحياة؟ علاقة غريبة مع شاب يغيب سنوات، يتوارى مع أشعة الشمس الساطعة في فصل الشتاء حين تهم بالرحيل عن الكون دون إبداء عذر أو تمنح قرار بالمغيب، فلا منها عادت لتذيب قلوب أثلجتها برودة البعد ولا هي تركتها تعتاد رياح الزمهرير!

لا تعود! كم تمنت ألا يعود في كل مرة بعد غياب سنوات بأشواقه دون أن يبدي انطباعًا يهدئ نوبة حيرة يشم بها قلبها في كل مرة بوشم من الألم والدهشة! لن تستطيع أن توقف نوبة من ذكريات تواردت عليها من الماضي وهي جالسة على حالتها البالية بغرفتها الصديقة، كل تلك المحادثات الغامضة، كل كلمات أطرب به أذنيها المتعطشتين بعد غياب بالشهور والأعوام وعودة لبرهة بكل العمر.

ـ "السلام عليكم". ـ" وعليكم السلام، أزيك؟" ـ" ممكن اعرف مين حضرتك؟" ـ "للدرجة دى نسيتي صوتي؟ أنا محمد!" ـ "وايه يفرق أفتكر أو لا؟ خير يا أستاذ محمد؟ إيه سبب الاتصال؟" ـ "مفيش جيتي على بالي فحسيت إني محتاج

أسمع صوتك وأكلمك، رغم كل البعد ده بس لسه بيرن ف وداني وبيوحشني!" ـ "أرجوك مالوش لازمة الكلام ده!" ـ"يا ترى أنا كمان وحشتك زي ماوحشتيني؟" المكالمة المعهودة! حوار اعتادت عليه من رجل لم تعلم يوم كيف السبيل إليه، يحادثها في كل مرة من رقم هاتف مجهول، يرمي قلبها بكلمات الوجد والفقدان، وحين السؤال عن غايته، حين تنهره بأسلوبها المدافع عن احترامها ومبادئها يعود ليختفي من جديد، يتلاشى كآثار بصمات أقدام فوق رمال الصحراء، يؤب لصمته القاتل وتخفيِّه المحترف، ويتركها وحيدة تحترق بجمر الفكر من جديد!

إنه النسيان الدواء لكل العلل العقلية والندوب الروحية وشقوق أورثت النفوس الألم وقوة التجربة ذاتها، ولكن هو نفسه النسيان لم يستطع أن يجعلها تغفل عن شيء واحد ترك بداخلها أثر لا يمحى، لم تكن سوى دواء نسيان لعلاقة أليمة عاشها في الماضي، تسمع بأذنيها صوته المتهدج حينما يخبرها عمن غدرت به في الماضي وتركته يذق وحده مرارة الفراق من أجل آخر أتاها بالذهب والشقة والأموال، تركته ينوح تحت شجرة ذكرياته معها حين كانا يتراشقان كلمات الحب والهوى بعيدًا عن أعين سكان قريتهم الريفية، تلك الشجرة التي دومًا كان يفر إليها تحت ستار الليل ليشعل سيجارة تحترق بين أصابعه وتنصهر بنار قلبه المتفحم، أو في ضوء النهار حاملًا أقلامه وفرشاته ليلطخ بيديه مآسيه فوق لوحاته الزيتية، فهل حقًا أحبها ليوم؟ ربما كان حب أو عساه كان الهروب.

الآن عاد إليها بعد سبع سنوات، وهي التي خرجت لتوها من أزمة نفسية أرهقت خلجاتها المتهاوية واقتطعت منها الأكثر، لقد رحلت، حقًا رحلت تلك التجربة المريرة عنها حاملة معها قافلتها المتخمة بحطام قلب وعين زارفة ليل نهار، وأخيرًا وليس أخرًا لسان يبتهل في كل وقت يطلب من الخالق العوض . "أما بعدك عزيزتي، لم تخلق من استطاعت أن تسحر عقلي وقلبي معًا!" بدر الدجى أطل بسماءها من جديد، فنثر نجومه بليلها المظلم وأثرى أفكارها بلهيب كلماته. ولكن في تلك المرة لم ينسحب كعادته، وهل يترك المجال لتلك الفريسة المطروحة أرضًا أن تلملم جرحها الدامي دون أن يلقي عليها كلماته المواسية وأحضانه المطبطبة! ظل يلاحقها بالرسائل من جديد، يسأل عنها في كل

الأوقات مع محاولاته الدؤوب لإقناعها بمحادثته تليفونيًا ليستلذ معها بحديث ماض فقده ولم تعوضه عنه إحداهن خلال تلك السنوات، حقًا كم أنهن كثيرات! تلك الفتيات اللاتي عرفهن ولكن ما من واحدة استطاعت أن تفعل معه مثل ما فعلت هي، ساحرته كانت، ملهمته ومعشوقة روحه، وهل تلك بالمكانة الهينة في قلب رجل شرقي؟ تتهرب من محاولاته القديمة، تلفظ أنفاسها كلما استطاعت أن تفر من دائرة ملاحقاته لها بسحره المعهود، عذوبة صوته المستكين، ورقة عبارته حين تنسل من بين شفتيه الهادئتين أو تخط بأطراف أصابعه عبر رسالة تليفونية. الحنق والضيق يجتاحا صدرها في تلك اللحظات، فما كان لن يعود حتى لو بذل من أجله المستحيلات!

وفي إحدى المرات ألح عليها عبر رسالة هاتفية برغبته القوية بمهاتفتها، يود إخبارها بأمر هام أراد البوح به منذ أن عادت يحادثها بعد كل تلك الأعوام ـ"ندى، عاوز أقولك حاجة". ـ"خير إن شاء الله؟ اتفضل!" ـ"انتى عارفة انى طول السنين دى ماقدرتش ارتبط بأي واحدة بعدك". ابتسامة باهتت لاحت في الأفق مع صوت ينم عن السخرية وقد امتزج بحزن عن الماضي الأليم. ـ"لا والله؟ يا راجل قول كلام غير ده، دكتور في الجامعة وبدل البيت اتنين وعربية أخر موديل وفي الاخر مفيش ولا واحدة قابلتها مليت عينيك؟!" أجابها بهدوءه المعتاد ونبرة صوته التي لا تعرف الكذب: "يمكن فعلًا معايا كل ده وبنات كتير كانت بتحاول تقرب لي بس أنا كنت عارف أن كلهم عاوزين محمد الدكتور والمستوى والفلوس، بس مفيش حد عمره حاول يقرب مني أو يعرف محمد الإنسان زيك أنتي يا ندى، أنا مارتحتش لأي إنسانة بعدك!" رنت إليه في صمت وهي تعرف صدقه الذي اعتادت عليه ثم قالت: ـ "الكلام ده مش جديد يا محمد، مش هكدب لو قلت لك إنى عرفاه ومتأكدة منه، بس إيه الفايدة وحضرتك عمرك ما حاولت تشوف الإنسانة اللي حبيتها، الإنسانة اللي أتمنتها تشاركك حياتك، طول السنين دى وأنت بعيد ولا حاولت تاخد خطوة، ماتفكرش انى نسيت لك كل اللي عملته معايا زمان؟!" لم تمنعه كلماتها اللاذعة من استكمال ما أتى لأجله ولم تجعله يشعر بالغضب أو الحنق من كرهها لأحداث الماضي البعيدة

وتأنيبها له كلما حاول الاطمئنان عليها خلال تلك السنوات، بل دائمًا ما كان يتقبل كلماتها اللاذعة بهدوء وصدر رحب. ـ"ندى". تنهدت في شجون كأنما تطلق في الهواء ذكريات سكنت قلبها منذ الأزل ولم تتركه حتى الآن:"نعم؟" ـ"أنا عاوز ارتبط بيكي وصدقينى هعيشك ملكة وهعمل لك كل اللي تتمنيه بس بلاش العناد بتاعك اللي خسرنا بعض زمان". حاولت أن تتمالك نفسها ولكنه الغضب الذي حضر بعد قوله الأخير فصاحت بانزعاج: "عناد ايه اللي بتتكلم عنه يا أستاذ؟! هو الجواز والارتباط بالنسبة لك صورة ابعتها لك كل ما الشوق يجيلك، ولا مكالمة تليفون تعبر لي فيها عن وجعك في بعدي؟ ولا إنك تتنازل وتتعطف وتشوف الإنسانة اللي هتتجوزها ع الطبيعة وتتكلم معاها؟ مش يمكن لما نتقابل مايحصلش توافق بينا؟" ـ"ما هو لو كنتي بعتي الصورة دى كنا أكيد متجوزين دلوقتى ومعانا أطفال، بس انتى أعند إنسانة قابلتها في حياتي". استشاطت غضبًا وتدافع الدم بعروقها الملتهبة كالحمم البركانية. ـ"تصدق فعلًا احنا بقينا في زمان غريب بقيت البنت بتتقيم فيه من صورة تبعتها، أو الحب بقا عبر الرسايل والواتس أب والانستغرام، بقيت عنيدة عشان مش عاوزة أبعت صور لا وبحافظ على نفسي، بقيت عنيدة عشان بخاف ربنا وبتقي الله في أهلي اللي ربوني على الدين ومنحوني ثقتهم، صح يا دكتور؟" تابع رده الفاتر دون أن يكترث لتزايد درجة غضبها أو التفكير في كلماتها ولو لثانية: "هنرجع للفلسفة الفارغة بتاعتك، طب يلا ابعتي صورة عشان أشوفك، عاوز اشوف عروستي" . استشاطت غضبًا بعد إلحاحه المعهود وصلابة رأيه وصاحت: "هو انت ايه مابتزهقش؟ قلت لك ميت مرة أنا مش صورة أنا إنسانة من دم ولحم، نفسي مرة تفهم إني محتاجة أحس إنك عازوني أنا، أنا ندى مش صورة تشوفها وقت ما تحب، أنت إيه هتفهمني امتى؟" رغم مرور السنوات ولكن هناك أشياء لا تتغير وشخصيات لا يمكن أن تؤثر عليها الأيام، فكانت عقليته العنيدة التي امتلكها منذ عرفته إحدى تلك الثوابت الشاذة التي يصعب التأثير عليها، قد تفنى مدن وتتبدل شخصيات حتى تكاد الشمس أن تشرق من مغربها وتسير الجبال وتمطر السماء بشرًا ولكن من المستحيلات أن تتبدل عقليته الشاذة عن كل مألوف

وطبيعي، وكلما شعرت بالاقتراب من تملك قلبه العاشق وجدت نفسها تائهة في صحراء نفسه الغامضة. ـ"يا ندى انتي تعبتينى، لازم نشوف حل في الموضوع ده طوعينى وخلينا نخلص". ـ "مش كل شيء يطلب مننا ننفذه وأحنا مغمضين". ـ" يا ندى أنا دكتور جامعة وفي التلاتين ولسه لحد دلوقتى ما اتجوزتش ولا أسست حياة، عاوز استقر بقى والاقى زوجة جنبي". ـ"وانا ماقلتش لا، بس انت اللي بتطلب طلبات مش من حقك وبتحجج إنك هترتبط بيا وعاوزنى وهتحقق لي الأحلام اللي ماحدش غيرك هيحققها لي". ـ"وهو فيها ايه لو ورتيني صورة ليكي، أنا عاوز اشوفك يا ندى ودا من حقي ومعنى إنك رافضة إنك مش مأمنة لي ولا بتثقي فيا، ودا اللي مخليني مصمم على رأيي إنك تتصوري".

تذكرت إلحاحه الشديد في الماضي، عادته القبيحة في إجبارها على إرسال صور في كل الأوقات مدعيًا بذلك حقه المشروع على قلبها حتى ملامحها البريئة وقسماتها الأنثوية كل شيء له بدون منازع. كم من أنانية تطلق باسم الحب؟ وكم من وعود تزف خلف شعارات من السعادة الزائفة؟ ـ"أنت اكيد اتجننت عشان تطلب مني للمرة الألف أنى أتصور لحضرتك وأنت عارف إني هفضل أرفض للمرة المليون، أنت لا جوزي ولا تحل لي عشان أتنازل عن حاجات كتير وأنفذ لك طلبك، مابقتش لاقيه كلام تاني أقوله!" ـ"يعنى دا قرارك النهائي؟" ـ"أيوة قراري النهائي حتى لو هخسر أي ذكرى وأى حلم اتمنيته بس عمري ما هعمل شيء زي ده ولا حتى هسمح لك تهز صورتي قدام نفسي". ـ" صورة ايه اللي اهزها؟ اهو عنادك ده اللي خسرنا كل حاجة عشان حتة صورة هتتصوريها في ثواني ونخلص، بس لازم محاضراتك بتاعة كل مرة". ـ"لما توهمني إنك مش هتتخلى عنى زمان وتسيبني وتكمل حياتك، لما تكلمني وقت ما تحب وتختفي وقت ما تحب، لما تحط قيود لارتباطي بيك وتقيدني وتفرض عليا حاجة تخالف تربتي وديني وأخلاقي يبقى أنت بتكسرني، بتكسرني قدام نفسي قبل ما تكون قدام أي حد". ـ"أنا لا يمكن أكسرك أبدًا يا ندى، وانتي عارفة محمد كويس؟!" ـ"أنا اللي أعرفه أن الأخلاق مابتتجزأش، بس واضح أن مكانتك كدكتور جامعة وحسابك في البنك والمظاهر اللي بقيت فيها خلوك تنسى الدين اللي أتربينا عليه،

بس أنا عمري ما هنسى حتى لو هعيش وحيدة بس مش هتخلى عن مبادئي أبدًا». «إنها الثقة ليس إلا! اكسبي ثقة رجل سيفعل من أجلك المستحيل، نولي رضاه بتنفيذ أوامره والخنوع لرغباته الديكتاتورية لرجل شرقي، حياة النجوم والترف والتألق بانتظارك، سعة العيش والمكانة الاجتماعية والجوار بصحبة رجل علم وترف، أمور لو استطعت تنفيذها لحيزت لك الدنيا بحذافيرها»، هاجس شيطاني رافقها ليل نهار حتى مع تلك الفترات من صمت كهدنة بعد حوارات يومية ومناقشات حادة تبوء دومًا بالفشل، إنها حوارات ما بين شد وجذب، هو يحاول إقناعها بما يريد، إنها بذلك ستنال ثقته المفقودة ومعها تسترد حبه القديم، ستنعم في حياة البذج والترف والنعيم مع من تحب، وهي على الناحية الأخرى تقاتل في إثبات وجهة نظرها، إنها بذلك تحافظ على دينها، تستحق احترام منحاها إياه والديها، إنه سبب أدعى أن يتمسك بها ولو لأخر العمر، وهل هناك أنفس وأغلى من تلك التي تحافظ على عفتها وطهارتها رغم مغريات تلقى دومًا تحت أقدام تشتاق للسعادة؟ فليعد كل منهما لمكانه مرة أخرى، لن يتمكن أي منهما من إقناع الآخر بوجهة نظر، إنه إخفاق فكر بين عقول متباينة تأبى النزول على رأى الآخر، الفرقة ما بين الحياء والجرأة، التعفف والابتذال، رهبة السقوط في الخطأ وانعدام رقابة الضمير.

إنه أراد محادثتها للمرة الأخيرة بعد مرور قرابة الأسبوع، تراه عاد لرشده وأراد إخبارها بتخليه عن شرطه الأحمق، ستجيب على اتصاله لتعرف الجديد.

ـ«اتفضل اتكلم سمعاك!» ـ«لأخر مرة هسألك يا ندى دا آخر قرار عندك مش هتتصورى؟» ـ«قلت لك مليون مرة لو بموت لا يمكن ابدأ حياتي بمنطق إني سلعة بعرض نفسي في سوق النخاسة!» ـ«انتى ليه فاكرة إنك أخر واحدة في الدنيا؟ ولا مفيش غيرك، كانوا بيجروا ورايا وبيتمنوا مني نظرة رضا، إنتي الظاهر نسيتي أنا مين أو مش عارفة بتكلمي مين؟! أنا الدكتور محمد رفيق اللي البلد كلها بتقف له على رجل والجامعة كمان، أنا كنت هعيشك ملكة بس انتى اللي فقرية!» ـ«أكون فقرية وعندي أخلاق وبحافظ على نفسي، أحسن ما أبيع نفسي في صورة لواحد عمري ما قابلته ولو مرة ولا شفته في الحقيقة، أنت سراب يا

محمد سراب وبس، وعمرك ما كنت حقيقة!" -"أنا سراب؟! طيب أوك، عموما أنا حبيبت أبلغك إني خلاص قررت أخطب وهتجوز واحدة لا بحبها ولا أي شيء بس واحدة عجبتني ولقيتها مناسبة في كل شيء، قريبة من بلدي ربع ساعة وأكون عندها لا هتتعبنى بقا في سفر كام ساعة بيني وبينها ولا هتوجع دماغي بفلسفتها الفاضية عن المثل والأخلاق، وكمان حلوة والأهم من دا كله إنها مطيعة مش زيك العند راكبها". لقد اعتادت على جرحها المتوالي، وهل ستجدي طعنة خنجر أخرى بقلبها؟ ولكنها ندبة جديدة يتركها الزمان على كرامتها المطعونة، عزة شابة كل مأساتها هي أخلاق تربت عليها، طوق زانت به عنقها لأخر العمر. وبدون تردد انهمرت دمعات على وجنتيها تأبى الإهانة والقهر لأنوثتها الطاهرة، لقد حان الوقت لتحتل أخرى مكانها، ألم يلقبها دومًا بحبيبته الوحيدة وأنثاه الفريدة التي استطاعت أن تتربع على عرش القلب والعقل معًا؟ ولكن حان الوقت لتثأر لكرامتها المجروحة فقالت بلهجة أبية:

-"اتفضل روح اخطب ولا حتى اتجوز، روح اختار واحدة غيرى لا عمرك كلمتها ولا عرفتها ولا حتى حبيتها، واحدة اديها كل الحقوق اللي انت حرمتني منها سنين يوم ما فهمتني إنك هترتبط بيا زمان من سبع سنين، ومع ذلك كسرت بقلبي وتخليت عنى وكملت حياتك، صدقني مش جديد عليك إنك تيجي بعد كل السنين دى وتقعد تبيع وتشترى فيا وتحط شيء تافه شرط لارتباطك بيا، صدقني انت ظلمتني وانا عمري ما هسامحك!"

إنها لعبة عجيبة للقدر! لن يتأنى ذلك القدر في إرساء قواعده غير المتوقعة في حياة الآخرين، بشخص في طريقها منذ سبع سنوات تجعلها تتعلق به،تتمنى قربه ولقاءه، شخص تتمنى العيش معه وبكنفه، بجوار رجل لا يعرف معنى القهر والذل، يحترم النساء ويقدس كينونتهن، يبتعد عنها لأعوام والحياة تدور بها إلى أن تعود الأقدار به إليها مرة أخرى، تعتقد أن الدنيا تحاول أن تصلح الجرم الذي ارتكبته بحقها لتعيش حياة تمنتها منذ زمن وتركتها ابتغاء مرضاة الله، ولكن لا شيء يدوم للأبد وفي تلك الأثناء أرسل إليها برسالته الأخيرة: "خلاص أنا خطبت وهتجوز بعد ٣ شهور، اترجيتك كتير وعمرى ما اترجيت إنسانة

قبلك عشان تحاولي تكسبيني ولو مرة واحدة بس انتى رفضتي كل محاولة منى، خلاص يا ندى محمد بقا لغيرك!"

محـُمد، هل هي النهاية حقًا؟ الآن ستعود لتتركني وحيدة مثلما ذهبت منذ سبع سنوات سارحًا في دربك دون أن تلتفت لضحيتك الصغيرة، نعم كنت قاصرة في عالم الحب والرجال، عذراء القلب طاهرة الفكر، لم أعرف معنى لرعشات الجسد حين تتلاقى الكلمات ولا دقات القلب حين يسمع لصوت من يحب للمرة الأولى، لم أتعلم قاموس همسات الوجد والهوى إلا بين يديك وصوتك الدافئ حين يداعب أذناي بهمسات مطمئنة أن هناك من يهتم لأمري، الآن كل شيء قد بات في الماضي مرة أخرى، كل ذكرياتي عادت لتغدو سراب في سرداب وهم كبير أسميته الحب، كل أحلام تمنيتها بجوار رجل حنون مثلك لم يعد لها مكان في حياتي المحطمة على صخرة العفة والطهر. ولكني مع ذلك اعترف لك بكامل إرادتي، معك شعرت بكينونتي الضائعة، عاملتني كأميرة وأشبعت روحي بكلمات مطمئنة وشكر في ذاتي، حقًا لم تذقني يومًا مرارة إهانة الرجل للمرأة أو الذل، لم تسقط على أذناي كلمات تشقى بها نفس امرأة تتوقت للقاء والعيش بجوار من تمنت، ولكنك أذقتني قسوة صمتك القاتل ووشمت بقلبي جرح في أعماق أنثى ذاقت معنى الهجر والفرقة على يد رجل غامض، الآن عدت لنفس النقطة من جديد. قبضت على معصمي بحنان وعدت بي إلى نقطة الانطلاق مرة أخرى وتركتني وحيدة أتساءل عن جرمي المجهول، الآن عدت وحيدة مكومة في حجرتي كعجوز تنتظر ملك الموت رافعة يدي لبارئي أن يلهمني العون والصبر على جرح بائد عاد لينزف من جديد، وشقاء قلبي الذي لم يعرف ذنب سوى أنه تمنى الرضا من خالقه، ونفسي، نفسي التي تأبى الركوع لشهوات دنيا لا تعرف الرحمة!

*****

نظرة غامضة سكنت عينيه، يبتسم تارة ويعقد حاجبية تارة أخرى، لقد جذبته طريقة الكتابة فجعلته ساكنًا في مكانه بعد أن شرع في القراءة مذ ما يقرب الساعة والنصف، ما زال قابعًا على الكرسي المتحرك خلف المكتب، منكفئًا على

الأوراق المتراصة أمامه يلتهمها بشغف قارئ محب للقراءة والكتب، لم يمنعه مرور الوقت ولا ذاك السكون المسيطر على المكان أو حتى الغبار المغطي لكل شبر من حوله في استئناف ما بدأه. انتهى من قراءة الرسالة الأولى، رفع رأسه ينظر بعيدًا، يمرر يده فوق جبهته العريضة، يتفكر قليلًا، ثم يعود بناظريه إلى الأوراق أمامه، يطوي صفحة ويظهر أخرى،

لقد أخذ قرارًا بقراءة الرسالة التالية!

، الرسالة الثانية،

"أتذكر؟
حينها اتفقنا مع القدر، ألا نتفق!"

"إلى نادر،
يقولون أن لكل إنسان نصيب من اسمه، لقد آمنت بتلك المقولة حق الإيمان بذكراك العزيزة بخلدي السحيق وحد الإذعان لأقوال الأقدمين المتواترة، وكل ذلك بعدما عرفتك وظهرت في حياتي، نادر أنت في كل شيء، مثال للعذوبة المتدفقة عندما تلامس رجولة رجل قوي ووسيم، رجل يعرف أين يظهر ومتى يبتعد، متى ينبغي أن يتحدث وكيف يصمت لتتكلم عينه وأفعاله عوضًا عن كلمات تختفي مع زخات رياح وذرات هواء تتلاشى عبر الزمن، رجل يعرف كيف يدغدغ أنفاس أنثى تحتبس في خدرها الطاهر فيعبق خلجاتها الخاوية بعطره النافذ حتى النخاع، ويُسّكر لبها بمنطقه القويم. هكذا هي دنيانا، عيون تتقابل وأرواح تتآلف ولكنها الحياة، لا تعطي من دون أن تجرح، وردة مزهرة تفوح أريجًا في الأجواء ولكن الاقتراب منها يترك أشواكًا تلامس خطوط أيدي المقتربين، وتتركها تقطر دمًا مثلما تترك القلوب تدمي آهات من شدة آلام الفراق بعد التعود. قدرنا كان الفراق منذ اللحظة الأولى، كنت أدرك تلك الحقيقة الواضحة، أراها تسطع في نهار أيامي معك فتلهب بأشعتها قلبي المكلوم، وتوقد بعقلي حرارة لا يطفئها سوى ليل البعد والفراق. آلمي يا عزيزي لم يكن في بعاد كان مقدر ولكنه للقاء قلب يعرف من يحب وكيف يحب، كيف يجفف دموع أجفان أرهقتها الأيام، كيف يطبطب ويداوي قلوبًا معذبة، كيف يلعب بأصابعه فوق مفاتيح مباهجها مثل عازف بيانو ماهر يعزف أجمل سمفونياته، كيف يكون رجل عندما يتعامل مع أنثاه، هكذا كنت أنت، فيا ليت كان لنا مع

القدر فرصة أخرى!

*****

(ا)

"ندى، تليفونك بيرن يا حبيبتي"، أتاها صوت والدتها من حجرة المعيشة بينما كانت تحضر طعام الإفطار للجميع، فاليوم هو يوم الجمعة عيد الأسرة كما يطلق عليه والدها، الكل يجتمع حول المائدة في الصباح بعد إحضار كل ما لذ وطاب من ألوان الطعام اللذيذة ومقبلاته الشهية، متجاذبين أطراف الحديث، متبادلين في أُلفة الحكايات الأسبوعية، أجابتها بينما كانت تضع إبريق الشاي على المائدة الكبيرة في حجرة الطعام: "أكيد رسالة يا ماما، هشوفها بعد ما أخلص". وضعت الأطباق على المائدة بألونها المتباية والأبخرة المتصاعدة إلى الأعلى ترقص في تبرج يسيل له اللعاب، نادت الجميع للانضمام، فالتف الحضور حول المائدة بعد ثوانٍ، لم يكن هناك الكثير، الأب يتصدر المائدة بجلبابه الأبيض استعدادًا للانطلاق لصلاة الجمعة عقب تناوله وجبة الإفطار، الأم على جهة اليمين، ندى على اليسار وبجوارها كانت نهال الأخت الكبرى وهي تحمل طفلها الرضيع، إنها كالعادة على خلاف مع زوجها عادل وهم اعتادوا على ذلك.

لم يكن هناك الجديد فالأحاديث مكررة والحوارات محفوظة خاصة لندى الفتاة الصغرى التي تعيش مع والدها المسن ووالدتها العجوز، أم من نساء الماضي لا تعلم سبيل للمكر أو الخبث، وحياتها لا تتخطى حدود زوجها وأولادها فقط، كان الجميع يتبادلون الأحاديث المعتادة حول العمل والعمارة والسكان المشاغبين والجيران الممتعين بما يحملونه من مواقف ومشاهد تدعو للضحك في أحيانٍ كثيرة، ولم ينسوا أن يتطرقوا لحياة نهال ومشاكلها مع زوجها المعتادة والمستمرة، فهي من وجهة نظرة الأخرى لا تتعدى كونها امرأة مستهترة لا تعرف كيف تكون زوجة أو امرأة تجيد فن التعامل مع الزوج.

انتهى وقت الطعام وعاد الجميع إلى ما كانوا عليه، الأب لأداء صلاة الجمعة في المسجد والأم وابنتها عادتا للثرثرة في حجرة المعيشة، أما ندى فكانت تحمل

بقايا الطعام من على المائدة وتستعد لبداية يوم من الشقاء الأسبوعي. تذكرت هاتفها المحمول فذهبت وأحضرته، فتحت الرسالة على برنامج المحادثات (الواتس أب) لتجدها من رقم مجهول، رسالة غريبة من رقم لا تعرف له هوية: "ممكن تقبلي تتجوزي راجل متجوز؟" "ماذا!" هتفت في داخلها، حملقت للرسالة بعينين مشدوهتين وفم فتح عن أخره يعلن عن دهشتها المطلقة، كيف لتلك الرسالة أن تأتيها، ولماذا؟ إنه أمر غريب لم تتعرض له من قبل! ظلت تحدق بالهاتف كمن تحادثه، تنتظر منه إجابة أو تفسير منطقي للموقف، ما العمل؟ وكيف يكون التصرف الصواب في تلك الحالة العارضة؟ هل تترك التفكير في شأن غامض جاءها بغتة ليداعب عالمها المستكين؟ أم تبحث وتستقصي الأمر وتذهب في طريقها مع مفاجآت القدر؟ ولكنها قررت أن تترك الهاتف الآن وتستكمل الأعمال المنزلية، فحتمًا لن تترك أمر كهذا يمر مرار الكرام، فيا له من لغز جديد، وهي حتمًا تعشق الألغاز!

(٢)

انتهت من الأعمال المنزلية الشاقة ومعها انقطعت أنفاسها وخارت قواها، فماذا عساها أن تفعل أو تتهرب من تأدية واجباتها المنزلية، إنها فروض لا تقل تضحية عن واجبات الجندي نحو بلده وهو يؤدي الخدمة العسكرية، كانت تخبر والدتها بذلك فتضحك الأخرى كعادتها وتهتز معها الشحوم الكاسية لجسدها القصير. أخذت حمامًا ساخنًا وارتدت قميصًا من القطن الصيفي القصير، اضجعت على الفراش بغرفتها تحاول الاسترخاء، تاركة أصابعها الناعمة تتخلل خصلات شعرها الأسود والمترامية في تمرد على كتفيها الرشيقين، وترفرف أهدابها في ثقل فوق عينيها الكَّالة بحمل اليوم الشاق، تعود بعنقها الخمري إلى الخلف وتلوي جسدها المتعب في تأوه، بينما تسرح بأناملها المداعبة على خصرها الممشوق علها تفكك كل قطعة منه وتجد الاستجمام، أغمضت عينيها بعدما غاصت في الفراش ثم فجأة تذكرت، عادت تبحث عن الهاتف بالجوار وأمسكت به. " تقبلي تتجوزي واحد متجوز؟" ظلت تردد الكلمات بعقلها الهائم ناظرة إليها في تفكر، تدوي بأذنيها كأنما تريد أن تحفظها، تحدق في الرقم وضربات قلبها تتسارع خوفًا من الآتي المجهول من وراء تلك الرسالة المفاجئة، تنفست الصعداء واستجمعت قوتها ثم كتبت: "ممكن أعرف مين معايا؟" إنها تنتظر ردًا ولا أحد يجيب، تترقب دخول صاحب الرسالة ليمنحها ردًا شافيًا على رسالتها هي الأخرى، مرت دقائق بثقل دهر بينما تترقب المجهول، وفجأة ظهر بوجوده قائلًا:

"على فكرة صورة البروفايل بتاعك حلوة اوى، كنت متأكد إن زوقك جميل!"
اتسعت عيناها من كلمات التغزل وعلت وجنتاها حرارة مفاجأة، لماذا يعتريها ذاك الشعور الهزلي، شعور لا معنى له سوى السخف أو السذاجة؟ إنها ليست طفلة في سن العاشرة تأتيها رسالة ورقية من زميلها المعجب في نفس الصف

يدسها بين طيات كتابها المدرسي، أو مراهقة تتلقى مكالمة غزل من جارها المتلصص، لماذا تشعر دومًا بخفقات قلبها المتسارعة تجتاح صدرها كضربات صارمة على آلة إيقاع في حفل ساهر كبير! ربما لأنها أصبحت تهاب المفاجآت، الرسائل المفاجئة التي تجر من وراءها قصص تذيقها المرارة لأيام ثم ترحل عنها وتتركها وحيدة مع ذكرى جديدة لتلحقها بقريناتها من ذكرياتها البائسة.

لم تكن تدري هل من الحكمة أن تستمر في المحادثة أم لا، لبرهة من الزمن ظلت تنظر للرسالة ثم تعود بعينيها إلى الرقم، وتتساءل في قرارتها: هل يعرفها؟ أم هي رسالة عابثة من شخص أحمق يريد الإيقاع بها ويكِّن لها السوء؟ أو علها رسالة عشوائية من شخص غريب يتلاعب بالأرقام دون أن يعلم أصحابها! صمتت تفكر، تعبث بخصلات شعرها بين أصابعها وتطرق بأناملها تارة أخرى على الهاتف، فجأة هتفت وبدون سابق إنذار "عرفته!" لقد تذكرت رسالة أخرى لهاتفها من ذلك الرقم منذ أسبوع مضى كانت تحوي جملة واحدة: "اشتقت لعينيكِ!" هل يمكن أن يكون له علاقة بذاك الخطاب الذي وجدته على مكتبها في صباح يوم السبت الماضي لأول مرة حوت جملة واحدة قصيرة انتفض لها كيانها الأنثوي الخامد: "عيناك تأسرني!" إذًا هو نفس الرجل الذي أرسل الخطاب والرسائل الهاتفية، نظرت إلى الهاتف بشرود فلمعت عيناها بغبطة لم تعرف لها مذاقًا منذ زمن طويل، شعور باللذة سرى في عروقها وأنشى أحاسيسها الدفينة والمهملة في آن واحد، وكل ذلك لمجرد سماع أصداء الرسائل تتردد عبر أذنيها، وفي تلك اللحظة ذاتها تجلت أمام عينيها صورة الغائب، خيل إليها أنه من ألقى على مسامعها تلك الكلمات، ماذا لو كان هو من غازلها برسائله المجهولة أو أثنى على عينيها اللتين لمع سحرهما الآسر ومائها المُسّكِر بعيون رجال آخرين؟ قلما خاطبها بكلمة تنبثق عن حب أو داعب مشاعرها بجملة غزل في الوقت الحالي، حقًا لقد مر وقت طويل لم يشعرها أحد بجمالها أو تحاكى بملامحها المتدثرة أسفل ملابسها المحتشمة، لقد نسيت مع مرور الوقت أنها فتاة في ريعان شبابها، إنها آلة ليس إلا، تعمل وتذهب وتأتي وتكافح وتصبر وتبتسم لتسعد الآخرين ولكن ما من أحد يفطن ما خفي وراء تلك الابتسامة من وجع

في القلب! عادت للهاتف وبعثت بسؤال: "ممكن أعرف مين حضرتك؟" "أنا سألتك سؤال وانتي ماجاوبتيش عليه؟" أحست بالغموض والتسلية في ذات الوقت، فبعضًا من الألعاب ربما يعطي معنى للحياة الرتيبة المملة، ولن يضر! "سؤال ايه؟" "يعني عيونك الحلوة دي مش شافت الرسالة اللي بعتها؟ لا مش ممكن دول أجمل حاجة فيكي؟" ابتسمت رغمًا عنها فعاد يقول:
"كدا هتخلينى أغير رأيي؟" نظرت لتغزله الجريء وابتسامة خدرة تسللت إلى ملامحها فبرقت عيناها واهتز وجدانها، إن عباراته جميلة حقًا، رشيقة كالهواء تتسلل إلى رئتيها المتصلبتين فتبعث فيهما الحياة من جديد، ولكن هل تستسلم؟لحظة واحدة كانت قادرة على منحها القوة لتستعيد نفسها الغائبة، أفاقت من غيبوبة نشوتها وانتصار أنوثتها على واقع طمس معالم ذاتها العذبة ورقراق مشاعرها المتدفق، لن تترك كلمات عبث من مجهول تنتصر عليها أو تؤثر بكيانها الرقيق، فالرجال جميعهم واحد يعطون أجمل ما لديهم في البداية ثم تنقلب الحقائق وتتبدل الأحلام! سكتت لبضع لحظات تلوذ بالصمت فهي لا تعرف كيف تجيب، فباغتها برسالة أخرى: "سألتك هل تقبلي تتجوزي راجل متجوز؟ صعب السؤال!" فأجابت في سرعة ومن دون تفكير: "لا مش صعب بس لازم أعرف الأول مين بيكلمني وحضرتك جبت رقمي منين؟" تعالى دبيب قلبها وجرى بجسدها قشعريرة فأحالته لقطعة كبيرة من الثلج بينما تنتظر إجابته، مرت لحظات من صمت حتى كتب: "مش لازم تعرفي أنا مين، لازم اعرف رأيك الأول، أنا جاد في كلامي ومش بهزر، توافقي تتجوزيني وأنا متجوز؟"

*****

(٣)

كفاها على وجنتيها المنتفختين، مدت شفتيها أمامها لتنفرج في بطء قاتل وتنطلق من وسطهما زفرة حارة تعرب عن حالة الضجر التي انتابتها، هاتفها الجوال أمامها على المكتب، وبجواره كوب من القهوة البارد على الطرف الآخر، يوم طويل آخر من العمل الشاق، ولكنها اعتادت على ذلك فمعه تنسى الوقت ولا تفكر إلا في المهام المكلفة بها. أسبوع مر على أول محادثة مع الرجل المجهول الذي رفض أن يفصح عن هويته في البداية، ولكنها أبت الحديث حتى تعرف من ذاك الشخص الذي اقتحم حياتها برسائله الشائكة، عادت تتذكر وقائع تلك الكلمات عليها، سارحة في خضم أفكارها دون أن تتنبه لوجود منى التي أتت لتجدها على وضعيتها الحالمة، وبحركة صبيانية غمزتها من خصرها بأصابع يدها مطلقة صفير مضحك عبر شفتيها المطليتين بالحمرة، فما كان من ندى إلا أن قفزت في الهواء دفعة واحدة ثم عاودت الجلوس على مقعدها المتحرك واضعة يدها على صدرها من هول المفاجأة، أما منى فقد انتابتها حالة من الضحك بعد مرأى رفيقتها المضحك، حتى انهمرت الدموع من عينيها المخبئتين داخل جفنيهما من شدة الضحك، بينما حاولت ندى التماسك، جاهدت نفسها في التخلص من ارتعاش أناملها وسحب بعض النسمات إلى رئتيها المنتفضتين، مغمضة العينين في محاولةٍ للتخفيف عما أصابها من فزع. قالت منى وهي تهتز من كثرة الضحك: ـ "هههههههههه، مش مصدقة نفسي بجد! منظرك كان يموت من الضحك وانتى بتنطى في الهوا كدا ولا اللي راكبة مرجيحة".

أجابت ندى بعدما حاولت سحب شهيقًا قويًا ودفعته في هدوء خارج صدرها المرتعش: "بجد منك لله ياشيخة انتي مش هترحمينى من مقالبك الرهيبة دي، ما بتزهقيش!" حتى التقت نظراتهما فانفجرتا في الضحك معًا دون وعي، وعقب لحظات من الانبساط والدموع المتساقطة إثر نوبة من الضحك الهستيري، عادت

منى تسألها بينما تبتسم وتمسح دموعها المتلألئة بعينيها الضاحكتين: "بس بجد قوليلى كنتي سرحانة في إيه ها؟ ها؟ يلا قولي واعترفى بسرعة مفيش وقت يلا؟" ـ" يا بنتي اهدى عليا شوية، مفيش حاجة مهمة بس فيه موضوع قالقنى شوية ومزهقنى". قالت ندى بنبرة قلق، فأجابتها منى ببعض الاهتمام: "طب ما تقولي لي فيه ايه يمكن اساعدك؟" أمسكت ندى بهاتفها وبحثت عن الرسالة المحفوظة ثم منحته لمنى التي نظرت للرسالة وقد انفرجت أساريرها ولوت شفتيها في تعجب، أطلقت صفيرًا هادئًا وابتسامة لا تفارق قسماتها، رفعت حاجبها الأيسر وغمزت بعينها الأخرى وقالت: ـ "يا سيدي يا سيدي إيه دا بقا إن شاء الله؟ معجب جديد، انتى يا بنتي بتجيبى المعجبين دول منين؟" هتفت ندى في تهكم: "من كارفور يا خفيفة!" ثم تابعت الحديث في تأسف امتزج بابتسامة ساخرة: ـ "معجبين ايه بس، دا منظر واحدة عاوزة معجبين بلبسي ده، اللي بيشوفنى بيقول عليا من تنظيم القاعدة، ولا كأن التدين والاحتشام بقا عملة نادرة وشيء غريب دلوقتى، لا وكل اللي يشوفني يبصلى كدا من طرف عينه وينزل النظارة ويقولي: أوعى تكوني من إياهم، ها؟" عاودتها نوبة الضحك بعد أن سمعت كلماتها ونبرة صوتها حينما تحاكي أصوات المتحدثين، إنهما مختلفتان في كل شيء المظهر والطباع حتى الأفكار ولكنهما صديقتان، الصداقة التي تأتي بعد أن تكتسب نضجًا وخبرة لتعرف كيف تقتني أشخاصًا يصبحون مرآة لك باقي سنوات عمرك . ندى بلباسها الواسع المحتشم وحجابها الهادئ وأخلاقها الدمثة في معاملة الجميع، مع نبرة صوتها الحانية حينما تخاطب موظفيها، أما منى الشخصية المنطلقة والمرحة، بلباسها العصري ونعليها العاليين وضحكاتها المدوية في أرجاء المكتب، الابنة الوحيدة لتاجر فاكهة، مدللة وعنيدة، تحمل جرأةً وذات الوقت صادقة، تتمرد على الزواج التقليدي وتأبى الارتباط بدون حب، إنه سبب كافٍ لخوضها حرب مستمرة مع أبويها الريفيين، رفيقتان مثال للتضاد ولكن القلوب واحدة بيضاء ونفوس تصبو لنفس الأحلام. التفت الجميع بدورهم نحو منى الجالسة على طرف مكتب ندى بعد أن رفعت رأسها وأطلقت سراح ضحكتها الصاخبة في الفضاء غير مكترثة، فتردد صداها عاليًا حتى ملأ أركان الحجرة

الواسعة مع همساتها الظاهرة وإيماءاتها المتحررة: "لا بجد قولي لي ايه حكاية الرجل الغامض بسلامته! " وفي حوار سلس أخبرتها ندى عن محادثها في ذلك اليوم مع صاحب الرسائل إلى أن قاطعتها منى في حماس: "يعنى انتي في الأخر عرفتي مين حضرته ولا لا، يلا قولي لي انتي شوقتينى بجد". ندى وقد طرقت على المكتب بطرف أناملها: ـ " أيوة عرفت مين حضرته، وياريته ما قالي هو مين!" منى: "طب يلا قولي لي بسرعة هو مين حد نعرفه؟" أطلقت ندى تنهيدة قوية وهي تتراجع إلى الوراء وتستند بظهرها إلى المقعد، تعقد ذراعيها أمام صدرها المثقل بالأفكار وتنطلق بنظراتها إلى الأمام في شرود لتعود بذاكرتها إلى أحداث ذلك اليوم والذى يليه، عندما تركت الهاتف من يدها لا تعرف كيف التصرف بعد أن امتنع عن الكلام وأبى أن يرد على استفساراتها، رمت الهاتف جانبًا دون أن تمنع ذاكرتها من استرجاع رسائله الآسرة، سارحة في تعبيراته التي مست شغاف قلبها، إنه رجل يعرف كيف يداعب شيء ما بداخلها ويتركها سابحة في بحر أنغام أصدرتها كلماته على مسامعها، قائد أوركسترا يقود أسطول من الألحان الروحية فيطرب عقلها المسحور وترقص على أنغامه روحها المتمردة، ولكن سمتها تأبى الخطأ، تربيتها في بيت محافظ من أب صارم وأم علمتها معنى التدين والأخلاق، ناهيك عن دراستها منذ الصغر على يد من زرعوا بداخلها الكثير، كلها أشياء ساهمت في تكوين شخصيتها الحالية، بيد أنها أنثى، فتاة في نهاية العقد الثالث من عمرها تحلم بالسعادة، ترنو للحب، وتشتاق دومًا لسماع عبارات الملاطفة والتغزل بجمالها الأخاذ وفتنتها الثائرة، حتى لو كان مخبأ خلف رداء من التعفف والتدين.

كلها أفكار وأحاديث نفس غارقة في بحر من الأمنيات، تصارع الأمواج الضاربة والرياح العاتية، تتشبث بطوق نجاة واهنٍ وضعيفٍ علها تصل إلى شاطئ الاستقرار، أفكار راودتها عن نفسها لساعاتٍ تنتصر عليها تارة، وتارة أخرى تجهز عليها فتعود غارقة من جديد، وفي النهاية استسلمت للنوم بعد يوم شاق من العمل في المنزل.

*****

----

(٤)

"كيف أخرج من هذا المكان، أليس هناك أي كائن بشري في هذا العالم؟" أحاديث مع نفسها المرتعبة، تجري في كل الاتجاهات، ولكن ليس هناك من إشارة على أي شيء، ليس هناك سوى أصوات أنفاسها المتلاحقة وخطواتها التائهة وعينيها الضائعتين في كل حدب وصوب تبحث عن مخرج، تجري وتهرول بملابسها الممزقة وشعرها الأشعث الذي غطى وجهها الملطخ بالطين والرواسب. إنها تجري ولا تعرف وجهتها، أين هي ذاهبة، فالطريق أمامها طويل ليس له نهاية، يعلوه سماء توشحت بستار ليل دامس لا آخر له، كأنما الدنيا قد انتهت بمساء كاحل لا بذوخ لصباح بعده. ظلت تجري وتلهث، تلاحقها أنفاسها المتقطعة، واضعة يدها على صدرها العاري وصرخاتها المنطلقة إلى السماء تبتهل إلى نور الصباح أن يعلو وجه الأرض وتتضرع للشمس أن تكسو بخيوطها الذهبية تلك البقعة الممتدة أمامها، تصرخ لو أن أحدًا ينقذها وينقذ أخر أمل لها في النجاة ولكن ليس هناك أي مجيب. واضعة يدها على صدرها كانت، كأنما تخشى على قلبها أن يتوقف عن النبض من شدة الذعر والهلع، مع كل ذلك لا تعرف ماذا يحدث، ولكن هناك شيء يؤلمها ولا تعرف ما هو، تنظر للأسفل، يباغتها مشهد دماء تسيل، إنها قدماها تقطران دمًا بعد أن أدماها حصى الأرض وقسوة الطريق، وفجأة تنفرج عيناها بدهشة!

ما هذا؟ إنها تسير حافية القدمين من جديد، أين خفيها؟! تبحث وتفتش ولا تجد شيئًا، كثيرًا ما رأت نفسها تخطو بدون خفين تائهة، تبحث مرارًا وتكرارًا، تبوء محاولاتها بالفشل، وفي النهاية تستسلم للمشي حافية. إنها تسير وتسير آملة في النهاية دون أن تدركها، ليس هناك أي بادرة أمل في النجاة. تضع يدها اليمنى على صدرها الشبه عارٍ والأخرى على إحدى فتحات ثوبها الممزق، مع سقوط بضع قطرات دموع من مقلتيها المتسعتين من شدة الخوف، حقًا إنه

فيلم رعب لا يتوقف، إلى أن وصلت إلى نهاية منحدر بين جبلين فوجدت نفسها تقف على إحدى الحافتين وعلى الحافة الأخرى وقف رجل، تلهث في خوف فتتساقط دموعها بغزارة وتختلط بحبات العرق المتدلية من جبهتها الملتهبة، تفتح عينيها تدقق فيه بإمعان، وتعتصر ذاكرتها المفقودة علها تجد بين صورها كلمة أو مشهد تدل على الآخر، تقف تفكر وتنتظر الآتي ولكن لا يمهلها الوقت الكثير، وبسرعة خاطفة يأتي مسرعًا في الهواء ويقبض على يدها محاولًا نجدتها، تفلت يده بدون إرادتها، تسقط نحو الهاوية، وتصرخ على إثرها صرخة مدوية. انتفضت فوق الفراش بعد أن استيقظت على إحدى صرخاتها المترددة في جنبات الغرفة، فتحت عينيها ودموع منهمرة على الوسادة وضربات قلبها المتلاحقة تضاهي ضربات بندول الساعة بجوار الفرش، يا له من حلم بغيض تكرهه، متى سيتركها ذلك الأحمق لتعيش حياتها؟ إلى متى سيظل يراودها، حتى ذاك الرجل الغامض يلاحقها ولا تعرفه، لكن ومع كل ذلك فهي حافية كالعادة في نفس الحلم، نعم حافية وما الجديد؟ فدومًا ما كانت تدرك التفسير المنطقي لسيرها حافية القدمين مثلما أخبرتها صديقاتها، إنها حافية من الزواج، حافية من استقرار وحياة وزوج، تسير في الدنيا بحثًا عن رجل يكون بجوارها، يربت بيديه على قلبها المتأوه بآهات الانتظار، يشاطرها لحظات الوحدة والملل، ولكن أوان ظهوره لم يأت بعد. عادت ترمي جسدها على الفراش مرة أخرى، حمدت الله في سريرتها، إنه مجرد حلم بائس تستطيع الخروج منه بمجرد أن تفتح عينيها، استعاذت من الشيطان الرجيم وقرأت بعض آيات من القرآن في هدوء، تمسح قطرات عرقها المتصبب ودموعها التي كست وجهها المصفر، حتى تهادى إلى مسامعها صوت جرس المنبه المفزعة استكمالًا لفيلم رعب عاشته منذ قليل، نظرت بطرف عينيها النصف مغمضتين فوجدتها قد تجاوزت الثامنة بكثير وهي لا زالت ممددة في مكانها، انتفضت من على الفراش في لمح البصر، تحدث نفسها بصوتٍ عالٍ وعيناها تتسعان مرة أخرى: "الشغل! وأنا لسه نايمة؟ أستاذ مرسي!"

*****

(٥)

وصلت إلى العمل بعد الربع ساعة تقريبًا، ارتدت ملابسها في تعجل وهبطت من المنزل مسرعة لتقفز بسرعة في إحدى سيارات الأجرة وتقف أمام المبنى الذي تعمل به، تتسارع أنفاسها من كثرة الخطى والعجلة، مرت لحظات التقطت فيها أنفاسها بعد أن اطمأنت لوصولها في الوقت المناسب دون أن يلحظ المدير تأخرها عن الوقت المحدد، إلى أن سمعت صوت هاتفها يهتز برسالة جديدة، فتحت الرسالة لتجدها منه "بردو حلوة وانتي مستعجلة، بس زعلت على الجيب أوى، كانت تجنن عليكى!" فتحت فمها في بلاهة وعيناها متسمرتان على الشاشة، كيف ذلك؟ إنه يعرف وقت وصولها إلى العمل ويراها وهي تدلف إلى المبنى، حتى إنه شاهدها وهي تقفز من سيارة الأجرة وتنتزع تنورتها في الباب من شدة التوتر فيتمزق جزء منها، ولكن هل وصلت به الجرأة والوقاحة أن يتتبعها إلى العمل؟ "يا دي المصيبة!" كانت تحادث نفسها بصوتٍ عالٍ يكاد يسمع ولا تعرف ماذا تفعل، إلى أن قررت أن تبعث له برسالة تسأله: "ممكن أعرف فيه إيه؟ أنت خلاص بقيت بتراقبني حتى وأنا في شغلي؟" انتظرت إلى أن وصلتها رسالة قال فيها: "أولًا مش براقب حضرتك يا فندم، بس غصب عن الإنسان لما يشوف رقة زي دي لازم يركز، انتي اللي لازم تعاقبى نفسك مش أنا!" أجابته في غضب بعد أن استفزها بكلماته: "أعاقب نفسي على إيه إن شاء الله، هو أنا كنت أعرف سيادتك منين؟ ثم أنا عمري ما كلمت راجل متزوج، مش أنا اللي اعمل كدا؟!" لم يتوان عن الاستمرار بمحادثتها وإرسال رسائل أخرى مستغلًا الفرصة التي منحته إياها: "أيوة تعاقبى نفسك، على إنك حلوة وبالرقة دى، أعملي أي حاجة عشان مش تبقى كدا، ممكن شوية ماية نار فكرة حلوة!" فزعت بعد أن قرأت رسالته الأخيرة فانتفضت تكتب: ـ "يا ساتر! أنت ايه مش طبيعي!" أما هو فضحك على ردها العفوي وتابع: "هههههههه، أنا فعلا ما

بقتش طبيعي من ساعة ما عرفتك". "عرفتنى! عرفتني منين؟ ممكن أعرف أنت مين وعرفتني امتي، وإزاى رقمي وصل عند حضرتك؟" "هجاوبك على كل حاجة بس ممكن بعد الشغل لأني مشغول أوى يا قمر". نظرت للهاتف، تعض على شفتها السفلى وتضرب بقبضتها فوق سطح المكتب الخشبي تحاول كظم غيظها دون أن تفلح، أسلوب غامض للنيل منها، يا له من لئيم! "أنا مش عارفة دا طلع لي منين بس!" خاطبت نفسها بصوتٍ خفيض، ظلت تفكر في المحادثة التي دارت بينهما على مدار الساعة تقريبًا تشتعل غضبًا وتهيم فكرًا، كغليون ماء ساخن كان جسدها المتصلب وهي متسمرة أمام نافذة حجرة المكتب الزجاجية تتأمل الموقف، تميل بجسدها إلى الجانب الأيسر للنافذة عاقدة ذراعيها أمامها في غضب وحرارة تسري بجميع أوصالها دون أن تعي السبب. رجل أتى ليتغزل بها للحظات، يشهق أنفاسها الملتهبة بين شفتيها الشرهتين، يزفر في بأس أشواقها الملتاعة، ويتركها كسيجارة مشتعلة تحترق مع نفسها في هدوء، تعبق المكان بدخانها الأسود ولا تعرف كيف تطفئ نار ألهبها بعقلها الأبي وجسدها المقشعر!

*****

(٦)

يوم طويل ليس له نهاية، كم تمنت لو دارت عقارب الساعة بسرعة لتعلن تمام الثانية والنصف حتى تحمل حقيبتها وتهرول إلى المنزل، فمنذ أن تركها في الصباح وهي لا تكف عن التفكير، تنتظر الساعات أن تمر حتى تعود إلى منزلها وتعرف حقيقة الرجل المعجب الولهان والذي أسرته عيناها وجمالها الفتان.
ومع هذا التفكير والشرود كثيرًا ما حملت هاتفها وتصفحته، وبحركة تلقائية أخرى تنظر إلى ساعة يدها، إلى أن دقت الساعة الثانية ظهرًا تعلن عن انتهاء مواعيد العمل الرسمية، انطلقت بسرعة خاطفة تقف في طابور الموظفين تسجل إمضائها بالانصراف، حتى أنها لم تنتظر زميلاتها في ذلك اليوم، فهي لا تطيق صبرًا لتعود إلى البيت وتعرف سر الرجل المحب، عساه الملل، أو ربما شيء آخر مات بداخلها منذ أمد بعيد وأتى هو بكل هوادة فأيقظه بكلماته الرقيقة. "يا سلام على الناس اللي خلصت شغل ومروحين، يا ريتني كنت سواق التاكسي عشان اخطفك بعيد عن كل الناس، واتجوزك!" رسالة أخرى منه، ولكنها لم تعبس في تلك المرة، لم تزمجر وتغضب وتثور! فقط اكتفت بابتسامة رقيقة عند قراءتها في طريق العودة للمنزل، هل تغيرت كما أراد؟ هل أصبح لكلماته سلطان على نفسها الوحيدة؟ سألت نفسها في قلق لم يطفئه برد ابتسامتها وسلام سريرتها، حتى اهتدت نفسها لحلها الأمثل، لتدع كل شيء جانبا وتترك لعينيها متعة التهام كلماته الرقراقة. يا لها من طريقة رومانسية يسلكها في التعامل! لقد اختفت طرق التغزل والحب والرومانسية القديمة مع مرور الوقت وحداثة الظروف والتكنولوجيا التي سيطرت على الحياة والعصر، رسائل مكتوبة بخط اليد وكلمات ساحرة من رجل مفتون والانتظار لساعات حتى يلمح طيفها الذي عشق، ربما هو شاعر بدوي يجوب الطبيعة بحثًا عن أبيات شعر يطرب به أذنيها الرقيقتين، أو يبيت الليل ساهرًا تحت شرفتها المخملية ينتظر لحظة خروجها

تحت ضوء القمر ليلقي بباقات الورد والياسمين تحت قدميها المتحنيتين بأعواد العود والعنبر، فهل يعقل أن يكون خيال؟! لعله حقيقة بعقلها الحالم أو ربما هو رجل من عالم آخر أتاها ليزيد من عذاباتها عذابًا ومراراتها كأسًا آخر.
إنها لم تذق حلاوة تلك الأحاسيس منذ سنوات، أعوام مرت وهي تنتظر الوعد المجهول لعلاقة معدومة المعالم، الوعد المقدس لرباط بات هو الآخر مجهول الهوية.
عادت إلى المنزل وفي قرارة نفسها تعلم إنه سيبعث لها برسالة، هي واثقة من ذلك، ليس ثقة في ذكائها الاجتماعي الذي اكتسبته بالتعامل مع الآخرين، أو ثقة في كيانها الأنثوي كما تدعي الكثير من الفتيات في مثل عمرها، ولكنها ثقة في تفكير الرجل، مسار واحد وعقل واحد هم الرجال، يدعون الاختلاف ولكن في النهاية هو نفس المخلوق، الكائن المفترس ذاته الذي يلهث وراء غريزته كما يلهث الفهد خلف نعجته البرية ولا يهدأ حتى تسيل دمائها الحارة بين أنيابه المستنة، ينتزع جلدها وشحمها بغلظة ومن دون رحمة، ويتركها عارية مستسلمة بين أحضانه، لقمة صائغة له هو وحده. لم تنته من أفكارها حتى بادرها برسالة جديدة: "وصلتي بالسلامة؟ على فكرة وحشتيني!" صكت أسنانها تعجبًا من جرأته الفاضحة، وكتبت: "على فكرة مش المفروض أرد على رسالة سفيهة زي دى من شخص جريء زي حضرتك!" "سفيهة؟ هههههههههه ليه بس أنا قلت إيه؟" أجابت بسرعة: "هو حضرتك مش شايف الجرأة اللي بتتكلم بيها، ايه الكلام اللي بتقوله ده وحشتيني وكلام غريب، أنت فاكرني واحدة محتاجة اسمع كلمتين حلوين وخلاص؟ لو حضرتك ماتعرفنيش اسأل عليا!" "لا طبعا أعرف حضرتك كويس يا أستاذة ندى، مش اسم حضرتك بردو ندى، وبتشتغلي في مكتب (...)". ولولت في ذهول، تضرب إحدى وجنتيها بيدها وتقول: "إيه ده؟ دا عارف عني كل حاجة، يا دي النيلة!"
ظلت صامتة لبرهة لا تعرف كيف تجيب، وبعد تفكير كتبت: "أنت عاوز مني ايه؟ ومش فاهمة ليه بتراقبني في كل حاجة، أرجوك قولي أنت مين؟" انتظر بضع لحظات حتى يبعث برسالة جديدة: "مش هجاوب إلا لما تجاوبيني انتي

على سؤالي، توافقي تتجوزي راجل متجوز وتكوني الزوجة التانية؟" صمدت في إصرار وقالت: "مش هجاوب على أي سؤال إلا إذا عرفت انت مين؟!" "اوك، هجاوبك بس من فضلك اعتبرى إنك ماعرفتنيش، ولو شفتيني في أي مكان ولا كأني موجود، أنا مكاني حساس جدًا وأخاف على سمعتي". تسارعت دقات قلبها وهي تنتظر أن يفصح عن هويته الغامضة: "اتفضل قول لو سمحت وبلاش تضيع وقتي ووقتك". "حاضر يا أستاذة ندى، نادر، نادر المنياوي" ها؟ تحدق في الاسم كانت، وتردده على مسامعها كالتي قرأته أو سمعت به من قبل، واضعة يدها على فمها علها تتذكر ولكن دون جدوى. "أنا تقريبًا سمعت الاسم ده قبل كدا، بس مش فاكرة فين بالظبط!" "طب فكري كدا شوية، يلا قدامك ثانيتين وتوافقي ع الجواز ها؟ ماجاوبتيش يبقى موافقة، الحمد لله هنتجوز أخيرًا". انتفخت وجنتاها بعد أن احتبست بعض الأنفاس الساخنة، ثم لفظتها في ضيق وكتبت: "ايه ده نتجوز ايه يا حضرة، أنت فعلًا واضح أن عقلك مش طبيعي!" "ممكن بلاش نجيب سيرة العقل، دا أتلغي من زمان، وخصوصا في التعامل مع الجنس اللطيف، دا طبعا قبل ما بيتجوز ويكون مش لطيف خالص!" وجدت نفسها تضحك على تعبيراته الساخرة فمن الواضح أن له خبرة في التعامل مع المرأة ويعرف جيدًا التغييرات الطبيعية والمزاجية الطارئة عليها بعد الزواج. "ها عرفتي حضرتي ولا لسه؟ مع أن شخص وسيم زيي طبعا لا يمكن نسيانه". ظلت تردد الاسم علها تتذكر أي شيء يدل على صاحبه، لا بد أن له صلة بعملها شخص قريب منها ومن محيط عالمها، يعرف متى تذهب صباحًا ومتى تنصرف بعد الظهيرة، يراقبها في كل تحركاتها حتى يكاد يعرف كم من الأنفاس تتنفس، وفي لحظة واحدة هتفت "نادر المنياوي"، ثم وبسرعة أمسكت هاتفها لتبعث له برسالة: "مش ممكن! الباشمهندس نادر المنياوي من المكتب الرئيسي؟!" بعث برسالة جديدة وبدون تردد: "هو بشحمه ولحمه يا فنـــــــدم، نورتي واتسنا المتواضع جميلة الجميلات". "أنا مش مصدقة نفسي، حضرتك الأستاذ نادر، بنفسه!" "أيوة أنا سي الأستاذ نادر والله، إيه مستغربة كدا ليه؟" لم تنتبه لكلماته الأخيرة وظلت مشدوهة فترة من الزمان تتعجب مما يحدث، كيف

لرجل بقيمة هذا الشخص أن ينظر لها كنظرة تلك وهي التي لم تتعامل معه يومًا ولم تبد له أي إعجاب أو تشاطره أي نوع من أنواع الأحاديث، دائمًا ما كان صامتًا لا يتحدث، مثال للهدوء والرزانة مع رجولة من نوع خاص يظهر جليًا في ملبسه الأنيق العصري وجلسته الواثقة على مكتبه، لا يرفع عينيه من أمام حاسوبه حتى لو كانت الواقفة أمامه هي مارلين مونور شخصيًا بحسنها ودلالها الأخاذ. "إيه روحتي فين؟ ألو، فينك؟" أيقظها صوت رنين رسالته من استفهامات كثيرة هبطت على رأسها كالمنطاد دفعة واحدة، لم يعد هناك شيء للتعجب! "أنا فعلا مستغربة من اللي بيحصل ومش فاهمة إزاي وليه وأمتى حصل ده؟" "وأنا مستغرب نفسي أكتر منك، بس صدقينى دا اللي حصل!" أجابها بكلمات صادقة . "طب ممكن أعرف حضرتك إزاي وصلت لرقم تليفوني وعرفت كمان الميل بتاعى وأكاونت الفيس إزاي؟!" "دي مش حاجة صعبة على واحد زيي، انتي ناسية إن كل أسرار موظفين الهيئة كلها عندنا، تعرفي الأستاذ مرسي المدير بتاعك اللي مربي لكم الرعب ده، تحبى أقولك بياكل كام ساندويتش في اليوم؟" لم تتمالك نفسها من الضحك وأرسلت له بوجه باسم، ثم قالت: "أنا بتكلم بجد، لو سمحت حضرتك إزاي وصلت لكل الحاجات دى مع إن ملفات الموظفين تعتبر سرية ومش أي حد ممكن يطلع عليها؟ " "أنا هقولك السر بس يا ريت بلاش تسيحي للمدير بتاعي". مرت دقائق يحادثها من خلالها عن المؤامرة التي دبرها حتى يستطيع الوصول إلى ملفها الوظيفي ويستخرج جميع بياناتها الخاصة ويسجلها لديه. "بس يا ستي ودخلت عليه وقلت له إن فيه واحد قريبي طالب مني بيانات من الملف بتاعه واخترعت له أي اسم وقلت له على اسم فرع من الفروع، ولأن هو بيثق فيا جدًا ساب لي كل الملفات أدور فيها براحتي، بس لحد ما لقيت ملفك يا قمر وطلعت منه كل البيانات الخاصة بيكي!"

كمجرم أقر على جريمته الأخيرة، جلست مشدوهة تقرأ رسائله التي حوت اعترافه الكامل ومغامراته البوليسية، وروح من الإصرار تملكته لمعرفة كل صغيرة وكبيرة عنها إلى أن قالت: "أنا مش مصدقة إنك عملت كل دا عشان توصلي، بجد ليه؟" "هتصدقينى لو قلت لك أن أنا نفسي مستغرب نفسي، أنا عمري ما

عملت كدا مع واحدة لا قبل الجواز ولا بعده، بس انتي بالذات مش عارف ليه أتشدت لك كدا!"

رغم محاولاته بمنحها تفسير منطقي لما جرى منه وإصراره على الوصول إليها ولكن كل تلك التفسيرات لم تزدها إلا تعجبًا وعدم فهم، فظلت تسأل في إصرار: "أنا عمري ما كلمت حضرتك ولا حاولت ألفت نظرك بأي صورة من الصور لأن دا مش من طبعي ولأني إنسانة خجولة، كمان أنا عارفة إن حضرتك إنسان محترم وعمرك ما نظرت لي أي نظرة مش كويسة، فأزاي أنت بتيجى وتطلب منى طلب زي ده؟" وبدون سابق إنذار أجابها برد مقتضب: "طب معلش مش هقدر أتكلم دلوقتي، عن إذنك سلام".

كعادته، يتركها في أكثر الأوقات التي تحتاج منه إجابات على أسئلتها المبهمة، ولكن ماذا عساها أن تفعل فالأمر حكم عليه بالفشل مسبقًا قبل أن يبدأ، شخص متزوج يحادثها ويطلب قربها! ألهذه الدرجة أصبحت مطمعًا للكل وهي لم تتجاوز الثامنة والعشرين بعد! هل لأن القدر لم يمنحها فرصة للزواج والارتباط وتكوين أسرة كمثيلاتها من بنات جيلها تصبح كالدمية التي يحاول كل رجل تزوغ عيناه نحوها أن يأخذ منها ما يشاء؟ هل يأتي عليها الوقت الذي ترتضي فيه أي رجل لمجرد إنه شخص يرتدي أرقى الملابس ويقود أفضل السيارات ومعه حساب مصرفي، حتى وإن كان متزوج وله من الأولاد الكثير؟ وهل الزواج هو وجهة اجتماعية في مجتمع لا يعرف من الوجاهة سوى الملابس المهندمة والكلمات المنمقة! يا لبؤس الزمان وشقائنا نحن النساء! لم تستطع أن تكف بتفكيرها عن الأستاذ نادر المبجل بائع الهوى والكلمات المعسولة ورواية لا تعرف لماذا بدأت وعلى ما تنتهي! ولكن ما تعلمه وتشعر به يغص بقلبها حتمًا أن تلك الرواية لن تنتهي حتى تترك أثرًا جديدًا وعلامة تُشقي نفسها وتعذب روحها الجائعة لكل معنى للحب والسعادة، هي كالظمأن في صحراء دنياها المتخمة بكل مشتهيات ومتع الحياة الدنيا ولذاتها، دنيا ترزخ بكل ما لذ وطاب مما تطوق إليه النفس البشرية، ومائدتها التي افترشت بكؤوسها المغمسة بخمر الهناء وإكسير السعادة والأبدية، ولكنها لا تستطيع أن تمد يدها

أو ترتشف ولو بعض من قطراتها، فما تلك الكؤوس إلا أوعية تحمل شراب المتعة الوقتية وتزول بهجتها ولذتها بعد أن يفيق شاربها من غيبوبة سكراته، إنها اختبارات في الدنيا ولا بد للمؤمن أن يجتازها، تعرف كل ذلك ولن تستسلم كالعادة لأحلام ليست من حقها أو متعة حرام تغضب منها بارئها، حتى وإن كانت متعة كلمات معسولة لبضع لحظات كل يوم يلقيها على مسامعها عاشق يتمنى قربها والحديث معها، لا تريد سوى الحلال، أحضان رجل يكون لها كل العمر، ملك يمينها كما تصبح جاريته المعشوقة. هي تتعطش لكأس حب يرويها، أقسمت على نفسها لن تشربه إلا من يد سيدها وأميرها، يتبادلان رشفاته معًا في محراب حبهما الأبدي، إيمانيات تربت عليها ومعتقدات ترسخ بقوة داخل نفسها الشفافة، ولكن هيهات أن يترك العقل مساحة للراحة أو يتوقف عن التفكير والدوران ليل نهار!

كل الأسئلة تجول بخاطرها، لماذا ابتغاها من بين كل الأخريات وفكر في الارتباط بها وهي لم تكلمه يومًا ولم تحدثه قط، لن ترتاح أو تهدأ حتى يجيب على أسئلة تزور عقلها الدائر في كل وقت، ولكن لن تراسله بأية رسائل، فمن يكون حتى تعطيه مساحة أكبر في حياتها، أو تمنحه ولو إيحاء بسيط باهتمامها به، فالأمر برمته كله خطأ ومجرد التفكير فيه يجعل نفسها تشعر بإثم لا يغتفر!

*****

(٧)

جلست الصديقات الأربعة يتبادلن الضحكات، وقد بدا عليهن التألق والنشاط بعد أن انفرجت أساريرهن من كثرة الكلام والأحاديث، والتي تتبعها في كل مرة نوبة من الضحك المتواصل تستمر لساعات، غير عابئات بنظرات المارين أو زوار المكان الذي اكتظ عن أخره بأعداد لا حصر لها من رواد النادي العريق . فاليوم هو الميعاد المنتظر منذ أشهر لاجتماعهن بعد فترة زادت عن العام تقريبًا، قالت ندى وقد اغرورقت عيناها بالدموع من كثرة الضحك، وضعت يدها اليمنى على فمها حتى لا يسمع الحاضرين رنين ضحكاتها المتعالية واليد الأخرى أعلى قلبها الذي كاد يتوقف: "بجد مش ممكن! أنا قلبي هيقف من الضحك، انتي فعلا عملتي كدا مع جوزك؟" اتكأت ليلى بثبات على المقعد وقد علت شفتيها ابتسامة الانتصار ثم قالت في ثقة: "طبعًا، وحياتك خدته معايا المحل إياه واشتريت كل اللي نفسي فيه وبكل سهولة راح حضرته على الكاشير ودفع من غير ولا كلمة ولا قدر يفتح بوئه، وبعدها خدني وعزمني في أغلى مطعم". صفعت منة وجنتها بيدها، تستمع في دهشة إلى حديث الأخرى ثم هتفت بقوة: "يا جبروتك يا بنتي، وخليتيه يدفع لك كل المبلغ ده عادي كدا! ليه بقا عملاله عمل ولا سحراله؟" عادت ليلى تجيب في ثقة تجلت عبر نبرة صوتها الهادئة وجلستها المتفاخرة، تلوح بيدها يمينًا وشمالًا:

ـ"لا طبعا يا حبيبة قلبي وانتي فكراني عبيطة وهبلة زيك، الموضوع مش محتاج لا سحر ولا شعوذة". استقامت في جلستها رافعة حاجبها الأيسر وتابعت:

ـ "لا وحياتك، دا أنا ماسكة عليه ذلة بس، عشان كدا عرفت أمشيه ازاى واعرفه قيمتي وقيمته كويس!" عاد التساؤل يسيطر على الجميع في حين هتفت منى تتساءل كالأطفال في دهشة وتأهب: ـ "ذلة! لا لا دا انتي لازم تحكي لنا كل حاجة وبالتفصيل، يلا قولي قولي، على الأقل نستفيد من خبراتكم البوليسية أنا

والبت الغلبانة دى (تشير إلى ندى) في كيفية التعامل مع الذئاب البشرية بعد الجواز". قهقهن جميعًا على تعبيرها الساخر، اقتربت ليلى ببطء إلى الطاولة المستديرة وأومأت لهن بالاقتراب حتى تستطيع التحدث براحة، فاقتربن منها برؤوسهن ينصتن في شغف حتى همست: "لقيته بيكلم واحدة زميلته في التليفون، لا وكمان واعدها بالجواز". شهقة عالية انطلقت من أفواههن دفعة واحدة، مع إطلاقهن بعض اللعنات ونعته بالخيانة والغدر، حتى عادت منة تسأل في ترقب: ـ "طب وانتى عرفتي إزاي إنه بيخونك أو بيكلم واحدة؟" عادت تسرد عليهن الواقعة بكامل تفاصيلها وبطريقة تمثيلية كمسلسل بوليسي: "أيوة سمعته بيكلم واحدة وعرفت إنه بيخوني حتى لو كان بالكلام بس، الأستاذ ابن خالي اللي متجوزاه بقالي أربع سنين بعد قصة حب كل الناس تحكي عنها، والفرح الأسطوري، ولا شهر العسل اللي قضيناه مع بعض وحياته اللي مخليها له جنة، وولاده! ولاده اللي كل الناس بتتمنى ظفرهم، كل دا أختفى وبقا هوا!" ثم استطرت في حنق تعالى مع نبرة صوتها المحتدة: "أنا بقالي فترة حاسة إنه متغير ومش مظبوط معايا، ففضلت وراه لحد ما استنيته وهو داخل ينام واتحججت إن رصيدي خلص وعاوزة أكلم ماما ضروري اطمن عليها لأنها تعبانة، طبعا حضرته كان دايخ خالص ومش شايف قدامه فتحلى الباسورد وادانى الموبايل وما خدش باله إنه نسي يمسح الرقم من سجل المكالمات، غير رسايل الواتس اللي بعتها لها وهي ردت عليه، رايح يعرف عليا واحدة الأستاذ!" ضحكت منى وهي تستند إلى الخلف على مكر ودهاء الأنثى المتراقص بعيني صديقتها ثم قالت: "ههههههههههه، وبعدين عملتي فيه ايه يا مفترية انتي؟ طبعا ورتيه الويل؟" ابتسمت ليلى في ثقة، غمزت بطرفها وقالت: "وحياتك خليته يلف حوالين نفسه، بكل هدوء جبت شنطتي وعملت إني بلم هدومي ودخلت لبست العيال وقعدت اعيط وهو كان نايم لحد ما صحى على صوتي، وطبعا عملت له الشويتين بتوعي وهددته انى هسيب البيت وهطلب الطلاق غير انى مش هسكت وهعرف خالي بكل حاجة، وطبعا أنتم عارفين الباقي!"

لم تتمالك الصديقات أنفسهن من الضحك والتصفيق على مكر وخديعة ليلى،

ولكن داخل عقل إحداهن بدأت ثورة مشتعلة وحرب ضارية، شردت ندى لدقائق وهي تتذكر كلمات صديقتها وترى الأحداث تتوالى أمام عينيها كأنما ترى قصتها مع نادر تتكرر، تشعر بغصة في حلقها حينما ترى نفسها امرأة لعوب تأتي لتنتزع رجل متزوج من زوجته وأولاده. كانت تبتسم، ولكن بداخلها دويًا خافتا بالقلق والخوف، يضرب بقوة جدران عقلها المتصدع بفعل الأفكار، كيف ستكون النهاية؟ ومع ذلك الحوار توارد على ذهنها مشهد شقيقتها حينما كانت تبكي وتنوح بين ذراعي والدتها في ذلك اليوم وهما جالستان بحجرة المعيشة وتطلعها على شكوكها التي تزرع صدرها أشواكًا بعلاقة زوجها بأخرى في العمل، في حين تهدئ الأم من روعها، تطلق على مسامعها بعض النصائح في كيفية الحفاظ على بيتها واسترداد زوجها بالحب والتفاهم لتحرره من براثن تلك الأخرى، التي حتمًا تنتهز أي فرصة للحصول على الرجل المناسب دون التفرقة بين متزوج وآخر أعزب، ربما اعتقدت حديثها في ذاك اليوم تفاهة امرأة لا تجد ما يلهيها خلال ساعات يومها الرتيبة والتي تقضيها ما بين إعداد الطعام وتنظيف المنزل والثرثرة مع الأخريات، ولكنها الآن تشعر بوجعها الذي ينشب بصدر امرأة تشعر بوجود من تتسلل عنوة لتسلبها حياتها وزوجها معًا! أفكار باتت تقرع عقلها وتلهب صدرها في ذات الوقت، إلى أن دق هاتفها فجأة يعلن عن وصول رسالة جاء فيها: "يعنى لو أنا ما سألتش مش يهوون عليكي تطمني عليا، بس بردو وحشتيني وبفكر فيكي!"

تلك المرة لم تكن سعيدة ولم تشعر بتلك الرعشة الممتعة التي اجتاحت جسدها عندما رأت أول رسالة منه، فقط عقدت حاجبيها وزمت شفتيها بطريقة تنم عن الغضب، لن تعطيه فرصة لكي يستمر في مسرحيته الهزلية، لم يكن من سياساتها التحدث أو التعرف على شباب خارج دائرة محيطها العائلي، تعرف أن الحديث والكلام ليس من حق أي من المتحدثين وليس هناك أي علاقة قد تجمع بين اثنين حتى وإن كانت بضع كلمات وتفاهات إلا وتجر للخيبة والخطأ، وبطريقة انفعالية وضعت الهاتف على الطاولة وهي تبذل جهدًا لا بأس به في أن تزيح غضب تلبسها بعد قراءة الرسالة فأحال لحظات الصفاء والرفقة لغصة

ومرارة. ولكن منى بذكائها الفطري تنبهت لحركاتها العصبية فمالت عليها ببطء تسألها عما يحدث حتى لا تشعرن الباقيات بأي شيء.

*****

(٨)

"يعنى بعتلك رسالة وماردتيش عليا! أنا زعلتك في حاجة؟" كانت تنظر للرسالة بعد أن عادت من نزهتها إلى البيت وقد انتابتها حالة من الانزعاج، أمسكت الهاتف بحركة عصبية وقد اتسعت عيناها تنم عن تصاعد درجة حرارة الغضب بداخلها ليدور الحديث بينهما كالتالي: "وهو أنا هزعل من حضرتك ليه؟ أو أرد على رسايلك ليه من أصله، أحنا مفيش بينا أي حاجة ولازم سيادتك تفهم دا كويس". "سيادتك وحضرتك دول في الشغل مش هنا، أنا هنا نادر وبس اللي عاوز يتكلم معاكي. مش عارف ليه من أخر مرة وانتي مش بتفارقي خيالي، وهموت واكلمك".

عادت تصرخ في صمت بينما تبعث برسالة كأنما تحادثه وجهًا لوجه: "يا أستاذ نادر اللي بيحصل ده مايصحش، أنا بلغت حضرتك عن رفضي للموضوع وانا بحترمك وبقدرك، وممكن تعتبرني أخت ليك وانا هعتز بكدا". أتاها رده ينذر عن غضبه البادي عبر رسالته التالية: " امممممم، أخت أو صديقة! طيب ماشي، بس أعمل إيه في عقلي اللي مش بيقف عن التفكير فيكي، وطيفك اللي بشوفه في كل مكان، ولا صوتك الرقيق اللي بيرن في ودانى، ها؟" لم تعرف كيف تنهي الحديث معه مدركة أنه لن يتركها بسلام، فسألت في ذهول يشوبه بعض القلق: "أنا نفسي أفهم أنت لحقت أمتى تفكر فيا كدا أو أخطر ببالك للدرجة دى، أحنا عمر ما حصل بينا أي كلام أو حوارات، ممكن تشرحلى؟"

"أنا فعلا عمري ما خطر ببالي إني أكلمك أو أبصلك، أنا كدا في الشغل حتى مع زميلاتي في الأقسام التانية، بس هما مرتين بس شفتك فيهم وبالصدفة دققت في ملامحك وكلامك لقيت قد إيه انتي جميلة وجذابة، حتى في التزامك رقيقة ومليانة أنوثة". اندهشت أكثر وهي ترى كلمات الإطراء والإعجاب، يثني على أنوثتها وجمالها الجذاب، لا بد أن هناك خطأ ما، فصاحت عبر الرسالة مذهولة:

"أنا؟ أنت بتتكلم عنى أنا! مش ممكن؟" باهتها برسالته تأكيدية على كلامه: "أمال بتكلم عن خالتي؟ طبعا انتي يا أنسة نودى، شفتي بقا إزاي كمان عرفت دلعك يا سكر؟! وعشان مش تقعدي تسأليني عرفته إزاي أنا هقولك". لقد علمت بعد مرور الربع ساعة كل شيء، وهو يبعث لها برسائل يخبرها عن ذلك اليوم الذي رآها في مكتب الفرع الرئيسي لديهم بصحبة زميلتها منى، تحمل الأوراق والملفات التي جاءت تسلمها لمدير الشؤون القانونية بعد أن كلفها بذلك الأستاذ مرسي مديرها المباشر، تذكرت أحداث ذلك اليوم وتذكرت نظراته لها من بعيد وهي تقف أمام باب مكتبه تحمل ملفات كثيرة، مرتدية جونلة طويلة بلون القهوة وقميص مهندم باللون الوردي وفي قدميها انتعلت حذاء عالي يحافظ على مستوى خطواتها الأنثوية، ورسمت عينيها بكحل أسود زادها سحر وبريق، وقفت تتناقش مع إحدى زميلاتها الموظفات في ذلك الفرع دون أن تكترث بتلك النظرات الفاحصة منه، إنه شخص مهذب وخجول، ولا يمارس أي شيء في حياته سوى العمل، تعلم ذلك حقًا وهي بالطبع لا تتعامل مع رجال خارج نطاق ما تحتاج إليه من أمور خاصة بمهنتها. "مش ممكن؟ يعنى أنت كنت قاعد تبصلي كل ده وواخد بالك منى؟" كتبت مندهشة بعد أن اهتزت جنباتها وسمعته يحاكيها عن إعجابه بها في ذلك اليوم، "أيوة لقتني ببص لك أوى وبدقق فيكي بجرأة عمرها ما حصلت لي، لقيت فيكي كل حاجة بحبها في الست، الأدب والتدين حتى في اختيار ملابسك المحترمة، حسك فني ورقيق، غير بها الجمال، هتكلم عن ايه ولا ايه، القد الميال والعيون الغزال ولا...". سرح بخياله واصفًا لمحاسنها التي أبهرته في حين ازدادت خجلًا وأمتقع وجهها مستبغًا بحمرة قانية بعد أن شعرت بجرأة في الحديث سوف تجر من خلفها تبعات أخرى لا تحمد عقباها، فأسرعت وكتبت: "بس أرجوك كفاية لحد كدا خلاص ماتكملش، مش عاوزة أسمع". "طيب خلاص أنا بعتذر، أنا عارف انتي قد إيه إنسانة محترمة وملتزمة بس صدقيني غصب عنى لقتني بفكر فيكي وببصلك بتمعن، بجد جذبتينى أوى مش عارف ليه!" طرأ على ذهنها أمور غامضة فقالت مستفهمة: "هو ممكن اسأل سؤال غريب شوية؟" "تتفضلي تسألي بس؟ دا انتي

تؤمري". "مش حضرتك متزوج بردو ولا أنا بيتهيئلى؟ إيه يخليك تفكر في الجواز تانى مرة؟ ولا هي بقيت موضة دلوقتي؟!" بادلها بضحكة طويلة ثم أجاب: "هههههههه طبعا متجوز ومراتي كمان ست حلوة وبحبها، بس انتي حاجة وهي حاجة تانية". تعالى وجيب قلبها فاختلطت مشاعرها بمزيج من الأحاسيس المتباينة لغرابة حديثه، شعور ما بين المرارة والغضب والاشمئزاز وأيضًا التعجب . "يعني إيه يا فندم أنا حاجة وهي حاجة تانية؟ ممكن تفهمني بليز". عاد ليشرح: "يعنى هي مراتي أم أولادي، حبيبتي اللي عاشت معايا سنين وجابت لي منة وكريم حبايب قلبي، زوجة تراعيني وتشوف أمور البيت وست من الدرجة الأولى". لم تستطع أن تتمالك نوبة الغضب التي تسللت إليها بفعل حوار انطوى على أنانية بحتة فصاحت كأنما تريد أن تصرخ عبر الرسالة: "آها! شغالة يعني ومربية بالنهار، وبالليل الكماريرة لسيادتك واللي تشوف مزاج حضرتك؟!" "لا لا مش أسمحلك تقولي عنها كدا، مراتي دى على دماغي من فوق وفعلا بحبها وكان جوازنا عن حب، وأنا مش حارمها من أي شيء ومعيشها في مستوى كويس وكل طلباتها أوامر، هي الست هتكون عاوزة ايه أكتر من كدا؟!" لم تأت رسالته الأخيرة بجديد، بل زادت من مسلسل دهشاتها المتكررة وانفراجات شفتيها وعينيها الغاضبتين، هناك تضاد ما في حديثه ولا بد أن تفهمه:

"فعلا؟ تفتكر هو دا اللي الست محتاجاه من الجواز وبس؟ لقمة كويسة ونومة مرتاحة وفستان جديد على العيد! بس بقا المشاعر الإنسانية والحب والدفء دول حاجة ما لهاش وجود في حياة العروسة الحلاوة اللي هي مراتك باشمهندس؟" لم يرد على رسالتها للحظات وظل هادئًا، ربما لم يعتاد على اللهجة الحازمة التي باغتته بها، إلى أن أرسل لها برسالة أخرى. "ممكن أطلب طلب بسيط بس أتمنى ما تكسفنيش؟" "طلب إيه ولو إنه مرفوض مسبقًا؟" "ممكن تسمحي لي نتكلم صوت بدل الكتابة دى، لأنى فعلا تعبت من الرسايل، وفيه حاجات كتير مش هقدر أوصلها لك إلا لما نتكلم". أجابت بحزم وبدون لحظة تفكير: "لا معلش أنا آسفة مش هقدر أوافق على طلبك". "طيب خلاص، وأنا بعتذر". لم تبعث له برسالة أخرى، وهو انصرف على الفور بعدما صدمه ردها

الحاد والصريح، ولكنها ظلت طوال الليل تفكر في حواره، لا تعرف كيف يكون الشعور الطبيعي في مثل تلك الحالات، شعور بالغضب من كلماته عن زوجته، أم شعور بالندم حيال ردها الجريء عليه والمندفع؟ علها جرحت إحساسه وهو شخص له مكانته التي يعرفها الجميع، ولكنه في نهاية الأمر رجل والرجال كلهم متشابهون ليس الجميع مطلقًا ولكن كل من قابلتهم في طريق حياتها كانوا يشبهون بعضهم البعض.

أسئلة وإجابات ظلت تدور بعقلها المزدحم بالحوارات والردود على ضميرها المتيقظ طوال الليل، وعيناها السارحتان في سقف الغرفة لم تعرف للنوم ولا الراحة سبيل حتى بزوغ النهار!

*****

(٩)

لماذا تشعر بالضيق بمجرد أن تتذكر أخر حديث دار بينهما؟ هل يمكن أن تكون أصابته ردودها عليه بالألم والجرح لكبريائه كرجل؟ ثلاثة أيام مرت على الحوار الأخير ولم يبعث لها بكلمة واحدة تدل على أي شيء ولذلك هي لا تعرف كيف تتصرف، هل تبادره برسالة تعتذر عن كلماتها الجارحة كحد السيف، تخبره أنها تعتز به كصديق وزميل؟ أم ترغب عن الأمر برمته وتنساه كأن شيئًا لم يكن؟!
أيام تمر عليها في العمل الذي لا يتبدل بملامح أستاذ مرسي الصارمة وصوته الأجش الذي يبعث الرعب في نفوس كل من يسمعه، وزملائها بوتيرة حياتهم للموظف المصري المطحون تتخللها حكاياتهم المحفوظة عن الزواج والبيوت وسعر الخضروات وغلاء الزيت وتسعيرة المواصلات، كلها أحاديث متشابهة وفي كل يوم تظل تتفحص بنظراتها شفاههم الغامزة وأشداقهم المتحركة كتروس بشرية تفرم طعام الإفطار لتخبر عن حكاية ونميمة جديدة لا يملونها. جالسة كانت على مكتبها تنظر لشاشة الحاسوب وتسجل أخر التقارير المطلوبة على الجهاز، إلى أن أتى صوت عم حسين عامل البوفيه وقال: ـ "أستاذة ندى". لبت نداءه دون أن ترفع عينيها عن الشاشة: "أيوة يا عم حسين خير فيه حاجة، مراتك هتولد عاشر مرة ولا إيه؟ هي تعرف كل شخص في العمل جيدًا حتى ذلك العامل الجشع الذي لا يتوانى عن طلب المعونة المادية منها متحججًا بظروفه المادية ونفقات زوجته الحامل.
بادرها بضحكة ساخرة وهز رأسه تعبيرًا عن الرفض: ـ "لا مش مراتي اللي عوزاكى دا أستاذ مرسي طالب حضرتك حالًا في مكتبه وباين عليه متعصب أوى!" نظرت له وقد انفرجت عيناها ذعرًا لمجرد سماع خبر انزعاج الأستاذ مرسي (بوق الشؤم) كما كانوا يطلقون عليه في العمل؛ نظرًا لغضبه القوي وصوته المندفع كماسورة مياه انفجرت إثر حادثة صدام في ميدان عام، انتفضت فوق المقعد

وقالت: "طيب خلاص يا عم حسين هروحله حالًا". هندمت ملابسها وأخذت نفسًا عميقًا، فهي حتمًا تتوقع الحالة البشعة والمرعبة التي سيكون عليها، لم يعد هناك خوف أو تراجع فقد اعتادت منه على ذلك، خطت بقدميها إلى المكتب حتى وصلت إلى الباب وطرقته عدة طرقات في نسق منتظم، فأتى صوته من الداخل يأمرها بالدخول: ـ "أيوة يا أستاذ مرسي، حضرتك طلبتني؟" كان يعقد حاجبيه الأشعثين ويزفر زفرات غاضبة من فمه توحي بنيران مشتعلة تنطلق من فم تنين غاضب يريد أن يضرم النار في كل الأرجاء، ويفتش أمامه في مجموعة من الأوراق والملفات، يبحث عن شيء ولا يجده. ـ"ممكن افهم الملف الخاص بالمقاولة الأخيرة مش موجود ليه على مكتبي؟" كانت تقف في ثبات واضعة يدها على الأخرى في تأدب، ترد على أسئلته في تلعثم وقد زاغت نظراتها من رؤية الغضب المتطاير من عينيه وقد سيطر عليه بقوة: "ما هو حضرتك، لأنه موجود دلوقتي في المكتب الرئيسي، واحنا طلبناهم عشان
يبعتوه بس لسه ماردوش علينا". عاد يصرخ مزمجرا: "إزاي اتأخر لحد دلوقتي، الناس دى لسه بتستهتر في شغلها كدا، لازم يكون عندي النهاردة على مكتبي ضروري عشان أراجع فيه شوية حاجات".

تنهد من جديد وهو يضرب بإحدى الملفات على سطح المكتب، أخذ نفسًا عميقًا وأدار الكرسي المتحرك خلف المكتب ثم جلس في انزعاج واستطرد قائلًا: ـ "طب خلاص يا ريت تبلغيهم إنهم يبعتوا الملف حالًا، ولا أقولك...". كانت تتأهب للانصراف ولكن كلماته استوقفتها. ـ"لا أنا عاوز شخص ثقة يروح يجيب الملف بنفسه، ممكن كدا يهملوا الموضوع وينسوه". صمت لعدة دقائق وهو ينظر إليها في تمعن يواري فمه بقبضة يده:

ـ" لو سمحتي يا ندى، هطلب منك انتى شخصيًا تروحي تجيبي الملف ده بنفسك أنا بثق فيكي". نظرت إليه وشعور بالفرح طغى عليها لثقته الكبيرة بها كمديرة لمكتبه، ولكن فجأة خطرت ببالها فكرة استوقفتها، إنها بذلك سوف تضطر للذهاب للمكتب الرئيسي وربما ستصادف نادر هناك، صاح قلبها في رعب وارتجفت أوصالها بمجرد التفكير في الأمر، ياالهول الأقدار، ماذا عساها أن

تفعل الآن؟ ـ"إيه يابنتي مالك؟ متسمرة كدا ليه؟ يلا اتفضلى روحي هاتى الملف وماتتأخريش، فاهمة؟" فاجأها صوته المزعج ليخرجها من فكرتها المرعبة لرؤية نادر بعد كلماتها اللاذعة له مؤخرًا عبر الرسائل، حملت نفسها خارج حجرة المكتب تغوص في أفكارها المرتعبة حد الغرق بعد أن امتثلت لأمره مجبرة على الذهاب لإحضار ذلك الملف، وماذا بإمكانها أن تفعل؟ فليس هناك من بد إلا تنفيذ ما طلب منها. طيلة فترة ذهابها إلى المكتب الرئيسي وهي تفكر، ماذا تفعل؟ وكيف سيكون ردة فعله عندما يراها؟ هي أيضًا كيف تتصرف في حالة كان متواجد هناك؟! لم تشعر بمثل هذا التوتر من قبل خاصة في العمل، وطوال المدة التي قضتها في تلك الوظيفة لم تنظر لأي زميل من زملائها نظرة مختلفة أو حتى نظرة إعجاب، فكلهم سواء لديها كما أنها لم ترتبك في أي مرة ذهبت فيها هناك، ولكن الآن الوضع مختلف حتمًا، فهناك شخص يهتم لأمرها وليس اهتمام عاديًا بل هو إعجاب وصل لحد التفكير في الزواج، وهل هناك نظرة أشد من نظرة رجل يتقدم للزواج بواحدة يعجب بها؟ تلك النظرة تجمع بين قبضتها كل معاني الإعجاب والتمني والشوق، أن تكون ملكًا له هو وحده يضعها في سجنه الخاص ويعتقلها خلف أسوار غرامه الجنوني، لتصبح أفضل عشيقاته ومؤنسة لياليه الساهرة.

لن تدع الموقف يؤثر فيها أو يتركها مهزوزة، ستبذل ما في وسعها كي تتماسك ولن تبدي أي من التوتر أو القلق، ولماذا تأبه لكل هذا، ما من داعٍ للتفكير أو استباق الأحداث، فليس هناك أمر من الأساس حتى تنزعج لأجله! وقفت سيارة الأجرة أمام مبنى المكتب الرئيسي للشركة، رفعت رأسها تنظر إلى اللافتة الكبيرة المعلقة وذلك المبنى الذي لم تفكر يومًا في أن يصبح مكانًا لقصة جديدة ستحتل ورقة أخرى في صحيفة أيامها، أو ذكرى تظل تحملها لآخر العمر أيًا كانت تافهة أو عابرة، فكل التجارب تترك أثرًا بداخل النفوس وتجعل للقرارات في المستقبل معنى آخر ومسار مختلف.

تقدمت بخطى ثابتة نحو البوابة الرئيسية وألقت بالتحية على موظفي الأمن معلنة لهم عن ماهيتها والسبب وراء الحضور، فبادرها عامل الأمن بابتسامة

وأذن لها بالدخول بعد أن تفحصها بعينيه من رأسها حتى أخمص قدميها، ودون أن تعطي للموضوع بالًا، توجهت ناحية الدرج، وصعدته في ثبات تريد الوصول إلى مكتب الشؤون القانونية في الطابق الثاني، وقد انكفت برأسها إلى الأسفل تتابع درجات السلم أمامها من دون أن تحول نظرها عن خطواتها المتتابعة في ثبات ونسق إلى أن رن هاتفها فجأة، أخرجت الهاتف من حقيبة يديها وفتحته لتجدها رسالة: "مش مصدق إنك عندنا، نورتي المكان!" ارتجفت يداها وتصاعدت الحرارة بسرعة إلى دماغها عقب قراءة الكلمات، اتسعت عيناها وأصابتها الدهشة فعلت دقات قلبها في نسق قوي لا تعرف ماذا تفعل؟ بيد أنه تسلل إليها شعور بسعادة غريبة سيطر عليها، ربما لمعرفتها الآن أنه بخير ولا يحمل في نفسه منها شيء بعد كلماتها الجارحة في تلك الليلة، وقد يكون شيء آخر! عساه إحساس باللذة التي تشعر بها المرأة حينما يكون هناك من يهتم لأمرها ويلاحقها، يتلمس عطرها في الهواء ويحلم بطيفها يهتف له ليل نهار، يبعث لها برسائل حميمية تعبر عن أشواقه، وكلمات ناعمة مغمسة باللهفة والوجد، قرأت الرسالة ومعها ابتسمت ابتسامة صامتة وعضت على شفتيها لمفاجئته غير المتوقعة، تركت الهاتف من يدها ليبادرها برسالة أخرى، وهي تميل على جانب الدرج ممسكة بسوره تهم بالصعود، "لو كنت أعرف إنك هتضحكي كنت بعت رسالة من زمان، ضحكتك جميلة أوى!" هل يراقبها؟ وكيف ذلك؟ لا بد إنه في مكان ما يراها وهي لا تعرف، يختبئ في أحد المكاتب المترامية على طرفي الطرقة الواسعة، انصرفت بعينيها عن الهاتف وجعلت تتلفت بنظراتها يمينًا ويسارًا علها تعرف أين يكون، ولكن لم يسفر بحثها عن أي شيء أو تصل لأية نتيجة، لم تر سوى أشخاص يعملون في المبنى وعملاء لا تعرفهم وأناس لم ترهم من قبل، ولبرهة وقفت على جانب الدرج وهي تائهة لتسأل نفسها: "لماذا تقف هنا؟"

عقب ثوانٍ معدودة وهي تضرب بيدها على جبهتها وتضحك في قرارة نفسها بعد ما أصابها من فقدان ذاكرة مؤقت وهي تقول: "أها، أنا جيت عشان الملف لأستاذ مرسي!" هل يعقل أن تصيبها تلك الحالة الغريبة بسبب رسالة منه تقلب

أمرها رأسًا على عقب وتشتت أفكارها فتغفل السبب الرئيسي الذي أتت من أجله؟ إذا لم يكذب القدماء حين قالوا أن الاهتمام بالمرأة يجعل كل كيان بها يتبدل، إنها زهرة من قلب الطبيعة إذا أردت لها الحياة فلتسقط عليها قطرات المطر وإن أردت لها الشقاء فلتحجب عنها شعاع الشمس، فالكلمة الرقيقة هي المعجزة التي تحول القلب الرابض بداخلها إلى بستان تتغانى فيه الورود والأزهار فتغرس أجمل ملامح الأنوثة على وجهها المنير وتملأ حياتها سعادة وبهجة، لتغدو في تلك اللحظة المرأة الخارقة التي تتمكن من فعل أي شيء بفعل اهتمام أو كلمة حب. كانت تحاكي نفسها وهي متجهة إلى المكتب في الطابق الثاني، تسرع خطواتها المترنحة بفعل الاضطراب، في حين دامت ابتسامة تزين وجهها السمح وينشرح صدرها الذي طَرب بفعل رسائله الناعمة، بينما إحساس بالخجل يداعب روحها الشاردة إلى حد جعلها تشعر بنظرات المارين في الطرقات يراقبونها، يعرفون فيما تفكر، وما المغزى من وراء بشاشتها الظاهرة ووجها المفتر.

مع ذلك كان هناك شعور بالاحتيال، إنها تخدع كل الموجودين بمظهرها الرسمي والذي أتى لأمور تخص العمل ولا يدركون أن داخل هذا المبنى بداية لحكاية جديدة بين اثنين الواحد منهم يلاحق الآخر مثلما كان يحدث في حكايات الهوى القديمة،

هل تراها تحتال على تلك الجموع الغفيرة من بشر مجهولي الهوية؟ تنافقهم بهدوئها المسدل على ملامحها وخمار الجدية اللائح على قسمات وجهها ومشيتها الواثقة؟ أم تخادع عقل امرأة بعث الاهتمام بها عبر كلمات رقيقة حياة زائفة وعمرًا مديدًا؟ أو قلب أنثى أيقظه الجوى في ليالي الوحشة وعاد للرقص على أنغام رسائل التغزل والدلال؟!

سارت بثبات حتى وصلت إلى المكتب وطرقت على الباب فالتفت لها بعض الموجودين ليبادلونها بإيماءة من رؤوسهم وابتسامة هادئة من خلف مكاتبهم الخشبية، هم يعرفونها جيدًا فثلاث سنوات من العمل كفيلة بحفظ ملامحها النادرة ومظهرها المختلف لدى الكثيرين من أولئك العاملين في هذا المبنى،

ممن اعتادوا على رؤيتها عقب ترددها الدائم على المكان لإنهاء بعض الأمور الخاصة بالعمل. ألقت السلام على الموجودين ثم اتجهت مباشرة إلى مدير الشؤون القانونية الأستاذ علي ذي الوجه البشوش والثغر المفتر وترحيبه الدائم بالعملاء والموظفين، تشعر معه ببساطة الحياة ويزيح عنك إحساس التعقيد والبيروقراطية العفنة والمتأصلة في سلك العمل الحكومي، فكل شيء يمكن أن يقضى في لحظات بعد أن يبتسم لك الأستاذ علي ويخبرك أن كل شيء على ما يرام. ـ"أزيك يا أستاذ علي"، ألقت عليه تحيتها المهذبة واقفة أمام مكتبه في تأدب تنتظر منه الرد، رفع رأسه على الفور من بين أكوام الأوراق المكدسة أمامه ونظر إليها من وراء منظاره الدقيق وعلى وجهه ابتسامته المعهودة وقال:

ـ" أهلا أهلا يا أستاذة أخبارك ايه؟ اتفضلي اقعدي". مد يده نحوها يأذن لها بالجلوس في حين قالت له باحترام بالغ: "متشكرة أوى لحضرتك أنا همشي على طول، مش عاوزة اتأخر على الشغل". ولكنه عاد مرة أخرى يطلب منها الجلوس في حزم ويشير بيده إلى المقعد: "لا لا تمشى ازاى، وهتفضلى واقفة كدا مايصحش!" انصاعت لطلبه وخطت في هدوء إلى المقعد لتجلس في مواجهته، نظر إليها مبتسمًا وقال بشيء من الود: "ايه فينك من زمان يعني مش بنشوفك؟" بادلته الابتسام بحياء، فدومًا ما كانت تشعر بالارتياح في التعامل معه وتتمنى في قرارة نفسها أن يصبح مديرها عوضًا عن أستاذ مرسي ذي الوجه العبوس، ولكن لا يهم الآن، خرجت عن صمتها وأجابت في تأدب جم:

ـ" ربنا يخليك يا أستاذ علي متشكرة على ذوق حضرتك، بس أنت عارف أني مشغولة في الفرع بتاعنا هنعمل ايه!" فرد عليها في تسامح وهدوء مع إيماءة من رأسه: "ربنا يعينا جميعًا". كانت ستكمل حديثها لولا أن فوجئت بشيء لم تحسب له حسبان، انخرست الكلمات، فانحشر الصوت يأبى الخروج، وعادت دقات قلبها إلى التباري مرة أخرى بعد أن سمعت أحد موظفي المكتب وهو يحادثه، نعم إنه نادر يلج إلى المكتب بكل ثقة، يذهب ويحمل كرسيًا، ليجلس بمواجهتها مباشرة في الجانب الآخر من الحجرة، لماذا يفعل ذلك ويعرضها لتلك الحالة الحرجة؟ فقط التقطت أنفاسها مثبتة نظراتها على أستاذ علي، لا

تعرف ما العمل؟ كيف الخلاص من تلك الأزمة؟ تبذل جهدًا خرافيًا ألا تزوغ بعينيها إليه أو تشعر الموجودين بأي شيء مما يدور بخلدها، ولكنها أيقنت أنه ينظر إليها بتمعن، يدقق في كل تفصيلة فيها من رأسها حتى أخمص قدميها، ويراقب تحركات شفتيها بالحديث، توقفت عن الكلام للحظات واغتنمت فرصة تحدث أستاذ علي مع أحد العملاء الذي دخل عليهم المكتب يستشيره في أحد الأمور، إنها فرصة طيبة لتلتقط بعض من أنفاسها المتقطعة وتلملم أطرفها التي اقشعرت بفعل نظراته الحادة، حتى كادت تخترق جسدها الملتهب حرارةً وتذيب عظامها المتخبطة، إلى أن التفت نحوها أستاذ علي ليسألها فيما أتت، حاولت أن تتحدث بهدوء تبرهن على قوتها التي خارت بفعل الموقف، إنها على طبيعتها ولم يؤثر فيها شيء حتى وإن كان تحديقه الفاضح، بينما لم يستسلم، ظل يحاصرها بنظراته المتوالية في صمت، يحدجها ويطيل النظر، حتى شعرت أنها فريسة خائرة القوى ترقد أسفل عينيه المستنتين، فرصة عظيمة سنحت له وألقيت بين راحتيه ليلتهم قطعة حلوى مغمسة بعسل وضعت أمامه دون أن يترك منها شيء، مر الوقت كالدهر واللحظات كأنها ساعات والدقائق كأعوام مثقلة على روحها التائهة، إلى أن أخذت ما أتت من أجله وودعت الأستاذ علي بابتسامة شكر. خرجت من المكتب تشق الجموع بخطواتها المسرعة لا يقاطعها سوى زفرات أنفاسها الملتهبة، زفرة قوية لقلب أحدهم كان على شفا حفرة من الموت ولكنه عاد، نعم الموت! أليست النبضات التي تتوقف عن الحركة عندما يستشعر القلب بالحصار العاطفي موت صغير؟ أليست الأنفاس التي تحبس للحظات عندما تلتقي الأعين بنظرات من يتمنى القرب موت؟! ولكنه موت مختلف تنتعش الأرواح لذكراه وتحارب من أجله الدنيا ومن عليها لتشعر ولو لدقائق بنشوة الانتصار على الزمان لقلوب منهكة، وعلامات تقدم العمر التي رسمها الزمان على الوجوه الوحيدة، وشماتة كل من يريد للأنفس الوحدة والقهر والألم! كانت خطواتها تسابق ضربات قلبها، الاثنان يتسارعان وينافس كل منهما الآخر، قلبها الذي حاول اقتحامه عنوة، وخطواتها التي تكافح لنيل إفراجًا قريبًا من سجن عينيه القاتلتين وحصار دام لروحها ساعة كانت بكل

العمر. ولكنها ناضلت، جاهدت في النهاية أن تخمد من جذوة كلاهما، فلا بد أن تعتاد على وجوده والالتقاء به في أي وقت بالعمل، ستقاتل من أجل نسيانه، ستبذل ما في وسعها لتكف عن التفكير به حتى لا يصبح الأمر همًا جديدًا يؤرقها عبر ساعات النهار وسكنات الليل.

ولكن ماذا عنه، هل يستسلم هكذا وبسهولة؟!

*****

(١٠)

حياتها التي تصل لمرحلة الضجر كانت تدعوها للوحدة، فلا أقارب يتوددون أو جيران تستطيع مصاحبتهم، حتى صديقاتها، أكثرهن الآن أصبحن زوجات وأمهات ولكل منهن حياتها الزاخرة بالحكايات المعقدة والمشاجرات العائلية والكوارث الطفولية والكثير من الأمور التي طالما بعثت في نفسها الإحباط والعزوف عن التفكير بالزواج والاستقرار، وفي كل مرة تحاول الاتصال بإحدى صديقاتها القدامى لا تجد سوى وابل من الشكاوى والتحسر على الشباب الضائع مع رجل لا يعي معنى الحب والاحتواء أو يدرك كيفية تقدير المرأة والتعامل معها، فالعيش في مجتمع شرقي هو للمرأة أكبر معتقل، مجتمع لم يترب فيه الرجال على تقدير المرأة ككائن حي له الحق في الحياة والرفاهية والمتعة الحلال، حتى وإن تمثلت في كلمة شكر أو يد حانية تداوي وتطبطب أخر ليل مليء بالشقاء، كل ذلك جعلها تتراجع عن إجراء مثل تلك المكالمات أو التفكير في السؤال عن صديقاتها اللاتي تغيرن نفسيًا وجسمانيًا بفعل عوامل الطبيعة الشرسة والمتمثلة في الزواج، وكثيرًا ما كانت تضحك عند سماعها لإحدى قصصهن، وأحيانا أكثر تخاف وترتعب لفكرة أنها ستتزوج يومًا وتصبح مثلهن، جارية بكل ما تحمل الكلمة من معنى تلد وتربي وتطعم وتنظف وتطبخ وتدلل وتسعد وتحنو وتهدهد وتلاطف، شغالة بقلب زوجة، وفي النهاية لا تسمع سوى كلمات التأنيب والشكوى من الآخر على إهمالها لمظهرها وجمالها، ولم امتنعت في الحفاظ على قدها الممشوق وشعرها المسترسل، أو عطرها الذي دومًا ما زكا البيت بأريجه الفواح، ولكن في النهاية تهز رأسها يمينًا ويسارًا تحاول أن تطرد تلك الهجمات العدوانية الشرسة على عقلها المتفتح، فليس الرجال كلهم سواء مثلما ليست النساء كلهن واحدة، ولكل قاعدة شواذ!

فقط كانت الوحدة هي مؤنسة لياليها وصديقتها مع تقدمها في العمر وبلوغها

الثامنة والعشرين دون زواج، وهل هناك حل آخر غير الإذعان للمقدر، فليست أول فتاة تصل لهذا العمر بدون زواج، فغيرها كثيرات ولن تكون الأخيرة، إنها ما تفتأ تبحث عن السعادة أو تنتظرها مع كل يوم جديد وعيد ميلاد يلي الآخر، وعقب كل سجدة صلاة تدعو وتستجير بخالقها أن يرزقها الفرح ويمنحها البركات. كل ذلك جعل من نفاذه لحياتها وانسلاله داخلها أمرًا متاح، ليأتي بكل اهتمامه الزائد وروحه اللطيفة ويملأ فراغ أحدثته الأيام بروحها، مع فراق أشخاص وبعاد الآخرين ولهو الدنيا وظروفها، هو لن يتركها تنساه بسهولة ولن يبتعد عنها إلا بعد أن يرى منها ما يريد، يرى الابتسام على شفتيها الورديتين حينما تراه أو تتذكره، يستمع لكلمة إعجاب به وهو الذي طاردها ليل نهار ليصل إلى قلبها مبتغاه. لم يستسلم، نعم لم يستسلم لرفضها، فترة لا تتجاوز الأيام وعاد يمطرها برسائله الكثيرة في كل وقت حينما تكون في العمل والمنزل وفي أي مكان، شغل عقلها قبل أن يحاول أن يطرق باب قلبها الواعي، أيقن منذ البداية أن أمره مستحيل بالنسبة لها ولن تحاول أن تخنع لإرادته أو تمتثل لدقاته فتمنحه فرصة المرور، لن تتركه يسكن خلجاته ولو لحظات، ولكن هل يستطيع القلب أن يصمد أمام اهتمام المهتمين وإلحاح المريدين؟ أليست تلك السبل التي يسلكها في التعامل معها لا تقل ضراوة عن استراتيجية حربية تتبع في المعارك للفتك بحصون الأعداء وغزو قلاعهم الحربية، أليست كرشفات المياه الباردة في جوف صحراء قاحلة وتحت وطأة لهيب شمس النهار، نسمات الهواء الزاحفة في سكون إلى الجسد حين تختنق الأنفاس فتبث الحياة وتمنح الأمل، أو مذاق طعم الشهد على شفاه اعتادت على طعم المرارة والألم!

تملكها الشغف لتعرف عنه كل شيء، فإن كان تصميمه على عدم تركها والذهاب فلا بد أن تعرف عنه الكثير وتستكشف خبايا حياته الخاصة، كان الفضول يقتلها وتريد أن تسأل عن أشياء كثيرة، طفل عابث يثير الضجيج ويحدث الجلبة داخل عقلها الذي أيقظه بكلماته الملحة، ولكن الكبرياء دائمًا ما كان يستوقفها، فمعنى سؤالها أنها تفكر فيه ومعنى التفكير فيه أنها تهتم لأمره وإذا اهتمت لأمره فهنا تأتي الخطوة الأكثر خطرًا والاقتراب الوشيك في أن تقع ضحية لما يريد

. حاصرها، ألقى على مسامعها قصائد الإعجاب والتقدير في كل الأوقات، وأثار قلبها لمعاني الاحتواء والرجولة والحنان، اعتادت على ذلك، يبادرها برسالة قصيرة وهي تمنحه ردًا موجزًا، تسأله في تحير ويجيب على استفساراتها بصراحة متناهية ويبادرها بالاهتمام والشغف، أحاديث مكتوبة تدور كل يوم عبر رسائل هاتفية.
كيف استطاع برقته أن ينساب إلى حياتها بتلك البساطة؟ كيف لرجل ذي طيبة وفرط حنان وسكينة روح وقلب أن يعيش مع زوجة دون أن تشعر به أو تمنحه بعضًا من الاهتمام لدرجة تجعله يفكر بأخرى؟ إنه عذب كالأطفال، حنون كالأب على أبنائه، ساكن كنسمة هواء صباحية، وحليم كموجة نهر تأبى التمرد أو العصيان!
ومن ثم تكررت أحاديثهما كل يوم، اعتادت على رسائله المنعشة لها في الصباح وهي ذاهبة إلى العمل مع كلمات الوداع عند المغادرة، ورسائل في المساء يمطرها بوابل شوقه لحديثها، لم يتركها في أوقات فراغه، أحب الحديث معها وكان يستمتع بآرائها في كل الأمور، يصفها بالأنثى النادرة الوجود تبدع في كل شيء حولها حتى في انتقاء الكلمات، وكيف أنها تنثر جوًا من اللطافة والجمال بأي مكان تطؤه قدماها المتهاديتان.
دومًا ما تمنى أن تكون رفيقته في العمل بنفس المكان حتى يستطيع رؤيتها في كل يوم وكل وقت، في حين كانت تكتفي الابتسام، تسأل نفسها بتفكر، لم دفع القدر في طريقها رجل مثله، وهي التي في أشد الحاجة لمن يحنو عليها ويزيح عنها غبار الأيام وشقاء السنوات التي قضتها في البحث عن الاستقرار، لتجد نفسها في نهاية الأمر وحيدة، بائسة مع قلبها الذي يعاني الشتات والضياع ما بين مبادئها وأخلاقها والكائن المشاغب القابع داخلها والمسمى أنثى. حقًا إنه اختبار صعب ما بين الجوع والامتناع، ما بين الاستسلام والقوة، ما بين الحب أو اللا حب، ما بين الدين والالتزام والعطش والحاجة!
بمرور الوقت اعتادت على كلماته ورسائله كأنها كانت الزاد اليومي الذي يعينها على ما هي فيه لتكمل يومها في نشاط وهمة، تلقى كل من يقابلها بإبتسامة صافية ووجه صبوح وروح رياضية، فهي تعيش، نعم تعيش! فالندى حينما

يتساقط على الزهرة تحيا أكثر وتنعش الأجواء بعبيرها أكثر فأكثر!

*****

(11)

الوقت كفيل بكل شيء، وحده قادر على أن يفعل بحياة الآخرين كل ما يريد بساعاته وعدد دقات ثوانيه ودقائقه، ليجعل الإنسان يعتاد على أشياء أو يتناسى أشياء أخرى، مثلما كان قادرًا على أن يجعله شيء هام في حياتها الخالية وجعل وجوده كالماء والهواء، يوم يبدأ برسالة منه وينتهي برسالة أخرى. ولكنها تتأمل، تفكر ولا تعرف السبيل إلى الخلاص؟ هل تغفل عن روحها فتعيش لحظات السعادة وتغرق فيها حد الذوبان؟ أم تبتعد وتؤثر الخفية مع إحساسها بالذنب أنها ترتكب جريمة في الخفاء، صراع لأيام وأسابيع تفكر وتصمت، تحادث نفسها وتبكي، في حين مع مرور الوقت يزداد تمسكه بها وتلمع في عينيه أكثر، فلم يقتصر الأمر على الرسائل بل كان يطلب منها كل يوم ويلح في أن تسمح له بالاتصال تليفونيًا ليحادثها في حين كانت ترفض إلى أن جاء اليوم. "أنت بتحب مراتك؟" كان سؤالها له في إحدى الرسائل. سكت لبرهة قبل أن يرد عليها وهي تنتظر إجابته، ثم انطلق ليكتب: "مش هقدر أكتب كتير، ممكن أتصل لو سمحتي؟" شعور ما بين التلهف والخوف، اللهفة لسماع صوته الذي تتمنى أن يطرق أذنها والحديث معه، والخوف من الانجراف في درب لا تعرف له نهاية سوى الخطأ، فالحديث خطأ، والكلام خطأ، وحتى ذاك الشعور خطأ، فكلها أمور تجرها إلى نهاية محققة، وتسيرها حسبما تشاء لتصل بها لدرب مظلم يفضي في نهايته إلى باب موصد إن طرقته فلن تجد خلفه إلا شيء واحد اسمه "الحب"!

ربما ليس الحب بمعناه الحقيقي، بل هو تعلق أرواح بأخرى، تفضي إليها بمكنونات نفسها الوحيدة، وتجد من تزيل وحشت قلوب أرهقتها وحدة الأيام، ودوران العمر وفراره من دون أن يوجد من يملك القوة لإثناءه عن متابعة خطاه عبر الزمان، "ياريت بلاش ترفضي طلبي، أنا بجد محتاج أتكلم معاكي، اعتبريني أخ وصديق ومش هخذلك صدقيني!" ترددت، سرحت تفكر، كيف

تجيب في تلك اللحظة، هل ترفض طلبه اللحوح؟ ولكن هناك شعور بداخلها أطلعها على سرها الدفين! فهي حقًا تريد محادثته، فلتترك لنفسها فرصة واحدة لتتعرف عليه أكثر، ستجد له مكانة حتمًا داخلها، أو تضعه في خانة الأخوة والصداقة على حد وصفه.

"طيب اتفضل اتصل". أحست بالسعادة قد غمرته بعد أن بعث لها بوجه ينم عن الفرح، ضحكت لطفولته الظاهرة، فالرجل طفل عندما يفرح بصدق ويحب بصدق يملأ الأرجاء بضحكاته العالية وقفزاته الطائرة في الهواء مثلما يحطم كل شيء في لحظة حينما يتحطم قلبه! "بجد! يعنى اتصل؟" قال عبر رسالته غير مصدق: "أيوة طبعا اتفضل والا هرجع في كلامي؟!"

دخلت حجرتها بعد أن أغلقت الباب وجلست على الفراش تنتظر اتصاله وقلبها يدق، ربما لسماع صوته يحدثها للمرة الأولى، رن الهاتف ليزيد من سرعة دقاته أكثر، أصدرت تنهيدة ونحنحة من حنجرتها تتأهب للإجابة:

- "السلام عليكم".

- "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".

- "ازيك عاملة ايه يا آنسة نودي؟" شعرت بالخجل، فهو يدللها باسمها الذي اعتادت سماعه من بعض المقربين وعلا وجهها حرارة مفاجئة وارتعاش في الأوصال، فحاولت أن تتمالك نفسها وتجيب، أما صوته فكان ينبض بالحيوية والحياة. - "الحمد لله بخير". أجابت بحياء زلزل أحبالها الصوتية، فعاد يتابع حديثه في مرح امتزج بنبرة صوت واثقة: - "أخيرًا حضرتك تعطفتي وتكرمتي وقبلتي تكلميني واسمع صوتك، أنا كنت قربت أفقد الأمل فعلا؟" لم تستطع الرد عليه وشعرت لبرهة أنها ترتكب خطأً مشينًا وجريمة نكراء لا بد أن تنهيها على الفور، إنها تحادث رجلًا متزوج ويكفي كونه رجل، ألا يكفي ذلك لتصف نفسها بالحقارة وعدم الاحترام؟

- "ايه مش بتتكلمى ليه؟ يا ريت نتكلم مع بعض أنا فعلا بحب الحوار معاكي جدا بعيدًا عن أي شيء". كان يسأل في حين قالت مترددة:

-"شكرا ليك على ذوقك، بس فعلا أنا مضايقة من نفسي ومن الموضوع كله، مش

عارفة المفروض اعمل ايه أكمل المكالمة ولا...؟" لم ينتظر حتى تكمل كلماتها، وقال بصوت قوي ينم عن الرفض القاطع: ـ "لا لا، تنهيها ازاى؟ أرجوكى خليها مرة واحدة وصدقيني لما تعرفيني أكتر هتحترميني وهتعرفي إني شخص أهل للثقة!"

ترددت في الحديث وكانت تؤثر الصمت في تلك اللحظة، ولكن كلماته منحتها الشجاعة لتفتح قلبها وتتحدث معه بكل ثقة وصدق فتخبره عن مخاوفها: "أنا جوايا خوف من كل شيء، بخاف من القرب، بخاف أدخل في أي علاقة تحسسني إني مش بحترم نفسي وبخون ثقة أهلي فيا، حتى بخون الشخص اللي هيكون زوجي في يوم من الأيام!"

سكت لبرهة وهو ينصت إليها كأنما يحاول استنباط ما ترمي إليه ثم قال:

ـ"أولا لازم تعرفي إني بحترمك جدا وعارف انتي قد ايه من الاحترام والالتزام والادب ولو مش كنتي كدا عمري ما كنت هفكر فيكي كزوجة ولو لحظة".

ثم عاد يستطرد حديثه مطمئنًا إياها بهدير صوته الناعم: "ثانيا أنا كمان شخص واضح وأعرف حدودي كويس، وعمري ما هخليكي توصلي لمرحلة الاحساس بالخيانة لأهلك ولمبادئك". شعرت بنوع من الارتياح والطمأنينة يتسلل بهدوء إلى قلبها، معه شعرت أنه حقًا رجل مسؤول وواعٍ يعرف كيف يبث السكينة في قلب الأنثى عندما تكون بجواره ومع مرور الأيام كان إعجابها به يزداد وبجواره والحديث معه تشعر براحة لم تعهدها مع أي شخص آخر. ـ"يلا تحبي نتكلم في ايه؟" لم تستغرق كثيرًا من الوقت لتفكر ف الأمور التي تود مناقشتها معه، فكانت تعرف مسبقًا عن أهم الأسئلة التي تدور بخلدها وتتمنى منه إجابة عليها: "أنا سألتك سؤال ممكن تجاوبني عليه؟" جاء صوته ممزوجًا ببعض المرح عبر الهاتف: "أها تقصدي بحب مراتي ولا لا؟ دا انتي داخلة حامية عليا جدًا ومن أولها! هههههه فعلا انتي ذكية أوى ودا باين في عينيكى اللي مش عارف عملت فيا ايه من أول مرة دققت فيها". شعرت بالخجل يعود إليها عبر تغزله الرقيق، مع نبرة صوته الناعم الذي أصاب جسدها ببعض من القشعريرة ثم سارعت لتنهي تلك الحالة وقالت: "احم وبعدين؟ حضرتك اتفضل رد على

السؤال احنا بنتكلم كأصدقاء دلوقتي". ـ "طيب أنا هتكلم معاكي بكل صراحة، أيوة بحبها، غريبة؟" صمتت لبعض الوقت بعدما أصابها رده بالدهشة فطغي عليها وجوم شديد. ـ"ايه سكتي ليه؟" قال متسائلًا بعد ثوانٍ معدودة من الترقب، مما منحها الإقدام على الاستمرار في الحوار الذي بدا غامضًا يحتاج لتفسير، فقالت مندّدة: "بتحبها ازاى وانت عاوز تتجوز عليها؟ مش شايف إن دا تناقض في الأفكار والمبادئ؟ لو كنت فعلا بتحبها عمرك ما كنت هتشوف أي واحدة غيرها ولا هيدخل قلبك قبل عينيك أي ست حتى لو كانت أفروديت بجلالة قدرها، أنت مش بتحبها!"

لم تستطع كلماتها المؤثرة أن تسيطر على نوبة التجلي والرومانسية التي انتابته فجاء رده بهدوء يشوبه بعض من التهكم والسخرية كمحاولة للسيطرة على المناقشة:

ـ "مش لما اعرف الأول الحاجة اف... ايه دى؟" انفجرت ضاحكة لتقول عبر الهاتف: ـ "لا دى واحدة كدا بعيد عنك كانت حلوة اوى، انت ما تعرفهاش!" -"بعيد عنى هههههه آه، وبعيد ليه ما أنا قدامى واحدة مالية عيني وقلبي وكل حاجة حتى عقلي سيطرت عليه بس نعمل ايه بقا". قال متأثرًا، فأجابت بالتبعية: "ممكن بلاش نخرج عن النص وتفهمني التناقض الرهيب في كلامك؟!" سكت لبرهة تبعها بتنهيدة ونحنحة قوية لبدء المناقشة كأنما يتأهب لإلقاء خطاب رسمي:

ـ"بصي يا ستي أنا هفهمك، العلاقة بين الحب والزواج علاقة معقدة جدًا ومتشابكة في نفس الوقت، الاتنين مش بنقدر نستغنى عنهم، الحب بجماله وروعته لما يسرق القلوب والاحساس ويحول الكائن اللي جواك إلى أرق وألطف الكائنات، لما تحس بوجود شخص بتتمناه وبتدور عليه، بتتلذذ حتى وأنت بتتعذب في حبك ليه وبتفضل تفتش عنه لحد ما تلاقيه، أما الجواز فهو دا الهم الأكبر والشغل الشاغل لكل إنسان بيدور على اكتمال الحياة بالنسبة له، وهو كمان له متعة خاصة اللي فيها بيفرغ الإنسان شحنته العاطفية والجسدية لما بيلتقي بالطرف التانى ودى من نعم ربنا علينا إنه منحنا اللذة الحلال والمتعة

المشروعة لما بيحصل الزواج". ظلت تستمع لحديثه المثير وهو يتحدث بعمق أفكاره وثقافته التي اكتسبها من حياته. أردف في الحديث مستمتعًا: "الاتنين بينهم علاقة تكاملية وفي نفس الوقت تضاد!" أثار تفكيرها جملته الأخيرة وأحدث بلبلة بآرائها الخاصة، فشرعت تسأل في ارتياب من كلماته: "أنا كدا اتلخبطت بجد، منين الاتنين بيكملوا بعض وإزاى في نفس الوقت متناقضين؟ انت توهتني كدا!" عاد يضحك من جديد قائلًا: "هههههه مش قلت لك العلاقة بينهم معقدة بجد، الحب والجواز بينهم صفات مشتركة بتتمثل في الحلم اللي بيفضل يحلمه أي انسان إنه يلاقي الحب ويشعر بالسعادة، زي ما بيحلم إنه يتجوز ويرتبط، كمان متشابهين في اللهفة على تواجد الاتنين في حياتنا والرغبة الملحة لأي إنسان إنه يحصل عليهم، وبردو المتعة اللي بتكون موجودة في الاتنين حتى لو كانت بتوصل لدرجة العذاب اللي بيحس فيه الإنسان بلذة هو مستصيغها ومستمتع وهو بيعذب نفسه!" هتفت مستفهمة: "تقصد إن الحب والزواج بيتمثلوا في حاجتين الحب المقصود بيه المشاعر الإنسانية اللي بنحتاجها عشان الروح، والجواز اللي بيتمثل في العلاقة الحميمية اللي هو ضرورة إنسانية وجسدية للإنسان؟" أطرى على تفسيرها قائلًا: "برافو عليكى صح، هو دا اللي أنا اقصده بالظبط". ـ" طيب أنا فهمتك في النقطة دى، بس بردو ازاى إن الإنسان ممكن يكون متزوج بإنسانة بيقول إنه بيحبها ومع ذلك يلاقي نفسه بيفكر في غيرها؟" ـ "هنا بقا بنيجى لنقطة الخلاف والصراع ما بين الاتنين، الإنسان بيفضل يدور على الحب ويصارع الدنيا عشان ينول حبيبه وبتيجى مرحلة الجواز اللي هي قمة المتعة والقرب من اللي بيحبه ووقت ما بيلتقى الحب والجواز في مكان واحد بيحصل الخلاف والصراع ما بينهم". شعرت بالشتات ما بين أفكاره المتضادة، فتنهدت بصورة قوية وعادت ببعض السخرية في الحديث: "ازاى بقا يا فيلسوف عصرك، فهمني؟ ازاى لما الإنسان بيفضل يبحث ويدور عن الحب وبعدين يتجوز اللي هو قمة المتعة والحب والسعادة يحصل الخلاف؟!" أطلق ضحكة قصيرة لشعوره بالانتصار عليها وجعلها تنجذب للحديث معه وتلك تعتبر بالنسبة له بداية طيبة، ثم استطرد: "على فكرة في كلامك الأخير نوع

من السخرية يا أستاذة ندى، بس أنا هتغاضى عن ذلك ومعايا المايك وهكمل كلامي!" ضحكت في انطلاق وتأثر بخفة ظله التي عهدتها وطلبت منه أن يتابع حديثه، ـ "هههههه طب من فضلك كمل كلامك". ـ"انتى لو كنتى خدتي بالك من سؤالك الأخير كنتي عرفتي الإجابة كويس". عادت لتتساءل في حيرة ولكن بهدوء سيطر على كلماتها التالية: ـ "بردو توهتني؟!" صمت برهة وهو يستمتع بالتجاذب الممتع في الحديث معها ثم قال: ـ "تعرفي ليه؟ لأن المتعة في اللحظة دى انتهت، قمة النشوة والانتصار حصلت ومع انتهائها كل حاجة بدأت تهدا، القلوب شعرت بالطمأنينة لوجود اللي كانت بتتمناه بقربها، والأجساد هديت وحرارة لهفتها ومتعتها بدأت بالتدريج تختفي وبقيت للحظات معدودة على فترات متباعدة". صعقت بعد سماع تعبيره الأخير، ربما هو انتصار للواقعية على الخيال، هزيمة ساحقة للرومانسية والمشاعر في معركة أبطالها الحب والزواج . ـ" ياه، تقصد فعلا أن مقولة: (لما الجواز بييجى من الباب الحب بيهرب من الشباك) دى مقولة صحيحة؟" أجاب بالإيماء: "صحيح، بس مش هو دا المعنى المقصود، الحب مش بينتهى ولكنه بيتحول لمشاعر تانية أكتر هدوء وسكينة، زي الألفة والمودة وحب العشرة، ومش شرط تكون الست هي السبب في ده ولا الراجل، كمان ممكن يكون الاتنين مع بعض".

مرت دقائق وهي تفكر في كلماته التي ألقاها على مسامعها، وشعرت بخيبة أمل في الزواج الذي بات علاقة ديناميكية بعيدة عن قصص وروايات الرومانسية التي طالما رسمتها في خيالاتها، ثم تأهبت لتلقي عليه سؤالها التالي وفي نفسها ريبة من إجابته المنتظرة.

ـ"طب وفي حالتك ممكن اسألك ليه فكرت تتجوز على مراتك؟"

تنهد للحظات تنهيدة أحست وكأنها تخرج من أعماق فؤاده.

ـ" الموضوع مش بالسهولة اللي انتى فكراها".

ثم سكت بضع دقائق ليسود بينهما صمت غامض، شعرت وكأنه يتهرب من الإجابة على السؤال، فقالت بسرعة لتخفي ارتباك أصابها وشعور بالإحراج لتطفلها على حياته:

ـ"عموما أنا بتأسف إني بدخل في حياتك، وفعلا دي حاجات شخصية ومش لازم اعرفها، أنا بعتذر".
ثم بادرته: "ممكن نقفل المكالمة دلوقتي، أظن اننا اتكلمنا كتير، هستأذنك أنى أنهى المكالمة وأقولك تصبح على خير".
انتظرت منه الرد لدقائق إلى أن قال بهدوء صوته المعتاد دون إبداء أي تعبير:
ـ "أنا مش عاوز اضغط عليكي، بس يا ريت أحب اطمن عليكى من وقت للتانى، وانتى من أهل الخير".

*****

(١٢)

لم تكن تعلم أن تلك المحادثة ستغير أمور كثيرة بداخلها وحرب ضارية ستضرم نيران بقلبها وعقلها معًا، تدق بعنفوانها أجراس الخطر وتلهب كيانها بصوت تدافع جيوشها الجرارة تنبئ عن بدء هجوم جديد، مشهد مسرحي لمعركة حامية ما بين عقلها الذي يرفض التفكير فيه كرجل متزوج يحمل من ورائه مسؤولية زوجة منحته الكثير من عمرها وشبابها وصغار ينتظرون منه الأكثر، حتى لو قبلت الزواج منه وهو متزوج هل المجتمع سيغفر لها أنانيتها؟ هل ستتحمل زوجته تلك الحقيقة المريرة التي ستذيقها هي بيديها وتتحمل دموع ستكويها كل يوم حين تسكن أحضان رجل سلبته من حياته ومستقبله؟ وبين قلبها الذي وجد ضالته في رجل على أهبة الاستعداد أن يسكب السعادة تحت قدميها ويهبها الدفء والأشواق التي تتمناها، وتدينها وأخلاقها! أشياء تمنعها من التفكير في كل تلك الأمور، وأخيرًا الغائب البعيد الذي تركها تحارب الأيام وحيدة، تدفع عنها كل من حاول التقرب لقلبها من أجل عينيه فقط في ظل سنوات عمر قضتها تتحمل ظروفه الشاقة على أن يلتقيا في النهاية، وهي وحيدة تقف متفرجة من بعيد تشاهد الصراع الضاري وتبكي آهات لا تعرف مداها. "ممكن قبل ما تروحي تبعتي لي رسالة؟ نفسي أشوفك!" اعتادت على تلك الرسالة اليومية منه بحلول موعد الانصراف من العمل، مثلما اعتادت على كلماته في الصباح ليغدق عليها رسائل صباحية جميلة تزيدها بهجة وإشراق، بعثت له برسالة وهي تبتسم وتحرك رأسها في شيء من الدلال والثقة، وكيف لا وهي طفلته المدللة يفرش لها الأرض ورودًا ويطعمها من غدق يديه الحانيتين ويمطر سماءها بالفرحة والأمان، فمعه عرفت حقًا معنى الرجولة. "بلاش أرجوك تستناني زي كل يوم، كدا ممكن حد يشوفك ويحصل مشكلة، أنا خايفة حد من زميلاتي ياخد باله وأنت واقف أو أي حد من الموظفين". لم يقتصر الأمر على

رسائل عبر الهاتف مع إشراق شمس كل يوم جديد أو غيابها في المساء، بل تطور به الحال ليصل إلى الحد الذي جعل شغفه بها وتعلقه برؤيتها أن ينتظرها كل يوم عند ذهابها إلى العمل وهو جالس في سيارته على الجانب الآخر من الطريق ويلهب مشاعرها باهتمامه وإعجابه الشديد بلباسها وأناقتها الملفتة حينما تسير برقة وتأنق، ثم يعود وقت الانصراف عند خروجها لينتظرها مرة أخرى ويشبع عينيه من متعة النظر إليها، في حين كانت تكتفي أن ترمقه من بعيد، تشيح بنظراتها الخاطفة وتسدل رأسها في خجل، أو خوفًا من أن يرى أحد نظراتها اللامعة ولهفتها التي تخفيها عنه بل تواريها عن نفسها هي الأخرى، كان فيه شيء من الرومانسية والجنون في آن واحد، رجل يعرف كيف يحب، كيف يسعد محبوبته بأعذب الكلمات، وكيف يضيء قلب إحداهن عندما يسكنها الظلام أو تقتلها الوحدة، ولكنها للأسف ليست حبيبته ولن تكون! دائمًا ما حدثت نفسها بذلك وعلمت أن النهاية بينهما وشيكة.

كان ذلك المساء ليوم من الأيام في نهاية أسبوع من العمل المتواصل وهي جالسة في حجرتها تقرأ رواية جديدة وتستمتع بالهدوء المسيطر على المنزل دون وجود ما يعكر صفوه، حتى صدر صوت هاتفها برسالة لتعرف على الفور أنها من نادر يقول فيها: "وحشني الكلام معاكي أوى ونفسي أتكلم كتير، أنا تعبان يا ندى وعاوزك تسمعيني". نظرت للرسالة في قلق وبداخلها إحساس ورغبة جامحة في محادثته، ظلت تتساءل، تحدق عيناها إلى الرسالة ويرسم عقلها الكثير من الفرضيات ثم تركت الهاتف لثوانٍ وتأملت الفضاء من حولها تفكر وتبحث عن الدافع من وراء طلبه، ما الشيء الذي يريد الحديث عنه؟ فإن كان الأمر أن يحادثها ليبث لها أشواقه المتأججة كالجمر داخل صدره أو يتغزل بملامحها الهيفاء، مثلما يعشق أن يفعل كلما تسنت له الفرصة فهي حتمًا لن تقبل بذلك.

إن كان بداخلها أنثى جائعة تلهث خلف مروضها العطوف وهو يطعمها بفيض رجولته وأحضانه الحارة وتغزلاته التي تشيع بجسدها الدفء والحياة، ولكنها لا تستطيع أن تستسلم لكل مغرياته، فدومًا كلما حاول فعل ذلك كانت تراه يتمثل أمامها ومن خلفه زوجته على اليمين وأبناءه على اليسار يلقون إليها

بنظراتهم الحارقة، فتُوقَد بقلبها نار لا تنطفئ، نار ليس لها مسمى آخر سوى الغدر والفجور لامرأة استحلت جسد رجل ليس من حقها، لتحرم آخرين من وجوده وقربه، أشباح تطاردها مع كل رسالة منه أو متى حاول أن يحادثها هاتفيًا، ولكن داخل قلبها كان هناك هاتف من نوع آخر يناديها أن تأذن له بالدخول لتنقض عليه وتجعله أسير للهفات وأشواق تحرقها، مثل شمعة تنصهر كل يوم وكل ليلة بفعل الوحدة، نداء يهتف لها أنها تريد أن ترتوي من حنان صوته الدافئ ومناقشته الممتعة في كل مرة يتحادثان فيها. بعد لحظات من التفكير والإصرار في عدم السماح بالحديث معه أرسلت له برسالة: "بلاش لو سمحت، أرجوك سامحني". ليأتيها الرد على الفور بدون انتظار: "أرجوكى، انتي لازم تسمحيلى إني اتكلم معاكي، أنا محتاج لك أوى". ثم تبعها بأخرى على الفور: "ماتعرفيش انتى بقيت ايه في حياتي، مجرد حديثي معاكي بيريحنى، انتي إنسانة مش بالساهل إن الواحد يقابلها، أرجوكى اديني دقايق من وقتك ومش هغصبك على حاجة". أمام إلحاحه وتوسلاته التي مست شغاف قلبها وألجمت عقلها الأبي لم تستطع أن ترفض، وكذلك نداء روح أنثى تتوق لسماع صوت شعرت بحنوه، فبعثت له بالموافقة لتمر لحظات قليلة حتى رن هاتفها باتصال منه: " الو، السلام عليكم". ـ"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، خير فيه حاجة؟" حاولت أن تخفي لهفتها لسماع أنغام كلماته الرومانسية، والارتباك الذي ألم بها بعد تردد أصداء صوته بأذنيها، تجيب بسرعة غير متوقعة علها تظهر عدم أهمية الأمر بالنسبة لها أو تأثيرها بأي حال عليها، ناهيك عن أن ما يحدث برمته خطأ فادح يجدر بهما التوقف عنه، فبادرها قائلًا: "ليه بتقولي كدا؟" ـ"لأني حسيت إنك مضايق من شيء، ممكن تتفضل تتكلم لو حابب". ـ"ممكن بلاش الطريقة الرسمية دى من فضلك، ولو مضايقة من مكالمتي أقدر انسحب!" شيء من التألم والتعاسة بدا إليها عبر ثنايا طبقات صوته المستكينة، أشياء حاول سترها خلف لباس من التكبر والغرور، ولكن ربما أتى الوقت لتسقط بعض من أقنعته الزائفة وتنكشف الثياب عن أسرار وحكايات، جوانب مظلمة في حياته كم جاهد لتبقى مبهمة عن الجميع! ـ"لا خالص، أنا ماكنتش أقصد أضايقك،

من الواضح أن فيه حاجات كتير تعباك!" تململ قليلًا، باذلًا جهدًا نفسيًا في الحديث، فابتلع ريقه وتنفس بعمق وقال: ـ "أنا تعبان أوى، تعبان بجد ومش قادر إحكى مع أي حد اللي بيألمنى، مالقتش غيرك ممكن اتكلم معاه، أنا محتاج لك أوى جمبى". شعرت بشيء من الشفقة، أرادت لو أمكنها أن تخفف عنه بعضًا ولو قليلًا مما يعانيه، فهتفت بحنانٍ طاغٍ: ـ "طب ممكن تهدا شوية، أتكلم بالراحة، وإعتبرني مرايتك اللي بتكلمها". كعادته عندما يتحدث في أمر يشغله، صمت كأنما يصيغ أفكاره ويختار بعناية كلماته التالية، ثم تنهد بقوة اهتزت لها من الداخل ليبدأ بعد ذلك في الحديث: ـ "انتي كتير كنتي بتحاولى تعرفي عنى حاجات وإيه الأسباب اللي دفعتني إني أفكر فيكي وأتجوز على مراتي صح؟" أجابت بالموافقة: " أيوة صح، بس أنا كنت عارفة أن دى أمور خاصة وعائلية وماحبتش أتدخل فيها بحكم إن في الأخر علاقتنا هتقتصر على الأخوة والصداقة بس!" هتف في إصرار: ـ "جه الوقت اللي لازم تعرفي حاجات كتير، أنا عاوز اتكلم!" رائحة ذكريات عتيقة انسلت من صندوقه الشخصي فألهبت أنفها المترصد، بعضًا من الأسرار المغمورة سوف تظهر للعن بعد قليل، حادثت نفسها المترقبة وهمست بهدوء: ـ "اتفضل أنا سمعاك". لم ينتظر طويلًا حتى شرع في الحديث، كأنه كان في انتظار لحظة عتق يندفع فيها ليحرر حفنة من أسرار استوحشت داخل فؤاده ولم يعد يطيق صبرًا في إطلاق سراحها لمن سكن لها روحه، فقال بصوت منهك كمريض يئن من الألم: "أنا عاوز اتكلم كتير، عاوز أفضل أحكى لحد ما أتعب وأبكى من كتر البكا، وأنام زي طفل في حضن أمه، بس للأسف مش هلاقى أم بحضنها يقدر يساعني ولا حتى زوجة تقدر تسمع لي!"، تنهد واسترسل في الحديث: "أنا عشت مع أب وأم في بيت كبير كل اللي بينهم التنافر في كل شيء، كل شخص شايف في التانى سلبيات لا يمكن التغاضي عنها وكل واحد بيحارب التانى عشان يثبت إنه الأعقل والأذكى والأحسن، اتربيت وكبرت وأنا بفتقد الراحة والسكينة والدفء الأسري اللي بيتمناه أي طفل بيعيش في بيت مع أب وأم وأخوات ولكنه كان بيتشخص في تماثيل بتحيا ورا جدرانه دى، بتوهم نفسها أنها عايشة، وترسم قدام الناس الحياة العائلية المكتملة، بس احنا

بس اللي كنا بندفع التمن، أنا وأخواتي لحد ما حصل الانفصال بين أمي وأبويا" . تابع الحديث مستغرقًا في ذكرياته البعيدة: "وقتها كنت في فترة الكلية وقادر اعتمد على نفسي، عشت في البيت مع أخواتي بعد ما أمي سابت البيت وأبويا هو كمان انفصل عننا وأتجوز من ست أرملة وعاش في نفس البيت معانا بس في شقة منفصلة"، ـ" أنا قررت أعيش حياتي مهما كانت الظروف اللي عشتها، كنت بحلم بيوم أَكون فيه أسرة وأقابل شريكة حياتي اللي أختارها من بين كل البنات عشان تكون حبيبتي وزوجتي، تعوضني بدفء مشاعرها عن كل لحظة وحدة عشتها في بيتي وسط أهلي، بحلم بأسرة طبيعية يكون أركانها الحب والتفاهم والحنان اللي يغلف مشاعر كل أفرادها، تكون فيها الزوجة حضن ألجأ له وقت ما احتاجه وتكون سندى، وأولادنا نربيهم على الحب عشان يكبروا وهم عارفين قيمة العاطفة والخوف على كل فرد في الأسرة دى، عشت حياتي واتخرجت واشتغلت وأنا بتمنى أقابل فتاة أحلامي، كنت بصلي وبدعي إن ربنا يرزقني بيها لحد ما قابلتها". بدورها كانت تنصت له باهتمام وبدوره يسترسل في الحديث غير عابئ بأي شيء سوى الإفضاء بما تنوء به سريرته من أسرار يطوق لقذفها بعيدًا في طي النسيان. ـ"في يوم كنت بزور أمي في بيتها بعد ما اتجوزت هي كمان؛ وشفتها، كانت واقفة قدام عمارتهم اللي جنب عمارة سكن أمي، حبيتها من أول مرة مش عارف ازاى وعرفت بعد أسئلة وحوارات من الناس هناك أنها كانت مسافرة هي وأهلها برا ولسه راجعين وقرروا إنهم يستقروا في مصر". تابع بعد أن استنشق بعض النسمات وزفر بعمق: "حسيت بإحساس غريب نحيتها واتمنيت تكون مراتي اللي هكمل معاها حياتي، وبعد محاولات كتيرة عرفت أوصل لها وأشاغلها لحد ما أتكلمنا، كانت في الأول بتحاول تبعد عنى كل ما كنت بقرب لها وكانت ملتزمة الصمت مش بتتكلم، هادية هدوء ممكن يوصل لحد الشك، بس كنت بقول إن ده أدب واحترام منها ودليل على التربية، لحد ما أقنعتها إننا نتكلم ومرة في مرة صرحتها إنى عاوز أتقدم لها واتجوزها، هي وافقت وكنت في قمة السعادة إنى أخيرًا هحقق الاستقرار اللي بتمناه". ابتلع بعضًا من قطرات المياه المرتعشة داخل جوفه وتنفس بمرارة

وتابع: "وقتها كنت خلاص اتعينت في الفرع الرئيسي، لأن تقديري كان موفر ليا شغل كويس، واتخطبنا وعشنا أجمل فترة خطوبة، كان كل يوم حبي ليها بيكبر أكتر، من كتر ما بشوف رقتها معايا وإحساسها بيا، كانت هادية ووديعة زي الطفل وأنا كنت طاير بيها وبحمد ربنا على إنه عوضني بإنسانة زيها بعد سنين العذاب والوحدة اللي حستها وسط أسرة بتفقد كل معنى للسعادة، واتجوزنا بعد ست شهور".

أراد أن يتأكد أنها ما زالت على الطرف الآخر من الهاتف ولم يتملكها الضيق بسبب ثرثرته الكئيبة فسألها: "انتي معايا؟ شكلك زهقتى مني وقفلتي الخط؟" أثارها حديثه واستحوذ عليها الشغف لمعرفة نهاية القصة المأساوية، فأجابته كأنما تريد أن تواسيه: "لا لا معاك، حديثك مش بمل منه أبدًا". أصدر ضحكة ناعمة شعرت وكأنها مغمسة بحزن عميق ثم عاد مستأنفًا حديثه: "عشت معاها أول شهر وكأنى في الجنة مش مصدق نفسي إنى مع إنسانة زي الملاك، رقيقة في كل حاجة،حنيتها عوضتني عن كل إحساس بالنقص عشته، وأنا كنت ليها الزوج والأب والحبيب والعشيق لحد ما في يوم حصلت حاجة غير متوقعة" . سألته باهتمام: " حصل ايه؟"

تنهد بثقل وابتلع ريقه بمشقة وقال: ـ "كنت قاعد في الانترية وبتفرج على التليفزيون وهي بتحضر الغدا، لحد ما فوجئت بصوت قوي جاي من المطبخ، اتخضيت، جريت أشوف فيه إيه، لقتها مرمية على الأرض بصورة غريبة جسمها متصلب وبترتعش، ماكنتش عارف اعمل ايه، روحت أفوق فيها مش عارف،كنت زي المجنون اللي خايف يفقد حبيبه في أي لحظة، فكرت أعمل إيه وقتها ومالقتش حل غير إني اتصل بأهلها، جريت على التليفون وأنا مرعوب، طلبت الرقم فوالدتها ردت عليا بهدوء وكأنه شيء عادي ومألوف وبتقولي ما تخفش خليك جنبها وهتكون بخير، وبعد ما تفوق فيه علاج هتلاقيه موجود في الدرج جنب السرير اديهولها فورا وماتقلقش! علاج؟ علاج ايه وهتكون كويسة من إيه؟ أسئلة كتير دارت في عقلي بس ماقدرتش أفكر كتير وجريت على الأوضة وفتحت الدرج وشفت الدوا اللي عمري ما خدت بالي منه قبل كدا، بصيت

عليه، قريت استخدامه، وصدمت، أيوة صدمت عارفة ليه؟ لأنه كان علاج للصرع".

وحدها الصدمة كانت تغلف قلبها الذي تجمد، لتسري في جسدها برودة شديدة تجتاح كل طرف من أناملها التي رنت لحديثه باهتمام، واضعة يدها على فمها بفعل شهقة قوية انطلقت من بين شفتيها. عاد يهتفت بصوته المختنق: "مراتي اللي حبيتها واخترتها كانت مريضة صرع وأنا ماكنتش أعرف، أهلها خبوا عني مرضها وهي ماقدرتش تصارحني، ماقدرتش تبص في عينيا وتقولي إن ورا الرقة والنعومة اللي انت شايفها مريضة صرع بتتحول في دقايق أول ما يجلها النوبة، بتكون شخص تانى، مريت بأصعب أيام في حياتي وأتحول الحلم الجميل لكابوس، عشت صراع ما بين حبى الكبير ليها وإحساسي إنى مع شخص غريب عني ما اعرفوش، وكل يوم بكتشف فيه حاجة جديدة، بس رضيت وكملت وحصل الحمل الأول ووقفت جمبها وقلت مش هتخلى عنها، وفي كل مرة كنت بحاول أعالج الموضوع وأكون أب وأخ وطبيب في نفس الوقت، بس أنا تعبت، تعبت من انى اتحولت لطبيب وممرض، تعبت من أن مراتي بعد ما خلفت لي الولد والبنت أتحولت مابقتش هي، اتبدلت، بقيت انسانة مهملة في كل شيء ونسيت إن فيه زوج محتاج حبها وحنانها، بقيت وحيد في أوقات كتير حتى وهي موجودة بقربى في نفس المكان، بقيت مجرد ممرض لأم مريضة صرع وزوجة مصابة بالاكتئاب أغلب الأوقات وحبيبة أهملت حبيبها، بقيت بهرب من حياتي في إنى أجي هنا اقعد لوحدي من المكان اللي بكلمك منه هنا يا ندى، بيت أبويا وأمي اللي عشت فيه طفولة باردة، وخرجت منه على أحلام كبيرة وفي الاخر رجعت له، رجعت وحيد!"

وحدها الدموع كانت إجابة شافية لكل ما سمعته، لم تتخيل ولو برهة أن وراء هذا المظهر الجذاب والأناقة الباهرة وتلك الشخصية الواثقة شخص محطم، سر لا يعرفه إلا نفسه، وأسرار حبسها بين جدران صندوق قلبه الحزين وألقى بمفتاحها بعيدًا بعيدًا.

-"عرفتي دلوقتي إيه السبب في إنى لقيت فيكي حاجات كتير بحبها وبفتقدها؟

عرفتي ازاى إن مش عشان راجل متجوز وبفكر في اإرتباط مرة تانية لازم أكون شخص أناني وشهواني ومش بشوف إلا نفسي ومتعتى وبس، عرفتي ازاى إني بجد تعيس، راجل تعيس بيدور كل يوم على حضن إنسان يضمه وقلب يساعه بس مش بيلاقى أي حد غير ذكرياته الحزينة، وحاضر أتعس ومستقبل مليان غيوم!»

اقشعر جسدها، حاولت أن تتمالك أوصالها التي أصابها التصلب والجمود وسط عقلها الشارد بعد سماع مأساته الكبرى، جاهدت نفسها لترد عليه ولكن ماذا عساها أن تقول؟ هل تواسيه على ماضيه البائس وتداوي آهات طفل مجروح ما زال يرمح داخل قلبه الكبير؟ أم تترك شفتيها تنطلقان بالاعتراف الجاثم على روحها منذ أن عرفته لتخبره بملء إرادتها أنها تريد أن تكون الإنسانة التي تعوضه عن كل ما فاته؟ ولكن هل يعد قرارًا صائبًا أن تستسلم بسهولة وتوافق على الارتباط به لمجرد شعورها بحاجته إليها، شعور الشفقة الذي سيطر عليها بعد أن علمت بكل أسراره؟ اختيارات صعبة وقرارات مصيرية لا يمكن اعتمادها في لحظة واحدة. ـ«لو تعرفي أنا محتاجك قد ايه، محتاج وجودك جنبي ونفسي تكوني معايا مراتي وحلالي واعيش معاكي سنين ماعشتهاش قبل كدا ولا عارف اعشها، بس للأسف مش هقدر أجبرك على الجواز مني، دى حياتك وأنا مش هقدر اظلمك!»

كانت تود لو تعترف أنها الأخرى تتمنى لو ترتبط به، تحلم أن تكون زوجة لرجل في حنانه ورقته عندما يعاملها ويغدق عليها باهتمامه وعواطفه القوية، وبث روح بالثقة في طغيان أنوثتها على قلبه، ولكن الحقيقة أنه أمر مستحيل الحدوث وسيظل قرار أصعب لن تقدر على تحمل تبعاته. ـ«أرجوك يا نادر كفاية كلام أنا مش قادرة اتكلم، مش قادرة». صاحت بصوت يوشك على الانهيار وعينين تلمعان بدموع تتراقص دون سقوط: «لا مش هسكت هفضل أتكلم وأقولك على كل اللي جوايا، أنا بحبك عارفة يعنى إيه بحبك؟ يعنى ملكتي كل روحي وكياني وعقلي مش بفكر إلا فيكي، حتى وأنا وسط عيلتي، بفضل أحلم طول الليل إنك جمبي وبتحضنينى وتضميني جواكي حتى وأنا في سريري جنب مراتي اللي مش حاسة بيا، أنا مابقتش قادر استغنى عنك!» ظلت تبكي وهو

يسمع أنينها عبر سماعة الهاتف، يتحدث ولا يهدأ، إنها ثورة انطلقت من داخل أعماق قلبه الجريح، كرامة رجل مزقها إهمال امرأته الوحيدة، تلك التي اتخذها زوجة له من بين كل نساء الأرض. ـ "أحنا مفيش بينا أمل يا نادر، لازم تعرف كدا، أنت متجوز وعندك بيت فيه زوجة بتحبك وأنت بتحبها وأولاد محتاجين لك، محتاجين اهتمامك وحنانك". أجاب عليها بقوة صوته الذي امتلأ بالحماس والاندفاع غير مبالٍ بأي شيء: "بس أنا محتاجك أكتر؟ صدقينى مش هقدر أكمل من غيرك". حاولت أن تهدأ من نبرة صوتها لتضفي عليها ثبات وإقناع مع كلمات تزفرها بثقل من فمها ولكن قلبها يأبى الموافقة: "هتقدر وهتكمل، عارف ليه؟ لأن كل اللي انت فيه دلوقتي حالة يأس من الظروف اللي بتمر بيها، حالة الوحدة اللي بتعشها من إهمال مراتك، بس أنت بتحبها أيوة بتحبها!" لم يتوقف عن اندفاعه في الحديث، فصاح مستهجنًا: "بحبها وبحبك وعاوزك انتى كمان، إيه صعب؟" ارتجفت بعد أنا قالها صريحة، إنها المرة الأولى التي تسمع فيها اعترافه الكامل، كلمة تصبو أي فتاة أن تسمعها ممن أرادها أن تكون بجواره، ولكن ما الفائدة والنهاية مأساوية، أغمضت عينيها وأهدابها ترتعش في خوف، فاندفعت دمعتان منهما بانسيابية وذمت شفتيها بقوة، تضاهي عنف مشاعر التخبط بداخلها ثم قالت بصوت شاجب: "القلب عمره ما بيقدر يسكنه أكتر من واحد وقلبك ملك لمراتك، وأنا عمري ما هيكون ليا مكان فيه، هكون بالنسبة لك المُسكّن اللي تاخده وقت ما يتعبك ويآلمك بعاد مراتك عنك، وأنا عمري ما هقبل أكون مسكن في حياة حد". انفعل بفعل كلماتها القوية والحرب التي شنتها على رجولته المتهيجة: "ليه مش قادرة تفهميني وتحسى بيا، ليه قاسية عليا كدا؟" قوله جعلها تهتز من الداخل، مثلما جعلت روحها تنتفض ودموعها تمطر وجنتيها، حديث في نفسها، يصرخ بعنف، يريد أن يشق صدرها لينطلق إلى مسامعه: "آه يا نادر لو تعلم كم أتمناك، لو تعرف كم تهفو نفسي أن تذهب إليك لتخبئها داخل روحك الحنونة ورجولتك الفتية، لو تعلم كم من أشياء جميلة لم أشعر بها إلا معك أنت فقط، لو تدري كم يتمنى قلبي أن تكون أنت ساكنه لآخر يوم بالعمر، ولكن لن يحدث، ولن أصبح أنا هذا

الكائن الذي يبني سعادته على تعاسة الآخرين". ـ"لازم أنت اللي تفهمني، مش لازم نستسلم لمشاعر وقتية!" قال منفجرًا في الغضب وقد ألجمت كلماتها فمه وسدت كل الدروب للوصول إليها: ـ "مشاعر وقتية؟! واضح إن مفيش فايدة ومصممة تبعدي عني وتنكري إحساسك بيا، سلام يا أستاذة وآسف على وقتك اللي ضيعته".

في لحظة قرر أن ينهي المكالمة وأغلق الهاتف على الفور، في حين كانت لا تزال تحاول استيعاب ما يحدث، الدموع تحاصرها والظلام يغلف قلبها المخدر، يا لقدرها النحس وأيامها الشقية، في كل مرة تضعها الحياة في تجربة أكثر ألمًا وأصعب اختيارًا، ولكنه الصواب ولم تعتد أن تفعل سوى الصواب، فلا بد أن يأتي يوم ويعوضها القدر بشيء غير متوقع، هو نفسه القدر الذي أذاقها المرارة والحسرة في كؤوس وما زال يسقيها، سوف يعود ليبهرها بأجمل ما ستراه عيناها ويطمئن له قلبها المحطم!

*****

(١٣)

اندفعت خارج حجرة مكتبها وقد انتابها القلق والتوتر، فطغى على ملامح وجهها الوجوم، حملت بيدها الهاتف المحمول بينما تتفحص الردهة الخارجية حتى تتمكن من التحدث براحة أكثر بعيدًا عن أذان وعيون المتطفلين من زملائها، قالت في الهاتف بعد أن رفعته إلى أذنها بصوت هامس يكاد لا يسمع: "أرجوك أفهمني!" ـ "أرجوكِ انتي اللي لازم تفهميني". كانت محادثة هاتفية بينهما بعد مرور أسبوع من الانقطاع، يناضل في السيطرة على مشاعر الانجذاب نحوها، وهي بالطبع تحاول إبداء التجاهل وأن عدم إرساله لكلمة واحدة لا تؤثر فيها، فبعده المفاجئ حقًا لم يكن كسكين يحز داخل قلبها الذي افتقد سؤاله واهتمامه، في حين لم يحاول أن يتطفل عليها أو يبدي أي انطباع عن أخر محادثة دارت بينهما، مع ذلك كان يراقبها مع بعيد، يتلصص عليها في مواعيد الحضور والانصراف للعمل، كانت تعلم ذلك وتتجاهل الموقف، إلى أن جاء يوم وبعث لها برسالة يخبرها إنه يريد رؤيتها ولا يطيق الانتظار، سيحضر لمكان عملها ولن يستطيع أحد أن يشك في الأمر، سيتحجج بأي شيء يستطيع من خلاله الحضور إلى المكتب، فهو يعرف مديرها جيدًا ويعرف أكثر العاملين في المكان. صرخت في الهاتف صرخة مكتومة تعبر عن غضبها من تهوره: "أفهم ايه بس يا نادر، أنت اتجننت؟ ازاى تفكر تعمل كدا، ازاى!" جاء صوته عبر الهاتف برقة ووداعة محاولًا التأثير عليها كعادته:

ـ" لأني محتاج أشوفك، إيه غريبة إني اكون عاوز اشوفك!" صاحت بنبرة من الحزم والقوة حتى تستطيع إيقافه عن الشروع في عمل جنوني: "الغريب هو اللي أنت عاوز تعمله وتجيلي في مكان شغلي، عاوز تحطني في موقف زي ده وعارف إن نظراتك ليا ممكن تلفت الأنظار أو يحصل أي مشكلة، للدرجة دى مش بتفكر في سمعتي، أنا عملت لك إيه؟" ـ"خلاص خلاص أنا آسف، بس

بشرط!" اشتعل الغضب بداخلها أكثر وصرخت: "وكمان بتتشرط؟ شرط إيه بقا يا مجنون بيه؟" -"أسمع منك وعد صريح إنك هتكلميني النهاردة بالليل تليفون، غير كدا هتلاقينى طابب عندك في الشغل وواقف قدام مكتبك في ظرف ربع ساعة بس، قلتي إيه؟" كانت تحادثه واضعة يدها على رأسها لا تصدق ما يحدث، لا تستطيع أن تفسر أو تتخيل ردود أفعاله، ربما أصابه شيء من جنون، أو عساها مزحة ليست طريفة على الإطلاق، ولكن ليس هناك من بد سوى الانصياع لطلبه، محاولة تدارك الموقف ومنعه أن يتفاقم أكثر فأكثر . -"حاضر خلاص هكملك، ارتحت دلوقتي". أصدر ضحكة خبيثة عبر الهاتف تنم عن الانتصار وشعور باللذة لاستسلامها أمامه -"ههههههههههههه أيوة طبعا ارتحت، ما انتى عارفة راحتي معاكي انتى وبس!" شعر الجميع بتوترها في العمل منذ الصباح، جلست شاردة الذهن، لا تتكلم مع أحد أو تبدي أي تعبير، ولم تفلح جهود الكثيرين في معرفة ما أصابها إلى أن انصرفت من العمل وعادت إلى المنزل. كان المساء الذي انتظرته وهي تفكر في ضرورة حل الموقف، فلن يكون هناك تراجع عما عزمت عليه ولن يدوم الحوار طويلًا في أشياء حسمت أمرها منذ البداية، كانت تجلس في حجرة المعيشة مع والدها يشاهدان إحدى البرامج التليفزيونية كالعادة دون البدء في أي حديث، هي اعتادت ذلك الصمت بينها والآخر بفعل فارق السن الكبير بين الأب وابنته الصغرى والذي جعل من الصعب التفاهم بأي وسيلة من الوسائل، ولكنها تحترمه وتتودد إليه وتحاول دومًا أن تبره وتسعى لإسعاده، فهي تعرف أن سعادتها ستأتي تباعًا بعد أن تبر والديها.

نظرت إلى والدها تتأمله، شردت تفكر، خيل إليها صورة نادر وهو ذاهب إليه يتقدم لطلب يدها، راغبًا الزواج من ابنته الصغرى، ترى ماذا سيقول؟ إنني رجل متزوج منذ سبع سنوات وأحب زوجتي ولن أطلقها ولي من الأبناء اثنان ومع ذلك أريد أن أتزوج من ابنتك المصون؟ وماذا ستكون ردة فعل والدها في تلك اللحظة؟ حتمًا ستكون ردة فعل قوية وغير متوقعة لرجل عسكري من أصول ريفية لم يعرف الابتسام طريقًا إلى وجهه الصارم إلا عبر لحظات متباعدة منذ

أن علمت به كأب لها، ربما تربيته القاسية على يد فلاح متزمت ضمن عشرة من الأخوة المختلفي الأعمار وشظف العيش وشقاء الظروف كانت العوامل الأكثر تأثيرًا في بناء شخصية صارمة إلى حد القسوة وبناء بشري منعدم المشاعر، وخالي من المجاملات الإنسانية والمرونة في التعامل وأيضًا عمله في الجيش لفترة ناهزت الخمسة والثلاثين عامًا جعل من تطويع كيانه الاجتماعي شيئًا مستحيلًا، ولكن ربما كانت تلك الصرامة التي وضعها في تربيته لها دافعًا قويًا لتقويم سلوكها إلى حد جعل منها رقيبة على نفسها في السر والعلن.

عادت الفكرة تزرع رأسها بأفكار مشوشة ومشاهد أكثر رعبًا، إن تجرأ نادر بالإقدام على تلك الخطوة المندفعة دون علمها، ماذا سيفعل الأب؟ هل يتقبل الوضع كأمر عادي ويرد عليه بهدوء معلنًا رفضه التام؟ أم سيقابله بوابل من الاتهامات ولن يخلو الأمر من المشادة والسباب عندما يرى منه الجرأة في التقدم بمثل هذا الطلب، ويمطره بوابل من الأسئلة التي يريد منه الإجابة عليها، كيف رآها وهل تحدث معها؟ هل بادلته الأحاديث؟ وماذا عنها؟! تراها توافق على عرضه؟ ثم يعود إلى المنزل منطلقًا باتجاه غرفتها فاتحًا عليها نار من الاتهامات والتوبيخ على أنها وضعته في ذلك الوضع غير الطبيعي، وقد يتطور الأمر بالتطاول عليها بالإهانة لفظًا وفعلًا، وربما يمنعها من الذهاب مرة أخرى إلى العمل ويجعل منها حبيسة جدران حجرتها وهي في ذاك العمر، يا لهول الأمر، كل ذلك من الممكن أن يحدث لو علم والدها فقط أن هناك شخص متزوج يريد أن تصبح زوجته الثانية، وهي الظاهرة التي لم تحدث في العائلة من قبل، ناهيك عن الجيران والأهل والأصدقاء، حتمًا ستكون حديث الساعة وتصير وصمة عار في تاريخ أسرتها المحافظة! أغمضت عينيها بقوة تعتصر جفنيها كأنما تريد الفتك بأفكارها المداهمة لعقلها المتخبط، وضعت يدها على جبهتها تمسح حبات العرق التي تجمعت عليها بفعل حرارة التفكير في أمر بعث في نفسها الذعر، ثم عادت بها إلى الوراء ورمت بها على الأريكة، الأمر الذي جعل الأب يتنبه لحركاتها المتوترة، ومن ثم التفت إليها متسائلًا: «مالك يا بنتي؟ دماغك بتوجعك ولا إيه؟» تفاجئت بسؤال والدها الذي أتى في وقت غير متوقع ولم

تكن مستعدة للإجابة عليه، آه لو علم فيما تفكر، حدثت نفسها، نظرت إليه مترددة وأجابته في تلعثم طغى على كلماتها: "آه شوية يا بابا دماغي وجعانى!" أعاد النظر إليها في حنان وقال: "طب خدى مسكن ولا أي حاجة". همست محاولة أن تخفي اضطرابها: "حاضر، هاخد مسكن!" في تلك اللحظة شعرت بضربات هاتفها الصامت بجوارها على الأريكة، فأمسكت به ونظرت لشاشته، إنه الاتصال المنتظر، توجهت للغرفة بعد أن التفتت لوالدها وقالت متصنعة التماسك: "طب، عن إذنك يا بابا هدخل أوضتي ارتاح شوية". دلفت إلى غرفتها في هدوء تعتصر الهاتف بين راحتيها، خشية من أن يرى أحد الاتصال، وبسرعة أغلقت الباب خلفها ورمت بنفسها على الفراش كأنما تتأهب للآتي، ثم نظرت إلى سقف الغرفة وتنفست هواءً قويًا وأجابته: "السلام عليكم". فأتى صوته في المقابل: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، على فكرة وحشني صوتك أوى!" التوتر الذي اعتراها في تلك اللحظة كأمر طبيعي على أسلوبه الجريء في الحديث حتى وإن حاولت مرارًا وتكرارًا أن تثنيه عن ذلك، وجنونه الذي أصبح يطاردها في كل الأوقات وخاصة ما فعله اليوم جعلها تشعر بالخوف مما قد يهديه إليه تفكيره الجنوني فيما بعد. ـ"من فضلك بلاش الأسلوب ده!" قال بنبرة مستكينة حملت الكثير من الانفعالات: ـ "أنا بتكلم بصراحة عن اللي جوايا ومش بقدر أخبى". حاولت أن تتماسك متصنعة الهدوء حتى لا تفقد السيطرة على الحوار فقالت: "أنا وافقت بس إني اكلمك النهاردة لأن فيه كلام كتير محتاجين نتناقش فيه وبجدية، فياريت تسمعني للأخر وماتقاطعنيش!" صمت عن الإجابة لثوانٍ عدة، ثم أصدر همهمة من حنجرته في اعتراض قاطع: ـ "امممممم جدية وما اقطاعكيش؟! يعنى أنا جاي متشوق إنى اتكلم معاكي وانتى تعملي معايا كدا؟!" احتد الحوار بينهما قليلًا كنوع من الصدام على رفض كلاهما التراضي برأي الآخر، أو الفشل في إقناعه بما يريد ليسير على النحو التالي: "الموضوع يا نادر مابقاش يتحمل السكوت أكتر من كدا لازم نتكلم وبصراحة". ـ"اوك اتفضلى سمعينى محاضرتك زي كل مرة!" "محاضرة؟ ألم أسمع بتلك الكلمة من قبل؟ لكن ربما من شخص آخر، لا شك أن جميعكم متشابهون، خاصة فيما يتعلق الأمر بمخالفة

آراكم المتسلطة وأنانيتكم الذكورية، خاطبت نفسها في غضب قبل أن تستنفر لجملته الأخيرة وتصيح مندِّدة: ـ "أيوة، أنا هسمعك محاضرتي اللي انت عارف إنها حقيقة وبتتهرب منها، تقدر تقولي أنت هتقدر تتخلى عن مراتك وبيتك؟ تقدر تقولي إزاي هتصارح مراتك اللي بتحبها وبتحبك إنك عاوز تتجوز عليها؟ هتقدر تتحمل تشوفها وهي بتتعذب لما تتأكد إنك فكرت ولو للحظات في إنسانة تانية؟" لم يبادرها بأي رد على وابل أسئلتها الموجهة إليه وأثر الصمت . ـ "هل هتقدر تبعد عن أسرتك ومراتك اللي ممكن في لحظة تطلب الطلاق وتاخد منك أولادك، وتعيش تعيس لوحدك عشان بس عاوز تتجوز وتعيش حياتك أنت وبس؟" وأخيراً خرج صوته عبر الهاتف متهدجًا كالغارق في بحر من شتات الأفكار: " بس أنا هتجوزك انتي وعارف إنك هتكوني زوجة تانية مخلصة وهتعامليها بما يرضي الله وهتحبى ولادي زيها بالظبط!" تلاشى الهدوء في صوتها لتتجلى نبرة جديدة امتزجت ما بين الشدة والحزم، متعجبة من ثقته الزائدة لموافقتها على الزواج: "ومنين جت لك الثقة إني هوافق أكون الزوجة التانية بقا يا أستاذ؟" ثم تابعت تستطرد دون تراجع: ـ "أنت بتحب مراتك وبتحب أسرتك الصغيرة اللي إنت صنعتها بنفسك، ليه مش بتحاول تنجح العلاقة بينك وبين زوجتك؟ ليه مش بتبذل مجهود أقوى إنك ترجع لها ثقتها في نفسها وتبين لها حبك ليها؟ صدقني ساعتها هتلاقيها هي كمان بترجع تانى تهتم بيك لأنك منحتها أجمل إحساس أي ست بتتمناه في الدنيا، وهبتها الحب والأمان!"

إنصاته إليها كان لا يقل تشبيهًا بالطفل الذي يرنو لأمه وهي تدلي عليه نصائحها الثمينة دون مقاومة أو اعتراض، كأنما يترجمها داخل عقله الذي يعي تمامًا أنها على حق، في حين لم تتوان هي عن رشقه بحكمها التي تختبئ داخل عقل امرأة سقتها الأيام حكمها في كؤوس وما زالت. ـ "يا نادر، قبل ما تحاول تبني سعادتك على أنقاض حاضر محطم، روح وابدأ بنفسك وشوف إيه اللي أتغير فيك قبل ما يتغير في مراتك اللي إنت حبتها زمان واللي عمر مرضها ما كان عائق في سعادتكم مع بعض، ولو ماكنتش بتحبها ماكنتش كملت معاها وجبت منها ولادك كريم ومنة!" كميت راقد تحت التراب ثم عاد إلى الحياة من جديد،

عاد بصوته المترنح ما بين الصمت والحديث وقال: "يعنى دا أخر كلام عندك؟" هتفت في حزم دون تفكير أو تقهقر: ـ "أيوة يا نادر، دا أخر كلام عندي، وأتمنى إنك تفكر في كلامي كويس، وبدعي لك أن ربنا يوفقك في حياتك ومع زوجتك وأولادك رغم إني مش هنكر، أنا اتمنيتك زوج ليا لأني شفت فيك حاجات كنت بتمناها في شريك حياتي، بس مش أنا يا نادر مش أنا!" شعلة قد خفتت، وظلام اتقد في قلب غلفته وحشة ستعود لتسكن فيه من جديد بين جدران غرفة ملأتها بثورة بكائها العارمة، مع أنفاس متقطعة وشجون امرأة تقتلع جزءًا جديدًا من القلب وتلقي به خلفها بينما تركض عبر درب حياتها المظلم، لم تتمالك نفسها وهي تنفجر في البكاء وتغلق المحادثة بسرعة حتى تتمكن من استكمال فيلمها الدرامي القصير في هدوء، ستكون بخير، نعم ستكون بخير وستداوي الأيام جرحها الجديد، وما بين نوبة البكاء وتبدد روحها داخل حجرتها المظلمة وعلى وسادتها الخالية كانت رسالته: أرجوكى ماتعيطيش، أنا آسف، بجد آسف!" لم الأسف؟ ولم الندم؟ على اقتحامه عالمها المظلم لبعث أملًا جديدًا فيه ومنحها سعادة بكونها ما زالت أنثى تنبض بالحياة، للحظات الابتسام والضحك التي اختلجتها عبر رسائله وكلماته، لن تتأسف على دخوله في حياتها ولن تكرهه بل ستظل تحلم أن يرزقها القدر بزوج مثله يرويها الحب من كفيه الحانيتين ويسكنها قصر قلبه وحصن أمانه وسكينته، فهو حتمًا فارسها المنتظر!

*****

(١٤)

كالعادة، مناقشات بلا روح، أفواه تتحرك بآلية، رسائل من قلوب ماتت وحوارات دارت وتدور مئات المرات مع رجل افتقد معنى الإحساس والعاطفة التي تجردت منها نفسه الباحثة عن كيانه الخاص ولم يبق بداخلها سوى الأنانية المطلقة، لا يرى إلا ذاته التي تمحورت حول عمله، ومستقبل يخطه بدقة وحرفية، وأموره التي تؤرق كيانه الذكوري، حتمًا كذب من قال أنهما روحان في قلب واحد بل هما فؤادان انشقا عن بعضهما البعض وانطلق كل شطر في اتجاه آخر، لتهاجر الطيور الحبيسة خارج عالمها وتحلق بعيدًا باحثة عن عالم جديد. تلك كانت حالتها معه منذ فترة طويلة، إذا تحدث يقتصر الحديث على عمله ومشكلاته الخاصة وإذا صمت فلا يوجد من يستطيع أن يزحزحه عن هدوءه القاتل ونفسه التي ماتت بداخلها العاطفة، حتى وإن كانت عبر كلماتها المتوسلة إليه أن يشعر بكيانها البائس المنتظر على الجانب الآخر من العالم، كأنما نسي أن هناك إنسانة من دم ولحم، كيان بشري اسمها امرأة تريد أن يشعر بها ولو هفوة أو يعود بهما الزمان ليتذكر كيف كان يعاملها من قبل، ولكن لا شيء سيتغير ولن تتبدل الحقيقة.

فهل ستعود الأيام بها لتلملم ما سقط منها في معترك الحياة؟! تلك الأشياء التي تتساقط عبر السير في دروب العمر ولا يمكن تداركها، فلا السير يتوقف ولا الزمان يعود إلى الوراء للملمة ما انفطر من أفراح وأحلام. لساعات لا تعرف لها حسابًا، ظلت تنتظر رسالة منه يشعرها بوجودها الذي أصبح من الماضي ولكن كعادته لا يهبها مساحة من وقته المزدحم بمواعيد العمل والأصدقاء والطعام والأحاديث مع العائلة وغيرها وغيرها، ليتركها سابحة في بحر من الأفكار والتخمينات التي تقتلها كل يوم بسبب إهماله المستمر، يا ترى، أين هو الآن؟ ماذا يفعل؟ هل هو نائم، أم يتحدث مع إحداهن، أم خرج ليلتقي بأخريات تعرف عليهن

حديثًا؟ إنها اعتادت على ذلك ومعها اعتاد قلبها على الانكسار!
ألقت بالهاتف ومعه تركت دموعها تتهدل في ارتياح عبر ثنايا وجهها الحزين وقلبها الذي ينزف قهرًا وحزنًا. ظلت تبحث عن سبب لدموعها المفاجئة فلم الحزن أو الألم وقد اعتادت على أفعاله المبررة في كل مرة، ربما هناك شيء آخر تحاول أن تواريه بعقلها ويجهل قلبها معرفته، إذًا فلم الحزن والانقباض الذي يتملكها منذ الصباح؟ هو، نعم إنه هو، فلا يوجد سبب يفسر ما يجتاحها من غم وشرود إلا أنها رأته اليوم، إنه نادر، عبر نظرات الحنين التي أطلقها إلى عينيها ولهفته على رؤيتها من جديد تذكرت كل أيامه الماضية وتذكرت معها كيف كانت النهاية، كيف منحتها الأيام قلب ينبض بقربها ويعشق كيانها الرقيق الذي وهبها كل معنى للحياة، هو الذي علمها كيف تكون المرأة بكنف رجل يشعرها بذاتها الضائعة ويطبطب على قلبها الوحيد، إنها المقارنة بينه والبعيد، كيف أنه منحها درسًا في الحياة والاختيار، الاختبار الأكبر عندما تقع المرأة في دائرة انتقاء من يكون لها سكنًا لأخر العمر. لقد رأته بعد مرور أربعة أشهر على الفراق، رغبتها منذ البداية واختيارها المطلق ولكن الظروف جعلته واقعًا عليهما معًا، ومع نظراته تذكرت كل ما مر في ذلك اليوم وكأن الزمان توقف مع اختفائه، وكأنه ما وجد نادر من الأساس! قبل ستة أشهر وفي ذلك اليوم الموعود بعد أن أرسل لها برسالة يتأسف على حزنها الذي كان سبب فيه، كان اليوم التالي حينما ذهبت إلى العمل وقد استيقظت كعادتها متأخرة بعد استغراقها فترة طويلة تحاول جاهدة الخلود إلى النوم، ذهبت بلا هدف ولا هوية، انطلقت خارج سيارة الأجرة التي أقلتها إلى العمل وأطلقت نظرات خاطفة إلى المكان الذي اعتادت أن ينتظرها فيه دون أن تجده، شعرت بخيبة أمل وهي تتلفت ولا تراه في أي من الأرجاء، طأطأت رأسها إلى الأرض وفي قلبها شعور بالمرارة، ثم حملت نفسها متجهة إلى المكتب بعد أن ألقت التحية على الجميع، مر الوقت ببطء شديد، تترقب وصول رسالة منه أو رنين هاتفها بصوت اتصال يخرجها من حالة ضياع سيطرت عليها، إلى أن دق برسالة منه ربما تصبح الأخيرة: "ياريت ما تبعتيش أي رسالة نهائي، الموضوع خطير". كانت الرسالة بمثابة ناقوس خطر

قرع بشدة داخل قلبها ليجعل الذعر والشك يتسللان بعنف إلى كامل جسدها المنتفض بفعل الخوف، شعور بالإغماء سيطر على عقلها فاستدار للحظات، ولكن ما الحل؟! لا بد أن تبعث له برسالة تسأله عما جرى: "خير فيه ايه قلقتني؟" فعاد الرد إليها على الفور: "هكلمك تليفون دقايق وهقفل، مش هعرف أفهمك كتابة". حملت الهاتف وخرجت إلى الردهة تنتظر مكالمته بعد أن أخبرته أنها تنتظر اتصاله، ومع تلك الدقائق القليلة ظلت تبحث عن إجابة لحديثه الغامض، بينما شعور بداخلها ينبئها بما يحدث، ستنتظر، وبعد القليل سوف تعرف كل شيء! استندت بخصرها إلى النافذة الكبيرة المطلة على الشارع الرئيسي تحدق في الخارج شاردة، حتى أتاها اتصاله فأجابت بلهفة: "فيه ايه؟ قلقتني!" مرت دقائق حاول فيها استجماع الكلمات، في حين شعرت بتوتره الظاهر من دقاته المتوالية على مكتبه تطرق أذنيها عبر الهاتف. - "مراتي عرفت إني بكلم واحدة، وطلبت الطلاق!" كالصاعقة كان وقع الكلام على مسامعها، فكل تلك الأمور كانت متوقعة الحدوث ولكن لم يخيل إليها يومًا أن تغدو ضلع أساسي وركن ركين في مثلث الرعب والخيانة الزوجية، الزوج والزوجة والمرأة اللعوب، تلك المرأة التي تفرض نفسها بجرأة في حياة الاثنين لتقلب الموازين وتبدد الحياة الأسرية السعيدة، نعم هي المرأة الدخيلة التي جاءت لتسلب رجل متزوج من حياته، تجره من بين أحضان زوجته الدافئة وتسلب أولاده حضن الأمان، أمور كانت تشاهدها في الأفلام أو تسمعها في قصص وروايات صديقاتها عن أزواجهن الخونة دون أن تدري أن الدوائر ستدور عليها، ابتلعت ريقها في سكون رغم تسارع أنفاسها، بينما تابع كلامه في هدوء بنبرة صوته المعتادة والساكنة رغم العواصف: "بعد ما كلمتك إمبارح روحت البيت، وطبعًا لأني كنت حزين من الحوار اللي دار بينا نسيت أمسح كل الرسايل من على الواتس وأمسح رقمك من سجل المكالمات، كنت تعبان ودخلت أوضتي عشان أنام". حاولت أن تتماسك أمامه لتسأله: "وبعدين حصل ايه؟" خرجت من جوفه تنهيدة متقطعة توحي بشتات أفكاره ما بينها والأخرى، ثم تابع حديثه متأثرًا: "هي استنت لما نمت وخدت الموبايل ودخلت على السجل وشافت كل

الرسايل الأخيرة وعرفت إني كلمتك قبل ما أرجع البيت، فجأة صحيت عليها وهي بتصرخ في وشى وبتصحينى من النوم وبتقولي طلقني!»
أحست كأن الشمس قد غابت والأرض تغور بها وتبتلعها في ثوانٍ معدودة، ألم تسمع بنفس أحداث تلك الرواية من صديقتها في ذلك اليوم؟! إنها تتمثل أمامها من جديد وكأن الدوائر تدور، هل ستعود تكرر نفس السؤال على نفسها، هل ستعود لتضرب السماء والأرض باستفهامات عن غرابة القدر الذي جعلها في لحظة ظالمة بعد أن كانت مظلومة؟ يا لشقاء الحياة ويا لقسوة الزمان. ـ «أنا آسف ياريت ما تبعتيش أي رسايل، حتى لو هي حاولت تبعتلك من أرقام مجهولة ممكن تحاول تعمل كدة». انطلقت صرخة مدوية لتملأ الكون من حولها بالشجون، صرخة بدون صوت يُسمع، فقط آهات من قلب امرأة تأبى الذل والمهانة، قلب ينبض بالكبرياء ويرفض الاستسلام، صرخة جعلت قلبها يهتز بجرح حديث لأنوثتها المحطمة. ـ«دلوقتي جاي تقولي كدا؟! أنت اللي بتتجرأ تقولي أنا الكلام ده بعد ما اترجيتك شهور تنهي الموضوع وتبطل تلاحقني؟! دلوقتي بقيت أنا الجلاد والظالم بعد ما أنت بأيديك خلتني ضحية؟!» لتأتي الجملة الأخيرة وتغلق آخر صفحة في روايتها معه: «أنا آسف، أرجوكى سامحيني، أرجوكى!»

*****

«الأسف يا نادر! وهل تكفي عبارات الأسف والندم أن تخفف عني ولو جزءًا ضئيلًا من كرامتي المجروحة؟ هل ستعيد قلبي وحيدًا بعدما شغلته رغمًا عني بعباراتك الممطرة وهمساتك الثائرة؟! شلال حب كان يجري داخل عروقي المتجمدة ليبدد جفاف أرض بور ويروي ظمأها بعد سنوات عجاف؟ هل ستعود بالزمان إلى الوراء لتكون رجل كأي رجل، لا أعرف عنك شيئًا ولا وجود لطيفك في أحلامي وليالي الساهرة؟
الآن عَلمتَ أن لك حياة أخرى، اليوم فقط سأعود لأكون هامش على جانب حياتك المزدحمة؟ بل سأخرج منها مثلما دخلت لأصبح ذكرى في أيامك القادمة، سأكون طيف يزورك في الليالي التي تهملك فيها زوجتك، تبحث عن بديل

لأحضانها وتتذكرني، تحن بخيالك لطيف امرأة أذقتها بشغفك طعم الاقتراب ثم عدت تذيقها بقسوةٍ مرارة الفراق، أدخلتها عالمك الساحر ودنياك الفاتنة وفي النهاية لفظتها بقوة خارجًا ومن دون رحمة!

ستبحث عني بكل قوة، أَعِدُك بذلك، ستفتش عن وجهي الباسم وكلماتي الدافئة كحرارة قهوة شتاء تشرين، وعَبَرات لؤلؤية تهدلت أمام فارس اقتحم سور عتيق لقلب أنثى طاهرة وغزا مشاعرها بمهارة، ستحن لذكرى امرأة ليست ككل النساء، نعم أَعِدك، ولكن أقسم لك لن تجدني في تلك اللحظة، سأتلاشى كزخات من عطر في هواء دنياك المعكر، وشمس الأصيل تحجب أشعتها حينما تناطحها الغيوم،

، سأكون لا شيء، مثلما كنت في الماضي، لا شيء!"

*****

كيف لكل تلك المشاعر من القدرة على التدفق في كلمات عبر ورقات رخيصة صماء؟! إنها مهارة في سكب الأحاسيس وتمثيل الواقع لمآسي قصص حب بطريقة تمس شغاف القلب، وضع الأوراق بعد أن انتهى من قراءة الرسالة الثانية، تلك المشاعر المترنحة ما بين التعاطف والتخبط داخل نفسه ربما ليست من فراغ، هناك جانب كبير يذكره بأشياء قديمة، طرقات مجهولة ودروب وعرة تتفاوت ما بين قوة وضعف خلف باب سرمدي لنفق ذاكرته البعيدة، أغلق الملف على الأوراق، عاد بظهره إلى الوراء واتكأ بذراعه الأيمن على كرسيه المتحرك ورأسه ملقى بإنهاك إلى الأمام، بينما راحته اليسرى تمر على جبهته فتداعب خطوط حفرت بدقة أعلى عينيه المغمضتين، لا بد أن يطرد كل ذكرى لها في خياله.

أخد قرار بالتوجه إلى النافذة مجددًا، استدار بكرسيه المتحرك، حمل جسده في بطء واتجه إليها مباشرة والأنفاس تداعب أنفه ورئتيه، يعلو صدره بقوة ويهبط بقوة، حتى وصل إليها ومال بجسده على حافتها الأمامية ومرفقه مستند إلى ضفتها الخشبية، وعادت راحته تفرك جبهته ذهابًا وإيابًا مرة أخرى. ضحكتها، كلماتها، حتى دلالها حينما كان يعشقه ولكنه في النهاية صار أشبه ما يكون برقص أفعى تظهر أجمل ما لديها قبل أن تلتهم فريستها التالية. الأوراق التي

قرأها أعادت له ماضيه معها، امرأة كانت سببًا في سفره، السر الغامض وراء تركه بلده ووطنه ووالديه، فماذا عساه أن يفعل بعد أن تركته من عشقها من أجل حفنة من آلاف جنيهات وخاتم من الماس وسيارة فارهة وقصر وثير وكل ذلك مع رجل أربعيني سكب كنوز مغارة على بابا تحت قدميها وبين عينيها الخضراوتين، ولكنها عادت، عادت في وقت ما عاد يجدي الرجوع، تبكي بعد شهور بدموع زائفة تتوسل إليه أن يعود، تريد حبه، تريد رفقته، تريد أي شيء مقابل أن تمنحه كل شيء.

أغمض عينيه مرة أخرى، استدار ناحية المكتب، توجه إليه في خطوات متثاقلة وعاد يغوص في مقعده من جديد، أرخى أهدابه لبرهة فأطبقهما على عينيه لثوانٍ وسحب نفسًا هادئًا تخدرت بفعله أطرافه المتصلبة وانتعشت بعدها روحه، واستعد ليبدأ الرسالة التالية!

، الرسالة الثالثة،

وتواعدنا على شاطئ الهوى،
وعدنا لنفترق!

"إلى إبراهيم"
جالسة أنا على شاطئ بحر أوروبي، تنتشي عيناي بزرقة مياهه الصافية وأمواجه المتلاطمة في تكاسل تحاكي الشفق الذي تجلى في سماء اتقدت بالحمرة الثائرة، وخيوط أشعة الشمس وقد افترشت أعلى صفحات الأرض ومياه البحر، مع نسمات الهواء المتراقصة على أنغام الجو العليل وخصلات شعري المنسدلة على كتفي وملامحي السمراء.
رغم جمال الطبيعة الذي ارتسم أمام عينيّ في لوحة فنية بديعة تجلت بها عظمة الخالق في طبيعته الخلابة، وسكون المنظر الذي تنشرح له الصدور وترقص معه القلوب، إلا أن هناك شعور غامض يجتاحني! عله شعور مجهول يتوارى خلف المياه الزرقاء والصفاء والرقة، شيء لا لون له كلون الشتاء حين يقرع أبواب المنازل بسطوته النافذة أو يهز الأشجار ويقتلع الورود البرية فترتطم النوافذ وتتحطم الكؤوس ويشيع الفوضى من دون إبداء أعذار، ولا طعم له سوى مذاق قطرات المياه الفارة من الحلقوم عبر ساعات الذعر من المجهول، شيء يقبض على ما بقي من تلابيب قلبي المتناثرة عبر طرقات ذكرياتي السحيقة فيجعل أطرافي تتهاوى وتخر مرغمة بين قدميّ، شيء لا أعرف له ماهية أو تفسير منطقي سوى الخوف! لم يكن ذلك سوى شعوري حينما جلسنا معًا للمرة الأولى، ووقعت عيناي في مقتل عينيك الزرقاوتين، وجلست كالتي تترنم شعرًا من قاع محيط غائر ومظلم، لأتذكر رسالة نزار قباني حينما تغنى: "الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعمق، وأنا ما عندي تجربة في الحب ولا عندي زورق" . ثم أطفو بجسدي الهائم على سطحه وأصيح مستنجدة: "إني أغرق!"

لم يكن غرقي سوى مرارة جديدة أضفتها لدفتر أحوالي الشخصية، غرقي في أمنية بالاستقرار والحب منحتني إياها في لحظات وعدت لتسلبها مني في لحظات، ومع ذلك لن أنسى شيئًا واحدًا حينما تحل ذِكّراك في مُخيلتي، شيء تسلل إلى داخل أعماقي الجريحة ليغمد بها سهمًا جديدًا تنزف بعده نفسي التائهة صرخات العتاب، وعد بالهناء لطائر مهزوم عاجز عن التحليق في سماء السعادة، وهو ما زال يئن من فراقه أغلى الأحباب. وحدها عيناك القاسيتان هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن نسيانه!

*****

.

(ا)

الثلاثون، أنت أنثى على مشارف الحادي والثلاثين من عمرك وما زلت عزباء، ماذا سيقول الناس حين يرون شابة مثلك تحمل من الخلق والجمال والأناقة بالإضافة لشهادتها الجامعية وعلمها البادي في تعاملها وسلوكها مع الآخرين، ولا ننسى مكانتك في العمل وشهادة الجميع لك بالأدب والأخلاق والسيرة الطيبة، حتمًا كل ذلك سيجعل الناس يتساءلون في كل مرة تمرين عليهم بثيابك الأنيقة وهندامك المتناسق، مع طلتك التي تلفت الأنظار رغم بلوغك سن الثلاثين، ستظل الشفاه تتلاعب بالاستفهامات الموروثة منذ أبدية الدهر: "لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ لا بد أن هناك شيء تخفيه عن الجميع، حتمًا ولا بد يوجد من تنتظره ويعشمها بالزواج أو علها عقدة خوف قديمة من الرجال بل هي الرهبة من الارتباط، ربما قد طالتها يد السحرة والمجذوبين لتقيد من فرصتها في الزواج وتجعلها تصل لتلك السن بدون ارتباط فعلي، بل لعل تطلعاتها وأحلامها تفوق المتقدمين لها، فهي كالطاووس تمشي تتبختر لتباهي النخيل في قامتها المرفوعة وأنفها الشامخ، قدها المترنح تحت ثياب العفة، وحذاءها الذي يطأ الأرض تمرد على الواقع!"

حوارات رائجة تُرمى بها ليل نهار وفي كل مكان ترتاده، في العمل ومع الأقارب وزملائها وصديقات والدتها الثرثارات، حتى الجيران المتطفلون والذين لا يرهقهم التدخل في أحوالها الخاصة وتعمدهم دومًا سؤال والدتها عنها في كل شاردة وواردة.

ربما لم تكن المرة الأولى التي تَعْلق بأذنيها تلك الأحاديث الأزلية المتأصلة، ولكنها في تلك المرة لا بد وأن تفكر بعقلانية وبشكل جدي، فالفرصة قد تكون رابحة ويكون لها نصيب من خير كثير خبأه لها القدر بقدوم ذلك الأخير الذي يود رؤيتها والحديث معها، فلما الرفض الآن وقد أذاب الزمان حبال أمانيها الواهية،

وباتت أحلامها اليقظة قصاصات من ورق تحوي كلمات ورسائل ومواقف تتقاذفها ذاكرتها العشوائية وترمي بها قلبها المضمد لتزيد من معاناتها عبر أوقات متباعدة!

ارتمت بجسدها الضعيف على الأريكة الكبيرة سارحة بنظرها في سقف غرفة المعيشة وشفتاها تترنمان ببعض من أذكار المساء التي اعتادت عليها كدواء تطيب به نفسه الملتاعة عقب الانتهاء من صلاة العصر كل يوم، وحدها الأزمات جعلت منها أكثر إلتزامًا، والإيمان النابع من القلوب الطاهرة كان ولا زال المعجزة الوحيدة القادرة على انتشال المؤمنين من الضياع والاهتداء لطريق الصبر والاحتساب، في حين جلست الأخرى على كرسي خشبي في المطبخ، منهمكة في تقطيع حبات البطاطس تحضر طعام الغذاء، رفعت صوتها عاليًا مخاطبة ابنتها: "طنط فردوس كلمتني النهاردة وفتحت موضوع العريس تاني، أقولها ايه المرة دي؟" أرخت عينيها في تكاسل مع راحة يدها التي سرحت على جبهتها في بطء تتفكر في سؤال أتاها على حين غرة، فأطلقت شفتيها المذمومتين زفير ثقيل رقص فرحًا في صمت عبر جزيئات الهواء المتزاحمة، بعد أن نجح في الهروب من صدر ستضرم بين أضلعه عقب لحظات معدودة نيران الحيرة من جديد، ولكن لا يُعلم متى ستخمد ألسنتها العتية!

عاد صوت والدتها إليها تطلب منها أن تذهب وتحادثها وجهًا لوجه لإضفاء أريحية أكثر على الحديث، ومن ثم هبت ندى واتجهت إلى المطبخ ووقفت عقب البرهة بجوار والدتها التي خاطبتها قائلة: "ماقولتليش يا حبيبتي أقول لها إيه؟" بشرود بدا عليها، نظرت ندى إلى كفي والدتها النشيطتين، وعيناها تسرحان بالسكين تشق طريقها بمهارة لتقطع حبات البطاطس في سلاسة، هل من الممكن أن تكون هي تلك الحبة الناضجة التي مزقتها الأيام إلى قطع صغيرة ونثرت أجزاءها التجارب في اتجاهات شتى ليصبح كل جزء بعيد عن الآخر؟! حتى أن الدنيا عاقبتها ولا زالت تلقي عليها جزاءها العسير على مقدور لم يكن بإمكانها تداركه لتجعلها مشتتة شريدة لشهور حتى تستطيع لملمة أشلائها المبعثرة من جديد، ناهيك عن قلب يائس وروح سلبت أنفاسها. وبهدوء مطلق

أجابت والحزن يسيطر على نبرة صوتها: "مش عارفة يا ماما والله، أنا مابقتش عارفة أخد قرار في أي حاجة ولا عارفة أعمل ايه!" تركت الأم ما كانت تفعله، رفعت رأسها نحو ابنتها وقالت في شيء من الجدية: ـ "أنا من رأيي إنك تشوفي الموضوع ده ومش هتخسرى حاجة، واحد وجاي يتقدم لك ومصمم يشوفك وبيلح في مقابلتك والكلام معاكي، ودا دليل إنه معجب بيكي أوى!" مالت برأسها نحو الأخرى رافعة حاجبيها في تأكيد وتابعت: ـ " وما تنسيش إنه مناسب في حاجات كتير يا ندى!" هتفت ندى مزمجره: ـ "مناسب في إيه بس يا ماما؟" رمت بكلماتها في ضجر ملوحة بيديها في الهواء "دا من الواضح إنه متردد ومش عارف هو عاوز إيه وأنا بخاف من الناس دى، وكمان انتي عارفة رأيي في الجوازات اللي بالشكل ده، وألا انتي ناسية اللي حصل زمان مع قريب بابا ومواضيع تانية إنتي عرفاها؟!"

انطلقت صوب حجرة المعيشة مرة أخرى، اضجعت على الأريكة وشعور باليأس يسيطر عليها، دارت بيدها على الأريكة تحاول البحث عن هاتفتها حتى وجدته، حملته بقبضتها المرتعشة تحت وطأة موقف وتصفحته في إهمال محاولة بذلك إبعاد عقلها عن التفكير في الأمر، انطلقت الأم نحوها وجلست على مقربة منها تبتغي إقناعها بالقبول المبدئي بمقابلته والحديث معه.

ـ"خلاص اللي حصل زمان حصل وانتهينا منه، ومش عشان الراجل جه يخطبك لابنه من غير ما يقوله أو يِعرف رأيه وف الأخر طلع بيحب واحده تانية والموضوع انتهى، يبقي هتعمليها حكاية وترفضي كل واحد متقدملك بالطريقة دى، الناس مش زي بعضها!" هتافات الأم تعلو وهي لا زالت صامتة، تبريراتها المعهودة وحكمها المحفوظة لا تنفك عن إلقاءها على أذن أنهكها كل شيء وأي شيء، حتى ترانيم من يبثون لها السعادة عبر دعوات تذوب سريعًا مع أنفاسها الملتاعة. "حاضر يا ماما، لما نشوف!" وما لبثت أن نطقت أخيرًا، كالهامسة قهرًا أسفل رماد لقلب أنثى يحترق.

*****

(٢)

كان يوم الجمعة هو اليوم المحدد لمقابلة العريس المنتظر، بعد أن أقنعتها الأم بالموافقة على رؤيته في وجود بعض الأهل "رؤية شرعية"، وربما تؤتي تلك المقابلة ثمارها المرجوة، في ذلك اليوم حاولت أن تلقي عن بالها أي شيء يعكر صفو تلك الجلسة المصيرية فرغم ما مرت به مؤخرًا من أحداث متوالية، إلا أن شخصيتها القوية والصامدة دائمًا ما جعلتها تسيطر على جماح عاطفتها في كثيرٍ من الأحيان، فتحل عقلها بموضع السيطرة على الموقف والحال. وقفت في غرفتها كالعادة تتأمل نفسها في المرآة بعد أن استغرقت نصف الساعة في ارتداء ملابسها التي اختارتها بعناية وذوق رفيع، فهي وإن كانت لا تتعدى كونها مقابلة مع شخص لا تعرف مصيرها معه بعد ذلك اليوم، ولكن دومًا ما كانت ترنو لكلمات والدتها حين تلقي عليها ببعض من حكمها الأنيقة، فلا بد من ترك انطباع قوي الأثر في المرة الأولى حتى ولو لم يحدث النصيب المرتجي. ارتدت جونلة من الصوف البني القاتم مزركشة بخطوط باللون الزهري وكنزة من الصوف الثقيل بنفس اللون الهادئ لتجنب جسدها لفحات برد ذاك اليوم من أيامِ فصل الشتاء، أسدلت عليها حجاب طويل يغطي رأسها الصغير، وطبقت بعضًا من مرطب الشفاه وكحلًا خفيفًا لتخفي آثار الإرهاق البادية على ملامحها الذابلة، استغرقت بعضًا من الوقت تهندم مظهرها، إلى أن تعالت صيحات والدتها من الخارج تطلب منها الانتهاء حتى لا تتأخرا عن الميعاد، لتكونا في الشارع بعد الخمس دقائق تستقلا سيارة أجرة لإيصالهما إلى المكان المطلوب.

وصلت ندى بعد نصف ساعة تقريبًا بصحبة والدتها إلى المكان المحدد، والذي كان عبارة عن مقهى ومطعم مشهور بوسط البلد، يحمل طابع راقي ومكان مثالي للعائلات ومقابلات الزواج والتعارف كما هو معتاد في تلك المدينة الهادئة . والثالثة كانت مريم الوسيط في اللقاء، فتاة في العشرين من عمرها والابنة

الصغرى للسيدة فردوس، تعرف جيدًا مسيو إبراهيم كما كانت تلقبه، مدرس اللغة الفرنسية، الصديق المقرب لأخيها الأكبر أحمد وزميله في المهنة والعمل.
ـ"ألو، السلام عليكم، اهلًا يا مسيو ازاى حضرتك؟ احنا منتظرينك في الكافية، لا أبدًا لسه واصلين من خمس دقايق، طيب حاضر أول ما حضرتك توصل بلغني وأنا هقابلك برا".
اختارت الأم ركن هادئ للعائلات، يتكون من أريكتين تقابل كل منهما الأخرى وطاولة مستديرة في المنتصف، جلست ندى على طرف الأريكة في حالة تأهب من اللحظات القادمة، وبجوارها والدتها التي صمتت في هدوء تراقب المكان وتتساءل في قرارة نفسها بتحسر: "لماذا لم يصطحبها زوجها ولو مرة واحدة في العمر لمثل تلك الأماكن الجميلة، ولم يشعرها يوم أنها امرأة تستحق أن تنطلق خارج بوتقتها التي صنعها لها بقيوده الديكتاتورية وحياته الصامتة، هي التي تمنت أن تمزق بتمردها شرنقتها الحريرية وتركض بحثًا عن الحياة والسعادة خارج حدود وظيفتها كزوجة ومربية لأبنائه، طوال تلك السنوات التي قضتها في خدمة الجميع الزوج والأبناء بعد أن سيقت من منزل والدها الرجل الفقير صاحب الخمس بنات ومحل صغير لبيع الحلوى في إحدى الحارات الفقيرة بالمدينة إلى منزل زوجها الذي يكبرها بثلاثة عشر عامًا دون أن تدرك كيف الاعتراض أو المعنى الحقيقي لحقها الإنساني في اختيار شريك الحياة. في حين راقبت ندى مريم وهي واقفة على مقربة منها تحادث إبراهيم، شعور بالغضب يحتاج نفسها التي أبت الخضوع لتلك المقابلة، وكل ذلك بسبب تأخره عن الميعاد، ربما يود أن يشعرهم بأهميته، شخصية الرجل المسؤول صاحب دفتر الأعمال المزدحم، فمن حقه التأخير وعلى الآخرين الانتظار لظهور طلته البهية.
أغلقت مريم الهاتف وعادت تجلس إلى الطاولة، وقد تزين وجهها ببشاشة وجمال طبيعي الملامح مع نظراتها الحماسية ونكاتها المنطلقة مع الأخيرتين، ربما ندى تحسدها على روحها البريئة والحيوية الظاهرة في شخصها الجميل حينما تراها تتحدث عن حياتها التي لا تحمل الجديد، لمعت عيناها وشردت قليلًا، تسلل إلى صدرها إحساس بغيرة ألهبت خفايا قلبها الخامدة، عساها

تحسدها على تفاهتها، على سذاجة المراهقين وسطحية البالغين، على كل شيء وأي شيء لا يدعوها للتفكير أو يهب عقلها هدنة من السلام الفكري والسكون الروحي، تمنت لو استطاعت الهرب، أن تفر ملقية بكل أشياء عذبتها خلف كتفيها اللذين ناءا بحمل همومها وخطاياها، آثام لم تقترفها إلا في حق أنثى باتت براءتها جزء من الماضي البعيد، ورفيقها في رحلة الهروب فأس تضرب بها أرض هجرتها البشرية لتقبر بجوفها كل ماضيها التعس، كل شيء وأي شيء تتمكن من التخلص منه، عدا مخلوق واحد اسمه نعمة النسيان. ربع ساعة قد مرت من الانتظار، إلى أن عاود الاتصال بمريم يخبرها أنه بالخارج، ومن ثم حملت نفسها وانطلقت خارج المقهى لتعود برفقته إلى الداخل، فهي المرة الأولى لمقابلتهم ولذلك يشعر بقليل من الحرج لتواجده في مثل تلك المقابلات على رغم من عمره، كانت تلك كلمات مريم قبل أن تنطلق إلى الخارج لمقابلته . مرت ثوانٍ معدودة، دخلت بعدها مريم بصحبة الرجل المنتظر، حضرا أمام الطاولة التي جلست عليها الأم وابنتها لتبدأ لحظات من التوتر والترقب، لم تر ندى الطلة الأولى لدخوله إلى الصالة الكبيرة فمن شدة الارتباك والخجل قررت اختيار الجلوس في مكان لا ترى فيه الدالف من الباب، قالت مريم وابتسامة خجل سطعت على ملامحها الطفولية، لقد أجبرتها الظروف على القيام بدورها الحالي ووضعها في موقف لا تحسد عليه رغم سنها الصغير: "أقدم لكم يا جماعة مسيو إبراهيم". ـ"مساء الخير!" بدت عليه علامات الارتباك التي انتقلت إليها على الفور عبر رده المقتضب وصوته الخفيض لتوقن أن إحساسها بالحرج قد سيطر عليه هو الآخر، حمد لله لم تكن وحدها تشعر بتلك القبضات المتوالية والرعشات تجتاح أحبالها الصوتية وتقبض على الحلقوم لتمنع أنفاسها من أن تنشط، حدثت نفسها سرًا، تسدل نظراتها إلى الأسفل، بينما لم يمنع كل ذلك من تهادي شعور جديد إلى روحها المتخبطة ليضيف عناءً جديدًا ومهمة أخرى . إنه شعور يتأرجح ما بين الرهبة واللهفة، الرهبة من أن النظر إليه على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي ترى وجهه ولكن لم تواتها الفرصة بالتمعن في وجهه جيدًا أو الدراسة الوافية لملامحه، واللهفة في أن تطلق نظراتها لتعلو

الطاولة المستديرة وتزحف فوق جسده اليافع حتى تنجح في بلوغ قسمات وجهه والتطلع بنفاذ إلى عينيه القويتين، إبصاره وهو قريب منها بوجهه وكيانه، إلى أن استجمعت قوتها ورفعت رأسها في حياء تبادله التحية لتلتقي نظراتهما الخاطفة والمرتبكة في آن واحد. على الرغم من تلك الأجواء المتوترة ولكن حان الوقت لبدء الأمر، سحب مقعد من الخشب المبطن بالجلد الأسود ليجلس على يمينها، بجوارها الأم على اليسار وقد علت وجهها ابتسامة مرحبة بالضيف الذي انضم إليهن منذ لحظات، في حين جلست مريم على الأريكة المقابلة لهما على يساره، تتبادل معه أطراف الحديث عن أسرتها وأخيها أحمد الذي سافر لقضاء مهمة في العمل وسيعود مع نهاية الأسبوع.

لم تتوقع أن تشعر بهذ الطغيان لشخصه على الجلسة، مقعده المتوسط بين ثلاثتهن، وبنيته العريضة التي أخفت المشهد من وراءه كأنما حجب عنهن برجولته أي مرأى لغيره، حتى كفيه العريضين المتكئين على المنضدة المتوسطة منحتها إحساس بالهيبة والسلطة، رجل أتى في لحظة ليمنح بركاته ورعايته لرفيقاته الثلاث، فارس أسطوري كأنما كان أو شهريار يجالس محظياته المقربات ليهبهن بعضًا من لذة وجوده ومتعة القرب في كنفه! هكذا هو الرجل دائمًا، فكيف العيش بدونه ومعه تكون الحياة وتكتمل ملحمة السعادة، حدثت نفسها في صمت. حاولت مريم تلطيف أجواء سادها الصمت والترقب من حولها، تجتذب أطراف الحديث مع ثلاثتهم، تمنح الأم ابتسامة محبة وتعود بسؤال إليه ثم ترنو باهتمام نحو ندى المتلبسة ثوب الصمت منذ أن جلست ترقب الموقف، ولكن كيف لها أن تسهو عن محاولات مريم إغفالهم حتى النهاية بمنحهم ابتسامتها المترقبة وببشاشتها المصطنعة عن أفكارها المتخوفة! تدرك حقًا حساسية الموقف لكلا الطرفين خاصة بعدما حدث في المرة الأولى وتخشى أن يتكرر مرة أخرى، حتمًا ستصبح في موقف لا تحسد عليه ليست بمفردها، ولكن والدتها وأخيها كذلك. قرابة النصف ساعة وهي صامتة لا تتحدث ببنت شفة إلا إذا وجهت لها والدتها كلمة أو ناضلت مريم عبثًا أن تستخرج من فمها بعض من الأجوبة على أسئلتها الساذجة كوسيلة لمنح جو من الألفة والحوار في المكان، وتلقي بعض من

روح الفكاهة والطرفة في الحديث مع إبراهيم، ذلك الذي كان يختلس نظرات خاطفة ما بين فينة وأخرى إلى ندى الجالسة على مسافة بضع خطوات منه.
ـ"وانتى سعيدة بشغلك؟"وجه سؤاله إلى ندى علها تنطلق خارج عالمها الأخرس، منذ بداية الجلسة تنصت إلى الحوارات المدارة ما بين الثلاثة، تحاول استنباط بعض من مكنونات نفسه الغامضة وعينه المصوبة إلى الأمام حتى لا تتلاقى بعيون الأخريات، أجابته في تلعثم يشوبه بعض من الخجل والتوتر محاولة أن تتحاشى النظر إلى عينيه: "اها، يعنى الحمد لله". في تلك اللحظة حضر النادل ووقف أمام الطاولة التي التف حولها الأربعة، انحنى في وقار مع ابتسامة ناعمة وبيده قائمة بالأطعمة والمشروبات وضعها أمام الجميع، تنفست ندى بعمق مع إغماضة من عينيها المرتخيتين، لقد منحها حضور ذلك الأخير فرصة طيبة للفرار من طغيان سيطر على أنفاسها المتقطعة بفعل نظراته التي تقابلت مع نظراتها السريعة، في حين ابتسم هو إلى الجميع وطلب من ثلاثتهن في تأدب اختيار ما يوددن تناوله من مشروبات، أفضت المداولات في النهاية باختيار كؤوس من عصير الليمون الطازجة. تردد في طرح أسئلة أخرى بعد أن منحه ردها المقتضب انطباع بلا مبالاة، تنبهت الأم التي كانت ترقب الوضع كعادتها، إنه تحالف ما بين صمت أسدل سكونه عليهم والخجل فارضًا نفسه على الأنفس لعدم قدرة كليهما على الحديث بأريحية أو طرح أسئلة على الآخر في وجود الأخيرتين، هتفت الأم تنتقل بنظراتها بين ندى وإبراهيم تزين شدقيها بابتسامة وقار: "طيب يا أستاذ إبراهيم، أنا هستأذنك أخد مريم ونتمشى شوية، ونسيب لكم مساحة تتعرفوا على بعض أكتر، وإن شاء الله ربنا يقدم كل خير". أطرقت ندى رأسها في رهبة بينما هب إبراهيم يصافح الأم ويشكرها على موقفها النبيل محاولًا إخفاء توتره الجلي، تابعها بنظراته المودعة حتى غادرت المكان برفقة مريم واختفت عن الأنظار. تنفست بحرارة مع ابتلاع ريقها المحتقن، صار الموقف أكثر مشقة، ليت تلك اللحظات تمر بخفة! عاد يجلس إلى كرسيه المبطن مرة أخرى، وأطلق سعال خفيف من حنجرته الجشاء مما منحها شعور أكثر بالرهبة، لا بد أن تتماسك، حاولت أن تنتشل عقلها الغارق في بحر من الوجل،

ترمي طوق نجاة لنفسها المرتعشة من وطأة الموقف، ولم كل ذلك؟ هل أتت اليوم لتترك قلبها تغتاله نفسها البلهاء وروحها الجبانة!

شعرت بوجوده بالقرب منها، ستخفي بعضًا من الارتباك وتبدو أكثر ثباتًا وقوة، انشغلت بالعبث بمنديلها الورقي، تعتصره بين كفيها في تململ، إلى أن نظر نحوها مع نحنحة هادئة محاولًا الشروع في الحديث:

ـ "فرصة سعيدة إني قاعد معاكي دلوقتي". بداية حديث مألوفة، لم يأت بجديد، حدثت نفسها في تأفف وأجابت: "متشكرة أوى أنا الأسعد!" تابع ناظرًا لها بوجه جامد خلا من أي تعبير: ـ "وانتي بتحبي شغلك؟" لحظات من الملل سيطرت عليها وقالت: "الحقيقة عادي لا بحبه ولا بكرهه، يمكن كان ليا طموحات تانية كنت أتمنى أكمل فيها، بس أحيانًا الظروف بتجبرنا نمشي في طريق غير اللي خططنا له!" بادرها بإيماءة عفوية من رأسه، لقد وافقها على شيء أخيرًا ثم قال ببرود: "فعلا".

الوقت يمر دون وجود لأي حوار بينهما، شعورها بصمته المصاحب لغموض لا تعرف له ماهية أو سبب مقنع، العبس البادي على ملامحه متجليًا بوضوح في الخطوط العريضة ما بين حاجبيه، هدوئه القاتل ونظراته المنطلقة في أي مكان بعيدًا عنها، ولكن هل ستترك الصمت يحكم ذمام الأمر بينها وذلك الكائن الغريب القابع أمامها في غموض يكاد يخنق روحها بكلتا يديه الغليظتين؟!

لا لن تستسلم، حتمًا ستجد سبيل للخروج من هذا المأزق، وبعد تفكير دام لثوانٍ أخدت القرار، ستبتدأ هي الحديث فما من فرصة أخرى للتعرف عليه، وليس أمامها سوى ذلك الوقت المستقطع من مواعيد عمله المكتظة بالأعمال اليومية. هو وإن كان يؤثر الصمت إلا أنها لن تترك الوقت يمر عبثًا دون أن تتقرب منه، تغوص داخل أغوار شخصيته التي واراها بلباسه الأنيق، وثقة عالية اختبأ بداخلها جعلته محط أنظار الكثيرين منذ أن خطى إلى المكان بخطواته الرشيقة والهادئة، وفي لحظة واحدة قررت أن تبدأ. فالتفتت إليه تاركةً وراءها بعض من خجل التصق بها منذ البداية لتؤثر عليه بثقتها الزائفة ولباقة عرفت بها فقالت: ـ "ممكن اسأل حضرتك سؤال؟" استدار إليها في هدوء وابتسامة

باهتة تعلو وجهه: "يا ريت اتفضلي". ـ"هو حضرتك مضايق من حاجة؟" ـ"ليه بتقولي كدا؟" رباه! متى سينقشع ذاك الغموض عن عينيه؟ سألت نفسها في غضب دون أن تتخلى عن ثقة تملكتها أو تترك مجالًا بالظهور لتلك الرعشة التي اجتاحتها بفعل نظراته النارية: "دا إحساسي من اللحظة الأولى، ممكن فيه حاجة شغلاك أو ممكن تكون مغصوب على المقابلة دى! مع إن دا طلب حضرتك إننا نتقابل النهاردة!" أشاح بوجهه بعيدًا، متلاشيًا النظر إليها، كهروب من تلاقي عينيه بنظراتها المحملة بالكثير من الاستفهامات، عساه شعر بقوة وذكاء الأنثى الكامنة في قرارة عينيها عندما تقرأ بمهارة ما بداخل الرجل وتتصفح بخفة سطوركتابه الدفين! ـ"لا أبدًا بس يمكن فيه موضوع شاغلني شوية". ـ "أها، عموما ربنا معاك، طيب ممكن حضرتك لو تحب تعرف عنى أي حاجة اتفضل اسأل، أعتقد المقابلة دى مقابلة تعارف عشان كل واحد يقدر يعرف التانى". كانت محاولة ناجحة، لم يكن الهدف من وراء جملتها الأخيرة سوى إصرارها القوي على جذبه خارج هالة صمته العجيبة، لتنجح في النهاية في استمرار الحوار بينهما ويتعرف كل منهما على الآخر، وفي غضون النصف ساعة كانت تعرف عنه الكثير وهو كذلك، عرف عنها بعض الأمور. الوقت يمر، ولا زالت تحادثه، تشعر بنظراته القوية تخترق روحها وجسدها معًا حينما ينظر إليها بعمق للحظات، في حين لم تستطع أن تشيح بنظرها عن عينيه القويتين لترى بحر غائر بمياهه الزرقاء الصافية وقد اختزل بداخل أمواجه الهادئة معنى القوة والجرأة في أن واحد، عينان لشاب فتي في أواخر العقد الثالث من عمره، اختبأتا داخل وجه مستدير يميل إلى السمرة الخفيفة، وحاجبان سميكان يحدان عيناه في بأس مع خطوط اتخذت مسارها بمهارة على جانبي شفتين مكتنزتين، وجسد نحيل يحمل بين أضلعه الكثير من الاحتياج والحب، وقصص عشق مع أخريات لا تعرف لها نهاية. ـ "على فكرة، أنا أول مرة أكون مبسوط ومرتاح وأنا بتكلم مع واحدة كدا!" كان ينظر إليها بسكون وتركيز شديدين، لكأنه يحاول أن يجتذبها بفعل مغناطيسية عينيه الساحرتين ليجعلها في النهاية تستقر بين أحضانه من دون مقاومة، طبع على شفتيه الممتلئتين ابتسامة انشراح، في حين

رنت إليه وفي قلبها دقات تتسارع بسبب نظراته الجريئة المصوبة إليها دون رحمة، لقد أدركت منذ الوهلة الأولى براعته في الوصول إلى مبتغاه، قرصان ماهر في اصطياد فرائسه الضالة، يغوص في مهارة بين شواطئ عينيها الغريقتين ويعود ليرسو بسفينته فوق شفتيها الدافئتين، وأخرى كان يختلسها ما بين فينة وأخرى ليمررها بحرارة أعلى جسدها القابع في وهل على مقربة منه، تشعر بحركات عينيه تزحف ببطء فوق عظامها المتهاوية ولحمها المشتعل حرارة من أخمص قدميها وساقيها المقعوصتين فوق بعضهما البعض مرورًا إلى صدرها الذي ألهبه بنظراته الحادة، آوٍ في النهاية فوق عينيها التائهتين ويديها المرتعشتين . ـ "طيب كويس، مبسوطة إنك مرتاح أكتر من الأول". تحدثت بهدوء، يداها متشابكتان على الطاولة، حيلة في إظهار الثبات الانفعالي، ولكن كيف الملاذ من قلب يرتجف لوجود رجل قوي مثله على بعد خطوات منها؟ أجابها دون أن يرفع عينيه عنها: "طب وانتى، ممكن اسألك انطباعك ايه؟" عاودتها ابتسامتها الطفولية، شعور بالمغامرة والغبطة يملأ ركن داخل نفسها المتخبطة، محاولة أن تجيل بنظرها بعيدًا عنه دون أن تنجح في ذلك، إلى أن أطلقت ابتسامة مكتومة تبعها احمرار بوجنتيها المتوردتين، نظرت للطاولة أمامها، تعبث بكفيها المتعرقتين وهمست بصوت بالكاد يسمع: "أنا كمان مرتاحة بجد". وتابعت: "طب ممكن أعرف أنت ايه مواصفات شريكة حياتك؟" نظر أمامه في ثبات وقال بثقة كبيرة: "يعنى، بعيدًا عن إنها تكون مقبولة في الشكل والروح، أحب إنها تكون إنسانة متفاهمة وذكية وتقدر تفهمني، والأهم من كل ده تكون هادية ومابتتكلمش كتير". حدقت إليه مصدومة وعيناها منكمشتان تأبى الإنصات لجملته الأخيرة، ثم تابعت سؤالها دون تردد حتى لا تمنح للظنون الخاطئة فرصة أن تسكن عقلها الشارد: "يعنى إيه مابتتكلمش كتير؟ ممكن توضح لي أكتر؟" هز رأسه إلى الأمام بضع مرات في هدوء، لقد توقع منها عدم القدرة على فهم مقصده من المرة الأولى فصمت لبرهة كأنما يبحث عن وسيلة أفضل لتقريب المراد إلى ذهنها: "امممممم، يعنى تكون إنسانة مش بتحب الرغي والكلام الكتير في أمور مش تخصها، تعرف متطلباتي لما أرجع البيت تعبان

بعد شغل يوم طويل، مش تكون ست نكدية وتفضل تتكلم وترغي ع الفاضي أو تتكلم في أمور برا دايرة حياتنا، عاوزها ذكية وتفهم أمتى تتكلم معايا وأمتى تسكت". لم تتمكن من كبح جماح نظراتها المصوبة إليه في دهشة مع أسنانها المصطكة فوق بعضهما تخشى التحطم، ربما هي صدمة غير متوقعة من طريقة تفكيره الغريبة، هل يعقل أن هناك رجل لا زال ينظر للمرأة على أنها كائن ثرثار مهمته القصوى هي تعزيز علاقتها بالزوج والعمل على راحته الخاصة دون النظر إلى متطلباتها النفسية؟ هل ما زال هناك ذاك الرجل الذي يعتبر المرأة إحدى كماليات حياته الخاصة يتركها في المنزل أول اليوم ليعود إليها أخر النهار يجدها فاتحة له ذراعيها في صمت ليملي عليها شروطه الخاصة في قضاء ليلته الحميمة؟ هل الأنثى خلقت فقط لمتعة الرجل وراحته أم أنها كائن يحتاج هو الآخر للأمان والحب والتقدير؟ ولكن إن كان الرجل هو كل المجتمع فكيف هي المرأة من تلك الحسبة الجائرة؟! تُرى إذا تزوجت هذا الرجل الجالس على قرب خطوات منها ينظر إليها بعيون صياد ماهر ينتظر لحظة الانطلاق، هل ستشعر معه بالسعادة أم ستنطفئ جذوة الأمل والطموح المشتعلة بداخلها؟! الأمر يدعو للقلق، لا بد أن تعيد النظر ألف مرة قبل أن تفكر أو تعطي رأيًا!

*****

(٣)

اضجعت الأم على الفراش، أرخت رأسها فوق الوسادة القطنية بعد أن مدت ساقيها المرهقتين أمامها تتلمس الراحة، تثاءبت في نصب وقالت تنظر نحوها: "يعنى إيه يا ندى؟ انتي مش مرتاحة للموضوع؟" تنهدت ندى في عمق، خلعت حجابها في ملل، وأطلقت خصلات شعرها تستنشق هواءً جديدًا بعد فترة من الاحتباس أسفل الحجاب، داعبتها بأناملها الصغيرة وهي ناظرة لنفسها في المرآة نظرة ملؤها الحيرة الشديدة وقالت: "أنا مش عارفة والله يا ماما أقولك إيه؟ بس الموضوع محيرني، وهو كمان حساه غامض أوى!" عقدت الأم ذراعيها أمام صدرها ولوت شفتيها في امتعاض وصاحت: "يعنى إيه غامض؟ ما تفهميني يا بنتي؟" التفتت ندى نحوها بجسدها مباشرة عاقدة حاجبيها: "يعنى يا ماما ماريحنيش في أي حاجة ولا كان صريح، كلامه كله مبهم ومش بيتكلم إلا بالعافية". عادت الأم تتساءل: "طب انتي سألتيه عن شغله أو علاقته بعيلته، بيصلى ولا لا؟ ناوى يعيشك ازاى ولا ايه سبب تأخره في الجواز لحد دلوقتى؟" الأخرى وعلى وجهها نظرة إنكار وأجابت ساهمة: "لا، ماسألتوش عن أي حاجة من دى!"

ابتسمت الأم على بلاهة ابنتها، وأشارت بيدها نحوها:

" ماسألتيهوش عن حاجة؟ أمال الساعتين اللي قعدتيها معاه كنتوا بتتكلموا في ايه

كل ده، كنتي بتقولي له طريقة عمل البشاميل؟"

لوحت ندى بيدها في اعتراض على سخرية الأم، انصرفت بوجهها إلى الجانب الآخر بعد أن جلست على المقعد بجوار الفراش وهتفت مزمجرة:

ـ"يا ربى عليكى يا ماما، انتي بتتريقي عليا، ثم اصلا حضرتك ما تعرفيش أنا خدت وقت قد إيه عشان أفك طلاسم الشخصية الغامضة لحضرته وأخليه يعبرني

بكلمتين".
همت الأم بالنهوض، استندت بذراعيها على الفراش، لوت شفتيها في تأوه، ثم اتجهت نحو باب الغرفة وقالت: "خلاص خدى وقتك وفكري، واعملي استخارة واحنا مش مستعجلين".
مر يومان على المقابلة وعقلها لا يتوقف عن التفكير في الأمر، نظراته الغامضة تأتيها من كل اتجاه، تشعر وكأنه خلفها يلاحقها إلى أي مكان ترتاده ويطلق عينيه الساحرتين كسهام ترتشق بجسدها متى ذهبت أو عادت.
الحيرة لا تتركها أو تلك الرهبة التي بثها بروحها منذ أن جلست معه في اللحظة الأولى، تذكرت أخر دقائق مرت بينهما في ذلك اليوم، نظراته المعجبة وضحكاته المكتومة تأبى الظهور للعلن أو الإفصاح عن انبهاره بشخصها المشرق، تهادى إلى ناظريها مشهد خروجهما معًا من المقهى حينما دق قلبها مرارًا وهي تراه يتابع خطواتها المتهادية في استحياء، تشعر بأنفاسه الحارقة تحتضنها من الخلف كوليد يرتمي إلى أحضان أمه، الأمر ليس بالهين، لا تعرف ما العمل! ولكن لا بد من اتخاذ القرار الصائب والتفكير مرارًا وتكرارًا.
*****

(٤)
(الأسبوع الأول)

ـ" كان فيه موضوع محيرني أوى وكنت حابه أخد رأيك فيه". كانت تحادث منة في هاتف المنزل وعلى وجهها تعابير من الحيرة والقلق، جالسة على فراشها في غرفتها المظلمة، فجاء صوت صديقتها على الطرف الآخر: "خير يا ندى فيه إيه؟" عقدت حاجبيها بطريقة تنم عن الضجر وارتمت على الفراش في تكاسل متكئة على ذراعيها وممددة ساقيها خلفها، ثم تنهدت بقوة وقالت: "فاكرة الموضوع اللي حكيت لك عنه من فترة؟" قالت منة باستهزاء: ـ "موضوع إيه بالظبط؟ ما إحنا مواضيعنا كتير أوى؟!" أطلقت ضحكة ركيكة عبر السماعة، ضحكت ندى على إثرها وقالت: "والله عندك حق يا بنتي، بس أنا أقصد الموضوع الأخير، مسيو إبراهيم؟" هتفت منة في تعجل: " اه افتكرت، ايه فيه حاجة جديدة في الموضوع؟" ـ"أيوة، روحت أنا وماما وقابلناه، وأتكلمت معاه". صاحت منة في انزعاج بعد أن شهقت في الهاتف: " كدا يا ندلة من غير ما تقولي لي؟! يلا اتفضلى احكي لي بسرعة عملتي ايه!" استمعت منة للحديث بإنصات، تحاول تكوين رأي عن الأمر إلى أن انتهت ندى من الكلام: "فأنا دلوقتى محتارة أوى يا منة ومش عارفة أعمل إيه، يا ريت تنصحيني!" قالت الأخرى بعد أن صمتت لِثوانٍ تحاول التهيئة لبدء حديث جِدي: ـ "أولًا انتي ليه متوترة كدا؟! الموضوع بسيط جدًا ومش محتاج القلق دا كله، بس انتى لازم تفكري من كل الزوايا وماتتسرعيش أو تاخدى قرار تندمي عليه بعد كدا". ـ"قرار أندم عليه ازاى؟ مش فاهمة قصدك؟" هتفت ندى بقلق بينما استأنفت صديقتها التحدث: "قصدي يا ندى إنك ممكن تظلمي الشخص ده في حالة رفضك من غير مبرر، خصوصًا إنك قولتيلي إنه شافك من سنتين وحصل ظروف وفضل فاكرك وبيسأل عليكى لحد ما رجع تاني وأتقدم، مش يمكن دى إشارة من ربنا ليكي إنك تكملي؟" عادت برأسها

إلى الوراء، استلقت على ظهرها تلك المرة ومددت جسدها على الفراش، متأملة السكون من حولها تفكر في قول منة، التي تابعت: "بلاش تتسرعي بإنك ترفضي أو تقبلي، خدى وقتك وفكري في كل الجوانب". صاحت ندى في سرعة وبنبرة حيرة قاتلة: ـ "أنا مابقتش عارفة أفكر في أي شيء ولا حتى أخد قرار مصيري زي ده، لحد دلوقتى لسه متأثرة بعد فشل خطوبتي وخايفة أتسرع وفي الأخر أحس إني ندمت". ـ "طب خلاص أحنا نفكر مع بعض من كل الجوانب الإيجابية والسلبية، إيه رأيك؟" هتفت ندى كالمستنجدة: "موافقة، يا ستي، نبدأ بإيه؟" ـ"خلينا نبدأ بالجوانب السلبية، وانتي هتقوليها من وجهة نظرك". ترددت ندى قليلًا حتى بدأت: ـ "امممممم، أول حاجة أنا شيفاها فارق السن الكبير بينا، عشر سنين مش قليلة بيني وبينه مع مرور الوقت هو هيكبر وهيبقى في مرحلة مختلفة عنى مرحلة الركود والثبات النفسي والعاطفي، أما أنا فهبقا لسه في فترة الشباب ومحتاجة اللي يحتويني ويسمعني!" ـ"أها، إيه كمان؟" ـ"تاني حاجة غموضه اللي مش لقياله مبرر، غامض أوى ومش بيتكلم بسهولة، حسيت برعب وأنا ببص جوا عينيه، وهدوئه القاتل، تصوري خفت أوى لما تخيلت نفسي مراته وفي الأخر ألاقى نفسي عايشه مع زوج مش بيتواصل معايا!" ـ "دى بردو نقطة مهمة، طب إيه كمان شيفاها سلبيات؟" ـ"أكبر حاجة بقا قلهالى ودى سببتلى رعب ودهشة في نفس الوقت لما سألته عن المواصفات اللي بيتمناها في شريكة حياته، عارفة قالي إيه؟" أطلقت منة ضحكة ساخرة وقالت: "اشجينى، قالك ايه يا أختي؟" ـ "قالي عاوزها ماتتكلمش كتير، إنسانة هادية بطبعها وتقدر تفهم شخصيتي لما ارجع البيت بعد تعب الشغل ومش عاوز اتكلم، وبردو اترعبت لما شفت نفسي زوجة خرسه محتاجة جوزها يسمعها ويحس بيها زي ما هي بتحس بيه وفي الاخر ألاقى نفسي وحيدة شغالة أو حبيبة باسم زوجة أخر الليل". خرجت منة عن حدود العقلانية أخيرًا وهتفت ساخرة: "إيه يا شيخة السوداوية دى خنقتينى هههههههههه، طيب خلاص خلينا نفكر بقا في الايجابيات ومش عاوزة اسمع سلبيات تاني بقولك".

ضحكت ندى بمرارة ومدت شفتيها ثم تابعت: "طيب يا ستى خلاص مش

هتكلم تاني، اتفضلى انتى بقا قوليلى ع الايجابيات في الموضوع". تنحنحت منة في زهو قاصدة إضفاء جو المرح على الحديث: "احم احم حاضر يا أستاذة ندى، أولا يا حبيبتي الإيجابيات في الموضوع كتير بس للأسف حضرتك مش قادرة تشوفي غير السلبيات ودا من الخوف اللي مسيطر عليكى".

ـ"طب ما تنوريني يا ست الأفوكادو، الظاهر هو عينك محامية بالنيابة عنه!"

ـ"هههههههه لا أبدًا، بس يمكن أنا شايفة حاجات انتي مش واخدة بالك منها ودا طبيعي"، ثم تابعت في هدوء وحكمة: ـ "انتى قولتي إنه شاب مكافح اعتمد على نفسه من الصفر لحد ما وصل لمرحلة كبيرة من النجاح والشهرة في مجال عمله، شاب وسيم وأنيق، هادي وطموح، غير كمان إنه حابب الاستقرار ومادياته كويسة وهيعيشك في مستوى مادي كويس". رأي محدثتها زاد من ارتباكها، ولكن لم يمنعها عن الاستمرار في النقاش متسائلة: "بس يا منة انتى مش واخدة بالك من حكاية السن؟" ـ"يا ندى يا حبيبتي، السن عمره ما كان فيصل في نجاح العلاقة بين الراجل والست إلا لو كان الفرق كبير أوى، أو الست أكبر من الراجل وقتها بتكون نسبة الفشل كبيرة، وأحب اقولك شيء مهم جدا، الحب غير الجواز يا حبيبتي والراجل كل ما كان فارق السن أكبر من الست بيحتويها أكتر وبيسعى دايما إنه يحسسها بالحب والامان لأنه شخص حصل على الاستقرار بعد سنين من فقدانه فدا بيكون زوج مثالي جدا". قالت مقرة برأيها الحكيم رغم تخبطها: ـ "عندك حق في النقطة دى، بس بردو هدوئه بيقتلني بجد، دا غير شرطه الأساسي انها ماتتكلمش،طب ماراحش ليه بقا وشاف له واحدة خرسة يتجوزها؟" ضحكت منة، لقد تنبهت لجهودها المضنية في اختلاق سلبيات واختلافات في الأمر حتى تتمكن من إنهاءه كعادتها. ـ"هههههههههه بجد انتى مش ممكن، يا بنتى أكيد إنتي فهمتي الموضوع غلط، أكيد هو يقصد إنها تكون ست ذكية تعرف تتكلم أمتى وتسكت أمتى، تعرف تطلب في الوقت المناسب وأمتى تفهم جوزها وتريحه، الجواز مش سهل يا ندى". ـ"يعنى انتى رأيك إيه يا منة؟" ـ "رأيي إنك تواربي الباب وماتقفليهوش، لعله خير يا ندى، لعله خير!"

*****

إلى متى ستترك الحيرة تنهشها هكذا في كل مرة تسألها والدتها عن الأمر؟ هي لا تعرف عنه الكثير وهناك الأكثر من الأسئلة التي تدور بعقلها ولا تعرف لها إجابة؟ كيف تكون حياته الشخصية؟ هل يتمتع بالتدين الذي طالما تمنته في زوجها المستقبلي؟ ماذا يرى في الزواج وما الغاية التي يسعى إليها من وراءه؟ هل سيكون ذلك الرجل الذي يمنحها الراحة والسكينة التي كانت رفيقة لأحلام فتاة يأست من انتظار فارسها المغوار؟ هل سيصبح الرجل الذي ينتشلها من ضياع أنوثتها المكبوتة وعمرها الذي مر أمامها بينما تتحسر على ما فات وما سيفوت؟ وهل حقًا ستحقق كل أحلامها بصحبته أم ستندم بعد فوات الأوان؟ علامات الاستفهام تراودها في كل وقت، كوابيس تطبق على عقلها وتمنع لحظات الراحة والسكينة، ومع ذلك لا تتوقف عن الصلاة والاستخارة، فقد مر اليوم الرابع والجميع ينتظرون منها رأي، ولكن لا بد من طريق للخروج من حيرتها لتنهي تلك المسألة التي شغلتها لأيام، إلى أن واتتها فكرة قلبت موازين الأمور رأسًا على عقب.

أمسكت الهاتف وتذكرت اللحظة التي تبادلا فيها أرقام الهواتف، ربما أتت الفرصة لتحسم أمرها معه، الآن ستظهر كل الحقائق وتتضح ردود الأفعال وستعرف كل شيء. أحضرت الرقم من سجل الهاتف، نظرت إليه في تفكر، لقد حان وقت الإقدام، لا بد إنه يستخدم برنامجًا من برامج المحادثات عبر الهواتف الذكية، أحضرت الرقم ودخلت على برنامج المحادثات، بحثت عن رقمه في جهات الاتصال، إلى أن رأت صورته أمام عينيها لتشعر بنفس الرعشة القوية التي سيطرت عليها وهي جالسة معه وناظرة إلى عينيه، حدقت في الصورة للحظات تتفحص ضحكته الواثقة التي ملأت وجهه المستدير، شفتيه الدقيقتين، عينيه اللتين اختبئتا داخل أجفان تهاب الظهور إلى العلن دون أن تمنع السحر السابح بداخلهما من الانطلاق نحو الفضاء، مظهر أناقته اللافتة وشبابه الطاغي ورجولته الصارخة، حقًا إنه الرجولة في جسد مفعم بالحياة، مرت الدقائق وهي تمعن النظر في صورته ولا تعرف كيف العمل، هل من اللياقة أن تبعث له

برسالة؟ أم سينظر إليها على أنها بلغت من الجرأة ما لم يعهده من قبل كنظرة رجل شرقي للمرأة حينما تبدأ كل شيء؟ ستحادثه دون سابق إنذار وكل ذلك كفيل بأن يجعلها تسقط من عينيه بعد أن تقتحم حياته دون علم أو ميعاد مسبق، ولكن لم يعد هناك وقت للتفكير فلا بد أن تحسم الأمر بيدها حتى تئد الاستفهامات التي تزرع رأسها ذهابًا وإيابًا قبل فوات الأوان، استجمعت قواها الخائرة وسحبت نفسًا عميقًا من صدرها المرتعب وأخيرًا بعثت له برسالة. "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أتمنى حضرتك تكون بخير وبتأسف على إني بتكلم من غير ميعاد، بس أنا كنت عاوز أتكلم مع حضرتك في أمور كتير شغلاني، فأتمني لو حضرتك فاضي نتكلم شوية". لم تصدق حينما رأت منه الإجابة بعد فترة قصيرة، ومع رسالته تسارعت ضربات قلبها من جديد. "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا بيكي أنا كويس الحمدلله، وانتي؟" تمهلت تفكر قبل أن تطلق رسالتها التالية، فلا بد من انتقاء ألفاظها بعناية، فإلى الآن لا تعرف طبيعة شخصيته القابعة خلف ابتسامة ليس لها من ماهية واضحة. "الحمد لله أنا بخير، وميرسي جدا على سؤالك، بس أولا أتمني حضرتك ماتعتبرهاش جرأة مني إني أبعت رسالة أو أطلب أتكلم معاك في بعض الأمور، أعتقد إن اتنين ناضجين زينا تعدوا المرحلة دى، ولا إيه؟" بادرها بإجابة سريعة دون انتظار: "أكيد طبعا، وانتى إنسانة تجبر أي حد على احترامها". انفرجت أساريرها بعد رؤية رسالته الأخيرة وشعرت بالراحة أكثر للبدء في الحديث: "متشكرة جدا على زوقك، بس فيه حاجات كنت حابة اتكلم مع حضرتك فيها خصوصا أن أول مقابلة صعب نتكلم في كل الأمو". "امممممممم بس المرة اللي فاتت كانت ببلاش، بعد كدا بفلوس؟!" إنه يتقن فن المداعبة، لعلها بداية جيدة لاكتشاف الأكثر من أمور غامضة وصفات حبيسة داخل قلعته الحصينة، خاطبت نفسها قبل أن ترد برسالة: "هههههه، بقا كدا، عموما مفيش مانع". "لا أبدًا، أنا تحت أمرك في أي سؤال، بس أنا حاسس إنك قلقانة من شيء". ترددت في الإجابة قليلًا ثم كتبت: "بصراحة أنا مترددة ومش قادرة أحكم على الموضوع، وخايفة أخد قرار من غير ما ادرسه". تساءل مستفهمًا: "ليه بتقولي كدا؟" تلكأت تبحث عن

كلمات حتى كتبت: "أنا يمكن شخصية مختلفة، الجواز بالنسبة لي مشروع العمر كله، عمري ما فكرت إني اتجوز عشان أخد لقب زوجة وأم بس وأوافق بأول راجل يتقدم لي، لازم أحس إن الشخص اللي قدامي عاوزنى أنا، واختارني من بين بنات كتير عشان أشاركه حياته، حضرتك فاهمني؟" "أها، كملي". استطردت بثقة: "عاوزة أحس إنه بيشاركني كل أحلامي، مش مجرد واحدة شافها مناسبة وأتجوزها واختارها، زي قطعة ديكور يسبها في البيت ويرجع لها أخر اليوم ياكل وينام، الجواز شيء كبير أوى، ويوم ما ارتبط بإنسان معين لازم يكون شخص قادر يحسسني إنه بيقدس الزواج والزوجة اللي هتشاركه، ويخليني أتخلى عن أحلام بتمنى أحققها".

" كلام جميل". أجاب باقتضاب، فأتى رده دافعًا إياها لاستكمال الحديث: "ودلوقتى ممكن تسمح لي اسألك انت عاوز ترتبط ليه؟ مجرد إحساس بالاستقرار أو إنك تكمل حياتك بالزواج؟!" تنتظر إجابة منه، قابضة براحتيها على هاتفها الجوال، تنظر للشاشة في ترقب حتى أتت رسالته الجديدة: "أنا مبسوط بحياتي، ومش متلهف ع الأولاد". أجاب عقب لحظات معدودة ثم استأنف كلماته المؤثرة: "أنا عاوز واحدة تكون سَكَني". تعبير عميق من رجل في أواخر العقد الثالث من عمره، دقائق تمر وهي تمعن التفكير في الجملة الأخيرة، ومعها شعرت بالعمق العاطفي والرومانسي الذي يحويه قلبه المنغلق على نفسه، قلب رجل يأبى الحديث أو الإفصاح عن مكنون نفسه الوحيدة ومشاعره التي فترت مع سنوات شباب ولت بسبب الظروف والأيام. "بس أنت قلقتني لما قلت عاوزها مابتتكلمش كتير، ودا معناه لازم تفضل ساكتة عشان ترضيك وتكتم مشاعرها، مع أن من المفروض أن الجواز مشاركة بين اتنين". عاد لصمته ثم كتب: "غريبة أوى!" اندهشت من جملته الأخيرة، فكتبت تسأل: "إيه اللي غريب؟" "يومها كنت حاسس إنك قريبة مني أوى وفهماني، بس دلوقتي لا!" نظرت مستغربة للرسالة، ألتلك الدرجة شعر بقربها منه وتفكيرها الناضج، إن مظهره قوي ولكن كلماته توحي بطفولة تبحث عمن تفتش عنها ويحتضنها، ومع ذلك سألت: "عشان بسألك بقيت مش فهماك، مش يمكن حابة أعرفك

أكتر؟!" كانت فكرة مجدية أن تحادثه برسائل حتى تفهم منه بعض الأمور التي ربما عجز عقلها عن ترجمتها بفعل صمته الدائم وصلابة شخصه القوي والتي يظهرها، حدثت نفسها وهي تنظر للرسالة التي كتب فيها: "لما قلت كدا كنت أقصد إنها تفهمني من غير ما أتكلم، وأحاديثها تدور في نطاق حياتنا بس، يعنى مش تتكلم في أمور غيرنا أو حاجة ماتخصناش". هل هو إحساس بالانجذاب نحو شخصه الرزين وكلماته المعدودة؟ شيء ما محمل بعاطفة الشفقة والحنان لرجل افتقده كثيرًا وهو عابر درب طموحاته وأحلامه؟ "أنا آسفة لو كنت طولت عليك وعشان مش تقول عنى رغاية". "لا والله، يعنى انتي كدا مش رغاية؟" بين لحظة وأخرى وانقلبت مشاعرها إلى غضب بعد أن وصفها بالثرثارة، فأجابته تحاول استرداد كرامة أنثى أهانها: "والله، طيب عموما أنا بعتذر وآسفة على وقتك اللي ضيعته، تصبح على خير". "وانتي من أهل الخير". لم يحاول ولو برهة أن يعتذر عن فظاظته في التعامل، فبادرها برد مقتضب شعرت بعده أن الأمر قد حسم وليس فيه رجعة.

*****

(٥)

حادثت منة في الهاتف بعد مرور يوم على حوارها البائس مع إبراهيم، شعورها بالغضب من أسلوبه الجاف وكلماته النافذة، ربما حسم الأمر تمامًا ولم يعد هناك فرصة للإذعان لكلمات الآخرين، ولن تطيل كثيرًا في التفكير قبل أن تمنح إجابتها بالرفض. وضعت الهاتف على أذنها وقالت قاطبة حاجبيها في ضيق: "أنا مش ناوية أفكر في الموضوع تاني، وخلاص قررت إني ارفض". جاءها صوت الأخرى عبر الهاتف تتساءل في اعتراض: "هترفضي؟ هو انتي كنتي لحقتي تفكري أصلا؟" لم تستطع أن تتفاهم مشاعرها المتخبطة بعد ما حدث مؤخرًا، فزادتها كلماتها الساخرة ضيقًا وانقباضًا، ولذلك صاحت معترضة بشدة: "يعني ايه لحقت أفكر يا منة؟ بعد كل اللي قلتهولك والاسلوب البارد والمستفز اللي كلمني بيه عوزاني أوافق ازاى؟" زفرت الأخرى في ملل وقالت معاتبة بلهجة أكثر جدية: "أيوة يا ندى بقولك فكري تاني واعملي استخارة، مش معنى إن أول حوار بينكم خد الشكل ده يبقى خلاص ترفضي إنك تفكري تاني أو تحكمي عليه إنه ديكتاتوري أو غامض، مش يمكن هو مش عارف يعبر أكتر عن نفسه بالكلام؟ ولا انتي عاوزة واحد من شباب اليومين دول يقول كلمتين حلوين بس فعل مفيش؟" هتفت في رفض قاطع: "لا طبعا، انتي عارفة رأيي في الناس دى كويس".

ـ"يبقى خلاص، لازم تفكري تاني وتقعدي معاه وتدي لنفسك فرصة تانية، وعلى فكرة كل الحوار اللي حكيتهولي ده يدل على إنه شخص كتوم، والراجل لما يكون بالشخصية دى بيكون إنسان حساس ورومانسي بس انتي مش قادرة تفهميه كويس". أطلقت آهات متتابعة وهتفت في حيرة من أمرها: "حيرتيني يا منة ومابقتش عارفة أعمل ايه، أكمل واديله فرصة وألا أبعد من الأول وارتاح؟" ضحكت منة على صديقتها وقالت بشيء من الهزل: "من ناحية ترتاحي فانتي عمرك ماهترتاحي يا صديقتي العزيزة ههههههههه، وانتى سنجل ولا حتى

بعد ما تتجوزي، ايه البنات الهابلة دى يا أخواتي اللي فاكرة الجواز لعبة وشوية حب؟" لم تتمالك نفسها من الابتسام وصاحت بصوتٍ عالٍ: "انتى بتهزري يا منة، أنا بتكلم بجد أعمل إيه دلوقتي أنا يعنى؟"

عادت الأخرى لنبرة الحزم والجدية وقالت: "أنا قلت لك رأيي وهو دا الصح، لازم تبلغيهم في البيت إنك محتاجة تقعدي معاه تاني وتتكلمي ودا حقك شرعًا، فهمتي؟"

الحديث مع رفيقتها عاد بها للنظر في الأمر مجددًا والالتفات لإيجابيات طمست عنها بفعل رهبة الموقف، وكيف لا تعيد النظر ألف مرة ومرة! وهل الإقدام على خطوة بمثل تلك الخطورة أمر باليسر؟ ناهيك عن تجربة مريرة أذاقتها مرارة الاختيارات المخزية! ودرس هام حفر بإزميل حجري بين زوايا نفسها الملتاعة، خلط بدمائها الحارة فأشعل جمرها في كل وقت ورواها بماء العين الشجية، فكيف لها أن تدعي النسيان أو تطلق طوقها الحامي وتسير مغمضة العينين خلف أول نداء للسعادة، طوق غزلته لها الأيام من نسيجها المرير، من التمهل والاحتراز. منة، صديقتها منذ الصغر، ربما كانت تلك الصداقة أحد أسبابها الزعيمة وراء ثقتها برأيها الحكيم، والأخذ بمشورتها في ذاك الأمر، خاصة مع سابق معرفتها بتاريخ صديقتها المأساوي وحياتها العصيبة، مسلسل تليفزيوني أبصرته معها حلقة تلو الأخرى، زواج كان ثمرة لتعارف أسري مع أحد شباب العائلة، قصة حب استمرت طوال سنوات الدراسة وأسفرت في النهاية عن زواج فاشل لم يدم سوى عام واحد ليأتي بعده الانفصال مع طفل رضيع لا يتعدى الستة أشهر.

تجربة أليمة بزواج من رجل لم يتعلم يومًا معنى الاستقرار وقدسية الحياة الزوجية،

إنها مثال لعلاقات الحب الغاشمة وعنفوان مشاعر الشباب، تجارب تدشن كل يوم، تسفر عن بدايات مغايرة ونهايات متشابهة، اثنان يذوبان في غمرات الحب الزائف دون دراسة كافية لطبيعة كلٍ منها إلى أن يستيقظا في النهاية على حقيقة مريرة وأكذوبة كبرى اسمها الزواج، دعوات قضائية وجلسات محكمة

وطفل رضيع، مع ورقة داكنة تحمل لقب مطلقة هي حصيلتها من زواجها الأول، يعلو حلقها مرارة كلما تذكرت مأساة رفيقة الطفولة ثم تعود لتتنهد بعمق، عله القدر عوضها بزوجها الثانى، مطلق عقيم، احتواها، عاملها بإنسانية، وأغدق حنانه وعطاياه على طفلها الصغير. إنها مشيئة القدر وترتيبه الحكيم!

حملت نفسها منطلقة خارج الغرفة بعد تفكير لم يتجاوز الكثير من الوقت، واتجهت صوب والدتها لتطلعها عن رغبتها في المقابلة مرة أخرى، بعد أن أخبرتها بدورها عن محادثة السيدة فردوس الأخيرة ورغبة العريس الملحة لمعرفة رأيها في أقرب وقت.

عاقدة العزم على منحه فرصة أخرى، ومن بعدها ستعلن ردها المناسب بالقبول أو الرفض، لقد تمعنت في التفكير حتى اهتدت لفكرة مناسبة، ستبعث له برسالة جديدة تخبره من خلالها عن قرارها بمقابلته للمرة الثانية لترى ردة فعله على الأمر.

لم يمنعها مشهد النجوم في ذلك المساء وهي جالسة بالقرب من نافذة غرفتها من الكف عن التفكير فيه، هل من الممكن أن يصبح زواجًا ناجحًا؟ هل ترى نفسها بصحبة ذاك الرجل الصامت وزوجة له؟ لا بد أن تعرض الأمر عليه وترى ما سيقول!

"أنا أسفة على الإزعاج يا مسيو، بس حبيت أبلغ حضرتك إني طلبت منهم تكون فيه مقابلة تانية، فيه حاجات أحب أتكلم مع حضرتك فيها".

انتظرت رد منه حتى بعث لها برسالة بعد مرور ساعتين جاء فيها: "أكيد مترددة ومش عارفة تاخدى قرار، أنا مقدر إحساسك". ثم عاود الكتابة: "بس عموما مفيش مشكلة".

" طيب أنا هستأذن حضرتك عشان أكيد أنت مشغول، مش عاوزة أصدعك برغي!"

أرسل لها بوجه ضاحك وقال في تأدب:

"أكيد ماكنتش أقصد كدا كنت بهزر مش أكتر، بس واضح إنك حساسة أوى؟!"

نظرت للرسالة وقالت في اعتراض:

"لا أبدًا، بس كل ما أحاول افهمك الاقيني بتوه جواك أكتر!"
"ليه بس دا أنا أبسط ما يمكن والله!"
شعرت ببعض من الارتياح يجتاح قلبها الحائر فيثلج صدرها المتأجج بنار التشتت والحيرة مما جعلها تستمر في الحديث: "جدا بسيط أوى هههههه د ا أنت جننتني!"
"هههههههههه، لا ماتقوليش كدا أنتم مجانين من غير حاجة".
استأنست بروحه الفكاهية، حتمًا ستكشف لها الأيام كثير مما يواريه في شخصه الراقد خلف قناع الهدوء والثبات، خاطبت نفسها واستأنفت الحديث:
"امممممم، طيب اوك مش هناقشك في النقطة دى، بس ممكن اسألك سؤال وتجاوب بصراحة؟"
"أكيد طبعا، اتفضلى". هممت كأنما تشرع في حديث حقيقي ثم كتبت:
" كان إحساسك إيه واحنا قاعدين مع بعض؟ يا ترى كان فيه ارتياح؟" صمت للحظات ثم عاد بمفاجأة غير متوقعة: "ممكن أنا أقولك حاجة تانية؟"
"اتفضل".
"وحشتيني!"
كيف توقف الزمان بغتة عند تلك اللحظة، بعد أن داهمها بكلمته الأخيرة! احتبست أنفاسها وتسارعت نبضات قلبها بشدة، وعيناها منفرجة تحملق في ذهول تأبى أن تصدق ما تراه، تنظر للكلمة التي قذف بها قلبها الرقيق كبائع زهر فرنسي ألقى أشهى ورداته النضرة على صدر إحداهن!
ابتلعت قطرات المياه المحتسبة داخل جوفها بعد أن فرت ذعرًا بفعل توترها الجلي، وحركات صدرها صعودًا وهبوطًا مع انفراج عينيها الزائغتين تفحص الرسالة فوق صفحة الهاتف البيضاء في يدها، حاولت التماسك لدقائق ثم قالت متسائلة: "أنت بتكلمني أنا؟!" "أيوة بقولك انتي، وحشتيني!" حتمًا ثمة خطأ، هل مسه جنون أم أصابه تحول مفاجئ حتى يقول كلمة كهذه بمثل تلك البساطة التي يبديها عبر رده الجريء، حتمًا إنه حلم ولا بد له من إفاقة:
"أنا مش مصدقة إنك بتقولي أنا كدا؟ أكيد فيه حاجة غلط؟!" فركت جفنيها

تحاول أن تستوعب ما تراه، ولكنه أطلق الكلمة منذ دقائق وهي حقيقة الآن.
"لا مفيش غلط طبعا، أنا بكلمك انتي وشايفك قدامي زي ما كنت شايفك يوم المقابلة، بضحكتك وكلامك اللي لمس قلبي مش عارف ازاى؟!"
أطبقت كلتا يديها على الهاتف دون وعي كأنما تتلمس الحقيقة، لتدرك أن ما يحدث ليس من صنع خيالها الباحث عن عاشق جديد يسكن فؤادها الخاوي عبر لياليها الساهرة، وعادت تكتب:
" أنا مش متخيلة إنك أنت مسيو إبراهيم اللي كان قاعد معايا، وكأن شخص تاني بيكلمنى دلوقتى؟!" تابع سلسلة اعترافاته الجريئة، لقد تبدل تمامًا عن ما قبل:
" أنا من أول ما شفتك وأنا معجب بيكي، ولما اتكلمت معاكي حسيت بأنك بتشديني ليكي أوى رغم مقابلتك الجافة ليا والوش الخشب اللي كنتي بتتصنعيه!"
تقرأ رسائله فتشعر بشدة الخجل، حقًا لقد صدقت منة فيما أخبرتها، هناك الكثير من الأسرار داخل جعبته ستكشفها مع مرور الوقت، ثم تابع حديثه:
"وأكيد انتي حسيتي بده في عينيا؟!"
أشاحت بنظرها إلى الأعلى كأنما تخاطب نفسها التائهة، أو كمن تبحث عن إجابة شافية لأسئلتها الصارخة، حتى عادت إلى الهاتف مرة أخرى وكتبت:
"أنا ماكنتش متخيلة إنك كنت مبسوط للدرجة دي واحنا قاعدين مع بعض، أو إنك معجب بيا؟!"
"ممكن أطلب منك نتكلم تليفون؟"
أطبقت شفتيها على بعضهما في شرود تفكر في طلبه الأخير وسألته قائلة:
" تليفون؟ مش عارفة؟ بس ليه؟"
أرسلت رسالتها الأخيرة، وانتظرت في ترقب إجابته حتى قال:
"عاوز أسمع صوتك، وفيه حاجات كتير مش هقدر أقولها رسايل، في التليفون هقدر أعبر عن إحساسي أكتر!"
في كل مرة تقع في نفس المأزق، هل تسمح له بالحديث في الهاتف وتعتبر ذلك مرحلة هامة لاكتشاف شخصيته أكثر ومتابعة تطور الأمر؟ خاصة وأن كل منهما على درجة كبيرة من النضج العقلي! أم ترفض طلبه وتعتبره مرحلة متقدمة لا

يمكن تخطيها في الوقت الحالي؟! وبعد دقائق من التفكير شعرت بضرورة خوض التجربة فإن لم تطلها فائدة من وراءها فحتمًا لن تؤدي لضرر وستتعلم منها الكثير وتعرف عنه الأكثر.

"مش عارفة هل المفروض أقبل ولا أرفض؟" كتبت في حيرة.

"أعتقد إنك قلتي إننا على درجة كبيرة من النضج وهنقدر نتعامل مع الموقف بحكمة ولا انتي مش واثقة فيا؟"، ترددت لبرهة ثم تابعت:

" أنا واثقة في نفسي كويس، وموافقة على التليفون!"

أغلقت المحادثة وجلست ترقب اتصالًا منه، لماذا لم يتصل؟ مرت العشر دقائق ولا تعرف ماذا ينتظر حتى يهاتفها، ربما أرادها أن تبادر بالاتصال أو أن كبرياء رجل في عمره يمنعه من خوض تجربة جديدة؟ إن كان حقًا يفكر بتلك الطريقة المتشددة فلم ناشدها بمحادثته؟ إنه في كل مرة يزيدها حيرة وتشتت! أمسكت الهاتف وأحضرت رقمه، حدقت به لثوانٍ ويدها ترتعش وقلبها ينبض خوفًا.

إلى أن اهتز الهاتف بيدها فجأة، أجابت بالسكوت، فأتاها الرد على الجهة الأخرى!

*****

(٦)
(الأسبوع الثاني)

أطلقت منة ضحكة مدوية عبر الهاتف بعد أن قصت عليها ندى ما جرى في تلك الليلة، والمكالمة الهاتفية مع إبراهيم فقالت بنبرة ملؤها الضحك:

ـ"هههههههههه مش ممكن؟ كل دا قلهولك؟ أه أنا كنت متوقعة إنه يكون رومانسي بس ماكنتش عارفة إنه هينطلق في الكلام كدا!"

ترددت ضحكات الثانية على الطرف الآخر وقالت مفتخرة وهي تمزح:

ـ"لا وقال أكتر من كدا كمان، دا كأن أسد كان محبوس وانطلق برا القفص، عمري ما كنت أتخيل إنه يقولي كل الكلام ده ولا يكون رومانسي أوى كدا!"

ـ"مش قلت لك يا بنتي، بس انتي ماصدقتنيش لا ولسه ياما هتشوفي". خاطبتها بلهجة الواثقة من حالها، فنظريتها باتت حقيقة وها هو الدليل، في حين عادت نوبة القلق إلى صوت ندى وقالت: "بس أنا قلقانة بردو يا منة، ومش مرتاحة!"

ـ"قلقانة من إيه بس يا بومة انتي، ما الراجل طلع رومانسي وحبيب أهو، لا وكمان هيموت عليكي من أول ما شافك، عاوزة إيه بقا؟!" زفرت نفسًا مريرًا وقالت: "أيوة قلقانة من غموضه، بعد ما اتكلمنا اليوم ده وفضل يقولي أنا معجب بيكي". تغيرت نبرة صوتها فجأة كأنما تحاكي صوته الناعم وتابعت بعد أن تنهدت بدلال: "وحتى لما كنتي قاعدة معايا كنت حاسس إننا خلاص قربنا من بعض، ولما كنا خارجين كان نفسي انده لك وأقولك خليكي معايا، بعد كل الكلام ده، الخط قطع!"

هتفت منة في لهفة متسائلة: "ها وبعدين، كلمك تاني؟!" أطلقت ندى ضحكة ساخرة:

ـ" كلمني؟ اه فعلا، وحياتك الخط قطع من هنا ولا عبرني، حتى برسالة ع الواتس".

- "معقولة حتى ماحاولش يقولك أي حاجة تاني يوم!"
- "لا يا منة، أنا بعت له رسالة تاني يوم الصبح وقلت له أتمنى تكون بخير لقيته دخل وشافها وبعد أربع ساعات رد عليا بكل برود وقالي الحمد لله".
- "غريبة فعلا ردود أفعاله، طب وانتي ناوية تعملي إيه؟"
صاحت ندى بغضب والشرر يتطاير من صوتها وقالت في حزم: "أعتقد إني بذلت معاه كل الطرق عشان أقرب منه وأعرفه أكتر لما حاولت اكلمه واشيل الحاجز بينا، بس هو رجع وصدمني برد فعله، وعموما أنا بلغتهم برأيي في المقابلة مرة تانية ومستنية هيقولولي إيه".
- "يعنى ماحدش يعرف إنه كلمك ع الموبايل؟"
- "لا طبعا ماقلتش لأى حد على إنه خد رقمي".
- "ربنا معاكي ويقدم لك اللي فيه الخير".
- "يا رب، يا رب"

*****

(الأسبوع الثالث)

لماذا هكذا يكون الرجال؟ دومًا غامضون! هل يصير الفرار هو الحل الأمثل حينما يحدث الاقتراب! فتصبح المرأة أنموذجًا للتجارب العاطفية، ومختبراً لكل رجل يرغب في تجربة دواء جديد عله يشفي داءه القديم؟! أم أنا لعبة تتقاذفها أيادي سفيهة في مرح لتتمزق في النهاية وتتفتت لمائة جزء وتصير قطعة خربة تلقى في أقرب صندوق للمهملات؟ فالسوق مفتوح والسلعة متوافرة!
إنه الرجل! يبحر ويسير بمجداف رجولته في بحر عينيها المتعطشتين للحنان، ثم يعود ليرسو أينما أحب، تاركًا خلفه قلب إحداهن محطم على شاطئ أنانيته واستهتاره!
كل يوم يمر عليها تحاول جاهدة أن تفسر أفعاله الغريبة معها وشخصيته الغامضة التي لم تعرف لها مثيل، إن كان يؤثر الانصراف من حياتها بهذه الطريقة فلم هرول خلفها كل تلك المدة، وهو لم ينس طيفها منذ المرة الأولى التي رآها، حتى بعد مرور عامين على اللقاء والذى دبره لهما القدر، حين كانت

في حفل زفاف لإحدى الأقارب ورآها، في تلك الفترة حاول جاهدًا التعرف عليها، وبالفعل كان له ذلك بمساعدة صديقه أحمد، عندما ذهب ذلك اليوم إلى عملها، متحججًا ببعض الأمور ومنتحلًا شخصية أحد العملاء حتى يحادثها ولو لحظات، ثم اختفى للمرة الأولى دون إبداء أسباب مقنعة، هذا ما علمته بعد ذلك، وها هو يعود مرة أخرى ليلح في طلبه برؤيتها والحديث معها.

لقد مرت ثلاثة أسابيع على اللقاء الأول في ذلك المقهى، وهي تنتظر اللقاء الثاني بعد أن أخبرتهم عن موافقتها المبدئية مقابل أن يمنحها فرصة للقاء آخر تعطي بعده الانطباع النهائي، ربما هو ادعاء أطلقته بلسانها، تحاول أن ترسخ قواعده بعقلها الذي أقتنع بوجوده في لياليها الحالمة، وقلبها الذي شغف فكرًا برجولته الصامتة، رجولة تستهوي شخصيتها القوية التي تصبو للدفء والعاطفة في كنف رجل يمنحها كل ما أوتي من حب ولطف، بعد تجارب أرهقت أنوثتها كثيرًا.

ظلت تفكر في تلك الليلة عن السبيل لمعرفة حقيقة الأمر، حقيقة خطأ ما اقترفته يداها كان مدعاة لاختفاءه، كدخان اختلط سريعًا بذرات الهواء وتلاشى بتلقائية الطبيعة، لهوٌ خفي يظهر بقوة ليملأ المكان بنعومة كلماته الهادئة وحديثه الغريب، يعترف بحبه على الرغم من معرفتهما القصيرة، يبث لها في الليل كل آهاته وأنفاسه الملتاعة لعاشق سافر وترك معشوقته وحيدة، ومع انبلاج نور الصباح يرتد لسيرته الأولى، ينسلخ من جسده ويمزق جلده القديم لينقلب الرجل الغامض بهدوءه القاتل وصمته الموحش، في حين كانت تستمع لكلماته بصمت يشوبه القلق من الآتي، لا تصدق أن الحياة قد منحتها رجلًا محبًا بتلك السهولة، وهي امرأة لم يعرف قلبها طريقًا للراحة أو الهناء، تستمع، وتؤثر الصمت، لا تمنحه أية إجابة أو تجاريه في أحاديثه، تفكر في تعبيراته الرومانسية وبداخلها خوف من اعترافاته الليلية، اعترافات أطلقها مرة أو مرتين عبر الهاتف بعد أن كان يتوسل إليها أن تحدثه، وتختفي مع بزوغ خيوط النهار ليعود من جديد إلى الاختباء.

"ممكن أعرف ليه مختفي؟" بعثت برسالة عبر برنامج المحادثات الهاتفية، انتظرت لساعات وعند ظهوره بعثت له برسالة أخرى: "إبراهيم، ممكن تقولي

إيه السبب في سكوتك ده؟ فيه حاجة مزعلاك؟ أنا ضايقتك في حاجة؟" مرت دقائق وهي تراه دون أن يتحدث، تخاله أمامها على الطرف الآخر يقبض على الهاتف بكفيه ويرى رسائلها دون أن يجيب، يمنحها قدرًا أكبر من حيرة وخوف، والرهبة التي عاشتها منذ اللحظات الأولى للقاءه، فلماذا إذًا قرر الاقتراب؟ إن كان سيؤثر البعد والوحدة فلما أراد أن يدنو منها في تلك الأوقات العصيبة ومنحها أملًا جديدًا في الحياة والسعادة، ليعود مرة أخرى وينتزعها من بين أحضانها المتأوهة بآهات الوحدة والتخبط، أحضان أم ثكلى تنعي وليدها ليل نهار بعد أن انتزعه الموت من بين أحضانها؟! "الحمد لله أنا بخير، وانتي؟" إجابته بعد مرور ربع الساعة على رسالتها الأخيرة، ولكن كالمعتاد كلمات باردة وإجابات باهتة المعالم. "بس أنا حاسة إن فيه شيء مزعلك، يمكن أكون أنا السبب ومش عارفة!"

" لا أبدًا، بس مشغول شوية".

عاودتها الحيرة، فبحثت في ذاكرتها عن مواقف ماضية، ربما تكون السبب في ما أودت إليه الأمور! "أنت أضايقت من طلبي؟" ثم أردفت موضحة:

"لما طلبت منهم يبلغوك عن رغبتي في مقابلة تانية؟"

أتاها الرد عبر رسالة بعد مرور دقائق:

"دا من حقك، زي ما هو حقك ترفضي بدون ذكر أسباب".

ما بال تلك النبرة اليائسة في حديثه؟ صمتت تفكر ثم تابعت الكتابة:

"أنا طلبي إن تكون فيه مقابلة تانية لأني أحب أتعرف عليك أكتر، ولا إيه؟"

"يمكن انتي عاوزة ترفضي ومترددة تقولي كدا؟" الرفض! هل حقًا تريد الرفض أم تتمنى أن تمنح نفسها فرصة أخرى؟

"ليه بتقول كدا؟ أنا لو كنت عاوزة أرفض كنت رفضت من أول مرة، كل ما في الموضوع عاوزة أقرب من تفكيرك أكتر وأدخل جوا عقلك وأعرف حاجات عن حياتك وشخصيتك، بجد يا إبراهيم أنا عاوزة كدا". سكتت تنتظر إجابة، فبادلها بالصمت لفترة وجيزة ثم أتاها الرد أخيرًا:

"انتي لو كنتي بنتي عمري ما كنت هوافق إنك تتجوزي شخص أكبر منك بعشر

سنين!" قرأت الرسالة فزادت دهشتها، إحساس بعدم الثقة بالنفس أم صراحة مطلقة مع الذات، أم تراه ضعف ووهن بقلبه الذي جفت ينابيعه بفعل التعطش للحب والارتواء "ليه بتقول كدا؟" عادت تسأل، فأجاب دون تردد:
"عشان يوم ما ترتبطي بشخص زيي عجوز هتعيشى طول حياتك ممرضة لزوج أكبر منك بعشر سنين، هتدفنى شبابك في مقبرة عمره اللي ضاع".
عادت كلماته تداعب فطرة الحنان بداخلها، تحز كسكين بليد بمشاعرها المرهفة وتدغدغ عاطفة الأم حين ترى وليدها يتألم فتهرع إليه لتحتضنه بين ذراعيها، كانت تلك مشاعرها في اللحظة التي رأت فيها رسالته ورأت دموعه تنساب بهدوء من مقلتيه الزرقاوتين.
"أرجوك ماتقولش كدا، أنا حسيتك وارتحت لك وعشان كدا نفسي أقرب منك أكتر وأفهمك أكتر!"
"طب ممكن أطلب منك نتكلم؟"
"طيب ما احنا بنتكلم دلوقتى أهو!"
" لا، فون!"

*****

(الأسبوع الرابع)

ـ"أنا مش عارفة يا منة هو ليه بيتصرف معايا كدا! بجد أسلوبه هيجننى؟"
ندى في انزعاج ودموعها توشك على السقوط وهي تتحدث عبر الهاتف.
ـ"أنا فعلا مستغربة جدا موقفه، تفتكري هو ليه بيعمل كدا مع إنك قولتيلي إنه معجب بيكي وكل الكلام اللي حكيتهولى بيأكد كدا؟" سألت منة، فأجابت ندى في تأثر تمرر يدها على جبهتها في قلق:
ـ" والله يا منة ما أنا عارفة، منين أنا معجب بيكي ونفسي نرتبط ونتجوز ويا ريت لو فترة الخطوبة ماتتعداش شهر، وأنا عمري ما كنت مرتاح في الكلام مع أي إنسانة كدا ولا قدرت أي واحدة تفهم شخصيتي بالصورة دى، دا غير الكلام الرومانسي في التليفون والرسايل، بس بردو الغموض والاختفاء المستمر، بالليل الاقيه بيكلمنى بكل رومانسية وهدوء على مدار المرتين اللي اتكلمنا

فيهم تليفون وبالنهار لو بعت له رسالة ألاقي صمت مالوش أي معنى، يشوف الرسايل ومايردش عليها، وفي نفس الوقت تأجيله للمقابلة لأكثر من أسبوع وكأنه بيتهرب من شيء أنا ما أعرفوش!" زفرت منة في ضيق عبر الهاتف وقالت منزعجة:

-"مش عارفة والله اقولك إيه، بس من الواضح إنه شخص غامض زي ما كنتي بتقولي أو يمكن هو من الشخصيات اللي عندها رهبة من الجواز!" داعبت عينيها بأناملها الصغيرة كأنما تحاول منع العبرات من السقوط ثم قالت في تأثر: "واضح إن مأساتي مش هتنتهي أبدًا!"

(٧)

مر الشهر ونصف على المقابلة الأولى مع الرجل الغامض كما كانت تلقبه، كل شيء انتهى بهدوء مثلما ابتدأ بهدوء، ولكنه لم يمنحنها راحة البال والسكينة حتى بعد انسحابه من حياتها التي اقتحمها لفترة وجيزة لا تتعدى الشهر تقريبًا، بينما ترك بداخلها أثر لا ينسى وجرح جديد سيظل يدمى لفترة ليست بالقصيرة إلى أن يلتئم بفعل الأيام.

طيلة تلك الفترة وهي تسأل نفسها عن سره المجهول، لماذا دخل حياتها، لماذا طلب التقدم لخطبتها، لماذا حادثها عبر الهاتف، لماذا أمطرها بوابل كلمات الهيام عبر رسائله القصيرة، لماذا ولماذا وألف ألف لماذا تقرع رأسها المنهك ولا تتركه إلا بعد أن يسقط على فراشه طريحًا ليلًا بفعل الفكر والسهد.

هل تلك طبيعته الخاصة؟ إنسان من نوع هواة الليل وعتمته، يعشق الظلام حينما يحتضن الكون بأجنحته السمراء ويلون السماء بضوء نجومها المتناثرة عبر ساعات الليل الطويلة؟ كثيرًا ما حادثت نفسها وهي تتأمل تحوله الغريب ما بين ساعات الليل والنهار، ترى هل كانت تخاطب بشرًا حقًا؟! أم خفاش ليل يختبئ عبر ساعات النهار في جسد رجل بهي الطليعة، حلو الكلام، رشيد وهادئ، وما يلبث أن يعود للظهور مرة أخرى بعد أن يلمح خيوط ظلام الليل تتسلل خلسة إلى الكهف الذي يسكنه وحيدًا، فتدب الحياة بين أضلعه الصغيرة، تتمدد أجنحته السوداء وتحمله نحو الفضاء ليحلق عاليًا بحثًا عن حياة في الخفاء!

أو ربما هو مصاص دماء من نوع خاص، وحش مستتر لا يتلذذ إلا عبر ساعات الليل الحالكة بعد أن يمتص مشاعر كل واحدة يدنو منها، يرتشف قطرات كلماتها الناعمة وتنتعش أوردته بسكرات هواها الأنثوي، ثم يتركها خلفه جثة آدمية من دون قلب!

وفي لحظة دكناء لا تعرف متى، حملت الهاتف وأحضرت رقمه، سوف تبعث له

برسالة جديدة تسأله لماذا فعل ذلك، سترميه بوابل من علامات الاستفهام التي تركها وحدها فريسة لها ولن تدعه إلا بعد أن تأخذ منه ردًا شافيًا.
"ممكن أعرف ليه بعدت دون أسباب؟"
"فون".
"تقصد نتكلم فون؟"
"أيوة".
"بس أناماقصدتش إني أكلمك تليفون، أنا حابة أعرف حاجات كتير!"
"يا ريت يكون فون أحسن". بعد لحظات رن هاتفها برقمه.
- "على فكرة وحشتيني!" تحاملت على نفسها تأبى الغضب وقالت في خنوع:
- "أنا عاوزة أعرف إيه سبب تغييرك بعد ما طلبت إننا نتقابل مرة تانية؟ ممكن تفهمني؟"
- "أنا بقولك وحشتيني وانتى مصممة تسألي وتقفلينى منك، ليه مش عوزانا نعيش اللحظة؟"
- "نعيش اللحظة؟ أنت شايفنى كدا؟" تلعثم في ارتباك وقال متأسفًا:
- "أنا آسف ماقصدتش كدا!" قالت بنبرة هادئة تحاول التماسك:
- "أنا كل مرة كنت بطلب أتعرف عليك أكتر، أعرف شخصيتك المكسورة اللي بتخبيها ورا تعبيراتك القاسية وملامحك القوية، حسيت جواك بشخص محتاج شريك يفهمه، وإنسانة تعوضه عن أيام صعبة مر بيها، عشان كدا كنت بجاهد إني اديك فرصة تانية وأوافق تكلمني وأحاول أفهم شخصيتك الغامضة، بس أنت خذلتني، لما اكتشفت إنك بتدور عن شعور بالأمان للحظات!"
لم تتوقف، بل تابعت بغضب شديد انكشف عبر احتقان صوت جاهدت في خفضه وإثبات توازنها الداخلي:
-"أنت شايفنى إيه يا مربي الأجيال، شايفنى واحدة تكلمها أخر الليل وتقولها كلام حب زي ما حضرتك عاوز وأول ما يطلع النهار ترجع شخص فاقد الذاكرة؟"
قال بنبرة باردة زادت من حنقها عليه:
- "الظاهر مفيش فايدة، أنا مضطر اقفل". تابعت في غضب وتألم غير مكترثة

بأسلوب حديثه الفظ: ـ "أنت ليه دخلت حياتي وليه طلبت تشوفني وتقعد معايا؟ ليه قربت لما كنت ناوي تبعد وعارف إنك هتبعد؟ ليه من الأول تتقدم لي وأنت عارف إنك شخص بتخاف من الإرتباط وبتهرب منه؟ ليه مصمم تقنع نفسك إني واحدة اتعرفت عليها وبتتسلى معاها في التليفون؟ مع أن حضرتك اللي طلبتني للجواز وجريت ورايا؟" لحظة صمت قاتلة تبعتها بجملة قصيرة:

ـ "انت شايف إني كدا؟"

ـ " تصبحي على خير". وفي لمحة بصر أنهى المكالمة دون سابق إنذار!

*****

"الخير؟! أتقول الخير؟!"

أتدري! لقد أضحكتني عبارتك بشدة لدرجة تساقطت معها دمعات لفظتها عيناي الذاهلتان ولسان حالي ينطق بلماذا؟! وكيف سيكون ذلك! كيف سأصبح هكذا ولم يعد للخير مكان في دنيا تحمل أمثالك من الكذبة والمدعين، وجوه تتلون بابتسامات، وأجساد عفنة تتوارى خلف لباس ثمينة، وضحكات تتعالى لتخفي وراءها أنياب ذئاب بشرية تستن مع ضوء القمر في جنح الليل!

أشباه آدمية تدعي الرجولة، تجول البلاد كل يوم باحثة عن ضحية جديدة تغرها بسحر ابتسامة خادعة وكلمات زائفة، وفي النهاية تتركها على حقيقة مريرة. إنها نفوس مريضة تظهر بمظهر العقلاء والحقيقة أن بداخلهم عقد آدمية وشخصيات مهتزة تحتاج لعشرات الأطباء النفسيين حتى يداووا خللهم النفسي بعقاقيرهم المخدرة.

مثلك مثل كثير من الذكور ممن تاهوا في دائرة رهبتهم من اتخاذ القرارات وللأسف داخل دواماتهم تاهت الكثير من حقوق الأُخريات، فليس كل الذكور رجال، حقًا ليس كلهم رجال، فهل ترتقي الذئاب العاوية في جنح الليل الدامس لمكانة الأفراس في ساحة القتال!

الآن أدركت أنك تجربة مريرة منحني إياها القدر ليعطيني درسًا آخر في الحياة، ليضيف إلى ذكرى جديدة أظل أتذكرها طوال العمر، أتدارسها مع نفسي التي علمت قيمتها الحقيقة وجوهرها الأصيل، حقيقة أنثى بألف ألف رجل، ومع

قلبي الذي جئت أنت الآخر لتضيف إليه ندبة جديدة بأنيابك المسممة باسم الحب والزواج. ولكن أكبر دروسي التي تعلمتها بين يديك ستظل محفورة في ذهني وبين عينيّ، عينان لن تثقا في الصفاء والرقة بعد الآن. حتى لو كانت في زرقة مياه عينيك الساحرتين!

*****

ما زالت تنظر حولها وتتساءل ماذا ينتظرون منها، ما القدر الذي زج بها إلى هنا في تلك الساعة وذلك الوقت وهذا اليوم على وجه الخصوص، إنها حتى لا تتذكر من الذي دعاها للحضور أو أتى بها لقاعة المحاكمة، حقًا لقد نسيت كل شيء وظلت الأسئلة فقط هي الحاضرة في ذهنها. جالت بنظرها بين الحاضرين، تجوب أرجاء القاعة المكتنزة عن أخرها بأعداد لا حصر لها من البشر، تتفرس الوجوه وتقرأ النظرات الغامضة التي توارت بعيون هؤلاء المجهولين حتى أصواتهم الباعثة على الانزعاج والقلق ما استطاعت أن تفك شفرات كلماتهم وهمساتهم المتبادلة، وبين برهة وأخرى تبدل الحال، أصبحت على غير عادتها، صارت أكثر حيرة ونشب بداخلها شعور غريب لم تعرف له سببًا، فضاقت عيناها قليلًا وانطلقت منهما نظرة ثاقبة اختلطت ببعض الشرر بعدما التقطتا عن بعد مشهد مجموعة المتهين الذين اصطفوا في ذل تجلى بقوة عبر ملامحهم ونظراتهم الحائرة لها عقب دخولها إلى القاعة.

إنها ما زالت تفكر في حكمة السماء التي جعلتها تقف في مثل هذا الموقف الغريب، إلى أن دفعها فضولها وغريزتها نحو اكتشاف المجهول، فسارت باتجاه القفص، على يمينها مقاعد مكدسة بالحاضرين وعلى يسارها القضاة الثلاثة، تحاول التمعن في وجوه المرتمين في ذل خلف قضبانه، تعتصر ذاكرتها وتضيق عينيها بنظرات متسائلة عن ماهيتهم.

في حين جاهد كل واحد منهم في التواري عن نظراتها المتلاحقة، فقام أحدهم بوضع يديه على وجهه، وشرع الآخر بالالتفاف بجسده إلى الخلف والابتعاد عن ناظريها مانحًا ظهره مكانة الهدف لتلقي سهام شرر نظراتها المتنمرة، بينما قام الثالث بالجلوس على إحدى الآرائك المتراصة بتوازي خلف القضبان الحديدية

مطرقًا رأسه بخزي إلى الأرض، أما الرابع فجلس على طرف المقعد ووضع رأسه بين ذراعيه في انكسار وخوف، يرتشف عبراته المتدلية في تتابع دون توقف فتكون بركة ماء مالح في بقعة أرض صغيرة بين قدميه المهتزتين في عصبية. ظلت تدور بعينيها نصف المغمضتين في ريبة من وجه لآخر، تتفرس بقوة وبنظرات ثاقبة وجوه مألوفة لأجساد قبعت أمامها خلف الأسوار الحديدية، دون أن تفلح حيلهم القديمة في منعها من الاستمرار وتقدمها نحو اكتشاف الحقيقة التي أتت بها إلى هنا وباتت أقرب إليها من حبل الوريد، أما هي فكان في نفسها شعور غريب، شعور يترنح بين جنبات قلب يشعر بثقة كبيرة في معرفتها بتلك الوجه المخبأة بعيدًا عن ناظريها، كالهاربة من التقاء نظرات حدقتي عينيها المحمرتين بفعل حرقة قلبها البريء.

فجأة تسارعت نبضات قلبها بسرعة وانتفاضة، فزفر صدرها زفرة قوية واتسعت عيناها بنظرة حنق أمامها تطايرت منهما على إثرها نظرات شرر متلاحقة، في حين كانت تقترب من القضبان الحديدية ببطء وتقبض بكفيها على إحدى أعمدتها العالية إلى عنان السماء وتتنقل من واحد تلو الآخر، ثم تدور بنظراتها على الأوجه الحبيسة خلف القضبان على بعد خطوات منها لا تفصلها عنهم إلا تلك الأعمدة المعدنية، ظلت تحدق وتحدق، تتفرس فيهم آلامها التي سكنت روحها وتركتها جثة هامدة من دون قلب، هي تستكشف كل واحد منهم والآخرون بدورهم يجاهدون أنفسهم في التخفي عن نظرات عينيها اللتين أيقنتا منذ الوهلة الأولى ماهية كل فرد منهم!

،الرسالة الرابعة،

انتهت المعركة!
فدعني ألملم ما تبقى من كبرياء امرأة.

"إلى عمر"
هكذا تمر الأيام ولا أجدك بجواري، عيد ميلادي الثلاثين ولم تكن أنت أحد المدعوين، بقايا امرأة، كنت أنا مع حطام قلب على شاطئ ذكريات بعيد وسط جزيرة مهجورة لا يصل إليها أي مخلوق، مع لفافة من صور وتذكار حب من قلب لم يدرك معنى الوفاء. شموع تنطفئ ودعوات بالسرور وعمر مديد ولكن كلها أكذوبة، نعم أكذوبة! فلم يعد للسعادة معنى يذكر بعد أن أخذت كل سنواتي معك، أجمل لحظاتي كانت بين يديك، ضحكاتي وآهاتي حتى دموعي الحارقة وتوسلاتي التي لم ترحمها من قلب أشقاه حبك يومًا، ويدان ترتجفان لمجرد ذكري لمساتك الحانية. "لن أراك بعد اليوم هذا مستحيل". جملة كانت تتردد في أصداء أذني وعقلي كالرعد في ليالي الشتاء القارصة، تزلزل كل كيان في داخل روحي المكسورة، فتدمع عيناي وتزرف آهات لتحرق ما بقي في قلبي من جروح هواك البائد. لن أتردد في أن أقول أنك حطمتني! لو كنت أدري أن حبك هو ندبة تتركها في قلبي وعلى قسمات وجهي الباكي كعجوز في أواخر ليالي خريف عمرها لما عرفتك، لو كنت أعرف أن هواك هو نار تحرق كل فراشة تقترب من لمعتها لما هويتك، لو كنت أعلم أن حبك هو كأس السم الذي تجرعته بيدي، لما عشقتك. ولكنني وللأسف أحببتك!

(أ)

رفع منديلًا ورقيًا إلى وجهه بعد أن سحبه من جيب بنطاله الجينز الطويل ليناسب طول قامته اليافعة، مسح به قطرات العرق المتصببة على جبينه العريض زامًا شفتيه اعتراضًا على حرارة الطقس وسخونة لهيب الشمس الحارقة، وعيناه تتلفتان في كل اتجاه يمينًا ويسارًا كالباحث عن شيء يفقده. مر بعض الوقت وهو يتفقد المارين من كل اتجاه، رفع يده اليسرى ونظر في ساعته، إنها الثانية والنصف ظهرًا ولم تأت بعد، كان ينتظرها في نفس الميدان الذي اعتاد رؤيتها فيه كل مرة ولكنها تأخرت على غير العادة، أخرج هاتفه المحمول من جيبه ونظر إلى شاشته، أحضر رقم هاتفها من سجل المكالمات وضغط على زر الاتصال ليرن صوت على الجهة الأخرى. ـ"ألو، أيوة يا عمر؟!" أجابت بكلمات مقتضبة فبادرها بقوله: "إيه يا ندى اتأخرتى ليه كل دا؟ أنا قلقت عليكي قولي لي فينك دلوقتي؟" فأجابته بسرعة لتهدئ من نوبة قلقه المعتادة: "خلاص أنا قربت أنزل من العربية، ثواني وأكون عندك". مرت ثوانيَ حتى وقفت السيارة على الجانب الآخر من الطريق، هبطت منها في تأنٍ ومنحت السائق بضع جنيهات ثم التقطت حقيبتها الجلدية وأخرى من قماش، نظرت إلى الجانب الآخر حيث كان واقف في الانتظار. اقتربت منه في تعجل، تهندم ملابسها البسيطة وتتفحص حجابها الرقيق، واقف كان في مكانه ينظر إليها بعينيه اللامعتين نظرة لطالما رأتها بمقلتين عشقتا طلتها الساحرة والمقترنة ببراءة مظهرها الطفولي وعذوبة أنوثتها، كرقراق ماء عذب يتدفق وسط جبال محملة بالطين والرمال، حسناء تتهدل في لباس فضفاض. كان ثابتًا في مكانه لا يتحرك قيد أنملة، يتفحصها بنظرة شوق تفضح خفقات قلبه المتيم، ويراقب خطواتها الهادئة في استحياء، بينما عقله المسحور يتعجب من جمالها الظاهر، لم يفسده حجابها المتهدل على كتفيها الصغيرين من أن يظهر محاسن طلتها البشوشة وشفافية نفسها البريئة

التي تجلت في قسمات وجهها الصبوح. دومًا ما كانت نظرته لها، نظرة شاب أحب فتاة وتمناها زوجة لأخر يوم بعمره، شابة تحمل كل ما تمنى وأكثر مما كانت تصبر إليه أحلامه، زوجة وحبيبة وأمًا لأولاده، تصون عرضه وتحمي شرفه وتكون زوجة بمعنى الكلمة. اقتربت منه تمشي في تهادٍ، تضاهي خفقات قلبها خطوات قدميها على البسيطة، وعلى وجهها اختبأت ابتسامة خضرة سعيت جاهدة أن تواريها عن عينيه دون أن تفلح بعد أن فضحتها حمرة الخجل التي ملأت وجنتيها الناعمتين وعينيها الهاربتين بعيدًا عنه، تدرك خطورة وقع نظراته عليها أو أن تتلاقيا معًا، فهي دومًا تدرك قدر الوهن الذي يتمكلها أمام طلة عينيه الوالهتين. ـ" أنا آسفة اتأخرت عليك، بس المقابلة طولت أوى عن ميعادها وأنا كنت أخر واحدة في الإنترفيو!" نظر إليها بينما وضعت يديها على وجنتيها من الخجل الذي تزامن مع حرارة الطقس وسخونة الهواء، فبادرها بابتسامة وديعة وقال: "ولا يهمك، المهم عندي إني شفتك بعد كل الفترة دي!" لم تتمكن من النظر إلى عينيه مباشرة فقالت بسرعة وبنبرة صوت مضطربة لتتحرر من الموقف، بعد أن تنحنحت قليلًا وابتلعت ريقها الهارب: "طب، أحنا هنفضل واقفين كدا كتير؟ ممكن نتمشى أو نقعد في أي مكان؟" أومأ برأسه موافقًا، أشار بيده إلى الأمام طالبًا منها أن تتقدم بخطواتها أمامه، في حين انكفأت برأسها إلى الأسفل تواري خجلها المتجلي عبر نظراتها الباسمة، تسير بخطواتها المتأنية على الجانب الآخر من الطريق وعلى يسارها تلألأت مياه نهر النيل كأنما تداعب أنفاسها الهائمة وتلاطف قلبها المرفرف مع طيور الغرام . لا زالت تتقدمه وهو في الخلف مع نظراته المراقبة، ومشاعر بينة تملكت منه بعد معرفتهما منذ ثلاث سنوات، مشاعر مرهفة لشابين في مقتبل العمر لم تمنعها الظروف المادية أو بعد المكان من إشعال فتيل صغير من نار متقدة! ظلا يسيران هكذا، لا يستطيعان الاقتراب أو أن يلتفت أحدهما إلى الآخر، فمثل تلك الأمور لا تفهم في مدينتهم الساحلية، ومحافظة تبعد عن تحرر القاهريين وانفتاح شباب الإسكندرية، وعلاقات الصداقة والتعارف ليس لها معنى حتى الآن في تلك المدينة المحافظة على تقاليدها الموروثة. يسيران وفي نفس كل منهما

أمنية تجول في خاطره، يجيش بها صدره، ويطمح لها قلبه، آه لو تتحقق! آه لو يصبح زوجها وتسير معه أمام كل الناس، ليعرف الجميع ذاك الشاب العاشق الذي اختارته زوجًا لها، تحسدها عليه كل صديقاتها لشبابه الطاغي وطلته الخاطفة للأعين، آه لو تصبح زوجته ويشبك أصابعه بيديها الصغيرتين، يتباهى بجمالها وأناقتها الطاغية ويفتخر بأدبها وأخلاقها، يقبل يديها أمام كل المارين بدون خوف أو رهبة. أخيرًا وصلا إلى حديقة عامة وجلس كل منهما قبالة الآخر في سكون، فالاقتراب ممنوع، بل هي رهبة اقتراب العاشق بمن يحب، اقتراب قد يُودِي بحريق لا يعلم عقباه، فالهوى كالشمعة إن تُركت مشتعلة بدون أن تُراقب لأحرقت محبيها. رغم تباعد الأجساد وتنائي الأبدان، رغم الصمت الذي حل ضيفًا ثقيلًا في جلسة محبين ليصير عازل من الفرقة والشطط، رغم تكالب الظروف معلنة حربًا نفسية على القلوب الفتية، بيد أن كل ذلك لم يمنع نظرات الأعين الشغفة من الاتصال، ولم يحد صمت الشفاه والألسن من همسات الأعين المنطلقة خارج محاجرها وتمتمة القلوب المتخاطبة وحرارة النار المستترة في أنفاس كل منهما. كانت عيناه مثبتتين فوق وجهها المتورد بحمرة الخجل، راقبها بنظرات ولهة وفي نفسه يتمنى أن يدنو ولو قليل، بينما زاغت بنظراتها بعيدًا عنها، ترفرف أهدابها الكثيفة فوق جفنيها المرتعشين وتطلق أسهم من طرفها المسدل في حياء، خوف من أن يقبض عليها متلبسة بجنون حبه الراقد فيهما . كيف الخلاص من حالة الصمت تلك؟ خاطب نفسه سرًا حتى أخد القرار بالبدء في الحديث وقال بصوتٍ حليم ناظرًا نحوها في عشق: ـ "أنا مش مصدق إننا قاعدين مع بعض دلوقتي بعد كل الفترة دي، شهور لا عارف أشوفك ولا أقعد معاكي، أنا بكون محتاج أكلمك واحكي لك، وأحس بوجودك!" نظرت نحوه مبتسمة بعد أن أسرتها كلمات انطلقت من فمه فأصابت شغاف قلبها، رفعت حاجبيها في تأثر وأجابت بحنو صوتها المعتاد:

ـ"وأنا كمان مبسوطة أوى إني قابلتك النهاردة يا عمر!" صمت بعد قولها كأنما تفكر، وكيف لكلمات أن تبوح عن مكنون نفسها الغادقة بكل معنى للحب! فأردف وفي عينيه بشائر علامات الانكسار: ـ "بجد وحشتيني أوى وبتعذب في

بعدك، الظروف صعبة أنا عارف، بس مش بأيدي!" عاد لصمته مجددًا، وأطرق برأسه ناظرًا إلى موضع قدميه في تخاذل. انتقلت بهدوء للجلوس إلى جواره على المقعد الخشبي، وبشغف قلبها الذي أبى أن يلمح نظرة انكسار في عينيه، التفتت نحوه وقالت مسرعة لتخفف من وطأة ألمه النفسي، وبداخلها تتمنى لو تستطع أن تدنو منه ولو قليلًا أو أن تلامس أناملها أطراف أصابعه المطبقة فوق بعضها في قوة حد التفكك، فحال حياءها دون ذلك: "بلاش الكلام ده يا عمر، أنت عارف كويس إنت بالنسبة لي إيه، أنا مارتحتش لحد إلا ليك وقلبي ما اطمنش لأي شخص إلا أنت، ولا عيوني ارتاحت إلا يوم ما قابلتك يا عمر، أنا معاك وجمبك وهفضل جمبك طول العمر وعندي يقين بربنا وإيمان قوي إنك هتحقق نفسك في يوم من الأيام وبكرة هفكرك، بس الصبر يا عمر، الصبر!"

رفع رأسه بشرود ينظر إلى عينها مباشرة كأنما يبحث عن شيء غارق بداخلهما، يفتش عن إجابة لسؤال لم يعرف له تفسير منذ عرفها للوهلة الأولى، يغوص في بحر عيني أنثى تعرف كيف تروى ظمأ من تسمح له بالاقتراب من نهر حنانها الفياض وقوة روحها المستترة بضعف المرأة وحياءها.

ما زال ينظر إليها ويحدث نفسه: "هل توجد في هذا الزمان من تضحي بعمرها وأجمل سنوات شبابها من أجل رجل؟ ترفض الكثيرين غيره وتزيح عنها كل من حاول الاقتراب من دائرة قلبها الذي منحته إياه! تقف بجانبه دون أن يمنحها أي ضمانه لمستقبلٍ هو نفسه لا يعلم عنه شيء؟ إن كانت كذلك فمثلها عملة نادرة الوجود في زمن أغبر مثل زماننا هذا!"

تعلقت عيناها هي الأخرى بنظرات عينيه المثبتتين عليها، إنها توقن ما يجول بخاطره وتقرأ سطور أفكاره العابثة برأسه المستدير، ابتسمت تحاول العبث واستدارت قليلًا إلى الوراء، أمسكت بحقيبة من القماش كانت تحملها طوال الطريق، وضعتها أمامها على الكرسي في المسافة الفاصلة بينهما، وهتفت مازحة بينما تهز رأسها في دلال طفولي: "يلا بقا يا سى عمر أكيد إنت جعت، إيه رأيك ناكل مع بعض زي كل مرة إنت إيه مش وحشتك سندويتشاتى الخطيرة؟"

أخرجته نبرتها الطفولية من حالته البائسة، كان يدعي الابتسام بينما نظرات

القهر ما تزال تتربع بقوة داخل عينيه المنكسرتين وقال بهدوء:
ـ" طبعا وحشتيني يا نؤنؤ، هو فيه أحلى من ساندويتشاتك!"
"نؤنؤ!" كم تحب أن يناديها باسم دلالها الذي اصطنعه لها وأطلقه عليها من بين كل الأسماء الأخرى، فهل تمنعه من اختيار اسم دلال تافه وهو الذي امتلك نفسها المحبة وصار له الأمر والنهي على شغاف قلبها المتعلق به! قالت في حماستها المعتادة:
ـ" طب يلا افتح الشنطة وشوف فيها ايه!" أخذت الحقيبة واضعةً إياها فوق ساقيه، مد يده يفتحها بهدوء ناظرًا إليها في امتنان، أخرج منها كيسًا بلاستيكيًا يحمل بعض شطائر الخبز وتفحصها بين يديه وقد علت وجهه ابتسامة كبيرة ثم عاد بنظره إلى الحقيبة مجددًا، توقف فجأة بعد أن أخرج يده من الحقيبة حاملةً صندوقًا من الورق المقوى، أعاد النظر إليها في دهشة حيث جلست في مواجهته على الطرف الآخر من المقعد ثم عاد ينظر للصندوق، فتح الصندوق ليجد بداخله علبة أخرى، علبة صغيرة مغطاة بقطعة قماش حريري لونه أسود عقدت بشريط من الستان الأحمر على شكل فراشة، ونظر إليها في تساؤل رغم علامات الإنكار المصطنعة على وجهها: "إيه دا يا ندى؟ هو دا الأكل!" قالت في تجاهل لنظراته المتسائلة دون أن تبدي أي انطباع: "طب افتحها كدا؟"
وضع العلبة فوق راحته المبسوطة والأخرى فوقها يحاول فتحها، تابعت الموقف في سرور تَرقُبُ نظراته المثبتة فوق العلبة كأنما تتأهب لفتح صندوق سحري.
ما هذا؟ نظر إليها في دهشة بعد أن اتسعت عيناه وتجلت ابتسامته الرقيقة حتى وارت خلفها نظرات من اليأس والحزن، لا يصدق ما يراه، إنها الساعة ذاتها التي تمنى اقتناءها منذ فترة! يا لها من إنسانية وفية! لم تنس ذلك اليوم عندما رأياها معًا حينما كانا يسيران كالغرباء في إحدى الأسواق ونظر إليها بإعجاب لتتلقط تلك النظرة وتسجلها بذاكرتها حتى تعود بها إليه في ذلك اليوم!
التفت إليها في حيرة وعلت وجهه إشراقة:
ـ "ياه لسه فاكرة يا ندى، دى الساعة اللي احنا شفناها مع بعض وعجبتني".
ـ" طبعا! وهو حضرتك فاكر إيه يا حضرة المحاسب المبجل؟"

هتفت في نبرة دلال غمست بالفخر، ليس الفخر لتذكرها هدية تمناها فاقتنتها له حبًا، ولكن هو ذاك الفخر بحبه الراقد داخل قلبها القوي، فالقوة تمنح للقلوب حينما يسكنها حب من يعوضها مرارة الانتظار ويغرس بداخلها بذور الأمل والسعادة.

تابعت بعد أن عاودتها نبرتها الرقيقة:

ـ "فاكر إني ممكن أنسى أي حاجة تخصك! أنا أحفظ كل لمحة من عيونك وكل كلمة محبوسة جواها وكل فكرة بتدور في عقلك ده (أشارت بسبابتها نحو رأسها) حتى عدد الأنفاس اللي بتتنفسها وعدد دقات قلبك أناحفظاها وعداها (أشارت في تأثر لمع بنظراتها نحو قلبها) عارف ليه؟ لأنها ملكي زي ما أنا ملكها!" همس بصوت خفيض يشوبه التأثر ناظرًا لعينيها بتركيز شديد "بس انتى كلفتي نفسك أوى". فأجابته بحزم:

ـ "هسسسسسس ولا كلمة". عادت تغمز بعينها وقالت: "بس بص كدا يمكن فيه حاجة تانية موجودة جوا الصندوق!" وضعت يدها داخل الصندوق فأخرجتها بصحبة مفكرة صغيرة، لوت شفتيها في تعجب وقالت: "ايه دى كمان؟ دى مفكرة شكلها غريب أوى، الظاهر انى نسيتها في العلبة!" سحبها من يدها فاتحًا إياها بهدوء، قلب صفحاتها الصغيرة بين كفيه وفتح أولى صفحاتها ليجد إهداء بخط يدها: "قصائد من القلب، أهديها لمن أحب". علامات التساؤل داعبت وجهه عاقدًا حاجبيه في دهشة، انفرج ثغره بغتة عن بشاشة حزينة بينما كانت تطالعة باسمة في فرح، لقد استطاعت أن ترسم البسمة مجددًا فوق وجهه وتزيح بعضًا من غبار هموم دنياه المتمكنة من قلبه البائس، شاب أخذت منه الدنيا الكثير وقلما منحته لحظات من سرور. ـ"دى كلمات أنا كتبتها بنفسي، لأول مرة أكتب كلمات شعر في حياتي كتبتها لك أنت وبس".

كانت تنظر إليه في دلال المراهقات، تتغنى بحبه وتسرح في عينيه، في حين أطال النظر إليها في هدوء إلى أن أطلق نفسًا عميقًا وقال في عذوبة: "بس أنا ماكنتش أعرف إنك بتعرفي تكتبي؟" أشاحت برأسها إلى اليسار في خجل مشبكة أصابع يدها وتنهدت بقوة وقالت: "ولا أنا كنت فاكرة إني ممكن أكتب

في يوم من الأيام، بس فاكر يوم الفلانتين لما كنت مسافر القاهرة وأنا كنت قاعدة لوحدي ومضايقة أننا مقدرناش نكون مع بعض؟" تأثرت مشاعرها وهي تتذكر تلك الليلة الباردة التي قضتها وحيدة كعادتها، جاش صدرها بحنين امتزج بحزن دفين مع حركات أنفاسها المتوالية بسبب دقات قلبها الرقيق، ترقرقت من عينيها بضع دمعات اندفعت في تتابع على وجنتيها الدافئتين كعقد ألماس انفرط بغتة على أرض ناعمة وتلألأت حباته الصغيرة مع انعكاس خيط شمس المغيب، شفتاها الورديتان ترتعشان على إثر نبضات القلب ناظرة إليه في حنين استطردت: "كنت حزينة أوى يا عمر إني مش قادرة أكون معاك زي كل اتنين مخطوبين أو متجوزين بيحتفلوا بعلاقتهم قدام ربنا وقدام الناس، مش قادرة أستناك زي أي بنت في شباك اوضتى وأنت جاي وجايب لي معاك ورد أحمر وهدية جميلة وكوفية حمرا تحطها حوالين رقبتي وتبوس إيدى وتقولي كل سنة وإنتي طيبة، كل سنة وإنتى حبيبتي، كل سنة وإنتي خطيبتي ومراتي وأم أولادي!" انحشر الصوت داخل حنجرتها يأبى الخروج بفعل مشاعرها الجياشة، حاولت معه أن تتنفس بعضًا من نسمات الهواء وتمنح نفسها القوة حتى تتابع ما فاض به قلبها من مشاعر. -"يومها ماجاليش نوم وفضلت سهرانة وأنا في سريري، كنت عاوزة أقولك كلام كتير، أقولك ماتزعلش إننا بعاد عن بعض، بكرة أكيد هييجى يوم وربنا هيجمعنا فيه". وقتها فقط كانت عيناه تحتضناها بشغف لتهدأ من نوبة بكائها، عوضًا عن ذراعيه اللذين عجزا عن فعل ذلك، تمنى لو يحتضنها بقوة، يعتصر آلامها داخل قلبه ويريحها من عذابات روحها البريئة، أجابها وأمال رأسه نحوها بطفولية مداعبًا إياها: "بس أنا مش هقرأها، عاوز أسمعها بصوتك الرقيق الحنين اللي بيلمس قلبي قبل مابيدخل ودانى!" مد يده بحنان ومنحها المفكرة، أطالت إليه النظر لبضع لحظات ثم ابتسمت ابتسامة انفرجت لها شفتاها اللتان لمعتا قليلًا، مدت يدها بهدوء وحملتها بيدها اليمنى وهي تنظر إليه وتجفف دموعها باليد الأخرى. تناولت المفكرة بين راحتيها، فتحتها على أولى صفحاتها وشرعت في القراءة بهدوء، تختلس نظرة لعينيه بين الحين والآخر.

"حبيبي لا تحزن، حبيبي لا تحزن، إن مر علينا عيد الحب ولم تتلاقا عينانا
فسيأتي يوم يا عمري، يروى فيه الزمان أجمل قصة قلبانا
ويسطر في صفحات العمر، أسعد أيام ذكريات هوانا
ونقول لكل العالم هنيئًا لكم بعيدكم، فعيد الحب لدينا ليس بساعات، بل كل يوم تذوب فيه روحانا". سكتت برهة ونظرت إليه في تأثر، في حين أومأ برأسه يتوسل إليها بنظرات تفيض بالهيام أن تتابع القراءة، فاستسلمت لطلبه في رضا واستطردت:
"فالحب ليس بنظرة أعين، بل أرواح تتشابك عبر الزمان
فبضع الساعات ليس بكل العمر، ونهاية حب ليس بورد وعطر وفستان
سأظل على عهدي لقلبك، ليوم يجمعنا فيه الزمان معًا
سأظل أحلم بلحظة شوق، تترأى فيه عينانا
وتلامس يداي خطوط وجهك، وأقرأ في عينيك صمت الكلام
وتردد أجمل كلمات الحب، وأذوب في هواك من فرط الحنان
ونظل نروي أجمل لحظات العمر، وسيشهد حبنا الأهل والخلان
ويمر ربيع العمر ونحن سويًا، ونجلس معًا نتبادل أجمل ذكرانا
فيا حبيبي أما زلت حزين؟!
وأجمل القلوب أنت ملكته
وأطهر النفوس سحرت لأجل رضاك!
فلا تحزن يا عمري،
فأجمل أيامى يوم التقت عيناي عينيك، وعيد حبي هو كل يوم تشرق فيه شمسي وأنت نورها، وهو كل لحظة تسمعني فيها همس أروع كلمات هواك، فيا حبيبي لا تحزن".
تاهت الكلمات على شفاه كلاهما، فذابت المشاعر في عذوبة ورقة ما بين صمت العيون وصرخات القلوب، ساد سكون بينهما للحظات وهما يتبادلان النظرات في هدوء، ظل يتفحصها وكأنما يراها لأول مرة، هو حتمًا يحبها ولكن لا يصدق أن جليسته هي حورية أتت إليه من عالم آخر لتسحره، لتلفظه بنعومة خارج

عالمه المقيت، وتهبط به فوق سطح القمر. لم ترد أن تقطع عليه خلوته وصمته فبادرته بابتسامة هادئة وعينيها تلمعان بالدموع، بينما انطلقت كلمة واحدة من بين شفتيه المطبقتين لتجرح هذا الصمت الساحر: "بحبـــــك".

*****

شعر بالإرهاق يتسلل خلسة إلى جسده المتصلب على الكرسي المبطن خلف المكتب الكبير ورأسه المنكفئة أمامه تطالع الورقات المفترشة في تسلسل ممتع جذبه بشدة ليجعله يقضي كل الوقت في قراءتها، عساه أن يجد بين سطورها شيئًا عن صاحبها، ولكنه لم يتمكن من معرفة أي شيء إلا درجة تيقنه برغبة ملحة نشبت داخل صدره المستكين تحثه على الاستمرار دون توقف.
فكر في مغادرة المكان والعودة مرة أخرى فيما بعد لاستئناف القراءة، أغمض عينه لبضع لحظات واعتصرهما داخل جفنيه المرهقين وذراعاه المستندتان على سطح المكتب الخشبي ممسدًا رأسه البيضاوي عبر خصلات شعره الناعم والمتطاير مع نسمات الهواء، نظر لساعة يده فوجدها قد تجاوزت السادسة مساءً، سوف ينصرف ويعود مرة أخرى، فهناك الكثير من الأمور يتوجب عليه إنهاءها، حادث نفسه بينما كان يهم بالوقوف، ومد يده بتكاسل يغلق ملف الأوراق، ولكن ما هذا الخطاب؟ نظر نحو موضع قدميه ليجد ورقة مطوية اختبأت داخل ظرف صغير، انحرفت خارج صفوف الأوراق ثم سقطت إلى الأسفل بعد أن هبت نسمة هواء عبر النافذة الكبيرة فهوت بها إلى الأرض.
نظر نحو موضعها بالأسفل، هبط بجسده ومد يده يلتقطها ببطء ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى، وضع الظرف بين يديه وسحب الورقة من داخلها ثم فتحها بفضول وعيناه تبحثان عن شيء جديد.
"إن كنت تقرأ كلماتي الآن فها أنت قد عدت، لم أفكر يومًا في كتابة وصية،
ولكن وصيتي الوحيدة لك بُنّي هي إغاثة قطرة الندى، فابحث عنها، وانشر الكتاب
فعسي أن تروي قطراتها العذبة روحك الهائمة وقلبك المهاجر، وتذكر دائمًا، لا تفوّت لحظات السعادة، فربما تعود يومًا ولا تجدها مثل أشياء جميلة نفقدها

ولا تعود!
مع صادق حبي وتمنياتي بحياة سعيدة، والدك".
عبس قليلًا وهو يقرأ كلمات خطت بيد والده، إنه يعلم طريقة كتابته اليدوية وكلماته المقتضبة التي تحمل بين طياتها معاني كثيرة.
ظل يفكر في وسيلة لفك شفرة رسالته، ابحث عنها؟! أنا لا أفهم شيئًا! ومن تكون قطرة الندى تلك؟ وما هذا الكتاب الذي يتحدث عنه؟ مهلًا، ولكن هل هناك علاقة بين قطرة الندى و...
توقف عن الكلام بعد أن سمع صوت ينبعث من الخارج، صوت أقدام يجوب الصالة الخارجية، هل يعقل أن يكون قد نسي إغلاق باب الشقة منذ حضوره من أربع ساعات؟! وقبل أن يهم بالخروج سمع طرقات أخرى على باب حجرة المكتب، ترى من؟

(٢)

الحب، وما أدراك ما الحب! تلك الكلمة التي أشقت أنفس العاشقين في كل العصور، حيرت أعظم العلماء والفلاسفة، وأنهكت عقول جهابزة العلم والفن والجمال على مدار أجيال وقرون.

"الحب"! ذلك اللص الخفي الذي يسرح في كل الأرجاء بحثًا عن ضحايا جدد، يسحر الأعين ويداعب الإحساس ويلعب بجنبات الروح وضعفها، يتسلل في غفلة عن العقول ويجابه القلوب بقوته الآسرة وترقرقه العذب ليستقر داخل سكنات القلب الخاوية ويعشش في روحه ووجدانه، فيمتلك كل ذرة منه وكأنه يمتلكها حقًا مشروعًا، يسرح ويمرح في جوانب الروح الهائمة، يجعلها أسيرة للذته المشروعة وعذاباته الحلال، فيغدو كل شيء جميل في أعين المحبين، وتصطبغ الدنيا بألوان الربيع، ويسري الدفء في الأوصال، ويصبح الغد لوحة جميلة ترسم بفرشاة قلب المحب وهواه المتيم بلقاء يجمعه بمن يحب.

كلمة من حرفين اثنين فقط قادرين على خلق عالم بأسره يتشكل بكل ملامح السعادة والتفاؤل، مثلما يبحث كل من الشريكين عن شريكه الآخر، يفتش عنه في أركان دنياه الواسعة ويلهث عندما يراه أو يلمحه، حينها فقط ينجذب الطرفان بفعل مغناطيسيته الساحرة ليتشبث كل منهما بالآخر ويرى من خلاله نعيم الدنيا وجمالها.

كانت توقن أنه يحبها، تلك المشاعر التي تتملكها عندما تراه أو تسمع صوته، نظراته الفياضة بكل معاني الشغف والود، أفعاله التي تزيد مكانته لديها كل يوم عن الآخر وكلماته المدللة لها ليل نهار، يعبر من خلالها عن حبه الجارف لرقة قلبها الحنون وعذوبة عاطفتها الطفولية، أنوثتها الطاهرة ودلالها العفيف، هي أيضًا كانت تبادله المشاعر وكيف لا تستطيع، وهو فارسها الذي أتاها ينقذها من جفاء حياتها الباردة وأعاد إليها ثقتها في روحها الجميلة، روح كانت

مخبأة لسنوات عديدة بعيدًا عن أعين الرجال.
هي تريد الحب ولكنها تهابه، تخاف أن يأتيها ثم يهجرها في منتصف الطريق، تبتعد عن كل تجربة تشقيها آلامًا هي في غنى عنها، وقصص وحكايات الهجر والهلاك بعد القرب والمحبة.
تركته وعادت إلى المنزل، عادت بجسدها في حين تركت معه روحها التي تعلقت بروحه وفؤاد بات أسيرًا لرجولته الحانية وقلب كبير مليء بكل معنى العاطفة لمن يحب، عادت ومع عودتها كان ينتابها القلق الذي يتملكها في كل مرة تراه فيها، فمشاعر المحبة والتمني التي تحملها له لم يمنعان قلق شديد أن يتعاظم بداخلها، قلق يطاردها في كل هفوة حين تفكر في غدها الغامض ومستقبلها المبهم، تعرف أن التحدث معه خطأ وهو لم يرتبط بها بعد، فما بالك برؤيته حتى وإن كانت نظرات تلصص من بعيد أو أمام جموع من الناس وفي وضح النهار؟! ولكن هل كان للخوف يومًا سطوة أو نفوذ في أن يمنع المشاعر من أن تتدفق وتسري في قلوب المحبين، أو أن يوقف سلطة القلب على العقل؟! فلولا المخاطرة لما وجد الحب ولولا العذاب لما كانت لذة مذاق السعادة!
دلفت من باب العمارة الحديدي واضعةً يدها على طرف السلم تتشبث به في توترٍ ألهب جسدها حرارة وزاد من دقات قلبها عنفًا، ثم تنظر إلى أعلى نظرة قلقٍ معتادة بينما تستعيد أنفاس تحاول الهرب، صعدت درجات السلم، تسرع الخطى في قلق وأخرجت الهاتف من حقيبة يدها تتفحصه، فربما اتصل أحد من أسرتها ليطمئن عليها وهي بدورها لم تسمعه بفعل ضجيج السيارات أو بحق صخب قلبها الراقص مع دقاته المحتفلة لرؤية العزيز، وفي تلك الحالة سوف تبدأ نوبة القلق والشك المعهودين من الأب، وعلى وجه الخصوص الأم التي لن تتوانى أن تشرع في استجواباتها القاتلة، ستلاحقها بالأسئلة وتحاصرها بالنظرات الضارية حتى تسقط في النهاية ضحية لتفرساتها المعتادة وتغدو سجينة باكية تعترف بين يدي حارسها على جريمتها الشنعاء.
تنفست الهواء في ارتياح بعد أن رأت الهاتف ولم تجد أي رسالة أو اتصال، تابعت صعود درجات السلم إلى أن وصلت أمام باب الشقة ودقت الجرس. ـ " أتأخرتي

ليه كدا؟" أتى صوت والدها من حجرة الجلوس بعد أن رآها تدخل من باب المنزل وبجوارها والدتها التي فتحت لها الباب دون أن تتكلم وهو ينظر إليها في حزم، لم تستطع أن تنظر لعينه وتحدثه، تشعر بالذنب لمجرد التفكير في أنها تخون ثقته العظيمة. ـ "مفيش يا بابا بس الإنترفيو في الشركة اللي كنت بقدم فيها اتأخر شوية وبعدين اتمشيت لحد ما جيت"، أجابته باقتضاب، إنها حتمًا تتهرب من لقاء عينيها بنظراته المعاتبة والمتسائلة في آن واحد، حملت حقيبتها ودلفت إلى غرفتها مسرعة تتحجج بتبديل ثيابها، دخلت وأغلقت الباب بسرعة وما هي إلا دقائق حتى أتت والدتها لتفتح الباب عليها وتصفعه من خلفها هي الأخرى، تواريه بجسدها المكتنز ومن خلفها عقدت ذراعيها واتكأت عليه بقوة كأنما تغلق باب من شكوك تجول بسريرتها تدري أنها ستسمعها بعد قليل، بينما تنظر إليها بحزم كأنما تقرأ أفكارها التي جاهدت في أن تواريها بعيدًا عنها . ـ"ماتقوليش إنك كنتي كل ده في الإنترفيو؟" ثم استطرت بلهجة أكثر حدة: ـ "انتى شوفتي عمر؟"

نظرت إليها في ذهول وارتباك يسيطر عليها، ابتلعت ريقها بصعوبة وزاغت نظراتها نحو الأم، فهي حتمًا قد أيقنت وبمهارة فائقة صدق تخميناتها، فبادرتها وهي تنظر إلى عينيها في ثبات نظرة تحمل لوم وتأنيب شديدين: "أنا عارفة إنك مش هتقدرى تخبى عليا ولا تكدبى!" توجهت وجلست بجوارها على الفراش تنتظر إجابتها المتوقعة. بعد لحظة من السكوت نفثت هواءً مرتعشًا وردت عليها في تلعثم، وبنبرة صوت متهدجة نظرت أمامها دون أن تلتقي عيناها بعيني والدتها المحدقتين بها وقالت: "بصراحة أيوة يا ماما شفته، وإنتى عارفة إني مش بعرف أكدب، بس فعلا الإنترفيو اتأخر أوى وأنا كنت أخر المتقدمين للمقابلة فعشان كدا طولنا شوية".

صمتت لبرهة في تردد ثم تابعت بصوت أكثر انخفاضًا وذبول: "وعمر يا دوب شفته ربع ساعة بس!"

مالت الأم برأسها قليلًا مشبكة ذراعيها ببعضهما البعض تحاول إخفاء غيظها المكتوم، مجاهدة في أن تتمالك رباطة جأشها، تنظر إلى ابنتها التي أسدلت

رأسها في خضوع وخذلان ثم قالت مؤنبة: "طب وأخرتها يا ندى اللي بيحصل ده؟ انتى شايفة أن ده طبيعي يحصل من بنت محترمة زيك؟ ولا ثقتنا اللي ادينهالك تخونيها بالطريقة دى؟!"
لا تفتأ الأم أن تطلق كلماتها كالسهام المنطلقة من جعبتها لترشقها في قلبها المنكسر أمام عينيها المليئتين بالاتهامات، وفي كل مرة تسألها عنه لتهاجمها بوابل من الاستفسارات والشكوك المتعددة بينما تتسمر بدورها دون أن تفلح في الرد أو المناقشة، فجزء منه صحيح ولن تستطيع أن تلوم الأخرى على قلقها الشديد، إنها تريد أن تطمئن عليها مع زوج يتقي الله فيها ويكون لها عونًا على دينها وسندًا لها بعدما ينصرف عنها محبيها ويأخذ الحق حقه.
ولكن ماذا عساها أن تفعل؟ هل تستطيع أن تنساه بسهولة وهو الذي منح لحياتها معنى جميل شعرت معه بالأنس والسعادة بعد أن كانت مظلمة توشك على الانهيار! هل تقدر على تركه وحيدًا وسط الطريق بعد أن قطعت على نفسها عهدًا ومنحته وعدًا ألا تتركه مهما كلف الأمر؟ ستظل إلى جواره تشد من أزره حتى يحقق كل ما يصبو إليه، وتردد له دومًا أن الإيمان بالله والعزيمة القوية وحدهما قادران على إنتاج المستحيل في حين يبتسم ويفرح حين يرنو إلى كلمات الأمل والتفاؤل المنطلقة من بين شفتيها الدافئتين.
ـ"مش بتردي عليا ليه يا ندى؟" نظرت ندى إلى والدتها بضعف شديد، انزلقت من مقلتيها دموع لتعبر عن الانكسار والتشتت الذي يحاصرها ما بين مشاعرها وحنينيها إليه وحديث والدتها الذي ينم عن العقل. ـ "غصب عني يا ماما، أنا آسفة بجد". ثم انصرفت بنظراتها إلى الأسفل يطغى الخجل والندم على ملامحها ويغلفا نفسها المؤنبة، إلى أن فوجئت بيد والدتها تجذبها إليها لتستقر في أحضانها، وتسكب في أذنيها كلماتها الحانية: ـ "تفتكري أنا بقولك كدا عشان أحب أزعلك أو أشوفك بتعيطي؟ أنا أمك يا ندى وبخاف عليكى يا حبيبتي، إنتي حتة مني ومن قلبي، إنتي عمري كله يا ندى".
ـ"سامحينى يا ماما غصب عني بتمنى اشوفه ولو ثواني، بس أوعدك هتكون أخر مرة أشوفه لحد ماييجى ويتقدم لي قدام كل الناس!"

دفنت رأسها بين ذراعي والدتها بعد أن لفظت كلماتها، ثم انخرطت في البكاء مستأنفة الحديث: "وصدقيني يا ماما عمري ما هخليكم تخجلوا من أي تصرف هعمله أو أخون ثقتكم فيا". انتهى الحديث على ذلك بعد أن هدأت من ثورة بكائها، طمأنتها واحتضنت مشاعرها المتخبطة وأفكارها المتهاوية على عقلها المنهك، جففت دموعها الحارة وأطفأت لهيب صدرها بدعوات صادقة، ثم تركتها لتبدل ثيابها وترتاح قليلًا حتى تفرغ من تجهيز طعام الغذاء، ولكن كيف السبيل للراحة في صراع إنساني أبدي قائم ما بين القلب والعقل؟!

*****

(٣)

لم ينته الحفل الساهر، سيظل مقام حتى الساعات الأولى من النهار، ولكنها اضطرت آسفة للعودة إلى المنزل، فالتأخر عن العاشرة مساء أمرًا مرفوضًا، فما من داعٍ لإثارة قلق والديها أو يصل الأمر بمنعها من الخروج لمثل تلك المناسبات مرة أخرى.

عادت لتوها إلى المنزل وهمت بالتوجه إلى غرفتها لتترك الأم بعد أن توالت أسئلتها المعتادة إليها عن الحفل والحضور، كيف بدا العروسان؟ وكيف كانت فقرات الحفل وغيرها من الأسئلة التي حفظتها عن ظهر قلب.

انطلقت إلى باب غرفتها وفتحته، تتمايل بفعل النصب الذي أصابها، طرقته خلفها بإهمال واتجهت إلى الفراش بخطوات متثاقلة، وبدون ترتيب مسبق خلعت حذاءها الذهبي ذا الكعب العالي، تبعته بخلع فستانها القرمزي المصنوع من القماش الرقيق والمتهدل على جسدها المتعب، مدت يدها إلى رأسها وألقت عنها حجابها جانبًا، وأخيرًا رمت بنفسها بإهمال غير عابئة على الفراش.

ربما عادت إلى المنزل ولكن خاطرتها ما زالت متعلقة بمشهد الحفل الذي كانت إحدى مدعويه، محدقة كانت بسقف الغرفة، تداعب عيناها السوداوان خيمة ظلام دقت أوتادها فوق المكان بأكمله فأحالته لقطعة حالكة كأنما سقطت سهوًا من الفضاء الدامس، اللهم إلا بعض الخيوط الضوئية التي تسربت خلسة معترضة على عتمة الليل من خصاص النافذة الخشبية القائمة على جانب الفراش الأيسر وقد فتحت ضفتيها الزجاجيتين على مصرعيها فتسلل منها شعاع ضوء آخر تسلط بقوته النافذة على وجهها الهائم وعينيها اللامعتين بفعل ذكريات ليلتها الحالمة، مرت لحظات تبعتها دقائق ودقائق أخرى، ما تفتأ تفتح عينيها حتى تتذكر حفل عرس صديقتها ليلى، تسترجع بذاكرتها كل نظرة التقطت فيها عيناها مشهد العروسان وهما ينفذان معًا من باب القاعة الرئيسية، كل منهما

يتأبط ذراع الآخر في سرور وكل رقصة جمعتهما معًا وتبادلا فيها الضحكات والأحضان، كل أمنية تمنتها أن تكون هي العروس وبجوارها من تحب، إن كانت قد أمكنتها رباطة جأشها وروحها المصابرة كل تلك الفترة أن تلجم عبراتها المحتبسة داخل مقلتيها الكاحلتين ومنعتها من الظهور للعلن، فإنها الآن سوف تمنحها الحرية المطلقة لتنهمر كجيوش جرارة انتظرت لساعات لحظة الهجوم، وحدها تلك الغرفة بجدرانها العالية وظلمتها الدائمة وفراشها الوثير بوسائده الناعمة جميعهم شهود على آهاتها التي تكتمها عن العالمين، لتأتي أخر الليل وتطلقها مع أنفاس تنفثها من قلبها الموجوع وصدرها المثقل بكل معاني الألم لفتاة ليس بيدها حيلة سوى الصبر والصبر وأخيرًا الصبر!

كيف لها أن تنسى وصيته! طغت لحظات التأثر عليها حتى أنستها أمرًا هامًا، لم تبعث له برسالة تطمئنه كعادتها على وصولها إلى المنزل بسلام، بيد إنه الآخر لم يخاطبها برسالة أو يهتم كعادته مؤخرًا، فقد اعتاد الثقة بها، أو ربما لعلمه أنها حتمًا ستبعث له برسالتها المطمئنة حين تواتيها الفرصة بذلك.

لحظة من الاشتياق أطلت عليها مع طيفه الحنون، فشعرت برغبة لحوحة لمحادثته في تلك اللحظة، وكيف تفر منه وإليه تلجأ وكيف تنساه وبرفقته السكنة! دومًا ما كان ملاذها الذي تفر إليه حينما تزورها أوقات الوحدة والغربة، ليسرع إليها ويلملم بكلماته المواسية وهدوئه المطمئن حين يستمع لحديثها كل شتات في روحها الضعيفة ونفسها الحزينة، ليداوي بكلمة واحدة أي جرح يجد بروحها الوحيدة.

التفت تبحث عن حقيبتها الملقاة بجوارها على الفراش، دست يدها وأخرجت الهاتف ونظرت لشاشته، دقت رقمه بعد ثوانٍ: "رجعتي أمتى يا حبيبتي؟ قلقت عليكى اوى!" قالها في قلق.

ـ"لسه جاية من شوية يا عمر". كيف لها أن تخفي معاني الشجن المتأصلة بصوتها المكتوم! فانطلق متقطعًا بنبرة متهدجة لقوة شعورها الدفين بالألم ودموعها المقطرة على شفتيها المبللتين.

ـ "ندى، انتي بتعيطي؟" خاطبها متسائلًا إياها في حين آثرت الصمت لثوانٍ،

عساها تتمالك نفسها حتى تتمكن من استكمال الحديث، ولكن بائت محاولتها بالفشل لتعود وتقول بصوت مختنق: "أنا مخنوقة أوى يا عمر، تعبانة بجد!"
عاد يسألها في قلق شديد ولكن بصوت حنون: "مالك بس يا حبيبتي، احكي لي حصل حاجة أو حد ضايقك في الفرح؟"
كانت الدموع تتمازج مع الكلمات لتمنحه معنى بإنهيارها، فقالت بكلمات متقطعة: "أول ما شفت منظر العروسة والعريس وهما داخلين القاعة، ولمحت ليلى وهي لابسة الفستان الأبيض زي الأميرة، وجمبها حبيبها ماسكة في دراعه والناس كلها بتبص عليهم وعيونهم بتلمع بالفرح..." ما استطاعت أن تكمل الحديث، فانحشرت الكلمات داخل حلقها، ولكنه تابعها متسائلًا:
ـ "ها وبعدين؟" استطردت في تأثر شديد: ـ "ماقدرتش أمسك نفسي يا عمر، تخيلت إن أنا وأنت اللي مكانهم في يوم فرحنا، فعلا محتاجة لك أوى، محتاجة أكون جمبك على طول ونبدأ حياتنا مع بعض، نفسي أفرح وأحس إني عروسة زي كل البنات، نفسي ألاقيك جمبي في كل الأوقات مش وقت ما أكون محتاجة لك بس، نفسي تكون أبو أولادي ونعيش حياتنا في سعادة مع بعض!" لامست كلماتها مشاعره فحاول تهدئتها ببعض الكلمات المواسية وقال:
ـ "ياه يا ندى، كل دا يا حبيبتي عشان بس حضرتي فرح وشفتي العروسة مشبكة ايديها في إيدين العريس؟ بكرة هنفرح مع بعض زي ما احنا عاوزين وهنكون أجمل عرسان في الدنيا وهعملك أجمل فرح نفضل نفتكره طول حياتنا ونحكيه لأحفادنا".
من أين له بتلك القوة الكامنة داخل كلماته؟ أو ذلك الدواء الذي يمنحها إياه لكل داء ينهش من قلبها ونفسها الطيبة؟ حقًا إنه الشخص الوحيد في العالم والقادر على أن يبعث بقلبها الراحة، تلك طمأنينة ما استطاع غيره أن يمنحها إياها بنظرة رقيقة أو ابتسامة مطمئنة أو كلمة واحدة يشعرها بجواره لها، ليحول لحظتها من العبس والحزن إلى حالة من الفرح والابتسام، بمجرد أن سرحت بخيالها فرأت نفسها في ليلة العرس وهو بجوارها يطبق على كفها الرقيق حتى تتمازج دماءه الحارة بدمائها الحيية، ينظر إليها بنظرة صبابة وعلى

شفتيه ابتسامة تملأ شدقيه اللامعين وبعينيه سرور لم تره من قبل، كفارس نبيل يشهد معشوقته على ترانيم حبه الأسطوري في ساحة انتصاره بمعركة من أغوته يومًا بعشقها.
حتى عبر لحظاتها السارحة في بحر من الخيالات الجميلة لم تستطع أن ترى غيره يقبض على ذراعها بسعادة أو ينظر لها بوله المغرم في ليلة العمر، ولن يكون هناك دومًا رجل آخر يملأ الكيان الذي شغله بحنانه وعاطفته، إنه الرجل الذي أحبته وانتظرته سنوات حتى يأتي ويكون بجوارها.
وببراءة أطفال قد تصل إلى حد السذاجة ضحكت بانشراح وهتفت بينما تمرر يدها على وجهها وتمسح دموع بللت كلًا من وجنتيها وشفتيها المحمرتين:
ـ "بجد يا عمر؟ يعنى هنفرح في اليوم ده زي كل الناس دى؟ بجد هييجى اليوم ونكون مع بعض على طول وتكون زوجي قدام ربنا والناس؟!" عاد يجيب بحماس وروح متفائلة: ـ "طبعا يا نؤنؤ كل شيء هيتعمل زي ما إنتي عاوزة، وصدقينى هعوضك عن كل دمعة نزلت من عينيكى وكل مرة زعلنا فيها واحنا بعاد عن بعض".

*****

(٤)

مر يومها كالعادة ليس فيه الجديد مثل باقي الأيام التي اعتادت على بطئها ومللها، حياتها كسلحفاة تتبختر في مشيتها حتى وإن انقلبت الدنيا من حولها وتحرك أناس وتزوج الآخرون، أنجب البعض وانفصل الآخر، ستظل الأيام كعادتها ولكن إلى متى لا تعرف! وحده عمر هو الشيء الوحيد الذي يشعرها أنه ما زال هناك في الدنيا بصيص أمل في السعادة.

كانت الشمس تميل إلى الغروب وتمد خيوطها الباهتة على شرفات المنازل والعمارات لتطبع نوعًا من السكينة والهدوء في الأجواء، حينها فقط جلست ندى على كرسيها الخشبي متكئة بظهرها إلى الخلف في استرخاء تطالع كتاب يحمل رواية رومانسية من روايات الأدب العالمي تارة أو تضع سماعات الهاتف في أذنيها لتستمع إلى بعض المحطات الإذاعية تارة أخرى أو تستند بذراعيها فوق سور الشرفة وتتفحص أحوال الجيران وتراقب حركات المارين في الشارع.

تلك كانت عادتها في أوقات الفراغ بعد قضاء بعض الأمور الخاصة بالمنزل، ظلت في خلوتها الخاصة التي دومًا ما أحبتها فترة دامت القرابة ساعة إلى أن سمعت صوت والدتها تهتف لها من الداخل أن تتوجه إليها لتخاطبها في أمر هام.

حملت ندى نفسها وانطلقت من باب الشرفة مارة بحجرتها الهادئة حتى دلفت إلى الصالة الكبيرة وتوجهت إلى حجرة المعيشة لتجد الأم ممددة على الأريكة وأمامها كوبان من الشاي الساخن اعتادت على شربه كل يوم في مثل ذلك الوقت بعد تناول طعام الغداء، جلست ندى على مقربة من والدتها بعد أن دعتها لتناول كوب الشاي الخاص بها وجلست كلتاهما ترتشفان من كوبيهما في تلذذ واستمتاع، مرت عليهما لحظات في سكون إلى أن ابتدأت الأم حديثها مع الأخرى لتفاجئها بأمر لم يكن الأول من نوعه ولن يكون الأخير، إنه عريس كالعادة!

ـ "عملتي ايه في الفرح، كان حلو؟" سألتها الأم في خبث متظاهرة عدم الاكتراث، فأجابتها ندى بصوتٍ مسترخٍ:
ـ "آه يا ماما كان حلو، بس مش حضرتك سألتيني وأنا حكيت لك عن كل التفاصيل؟" عادت الأم إلى الحديث تدعي نسيان الأمر:
ـ "أها فعلا تصدقي نسيت! بس قولي لي بقا، ما كنش فيه حد كدا أو كدا بيبص لك أو واخد باله منك؟" عقدت ندى حاجبيها في تعجب، لقد أدركت لتوها المغزى من وراء سؤال والدتها فعرفت ما يدور بخلدها وما ترمي إليه، ومن ثم ضحكت في استخفاف وهتفت: ـ "حد مين يا ماما اللي هياخد باله مني؟ تقصدي ايه ها يلا هاتى من الاخر يا بطتي!" ضحكت الست فاطمة ضحكة عالية وعادت بجسدها المكتنز إلى الوراء دون أن توقف ضحكاتها المدوية عبر الفراغ: "يا ربي منك يا بت انتى، على طول فقسانى كدا ومش سيبالى فرصة أعمل عليكى ألاعيبي هههههههههه" بادلتها ندى الضحكات وقالت مداعبة إياها:
ـ " اها قولي كد بقا يا ست ماما طبعا عريس كالعادة، ومين بقا حضرته المرة دى، دبلوم ولا سواق توك توك ولا حلاق حريمي؟!" اهتزت الأم من جديد عقب مزيد من الضحكات بعد أن أجبرتها كلماتها على الاستمرار بتلك النوبة لعدة ثوانٍ، مدت يدها تغمزها من وجنتها بعد أن أظهرت جانب من خفة ظلها المعتادة ثم قالت: ـ "لا يا فالحة، خريج معهد فني بس بيشتغل مهندس ديكور".
هتفت في سخرية وقد رفعت حاجبيها في استخفاف: مهندس ديكور مرة واحدة!" عادت ترخي صوتها الساخر، همهمت بينما تهز رأسها في استخفاف وتنظر صوب الأخرى: "تقصدي نقاش حضرتك قد الدنيا، لا بجد كل يوم في تقدم والله، يلا خليه ينضم لرابطة عرسان الحرف، تعرفي أنا ناقصني مين؟" وضعت الأم يدها فوق صدرها من فرط الضحك وهتفت متسائلة: ـ "مين يا أستاذة؟"
ـ "ناقصني السباك والفرارجى، تصدقي نفسي أجرب المهن دى حاجة لذيذة كدا وبنحتاجها والله!" وبحركة عصبية لطمت خديها بغضب امتزج بالسخرية وهتفت: "أنا عاوزة أعرف هو الشباب الطموح انقرضوا خلاص، مابقاش فيه غير الناس اللي ماعهاش شهادات عاوزة تتجوز اللي زينا، أمال راح فين المهندس

والدكتور والمحاسب ولا حتى المدرس اللي بيربي أجيال، دول بيتجوزوا منين من الهند؟" دار الحوار بينهما على هذا المنوال لفترة ليست بقصيرة وما لبث الأمر أن تحول إلى مزحة بين الطرفين، ربما شعورها بالراحة المسبقة، فكون العريس غير مناسب هو ما كان يجعلها تستخف بالأمر وهي تعلم في قرارة نفسها أن والدها يأبى أن يزوجها بشخص لا يعتبر كفء لها اجتماعيًا أو في التعليم والثقافة، إن ذلك يعد الشيء الوحيد الذي تعتبره ميزة في علاقتها بوالدها رغم صلابة شخصه وبعدها عنه بسبب قسوته. انتهى موضوع العريس وقوبل بالرفض كالعادة وكانت الحجة الدائمة من والدها إنه يريد لابنته زوجًا مثقفًا على قدر من العلم ويحمل وظيفة مرموقة لا تقل عن أفراد عائلتها المثقفة رغم بساطة أبنائها، إلا أن الأمر لن يمر عليها مرور الكرام ولن يترك عقلها ينعم بسكينته إلا بعد أن يشغله لفترة ليست بالهينة. هي وإن كانت تمزح مع والدتها عند التحدث في ذلك الأمر وبعينيها سرور ليس له مثيل إلا أنها كانت تشعر بالخوف من فكرة اقتراب أي عريس للتقدم لها، حتى وإن وجد من كان مناسبًا في الحالة الاجتماعية والعلم والعمل وفيه مواصفات تتمناها ويرتضيها لها الأب وتتقبلها الأم لابنتها، كيف السبيل في تلك الحالة؟ هل تستطيع أن تترك حب العمر وتلتفت ببساطة لتتزوج بشخص آخر لا تحمل له أي معنى من معاني الحب ولا حتى مشاعر بالألفة؟ هل بهذا سيكون الزواج صحيحًا أم زواج زائف أُسس على الكذب والخداع؟ دومًا كانت تزورها مثل تلك الخواطر والأفكار لتهرع في لحظتها تتوضأ وتصلي لربها وتتضرع بالبكاء والدعاء: "يا رب، إنت عالم بقلبي واللي فيه، إنت عارف بنيتي وبوجعي، وحدك عالم انى بتقيك في كل شيء وفي كل لحظة في حياتي وبخاف من غضبك عليا بس قلبي مش بأيدي وانت اللي وضعت حبه في قلبي من أول مرة شفته فيها، يا رب اكتبلى الخير اللي عندك وثبتني في خطواتي ونورلى طريقي وماتعلقش قلبي بحاجة مش ليا، يا رب يـــــــا رب".

*****

(٥)

وقفت أمام العمارة الضخمة المطلة على النيل بعد أن رفعت رأسها تتأملها بعين مستكشفة، تنظر لطرازها المعماري القديم ومساحتها الواسعة التي احتلت جزء ليس بالهين في منطقة من أعرق المناطق بمدينتها، جالت بنظرها تبحث عن اللافتة الكبيرة المعلقة على إحدى شرفاتها الصغيرة فتعرف بعد قراءتها إنه العنوان الذي جاءت تقصده، دست ورقة كانت معها في حقيبة يدها وهمت بالاقتراب من الباب الرئيسي للبناء لولا أن استوقفها سماع صوت رنين هاتفها يدق باتصال من والدتها، فأجابتها بصوت ضعيف يحمل نبرة حزينة قائلة:

ـ "أيوة يا ماما، أنا وصلت للعنوان خلاص وطالعة العمارة، ماتقلقيش عليا".

تقدمت من الباب الكبير للبناء ودخلت في ترقب، تجيل بنظرها يمنة ويسرة، إلى أن وصلت إلى المصعد الكهربائي واستقلته لتجد نفسها عقب لحظات أمام باب الشقة بعد أن قرأت اللافتة الصغيرة المسمرة بمحاذاة بابها الكبير كتب عليها نفس الاسم، همت تتقدم من الباب بخطوة وتتراجع خطوة أخرى في تردد إلى أن حسمت أمرها بشجاعة، تقدمت نحو الشقة وطرقت على الباب طرقات خفيفة، دلفت في توتر تتظاهر بالتماسك وألقت التحية على سيدة في أواخر العقد الرابع من عمرها، كانت تجلس على مقربة من باب الشقة خلف مكتب خشبي صغير، ترتدي جلباب واسع باللون الأسود وعلى رأسها حجاب بنفس اللون القاتم. اقتربت بهدوء ووقفت أمامها، تجاهد بمشقة في إظهار ابتسامة خفيفة على شفتيها في حياء وعيناها تزوغان في المكان بقلق تراقب الموجودين، لا يوجد أي شخص يعرفها أو تعرفه، "حمد لله"، خاطبت نفسها سرًا بعد أن تنحنحت قليلًا ثم سحبت نفسًا عميقًا من صدرها وفي سريرتها تطلق كلمات الحمد على عدم وجود أي إنسان يمكن أن يتعرف عليها في هذا المكان، قالت للسيدة بصوت خفيض يشوبه الخوف: "لو سمحتي كنت عاوزة احجز!" نظرت

إليها السيدة بينما تتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها، ربما كان السبب هو رداءها الطويل الأنيق وحذاءها العالي، فأناقتها ملفتة واهتمامها الواضح بمظهرها مع ردائها المحتشم جعل الأخيرة ترمقها بنظرات خاطفة رغمًا عنها، فكل ذلك لن يمحو جرأتها للتواجد هنا أو يمنع السبب الأول لحضورها لمكان مثل هذا، هو نفسه سببًا تتفهمه تلك المرأة حتى لو كان ما زال لغزًا وسيكون كذلك، ثم خاطبتها قائلة: "أول مرة تشرفينا؟" أجابتها باقتضاب مرتبكة: "أيوة، دي أول مرة". وفي نفسها تكمل جملتها: "وأعتقد لن تكون الأخيرة!" عادت الأخرى تسألها: "طيب، اسمك وبياناتك لو سمحتى؟" لو كانت تدرك أن الأمر سيكون بتلك المشقة النفسية لما أتت، ولو علمت أن التلفظ باسمها وبياناتها سوف يصبح عبئًا ثقيلًا مثل ما يحدث الآن لتمنت أن تخنق داخل رحم أمها قبل أن تخرج لتلك الحياة وتصبح في مثل هذا الموقف المهين، ابتلعت ريقها في تلملم تحاول جاهدة أن تخفض من نبرة صوتها حتى لا يسمعها أحد الموجودين، ثم فتحت شفتيها بصعوبة وقالت: "ندى، ندى عبد القادر!" حملت حقيبتها تعتصرها بين يديها من شدة التوتر وتوجهت إلى ركن بعيد تبحث عن مكان للجلوس، عيناها تدوران في كل الأركان، تتأمل الصالة الصغيرة لشقة قديمة في إحدى العمارات ذات طراز معماري وهندسي يعود لسبعينيات القرن الماضي، ومن أمامها جلس شاب وفتاة يتجاذبان أطراف الحديث بالأعين دون الكلمات وكأن كل منهما يبعث برسائل مشفرة للطرف الآخر، هما أيضًا كانا ينظران إليها ويتفحصانها بعيون متسائلة تبحث عن الحقيقة من وراء تواجدها هنا، حاولت أن لا تبدي اهتمامًا بتواجدهما أمامها وأشاحت بنظرها بعيدًا عنهما، تنظر على يسارها نحو النافذة الكبيرة المطلة على الشارع الرئيسي تتطلع من وراء زجاجها المزركش فيأخذها منظر النيل الخلاب إلى الحنين إلى الماضي، إلى ذكريات عاشتها في أحضانه وعلى ممشاه، إنها الآن ذكريات، مجرد صور في الماضي لن تعود، ولكنها لن تتنازل في أن تتركها حتى تمزقها كل ليلة وكل لحظة وكل لمحة من حياتها!

مر قرابة ساعتين تنتظر أن يأتي دورها للدخول، إلى أن انفتح باب الغرفة وخرج

منه الشاب وبرفقته الفتاة تتأبط ذراعه في حالة يرثى لها وقد امتقع وجهها باللون الأحمر ترتجف يدها بقوة فيرتجف بين قبضتها منديلها المبلل، تراقبها بنظرات شفقة وفضول لمعرفة حكايتها إلى أن انصرفت خارجًا، ربما تعاني هي الأخرى من أزمة ما وبين خلجات قلبها راوية مختلفة وبقايا رفات تجربة أشقتها لفترة ليست بالقليلة، ربما، فمن يعلم سوى صاحب القلوب وما أخفت! مرت عدة دقائق حتى طلبت منها السيدة بعد لحظات أن تتفضل بالدخول. إنه موقف مخيف جعل قلبها يدق بقوة وصدرها يعلو ويهبط من شدة التوتر، ولكن لم الخوف؟ حادثت نفسها وهي تهم بالدخول إلى الغرفة ثم قالت كأنما تجيب على نفسها في الحال: "إنه ليس بخوف ولكنه اليأس الذي ينتظرها إن لم يستطع ذلك الرجل القابع هناك أن يجد حلًا لمشكلتها اليائسة!" ابتسم الطبيب إبتسامة ودودة، كان يجلس هناك على كرسيه المتحرك خلف مكتبه الكبير، اقتربت ندى من الطبيب وفي داخل صدرها طرقات عالية ووجه متجهم، أذن لها بالجلوس بترحاب وسكينة تعلو وجهه الهادئ، ثم تركها للحظات ذاهبًا إلى الغرفة الصغيرة المتفرعة من الأخرى الكبيرة، حجرة الطبيب كانت مختلفة كليًا عن صالة الاستقبال الصغيرة المخصصة لاستقبال الزوار والمكونة من مكتب السيدة البائسة ذات الجلباب الأسود وطقم الآرائك القديم المتراص جنبًا إلى جنب، بينما حجرته كانت من وجهة نظرها حجرة جميلة مكونة من أثاث قديم إلى حد ما ولكنه يحمل طابع الأناقة والفخامة، ومكتبه الكبير الذي طغت عليه الحداثة، وفي الزاوية طاولة صغيرة وضع عليها مسجل ضخم ومربع الشكل من الطراز العتيق بإطاراته الدائرية وأزراره المستديرة يعود للقرن الماضي وكذلك مسجل آخر صغير نسبيًا حديث في شكله، أما في الجانب الآخر من الغرفة فكان هناك كرسي ممد كبير مبطن بالجلد الأسود، ابتسمت ابتسامة باهتة وهي لا تصدق أنها تراه حقًا، فلم تر مثل ذلك الشيء إلا في أفلام الأبيض والأسود، إنه (الشازلونج)!

أما بجوار المكتب على الحائط فقد علقت مجموعة من اللوحات الفنية الصغيرة وفي وسطها صورة كبيرة لمنزل على الطراز الأوروبي وقف في استسلام وسط

حديقة غناء، اصطفت الشجيرات الصغيرة حول الحديقة المعبقة بأنواع متعددة من الزهور البرية المختلفة الألوان والأشكال لينبعث إليها شعور مفاجئ بالشوق للذهاب إلى تلك البقعة، ربما هو شعور بالهروب إلى مكان يحمل قطعة من الجنة تاركة وراءها الكثير والكثير من الألم، تنبه الطبيب إلى شرودها وتعلق عيناها بالصورة دون أن تلحظ عودته وجلوسه خلف مكتبه، قال لها في هدوء مغمس بابتسامة حانية: "تحبي تروحيه؟" التفتت ندى إلى الطبيب الذي عاد وجلس دون أن تشعر بوجوده ثم همست في اضطراب: "هو ايه ده؟" استدار الطبيب إلى الصورة وأشار بيده نحوها ثم عاد بعينه إليها وقال: "هناك، تحبي تروحي؟" عادت تتمعن في الصورة، وكنوع من الاسترخاء أطلقت زفيرًا من فمها يحمل هواءً ساخنًا ثم عادت وتنفست شهيقًا هادئًا تبعته ابتسامة ولكنها حزينة، وكأن الطبيب بين برهة وأخرى حملها في رحلة خيالية إلى ذلك البيت الجميل لتقول له سارحة: "فعلا جميل أوى، بتمنى أعيش في مكان زي ده، بعيد عن كل صراعات الحياة وأفضل طول الوقت ألمس الورود وأتنفس عطورها الجميلة". نظر إليها الطبيب يتفرس بعضًا من أفكارها بعد أن أسند ظهره إلى الخلف وعقد ذراعيه على المكتب ليسألها محاولًا استنباط بعض من ماهيتها: "هتكوني لوحدك؟" سؤاله ربما أوقد بداخلها شيء أتت إلى هنا من أجله، باحثة عن من يأخذ بيدها لبر أمان تتنفس فيه عبير أمل جديد حتى تتمكن من استكمال الحياة، وهذا الاتقاد الذي اشتعل داخل قلبها وجسدها معًا جعل الدمعات تنهمر فجأة من دون سابق إنذار لتذكرها بنور دنياها الذي انطفأ فجأة وترك حياتها باردة كقطعة ثلج تذوب كل ليلة عندما يذوب قلبها حزنًا وقهرًا، ومن ثم نظرت إلى الطبيب والدموع تهبط ببطء: "يمكن لو حضرتك سألتني السؤال ده من فترة قريبة كنت هعرف أرد عليك، بس دلوقتى الوضع مختلف!" بنظرة الطبيب الماهر صاحب الخبرة والمهارة أيقن وجعها فبادرها بسؤال سريع: "هو دا السبب في إنك هنا؟" وبحركة طفولية بعيدة كل البعد عن التفكير أو التردد هزت رأسها وكأنها تتفق مع رأيه الثاقب دون محاولة منها لنفي الأمر. ـ"طب يلا يا...؟ تعرفي لحد دلوقتى نسيت اسألك عن اسمك

والكلام خدنا عن اللوحة؟" قال الطبيب يحاول طمأنتها قليلًا فأجابته بهدوء: ـ "ندى، أنا اسمي ندى يا دكتور". همهم الطبيب بصوت خفيض يبعث الراحة في النفس وهز راسه وقال: "ندى، اسم جميل ولايق عليكى جدا، بيبين قد ايه احساسك المرهف وحسك الفني اللي ظهروا في متابعتك للوحة". ثم استطرد بجدية وما زال صوته يحمل نفس النبرة الهادئة: "بس أول شيء لازم نتفق عليه الصراحة والوضوح عشان نقدر نتفاعل في الجلسة ونوصل للنتيجة اللي نرجوها". شعرت معه بألفة شديدة لم تعهدها من قبل، رجل أشعرها بحنان الأب ورقي الطبيب عند التعامل مع مرضاه ولا سيما لو كان طبيبًا نفسيًا، كان رجل في الستين من عمره زحف الشيب إلى رأسه فغطى جانبًا كبيرًا من شعره الخفيف، ووجهه المستدير ذو البشرة البيضاء والابتسامة التي علت وجهه ما بين وجنتيه المتقدتين بالحمرة وشعر أبيض خفيف غزا بعنف جيوش جرارة شاربه وذقنه، مع عينين بنيتين خدرهما الزمان بسنواته فأسقط جفنيه متهدلتين من الطرف، جعلها التمعن في النظر إلى وجهه وحديثه المطمئن الهادئ تشعر أنها أمام بابا نويل الذي هبط عليها من السماء بعربته المزينة والبراقة بقطع الثلج المتلألئة تحت خيمة سماء توشحت بالنجوم تجرها زوجان من حيوان الرنة الرقيق بحركته الرشيقة وأجراسه المعلقة برقبته ليحقق لها أمنياتها في ليلة رأس السنة. رأس السنة؟ لقد تذكرت أن تلك السنة كانت مختلفة حقًا عن كل السنوات التي مضت وستكون نقطة انطلاق لحياة مغايرة تمامًا عن التي عاشتها في الأعوام الماضية، عاد الطبيب بنبرة صوته المستكينة ناظرًا إليها نظرة المطمئن: "عاوزك تسترخى دلوقتى وتبدأى تتكلمي عن الشيء اللي مضايقك، تحبي تقعدي ع الشازلونج ولا هنا مريح بالنسبة لك؟" قالت تحاول تصنع الثبات وتهز رأسها بالموافقة: "لا مفيش مشكلة ممكن نفضل هنا". ـ"اتفضلى يا ندى، أنا سامعك". أطرقت رأسها لبرهة تحاول لملمة شتات نفسها، ثم نظرت أمامها في الفراغ كالتي لا تعرف من أين تبدأ حديثها إلى أن أمسكت الخيط الذي تستطيع أن تطلق منه قصتها وقالت بصوت متهدج: "إحساس صعب إن يكون جواك ألم كبير وجرح بينزف كل يوم ومش قادر تتكلم ولا قادر إنك

توقف النزيف أو تكمل حياتك، بعد ما طعنك إنسان كان هو أقرب حد ليك، بس للأسف هو جرحني وسابنى أنزف وأنزف». لم يُرد الطبيب أن يقطع عليها حديثها المؤثر ولكن صمتها للحظات ودموعها المنهالة جعلته يسألها: «مين اللي عمل فيكي كدا، وليه حاسة إنه جرحك وسابك؟» اعتصرت المنديل بين كفيها بينما تحاول التماسك إلى أن ساد السكون قليلًا حتى تستجمع قوتها لتسترسل في الحديث.

-«عمر، أكبر كدبة عشتها وأصعب قلم خدته في حياتي».

استوقفها الطبيب وعاد ليسألها بعد أن شعر بغصة كبيرة تظهر جلية عبر كلماتها المرتعشة ودموعها المتأثرة:

- «طيب اتفضلي كملي واحكي لي من الأول قصتك مع عمر».

طلبت من الطبيب أن تنتقل إلى الشازلونج حتى تكون على راحتها أكثر وبعد أن أذن لها كانت متكئة باسترخاء فوق المقعد وساقيها ممددتين إلى الأرض، عادت برأسها إلى الوراء وأسندت ظهرها خلفها ثم سحبت نفسًا عميقًا تعالى بصدرها صعودًا وهبوطًا وأغلقت عينيها برهة ثم فتحتهما بتكاسل كأنما تتأهب لفتح باب عتيق لسرداب مغلق من الذكريات المؤلمة: - «عمر كان رجل مختلف، شاب طويل ووسيم، جسمه قوي، ملامحه بريئة وضحكته بتملا الدنيا بالنور والسعادة، حسيت معاه بأمان عمري ما حسيته مع أي إنسان وهو كان دايما يحسسني بحنانه ودفء مشاعره لما كان يتكلم معايا أو يسمع لي بالساعات وأنا بتكلم عن نفسي وحياتي ومشاكلي، وشوية شوية بدأ يتقرب مني وأنا كنت بحس بانجذاب غريب عمري ما حسيته مع أي شخص تاني رغم إني مريت بتجربة قبل كدا ما استمرتش إلا فترة قصيرة، بس معاه حسيت بشعور مختلف، حسيت بقوة الراجل لما يكون بجانب إنسانة ضعيفة ووحيدة، يسمع لها بحنان ويطبطب على قلبها الضعيف ويضحك على كلامها البريء وضحكتها الطفولية».

نظرت إلى الطبيب بسرعة وقد اتسعت عيناها الدامعتان وقالت مؤكدة وهي تهز رأسها بعنف: «أيوة كنت طفلة لما عرفته، كان دايما بيقولى انتى بنوتي الصغيرة، انتى حبيبتي وبنتي وأختي وطفلتي اللي معاها بشعر بالراحة

والسكينة وفي عينيها بحس بالأمان والبراءة، بس أنا دلوقتى مابقتش الطفلة اللي عرفها، مابقتش إلا حطام لبقايا وجه ببيكي كل لحظة وكل دقيقة وقلب متفحم لإنسانة عرفت معنى الغدر". حاول الطبيب تهدئتها بنبرة صوته الحانية وقال: "ازاى؟ انتي فاكرة أول لقاء بينكم؟" عادت لذكرياتها مرة أخرى تنظر إلى سقف الغرفة بضوئه الخافت وتقول بصوت يشوبه المرارة والانكسار: "أيوة فاكرة كل تفصيلة حصلت في اليوم ده وكل دقيقة مرت من حياتي وهو فيها، وعمري ما هنسى ولو عشت ميت سنة، مش عشان بس حبيته بصدق وبادلته المشاعر والإخلاص خمس سنين من عمري وعشت معاه كل مراحل تقدمه وضعفه لحد قوته، ولكن لان اللي أتعلمت على ايديه معنى المشاعر وكبرت معاه ودوقنى معنى الحب والسعادة ومسح بإيديه دموعي، هو نفسه اللي دبحنى بسكينة غدره وسابنى طريحة الموت بنزف وهو بيتلذذ بتعذيبى".

تنهد الطبيب قليلًا واعتدل في جلسته على الكرسي المتحرك من أمامها ثم أمسك بمفكرته الصغيرة وقلمه وبدأ يدون بعضًا من الملاحظات ثم عاد بنظره إليها وقال: "خلينا نرجع للماضي، لبداية معرفتك بيه". أطلقت زفرة قوية من فمها، وتركت ذاكرتها تعود للماضي تحلق بعيدًا مع نظرات عينيها الهائمتين.

كان ذلك في اليوم الخامس من شهر(مايو) منذ خمس سنوات في الساعة العاشرة صباحًا، يوم لن يمحى من ذاكرتها، حينما كانت تجلس في محطة النقل العام في انتظار الحافلة المنطلقة إلى القاهرة، لا تعرف أحد ولا تتحدث مع أحد كعادتها، كانت ذاهبة إلى القاهرة في أمر هام لاستكمال بعض الأوراق المطلوبة من الجامعة وستعود في نفس اليوم بعد أن تنهي تلك الأمور بسلام.

مرت دقائق تبعتها دقائق أخرى من الانتظار، تشعر بالملل والقلق الذي انتابها من التأخر وهي تفكر في عدم استطاعتها إنجاز الأمور المطلوبة منها في يوم واحد،

الوقت يمر ببطء وهي تراقب ساعة يدها، تترقب الدقائق وتتفحص الموجودين من حولها لعل الوقت يمر بسرعة دون أن تشعر. أتت الحافلة وصعد جميع الركاب واستقلوا مقاعدهم، صعدت هي الأخرى وجلست بمكانها بعد أن

طابقت رقم المقعد بالبطاقة التي بيدها واختارت مكان الجلوس بالقرب من النافذة مثلما كانت تفضل دائمًا حتى تتمكن من متابعة الطريق عبر النافذة الزجاجية، فدومًا ما كانت تحب مراقبة الطريق بأشجاره المصطفة على الجانبين والمنازل المختلفة الطراز والتصاميم وكذلك العربات المتحركة بمحاذاة الحافلة، إلى أن تخترق الحافلة حدود القاهرة وتشق طريقها بين شوارعها وأحيائها العريقة، كانت تظل تتابع الميادين والشوارع والمارين حتى تلك المنازل القديمة والأحياء العتيقة وتسرح بخيالها في تاريخ تلك المدينة الصامدة.

مرت دقائق ومعها تنتظر لحظة انطلاق، حتى تهادى إلى مسامعها صوت من يطلب منها الإذن بالجلوس ومن ثم رفعت رأسها وهمت تنظر لمحدثها لترى شابًا وسيمًا تعلو وجهه بشاشة لم تعهدها وطول قامته التي زادته رجولة وبهاء. وجدت نفسها تشعر بنبضات قلبها تتسارع ويديها ترتجفان وهي تقبض على حقيبتها وتلملم نفسها دون أن تبادره بكلمة واحدة لينطلق هو بكلمة شكر بأدب جم ولباقة في التعامل. قالت ندى سارحة في لج أفكارها: "مر الوقت بطيء وكأنه أيام وأنا قاعدة في هدوء وبراقب الطريق من شباك الأتوبيس وبتمنى من ربنا إني أنهي أموري بهدوء وأخلص أوراقي اللي سافرت عشانها وأرجع بسلام". صمتت لبرهة ثم تابعت: "بس كان فيه شعور جوايا غريب بيجذبنى للشخص اللي قاعد جمبي رغم أننا ما اتكلمناش بأي كلمة طول الطريق وهو كمان ماحاولش يضايقني أو يتطفل عليا لحد ما مرت الساعات ووصلنا القاهرة ونزلت كالعادة بسرعة عشان أركب مواصلة تانية رايحة الجامعة". انقضى اليوم على خير وعادت ندى مرة أخرى إلى موقف حافلات النقل العام وبادرت بحجز تذكرة للعودة، عادت نفس اللحظات التي مرت في الصباح لتتكرر آخر النهار ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل انتابتها الدهشة الشديدة حينما رأت نفس الشاب يتقدم إلى الموظف لحجز تذكرة في نفس ميعاد الحافلة التي استقلتها للعودة، لم تعط ندى للأمر بالًا وانصرفت تفكر في أمورها الخاصة والإنهاك الذي أصابها بعد شقاء يومها الطويل والمشادات الكلامية مع موظفي الجامعة ورتابتهم في إنجاز الأمور، ولكن الصدفة لم تنته عند ذلك الحد، بل استمرت

في لعبتها حينما فوجئت بقدوم الشاب نحوها وهي جالسة في حافلة العودة يستأذن منها للجلوس مرة أخرى، قالت بعد أن انفرجت شفتاها قليلًا بفعل ابتسامة خفيفة حملت في طياتها حزن عميق ونظرة عينين دامعتين لمعت مع صورة قديمة لذكرى من الماضي: ـ "آه، مالقتش نفسي إلا غصب عنى ببتسم له وهو بيبص لى وبيضحك ويقولى إنها مجرد صدفة وانه مايعرفش أن اللي هيقعد جنبها في الاتوبيس هي أنا، فضحكت تانى وقلت له مفيش مشكلة ولا ازعاج، ومرت ساعات السفر بدون كلام أو أي حوار إلا بعض الأمور عن السفر والطريق، ماطلبش يتعرف عليا وأنا كمان ما اديتوش أي اهتمام لحد ما وصلنا وبمجرد نزولي من الأتوبيس انتهى كل شيء، بس ماكنتش أعرف بعد كدا إن اللي كان قاعد جمبي والقدر وضعه في طريقي هيكون هو قصة حبي وتعاستي في نفس الوقت!"

كانت تسترسل في الحديث والطبيب بدوره يرنو إليها باهتمام ونظره ثاقبة يصوبها نحوها من خلف منظاره الصغير القابع أسفل أنفه، جالسًا على كرسيه المتحرك، واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى ويدون من وقت لآخر بعض الملاحظات في دفتره الصغير. عادت إلى الحديث مرة أخرى، عادت لتتذكر كيف كانت أيامها تمر في الماضي رتيبة، تعيش حياتها بلا هوية ولا هدف واضح بعد تجربة غير مكتملة وحياة ومستقبل لا تعرف ماذا يخبئ لها بين طياته، إلى أن انفرج نهار يوم آخر ولكنه لم يكن ككل الأيام، يوم واحد كان كفيلًا بصنع غد جديد لحياة لم تعرفها من قبل، حتى وإن كان يومًا متفردًا لا ثاني له يتكون من بضع ساعات قليلة، إلا إنه حمل الكثير من المصادفات التي صنعت خطًا جديدًا ومسارًا مختلفًا لحياتها الباهتة، لم يكن يومًا عاديًا، بل كان بمثابة حجر صغير قذف به القدر في بحيرة حياتها الساكنة لينتج عنه موجات صغيرة متتابعة تلاحق بعضها البعض في نسق رباني مقدر فيحرك أمواج مشاعرها الراكدة، وينتشي قلبها من جديد بنشوة المغامرة حينما تمتزج بمشاعر ما ذاقها قلبها الصغيرمن قبل. إنها تتذكر ذلك اليوم حق التذكر، حينما وقفت شاردة أمام إحدى الأرفف الكبيرة في صالة المعرض الضخمة، تتصفح بعينيها المبهورتين أمهات الكتب التي غطت

الأرفف الخشبية وتتنقل بأناملها بينها من كتاب لآخر تقرأ العناوين، عشقها الأبدي القراءة وهوايتها المفضلة منذ الصغر، حتى في سنوات الدراسة المزدحمة كانت لا تتردد في اقتناء الكثير من الكتب والروايات وإن تعدى سعرها ما تدخره من مصروفها الخاص، تجمع ما تبقى من بضع جنيهات بعد أن تنتهي من شراء حاجياتها الضرورية ونفقات دراستها وتدخره بحرص حتى تأتي كل نهاية فصلها الدراسي وتهرول إلى مكتبتها الصديقة والقابعة في مؤخرة الطريق المفضي إلى الجامعة وعلى مقربة من مأوى الطالبات التي كانت تسكنه فترة دراستها، تقتني كل ما تراه مناسبًا لميولها القرائية من حب للتاريخ والأدب والفن، ثم تعود أدراجها إلى السكن بعد أن تودع صديقها العجوز صاحب المكتبة داعيًا لها بالتوفيق والفلاح وعلى وجهها علامات الرضا والنصر، فما عساها غير الابتسام وهي تعلم أنها ستقضي إجازتها في التهام العديد من المعلومات وتغوص في تاريخ وحضارات، وتسافر بعقلها المسحور حول العالم في حين جسدها ما زال ممدد في مكانه على فراشها الصغير، "القراءة يا صغيرتي هي الملاذ"، تتهادى ذكرى العجوز صاحب المكتبة إلى عقلها فتبتسم، تفكر في كلماته العميقة، لقد اشتاقت له بقدر شوقها للماضي، وبقدر حنينها لكل يوم لم يكن فيه ما يعكر صفو نهارها أو يزيد من ظلمة ليلها. مر الكثير من الوقت وهي منهمكة في اكتشاف الكتب بعين نهمة تتلهف لاقتناء كل تلك المجلدات المتراصة أمامها في فخامة، تنتظر لحظات ستأتي لتقرأ فيها ما اقتنته من أغلفة حوت بين دفتيها الورقيتين كنوز المعرفة وأسرار الحياة، ومع كل ذلك لم تشعر بمرور الوقت أو بوردة التي دومًا ما تشعر بالملل لتواجدها في معرض الكتاب وتضيق ذرعًا بالوقت الذي تقضيه مع رفيقتها ندى في مثل تلك الأماكن عديمة الجدوى على حد تعبيرها، فهي لم تكن كرفيقتها في تعلقها بالقراءة ولم يخطر ببالها يومًا أن تقتني بعضًا من الكتب، اللهم إلا بعضها المتعلقة بأحدث صيحات الأزياء والمأكولات الغربية وبعض الأشياء التافهة في نظر الأخرى. التفتت ندى تبحث عن وردة في الصالة الكبيرة، لقد تنبهت لعدم وجودها بالجوار، دارت تتحرى عنها، تجوب المكان وتفتش بين الأقسام التي احتوت على شتى أنواع الكتب في جميع الفروع وتتفرس في

الحضور علها تكون بينهم، إلى أن وجدتها تقف في نهاية أحد الأركان، كانت ترتدي بنطال ضيق باللون الأسود وقميص قطنيًا باللون الأحمر القاني يحد ملامح جسدها الملفوف بجرأة ملفتة، حجابها العصري قلما أخفى خصلات شعرها المطلة فوق جبهتها العريضة، وجهها الممتلئ وعيناها الواسعتان تحت ظل من ألوان جفنيها العاليين، مع حمرة شفاه صارخة ومساحيق تجميل صبغت وجهها فأخفت خلفها ملامحها الحقيقية، كانت تتحدث مع أحد الشباب الذي لم تر منه سوى قامته الطويلة وجسده العريض، "فتاة جريئة" كانت تعلم عنها ذلك، ترتدي ما تشاء وتتحدث كيفما شاءت معولة على جمالها الذي تدرك أنه يومًا سيمنحها عريسًا مثاليًا وحياة مستقرة لن تحظى بها الكثيرات ممن ترى بعيونهن نظرات الحسد والكراهية، عقدت ندى حاجبيها وهي تتساءل عن الجرأة التي واتتها لتقف وقفتها وتتحدث مع أحدهم، ذهبت غاضبة نحوها ونادتها بصوت خفيض: "وردة، كنت بدور عليكى!"

وقفت وردة مبتسمة في دلال مصطنع بينما تحادث ذلك الشاب الذي التفت بسرعة بعد سماع كلمات ندى الأخيرة ونظر إليها لتلتقي نظراتهما معًا وتستمر لثوان. ـ" معلش يا ندى انتى عرفاني ماليش تقل على الكتب، بس قلت ألف شويةً في المعرض!" قالت وردة مازحة وهي تنظر إلى ندى التي بدت على ملامحها علامات الاندهاش بعد أن تلاقت نظراتها بنظرات ذلك الشاب، في حين ظل هو ينظر إليها بعينيه الباسمتين في سكون كأنما قرأ ما يجول بخلدها، إلى أن قاطعت وردة نظراتهما المتواصلة وقالت ضاحكة: "صحيح نسيت أعرفك يا ندى، الأستاذ عمر صديق خالد أخويا"، ثم استطردت تنظر للشاب وتشير بيدها إلى ندى: "ودى ندى صاحبتي وجارتي". اتقدت وجنتاها بالحمرة الهادئة بعد أن طرأ عليها شعور غريب وزاغت عيناها بعيدًا عن نظراته التي حدقت بها بثبات إلى أن قال باسمًا وهو لا يرفع عينيه عن وجهها: "تشرفنا يا آنسة ندى". تلعثمت، ابتلعت ريقها، ترددت في الإجابة لا تعرف كيف يكون الرد المناسب؟ مفاجأة كبيرة شلت تفكيرها وأوقفت حواسها التي داهمها بنظراته الحادة؛ فتعطلت بدورها وسرت حرارة لاذعة بالأوصال، عضت على شفتيها وقالت

بسرعة محاولة النظر إلى الطرف الآخر: "ميرسي أوى، أنا الأسعد". سادت لحظات صمت بين الثلاثة إلى أن صرف نظره عنها والتفت إلى وردة وقال بلهجة هادئة بينما يختلس نظرة وأخرى إلى ندى التي وقفت في ارتباك لا تدرك سببه: "طيب أنا هستأذن دلوقتى، وهستناكى زي ما اتفقنا". ودعته وردة بابتسامة مماثلة، ثم رفعت يدها تلوح له وهو ينصرف ببطء وبادلته التحية في حين وقفت ندى مشدوهة لدقائق، تراه يرمقها للمرة الأخيرة بعينين ضاحكتين أربكتها نظراتهما الجريئة، ثم انصرف في هدوء.

ظلت ندى على تلك الحالة لا تعرف سبب للاضطراب الذي سيطر عليها منذ أول برهة!، تذكرت ذلك اليوم الذي رأته فيه للمرة الأولى عندما كانت مسافرة إلى القاهرة وذلك الشعور الذي اجتاحها عندما كان يحادثها ويطلب منها أن تأذن له بالجلوس، إلى أن أخرجتها وردة من حالتها، تقترب منها وتهز كتفها لتفيق من نوبة تفكيرها العميق وصاحت فيها بلؤم:

ـ"إيه يابنتى فيه ايه، مالك متسمرة كدا ليه في مكانك؟"

هزت ندى رأسها نفيًا وقالت في تلعثم:

" مفيش حاجة ما أنا كويسة أهو! ما لي يعنى؟"

ضحكت وردة عاليًا دون أن تعبأ بالمكان الذي امتلأ برواده وقالت غامزة بعينيها: "ما لك؟ على ماما بردو الكلام ده، إيه كل ده عشان قالك تشرفنا؟ أمال لو قالك مبسوط إني شفتك ومعجب بيكي أو هاتى رقم موبايلك أو الايميل كنتي عملتي ايه؟"

ردت ندى بعصبية رافضة لهجتها الساخرة، أحكمت قبضنها على ذراعها الأيسر وقادتها نحو الباب الرئيسي إلى خارج: "إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟ تليفون ايه وايميل ايه اللي بتتكلمى عنهم ومن امتى أنا بعمل كدا؟" ثم استطردت بصوت أكثر انخفاضًا ونبرة متسائلة يشوبها الفضول:

ـ"ثم هو كان بيقولك هستناكى على ايه بقا يا ست وردة، ها؟" عادت الأخيرة لتضحك من جديد وقالت بمكر رافعة إحدى حاجبيها:

ـ"هههههه، وليه لزمته السؤال ده يا نونتى؟ ها!"

اضطربت ندى مرة أخرى وتخبطت الكلمات بين شفتيها وهتفت في تلعثم:
ـ"خلاص خلاص ياستي، مش عاوزة اعرف".

انصرفت الصديقتان من المعرض بعد أن انتهى الحوار بينهما بجملة ندى الأخيرة في حين لم ترد عليها وردة بجملة أخرى وآثرت الصمت دون أن تريح عقلها الذي اشتعل بالتفكير في صديق شقيقها وبكلماته الأخيرة لوردة.

خرجتا من المعرض وسارتا في طريقهما إلى المنزل، مارين بالسوق حتى تستطيع رفيقتها المدللة أن تشتري بعض الأغراض التي تحتاجها ولا ضرر من الولوج إلى بعض المحال التجارية لمشاهدة أخر صيحات الموضة التي كانت دومًا مجالًا لاهتمام وردة العاشقة لاقتناء كل ما هو جديد من ملابس وأحذية وأدوات للزينة، أشياء لا تستهوي ندى كثيرًا فدومًا ما كانت تميل إلى البساطة والمظهر الطبيعي.

سارت ندى بجوار الأخرى تفكر، تتأمل حالها، ما الأمر؟ ما بال هذه الحيرة التي تتملكها بعدما سدد إليها تلك النظرة العميقة؟ هل ما يختلجها شيء طبيعي وهي لا تعرفه ولم تره إلا مرة واحدة؟ ربما أسرها بعينيه البنيتين وامتلك تلابيبها بنظرتهما المخملية وطلته القوية التي تأسر أية فتاة، لا سيما لو كانت خاوية القلب ولا يوجد من يملأ فراغ عاطفتها المنسية؟

لم ترد وردة أن تتطرق إلى الأمر ثانيةً، عادت لمتعتها، تتسوق من مكان لآخر وتقتني ما يحلو لها وبجوارها ندى، شاردة وساهمة، لا تعطي لها بالًا، إلى أن وقفت فجأة أمام إحدى المحال التجارية لصيانة أجهزة الحواسيب واستدارت نحو ندى بمكر وقالت: "يلا بينا ندخل، فيه حاجة ضروري لازم أعملها".

استسلمت ندى لإصرارها على أن تصحبها إلى داخل المحل على الرغم من طلبها أن تنتظرها بالخارج ولكنها علمت سبب إصرارها بعدما دخلت إلى المكان والتفتت لتجدها تتحدث معه، نعم إنها تتحدث مع نفس الشاب وهي تبتسم ويضحك لها، تسمرت ندى في مكانها، تراه يقف أمام صديقتها ويحادثها ثم يدلف إلى الداخل ويعود بعد قليل وهو يحمل بعض الأشياء في يده يضعها في كيس من البلاستيك ويمنحها لوردة التي أخذتها منه وشكرته في امتنان تام، ثم

التفت إلى ندى التي وقفت على مقربة من الباب مشدوهة، متسمرة في مكانها تترقب ما يحدث، نظر إليها من جديد كتلك النظرة التي رأتها في عينيه وهما في المعرض، يحدج بها بقوة، يخترق أنفاسها المترنحة ويعتصر كيانه الواثق بضحكته الفاتنة بقايا تماسكها الزائف، أخيرًا خرجتا من المكان عقب لحظات من ترقب دون إبداء أي كلمة.

ضحكت وردة في خبث وقالت وهي تنظر لندى: "عرفتي بقا كان بيقولى هستناكى عشان إيه ولا لسه ماعرفتيش؟" التفتت ندى برأسها صوب محدثتها، تسير بجوارها في الطريق، وترمقها بنظرات غاضبة، زمت شفتيها وقالت ببعض الحنق: "أنا مش فاهمة حاجة، هو دا صاحب أخوكي، ولا صاحبك انتي وبتقوليلى كدا؟

ولا هو مين دا بالظبط يا ست وردة؟"

عادت وردة برأسها إلى الوراء تضحك بقوة غير عابئة بنظرات المارة، وبنظرة دلال ولؤم تغمز بعينيها إلى الأخرى وتقول: "وانتى مالك متعصبة كدا ليه يا أستاذة؟ هو الموضوع يهمك في شيء؟"

تلعثمت ندى قليلًا وهتفت بشيء من الاضطراب وهي تتصنع الهدوء:

ـ"وهو هيهمنى في ايه بقا، بس أنا استغربت لما لقيتك واقفة بتتكلمى معاه وبعدين بيقولك هستناكى، واستغربت أكتر لما لقيته في نفس المحل اللي دخلناه، أنا خايفة لو فتحت الحنفية ينزلى منها كمان!"

تعالت ضحكات وردة الخليعة مما دفع ندى أن تضع يدها على فم الأخرى الغارقة في نوبة من الضحك الهستيري تحاول كبح جماح رنين قهقهتها المتعالي فتلفت نظرات المارين بجوارهما، سكنت، وهدأت قليلًا كالتي أفاقت للتو من نوبة هذيان، وعادت لتسأل ندى: ـ "تقصدي إيه، انتى شفتيه قبل كدا؟"

ضحكت ندى مع الأخرى، محاولة إخفاء انفراج شفتيها الضاحكتين خلف كفيها وصوتها المكتوم: "أيوة شفته، كنت مسافرة الأسبوع اللي فات القاهرة وكان قاعد في الكرسي جنبي والأغرب إنه رجع معايا في نفس اليوم وبردو جنبي على نفس الكرسي، تفتكري بقا لما أشوفه النهاردة مرتين ورا بعض مش لازم

أستغرب؟" هممهمت وردة باستغراب وهزت رأسها بعدما استوعبت الهدف من وراء تصرفها الغريب فعادت وقالت: "أها، عشان كدا كنتي مبلمة وأنا واقفة بكلمه ولما روحنا المحل بعد كدا كنتي واقفة متنحة ع الاخر هههههههههه، أنا كنت قاصدة ما اقولكيش إننا هنروح المحل اللي هو شغال فيه عشان أحيرك شوية".

ثم عادت لتقول بعد برهة ولكن بنبرة أكثر جدية: "بس عمر فعلا صاحب أخويا وكان زميله في الدراسة من أيام ثانوي وكمان في فترة الكلية بس الظروف بقا فرقت بينهم". تملك ندى فضول كبير لتعرف عنه الأكثر فقالت مستفسرة: "يعنى هو خريج تجارة؟ طب وإيه اللي موقفه في محل صيانة كمبيوتر؟" نظرت وردة إلى ندى في تهكم وقالت: "أيوة طبعا كلية، وفيها إيه يعنى؟ ما كل الشباب كدا، بيفضّلوا يشتغلوا أي حاجة لحد ما يلاقوا الوظيفة المناسبة، ولا حضرتك نازلة من لندن حالا وماتعرفيش ظروف البلد؟" كانت وردة ترفع حاجبيها وتمط شفتيها سخرية واستهزاء من سذاجة الأخرى بينما لم تتمالك ندى نفسها من الضحك على تعبيراتها الساخرة لتنطلق الاثنتان معًا في الطريق تتبادلان الضحكات المكتومة.

*****

(٦)

في ذلك اليوم أحست ندى بشعور غريب سيطر على روحها، إنها ترتجف كلما تذكرت نظراته إليها وكأنه أراد أن يطبع تلك النظرات داخل عقل أنثى لتظل تتذكره لأيام أخرى، وبالفعل هذا ما حدث، وكأنه خبير في التعامل مع الجنس الآخر، يعرف مدى سحره وجاذبية رجولته على الإناث، ولكنها ليست مثل أي فتاة ولن تكون، لا بد لها في تلك المرة أن تتروى، فلن تترك لأي من كان أن يمتلك تفكيرها ولو لثوانٍ معدودة.

عاد الطبيب يسألٍ وهو يرمقها من خلف منظاره الطبي: "طبعا هو حاول يقرب منك؟" قالت ندى وهي تنظر إلى الفراغ وتتنهد:

-"فعلا دا اللي حصل، بعد ما شفته اليوم ده رجعت البيت وأنا بفكر فيه، لا إراديًا، أحتل تفكيري وسيطر على عقلي وحسيت إنه معايا في كل حاجة بعملها أو بيتابعنى من بعيد زي ما كان بيتابعنى لما شافني في المعرض وبعدها في المحل ونظرته ليا عمري ما هنساها وكأنها اتصورت جوا عقلي الباطن، بس أنا حاولت انى مش أركز في الموضوع وأوهمت نفسي إنه موقف عادى وانتهى لحد ما بدأ هو الخطوة التانية".

لم تكن صدفة في تلك المرة ولكنها كانت خدعة منه للتقرب إليها حتى يتمكن من معرفتها عن كثب. لم تنس نظراته المصوبة إليها أو ابتسامة أنارت وجهه المستدير كلما تلاقت نظراتهما معًا، حتى في تلك الليلة حينما كانت تقف بجوار جارتها وردة في حفل خطبتها التي أقيمت في سكن الأسرة البسيط وهو المنزل القابع في نهاية شارعها الكبير لتجده كالعادة يقف بين صفوف الحاضرين ويرمقها بنظرات فاحصة حاولت دومًا أن تفر بعيدًا عنها، ولكن لم تعد هناك مفاجآت، لم تعد رؤيته شيئًا غريبًا أو طلته الجريئة الأخاذة بقامته اليافعة، أو حتى نظراته الثاقبة التي دومًا ما كانت تزلزل شيئًا وليدًا بداخلها

القاصرة في عالم الحب والغزل، بات وجهه مألوفًا لديها وغدت الرسائل المشفرة المنبعثة من عينيه لغزًا جديدًا أضاف لحياتها معنًا آخر. لم تكن تعلم أنها صارت هدفًا يلهث وراءه، لقد استغل مهارته في استخدام شبكة الانترنت، دخل على حساب صديقتها الشخصي على صفحة الفيس بوك واستطاع التعرف على أصدقائها واستخراج صفحتها الشخصية من بين الأخريات، تتبعها، راسلها بالرسائل والكلمات والصور، وتمكن من معرفة رقم هاتفها الخاص ليبعث لها برسائل مبهمة كل ليلة، فيشغل وقتها وتفكيرها معًا. لم يتملكه اليأس ولم يحاول الابتعاد عنها رغم صلابتها في التعامل ومقاومة كانت تبديها لتخفي رهبة قلب أنثى كان يرتجف من قوة حضوره الطاغية على روحها، ولكنه مع ذلك ظل يلاحقها برسائله واهتمامه الذي لاحظته إلى أن وقعت أخيرًا في حبائله بحجة الصداقة والأخوة.

"على فكرة أنا أول ما شفتك وأنا حسيت وعرفت إنك إنسانة محترمة جدًا وانجذبت لك قوي فقررت إني لازم أتعرف عليكى". قالها عبر رسالة على بريدها الإلكتروني الخاص بينما كانت جالسة كعادتها في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، نظرت لنافذة الحوار وكتبت له بعد أن بدت علامات الغضب على محياها: "قررت؟ يعنى إيه قررت؟ على أساس إني أعتبر دا أمر واقع وأسلم بيه على طول" . ضحك من ردها العنيف، لقد كان يدرك في قرارة نفسه أنها تبذل جهدًا خارقًا في إظهار قوة وقسوة لا تملكهما، كانت تحاول أن تتصنع الشراسة والجدية، قطة صغيرة تطلق أظفارها عندما تتعرض لهجوم من غريب، ولكن كل تلك المحاولات الفاشلة منها لم تجعله يتوانى عن ملاحقتها والتمسك بها أكثر فهو دومًا كان يعشق المغامرة. "هههههههههه لا أبدًا مش للدرجة دي، بس إنتى إنسانة مختلفة ودا كان السبب الرئيسي إنى حبيت أتعرف عليكى اكتر، وعموما اعتبرينا أصدقاء أو اخوات زي ما تحبي، مجرد معرفتي بشخصية زيك شرف ليا في حد ذاته". رد برسالة أخرى بعد أن ابتسمت قليلًا لإصراره على التقرب منها، ولكنها تمالكت نفسها وقالت بلهجة أكثر جدية: "فعلا هو دا اللي هيحصل، عموما اتشرفت بمعرفتك". مرت الأيام هادئة تلتها أسابيع كثيرة وشهور لم تحصها، ومع

ذلك الزمن الذي لا يتوقف كان التعارف بين الاثنين يزداد أكثر، مع كل حوار أو حديث يتناقشان فيه، شعرت براحة نفسية رغم اختلافها عنه في كثير من الأمور، ربما ذلك التباين الذي استشفته من شخصيته كان الأساس لانجذاب كل منهما للطرف الثاني، كان مختلف عن غيره فلم يكن بالرومانسية التي حلمت بها في فارس أحلامها أو كاتب شعر يتمعن في معشوقته ويسكر من خمر بحر هواها ليصفها بمعسول العبارات، ولكنه كان شخصية عملية وواقعية أكثر منها بكثير، شاب يعرف ماذا يريد وكيف يحصل عليه، يعشق التكنولوجيا والعمل ويطمح لتحقيق ذاته يومًا ما. وضع الطبيب يده على فمه وهو يرنو إليها باهتمام وفي اليد الأخرى ما زال يحمل مفكرته الصغيرة وقلم الحبر بعد أن دون بعض من الملاحظات وقال في هدوء: "وبعدين يا ندى، ازاى تطورت علاقتكم؟" ندى والدموع عاودت انهيارها من مقلتيها الواسعتين، بداخلهما كانت نظرة حنين وشوق وصدرها يعلو ويهبط كأنما تشق الذكريات به كالسكين، أما بيدها فكان منديل ورقي تمسح به عبراتها المتساقطة من أن لآخر دون أن تمنعها من التوقف: "استمر كلامنا عادي زي أي اتنين على النت، حسسنى إنه أخويا وصديقي وكل شيء بالنسبة لي، معاه شعرت براحة عمري ما حستها مع أي إنسان غيره وفتحت له قلبي اللي كان بيفقد الثقة في أي شخص". ثم صمتت برهة وعادت تقول بصوت متهدج متقطع العبارات، انخفض تدريجيًا حتى يكاد لا يسمع: ـ "حكيت له كتير عن مشاكلي في البيت وحياتي ووحدتي، قرب مني أوى لدرجة ماكنتش بقدر أكتم عنه حزني ولا ألمي، وفي يوم كنت مخنوقة جدًا وتعبانة وقتها طلب مني إنه يكلمني في الموبايل عشان يطمن عليا وأنا كنت بثق فيه فماقدرتش أرفض، وفعلا أول ما سمعت صوته وكلمني كانت بداية لمشاعر إتكونت جوايا وبدأت تسيطر عليا، مش بس أنا لوحدي، هو كمان اعترف لي إنه بيلاقى معايا راحة كبيرة لما بيكلمني وزاد إحساسه أكتر لما سمع صوتي، وكأن صوتي هو الشيء الوحيد اللي بيحسسه إن الدنيا لسه فيها ناس ملائكية ماتعرفش الغش أو الكدب!" الأمور تتطور والعلاقة تصير أقوى وفتيل الحب يشعل نارًا هادئة بين الطرفين دون أن يدرك أي منهما أن طوق

الحب قد زان عنقهما فجعل كل طرف لا يمكنه الاستغناء عن الآخر، يطمئن عليها ما بين فترة وأخرى وهي تحادثه عبر البريد الإلكتروني لتخبره عن أحوالها وما تفعل في يومها الرتيب، إلى أن جاء اليوم الذي كان يحادثها كعادته ليخبرها بمشاعره نحوها ويطلب منها أن تصارحه، كتمت مشاعرها بفعل الخجل، أصر أن تعترف له بما يختلجها وأنه يتمنى لو يستمع إلى تلك الكلمة وهي تخرج من بين شفتيها عبر الهاتف، ولكنها أخبرته أنها لن تتمكن من فعل ذلك، سيتملكها الخجل ولن تستطع أن تنبت ببنت شفة، في حين ألح عليها في طلبه ليكون الحوار بينهما بعد ربع الساعة عبر الهاتف كالآتي: ـ ندى وصوتها يرتجف قليلًا: "السلام عليكم". ـ عمر بإصرار ونبرة قوية لا تعرف الاستسلام:

ـ"وعليكم السلام. يلا عاوز أسمعها دلوقتى حالًا". ندى وقد سيطر عليها توتر واحتبست أنفاسها ودق قلبها بعنف: "هههههه يا عمر انت كدا بتكسفنى أوى، مش هقدر أقولها والله". عمر دون أن يتردد وبنبرة أكثر صلابة امتزجت بالحنان: "لا هتقدرى عشان هتطلع من قلبك، قوليها عشان خاطري عاوز اسمعها وانتى بتنطقيها!" لحظات من صمت قاتل لم يقطعه سوى رزاز مطر ضعيف يضرب بنعومة نافذة حجرتها الزجاجية، يداها ترتعشان وجسدها ينتفض وقلبها يدق بعنفوان لم تعهده من قبل، إنها الرهبة التي اجتاحتها في لحظات وهي ترى نفسها تخطو بقدميها على عتبة تجربة جديدة وتهاب المجهول، زاد من انتظاره شجونها، وبعد تردد وخوف نطقت عبر الهاتف بصوت بدا مرتعشًا خفيضًا يكاد لا يسمع، كأنين طفل مرتعش يهمس تحت الأمطار: "ب، ح، ب، ك". وفي الخارج مطر غزير لا يتوقف وحبات تزيد من ضرباتها للنافذة الزجاجية، تتابعها بعين شاردة وقلب ملأه الخوف!

*****

(٧)

أشقى النهايات هي تلك التي تبدأ بكلمة، ليست الكلمات التي تقال بين يدي لحظات الفراق، ولكن هي تلك البدايات التي تستهل بعبارات تظل عالقة بالأذهان، تفتك بأصحابها كلما عاودهم الزمان ببعض من ذكريات الماضي، ليستلذ بمرآهم ينصهرون كشمعة تذوب كل يوم وكل لحظة بعذاب الفراق! هي تلك الهفوة نفسها التي اعترف كل منهما للآخر بمشاعره، وسكب كل منهما أحلامه وأمانيه في أحضان محبه لتستهل حياة جديدة تحزم الاثنين معًا برباط قوي، وتجعل من حبهما نقطة انطلاق وإصرار على الصمود في أوجه العقبات . قالت ندى بشيء من التحطم والألم: "اللحظة اللي نطق كل مننا للتانى بانه محتاج له هي دى اللحظة اللي بعدها اتغيرت حياتي معاه، وحياته هو كمان اتغيرت، أنا أتعلقت بيه أكتر وحسيت معاه بالأمان أكتر وأكتر، وهو حسسني بحنان ورجولة ماعشتهاش ولا شفتها مع حد قبله وأيقنت من جوايا إن هو دا نصى التانى اللي بدور عليه، بفرح بابتسامته وأرتاح لصوته وأحس بالأمان لمجرد إنه موجود في دنيتي، بس رغم كدا كان جواه قوة شخصية أوقات كتير كانت بتخوفني، فيه تضاد في كتير من مشاعره، لقيت معاه الحب والحنان وفي نفس الوقت الشدة والقسوة لما كان بيكلمني عن حياته وعلاقاته باللي حواليه وردود أفعاله العنيفة في بعض الأحوال ويكلمني عن تحوله وقت غضبه وبيحذرني من ده، وأنا كنت بضحك وأقوله مش متخيلة إن إنسان بحنيتك يغضب أو يهين أو يقسي بس هو كان بيرجع يحذرني لما كان بيوصف حكاياته مع ناس عرفهم قبلي". هتف الطبيب بسؤال ناظرا إليها بتمعن: "يعنى هي دى كانت المشكلة اللي نهيت علاقتكم؟ الغضب!" صمتت ندى لبعض الوقت وقد مررت أصابع يدها على جبهتها وأغلقت عينيها لثوانٍ ثم قالت: " يمكن الغضب أو الشيء اللي ظهر مع مرور الوقت، يمكن حاجات كتير كانت مخفية عني زي الكدب

والأنانية لما تتمثل في رجل بيمشى ويخطو على أشلاء قلب واحدة أخلصت له خمس سنين وهو على يقين إنه هيلاقى غيرها، يمكن حاجات كتير بنجهلها أحنا الستات عن الرجل في الارتباط ومش بنكتشفها إلا بعد خسارة كبيرة لا يمكن تداركها من العمر والمشاعر!" أبعد الطبيب ساقه عن الأخرى وهب واقفًا من فوق كرسيه المتحرك واتجه إلى الغرفة الصغيرة الملحقة بمكتبه ثم عاد بعد برهة يحمل كوبًا من الماء، مد يده وهو باسم نحو ندى التي كانت تنتفض بقوة وترتشف عبراتها المنهالة دون تردد وقال: "اتفضلي اشربي وحاولي تهدى، افتكرى أننا دلوقتى موجودين عشان نوجد حل لمشكلتنا ونكون أكتر قوة مش نضعف ونستسلم لآلامنا". مدت يدها وتناولت كوب الماء وهي تشكره ثم رفعته إلى فمها وارتشفت منه بعض رشفات متقطعة والكوب ينتفض بين يدها بفعل جسدها المهتز. هدأت قليلًا وسكنت نوبة بكائها والطبيب يتابعها بصمت ثم عاد وسألها: "تحبي نوقف الكلام النهاردة ونتابع المرة الجاية؟" أومأت برأسها موافقة وأغلقت عينيها بضع ثوانٍ كأنما تحاول أن تغلق بابًا من ذكريات مؤلمة فتح لتوه على جرح لم يلتئم بعد!

*****

(٨)

هو، يرخي كفه القوي ليلامس راحة يدها المتخدرة بفعل حرارة مشاعره الملتهبة والمتقدة بين ثنايا راحتها، يسير بجوارها في تباطؤ ويلتفت إليها بجسده المفتول وعضلات تضخ بالرجولة والشباب برزت تحت إزاره القطني الأزرق المشمر الأكمام وقد تجلت بعضا من خبايا صدره العالي في شموخ من بين ثغراته، ووجه أسمر طويل مع جبهة عريضة تنم عن صلابة وعزيمة، شعر مجعد قصير ووجنتين غابت بينمها عيناه الصغيرتان، يرتدي بنطال من الجينز مع حذاء رياضي، كان ناظرًا إلى عينيها تمامًا دون توانٍ أو غفلة ثاغر فاه عن ضحكة مشرقة تنم عن غبطة مبعثها قلب محب.

أما هي، فكانت تواري ابتسامتها الخجلة عن عينيه القويتين وتلقي بضحكات صامتة إلى الفضاء كلما خطت خطوة وهي إلى جواره كأنما تشهد ملائكة السماء وجنود الأرض على سعادتها في تلك اللحظة، تداعب نسمات الهواء تنورتها الزهرية القصيرة والمزركشة بورود دقيقة وقميص أبيض من الشيفون ثم تعود إلى الأعلى فتلقي بخصلات شعرها الحريري إلى عينيها وفمها الوردي، لتمنحه تلك النسمة العابثة فرصة ذهبية في أن يمرر أنامله القوية، ويزيح خصلات شعرها من على وجنتيها الحريريتين.

كان مشهدًا سنيمائيًا لعلاقة حب متقدة بين اثنين لم يعرفا بعد معنى لقسوة الفراق وعذاب البعاد، إنه عنفوان الحب يا سادة! وهل استطعنا أن نمنع تدفق تلك المشاعر عن السير في أوردة قلوبنا الحمقى ونجعلها تنعطف بالإجبار على عقولنا أولًا حتى نوقف مأساة جديدة تحدث كل يوم وكل لحظة وكل رمشة عين؟ مأساة بشرية اسمها الحب!

كانت تحادث نفسها سارحة في شرود أفكارها التي باتت عدوانية نحو كل شعور يختلجها بالضعف، تنظر من النافذة الزجاجية المطلة على النيل في عيادة

طبيبها النفسي، وتتأمل الكورنيش المنبسط منذ أزل على ضفة النهر العريق وترمق المارين من على ممشاه بدقة تغوص معها في ذكرياتها الماضية، كم شهدت أيها النيل على بدايات وأحداث! كم من مرة بدأت على مرساتك قصص بشرية وحكايات! كم من مرة سمعت لمآسي آدمية واعترافات أشقياء! كم من مرة رُويت ماؤك بدموع ونحيب المئات من التعساء! حتى هي نفسها طالتها يد لعنته الأبدية فجعلتها عدد ضمن أعداد ضحاياه، ربما هي لعنة أبدية أو سحر تلك المياه الداكنة والسمراء، لقد ضحكت هنا، وتهادت بمشيتها هناك، انتظرها في هذا المكان، وهاتفها بمكالمة تليفونية تحمل أشواقه وهو ينتظر أن تطل عليه حتى ولو من بعيد! ـ"اتفضلى يا آنسة، الدكتور في انتظارك". انتفض جسدها بقوة بعد أن تهادى إليها كلمات السيدة الأربعينية بصوتها الخشن وعباراتها الصارمة، وضعت يدها على صدرها وجعلت تلتقط بعضًا من أنفاسها الهاربة وهي تستعيد هدوئها، ثم استدارت وحملت حقيبتها ودلفت من الباب إلى حجرة الطبيب. ـ "كيف حالك، هل أصبح نومك منتظمًا؟ ما بال الدواء الذي قمت بوصفه لك؟ هل تتناولينه في الميعاد؟" أسئلة معتادة من طبيب لمريضه ألقاها بدوره على مسامعها في هدوء مع ابتسامة حنونة وصوت حمل طمأنينة وود. ـ"الحمد لله بقيت أحسن وباخد الدوا زي ما حضرتك قلت لي؟" حاولت الابتسام، جاهدت أن تبادله لطفه معها في الحديث ولكن الانقباض الذي يربض على صدرها ألجم لسانها وأحكم شفتيها عن الانفراج، فاجأها الطبيب بسؤال كأنما حاول أن يوقظ عقلها الذي غرق في لج أفكاره البائسة ويوضح لها أن كل تلك الأمور باتت في ماضٍ لا بد أن تسحقه وتمر لحياتها الجديدة، فقال بحزم:

ـ"عاوز أعرف ازاى التحول اللي حصل ما بين إنسان بيحب إلى إنسان تاني بيجرح ويهين؟" وبحركة عفوية أدار وجهه ونظر بصورة درامية لبرواز صغير وضع على مكتبه بمحاذاة يده اليسرى ورتب وقفته ليجعله قائمًا في ثبات، كانت صورة لشاب في منتصف العشرين من عمره، وجهه منير بحيوية الشباب ونظرات ضاحكة من عينين غاصتا بأجفانهما بفعل نظرة الابتسام، مع ثغر منفرج عن أخره ومشدود من الجانبين كفم كبير لقطعة (مار يونيت) تضحك في انطلاق،

وشعره الناعم السابح في الفضاء مع نغمات الهواء الطائرة، ثم عاد بنظره إلى ندى التي التقطت حركته الأخيرة ونظرت لثوانٍ لا تُذكر لصاحب الصورة المبتسم ثم عادت برأسها إلى الوراء لتبدأ جلستها الأسبوعية. ـ"خمس سنين، عمري اللي فنيته في تجربة فاشلة، خمس سنين وأنا بكون الأم والأخت والصديقة وبحلم أكون الزوجة المستقبلية، خمس سنين وأنا بدعم اللي حبيته وبديله من عمري وأعصابي وحناني لحد ما حقق كل شيء كان بيحلم بيه وفي الأخر لقيت نفسي أنا اللي ماحققتش أي حلم من أحلامي بل بالعكس رجعت بجرح كبير أوى سكن روحي وضلوعي مع كلام بيرن في ودانى كل يوم ومشاهد كتير هتفضل محفورة في قلبي طول العمر".

أغلقت عينيها شاردة في ماضٍ بات بعيدًا، وفي قرارة نفسها توقن أنه لن يعود حتى في أحلامها وعلى فراشها الذي أضحى بحرًا من دموع لياليها اليقظة بنيران عينيها المشتعلتين، اختزلت بداخلهما كل مرارتها الدفينة لتزيد من اتساعهما، كبحيرة ساكنة رقد أسفلها بركان خامد ينتظر لحظة من غضب الطبيعة ليطفح بأولى حممه النارية، إنها تجربة فاشلة قادرة على أن تفعل ذلك وأكثر بقلب بريء كان كل طموحه الحب والجوار، تلك الخمس سنوات في انتظار لميعاد يتحقق بالسعادة هي التي أمضتها ندى بجوار عمر الذي أحبته، شاب في مقتبل العمر تجاوز الخامسة والعشرين لتوه، من أسرة متوسطة الحال يقطن في منزل عادي مع عائلته الكثيرة الأفراد والمكونة من أم وأب وستة من الأبناء، كان ترتيبه الثالث بين إخوانه بعد أخيه الأكبر المهندس الذي فر من ضيق الحال وسافر إلى إحدى دول الخليج بعد دراسته بعامين، والأخت الكبرى شابة رقيقة الحال بلغت التاسعة والعشرين ولم تتزوج بعد، ثم يأتي هو بترتيبه الثالث ومن خلفه فتيان وفتاة صغرى لتكتمل المعاناة التي تعيشها الأسرة مع تفاوت في الأجيال ما بين أفرادها، عائلة مصرية مثل كثير من العائلات، دهستها قسوة الحياة وفرمتها كقطعة لحم نيئة بين تروسها الحديدية، ومع ذلك ظلت تكافح للبقاء والاستمرار رغم الظروف المريرة التي حاصرتها ولم تترك لها مجالًا لتتنفس هواء الحياة بعد مرض الأب وكبر سن الأم وستة من الأفواه والأجساد التي

تحارب كل يوم لتحقيق آمال وطموحات في البقاء والنجاح.
في بداية تعارفهما لم تعرف ندى عنه الكثير، شاب كتوم محافظ يخبئ الكثير من آلام واقعه داخل صدره المتخم بهموم حاضره وضباب منعه من رؤية غده المجهول، ولكنها وحدها تمكنت من اجتذابه إليها بروحها الطيبة وشفافية قلبها المؤمن، فاكتسبت ثقته الصعبة المنال، لتجعل منه صديقًا يلجأ إليها وقت الضيق، ويبث بين أحضانها الفياضة بكل معاني الحنان أوجاعه ومعاناته التي يعانيها ليل نهار من ضغوط الحياة الصعبة، ومسؤولية كبيرة تقع على عاتقه نحو أسرته الكبيرة مع طموح يرنو لتحقيقه، ولكن تلك الظروف البائسة كانت دومًا ما تحرمه من تحقيقها أو حتى التفكير بها.
هذه الظروف التي تبلورت وازدادت تعقيدًا بمرض الأب مرضًا شديدًا وإصابته بجلطة قوية جعلته طريح الفراش بعد أن أفقدته الحركة والنطق، وجعلت منه شخصًا يحتاج للرعاية والاهتمام الخاص، إنها المهمة الرئيسية التي وقعت في المقام الأول والأخير من نصيب عمر وعلى عاتقه، ليصبح رفيقًا له طوال الوقت، بمرضه ويتحمل مسؤوليته الكاملة، تلك الجلسات الطويلة التي حرمته متعة الحياة لشاب في مثل عمره وتأخره في إنجاز الأعمال التي يصبو لبلوغها في حياته .
كل تلك المعاناة وهي تحبه وفقط، لا ترى في مأساته إلا قصة حب أسطورية تنمو وتزدهر مع مرور الليالي والسنين، لا تعرقلها قسوة الظروف ولا توقفها مرارة الأنفاس التي تزفر من قلوب ملت الشقاء والبكاء وهي لاهثة تفتش عن سبل للعيش والبقاء، حدجها الطبيب بنظرة ثاقبة وقال بعد أن قطب حاجبيه قليلًا بأمارات للتعجب: "يعنى انتى كنتي عارفة كل ظروفه دى ووافقتى تكملي معاه؟" خفضت ندى نظراتها إلى الأسفل وأهدابها تتدلى في بطء فتواري لحظات الانكسار بعينيها، رفعت رأسها وابتسمت للطبيب في ثبات كأنما تؤكد له صدق حبها الفاني، ازدردت ريقها وهتفت بخفوت: "أيوة وافقت وقبلت! كنت عايشة في وهم إن الحب بيصنع المعجزات وإن السعادة مش في الفلوس ولا في العمارات ولا العربية الآخر موديل، كان الجواز في اعتقادي اتنين بينهم

مودة ورحمة وتفاهم وجواز عن حب، بيت بسيط يبنوه بحب وسعادة وهما شايفين حياتهم بتكبر كل يوم عن اليوم اللي قبله، بتتبنى ع الاخلاق والدفء اللي بيصنعه الاتنين وهما لاقين الحنان في أحضان بعض أخر يوم طويل ومتعب، كلمة الشكر كانت تكفى، ومسح دمعة بتريح، وإحساس بالأمان بملك الدنيا مع شخص بتحبه وحلمت بيه". الطبيب بعد أن أتكأ بمرفقه على المقعد واعتدل في جلسته بصوت رخيم: "كملي". قالت وقد عاودها التأثر من جديد: "سنة ورا سنة واحنا بنقرب من بعض أكتر ونتعرف أكتر، حبيته لدرجة عمري ما كنت أتخيل إني ممكن أحبها لشخص ومعاه عرفت ازاى يكون العشق، عشق روح بتسكن جوا جسدك وتتملك من إحساسك وتحرك أطرافك، زي ما تكون روح جن بتسكن إنسان وتجعله أداة يحركها وقت ما يحب وبدون تفكير، بس أنا كنت متأكدة، أيوة كنت واثقة ومتأكدة!" ثم استدارت إلى الطبيب بكامل جسدها تقبض راحتيها بعنف على حافتي الشازلونج الجلدية وحدجته بعينين اغرورقتا بالدموع وتابعت: "كنت متأكدة إني يوم ما أحب هخلص أوي وهشتري لأبعد حد، عشان كدا كنت بخاف مس الحب يطولني وأكون مجذوبة طالها سحر الحب وجعلها عبدة ليه في عالم ضحاياه، بس للأسف ماقدرتش أمنع نفسي من الوقوع في بحر هواه، بحر ماتخيلتش يوم إن غرقي وهلاكي هيكون فيه، وعشان كدا عاهدته إني هفضل جنبه لحد ما يقف على رجليه ويحقق نفسه، ووقتها هيبقي قادر إنه يتقدم لي ويكون حبنا ظاهر وواضح قدام كل الناس، بس دايما كان بيقولى جملة عمري ما أنساها، كان يقولي أن لو حصل وسبنا بعض انتي اللي هتسبيني، وأنا بحسن نية وطيبة عمري ما فكرت في كلامه بل بالعكس كنت بتمسك بيه اكتر وادفعه للشغل واصبره على حياته يوم ورا يوم". صمتت لبعض الوقت تتنفس نسمات من الهواء الباردة علها تزيح حرارة تسكن فؤادها المثقل وصدرها المتقد بلهيب الغدر، ومن ثم قال الطبيب لها وهو يتابعها بنظراته: ـ "طول السنين دى ومفيش أي موقف أو شيء خلاكي تعيدي التفكير في علاقتكم؟" مالت برأسها إلى اليسار تنظر بعيدًا نحو الفراغ كأنما تتفكر في الإجابة أو تفتش عن بعضٍ من الأحداث في ذاكرتها البعيدة، ثم

زمت شفتيها وقالت بثقة: "يمكن أوقات الحب بيمنعنا نشوف حاجات كتيرة، مش بردو هو أعمى؟!" هل يمكن أن تنسى بعضًا من تلك المواقف المؤلمة؟ حقًا هل تستطيع أن تمحو ذلك اليوم الذي علمت أنه يعرف تلك الفتاة؟ ذاك اليوم الأسود الذي اكتشفت فيه الحقيقة المرة، حقيقة لا تكمن في كونه خانها وحادث غيرها وهي التي رمت بكل الرجال خلف ظهرها ولم تمنح عينيها فرصة في أن تلمح طيفًا لرجل غيره، طمست على عقلها بحجة هواه المقدس لتجعله رهنًا لإشارة منه فقط، ولا أنها حرمت على روحها الهائمة بفعل عشقها الأحمق أي أمنية بالسعادة أو الهناء بدونه، ولكن لأنها اكتشفت أن معشوقها الوحيد لم يكن ملاكًا ولكنه للأسف، رجل ككل الرجال!

حقًا رجل! فالرجل عندما يجد من تعشقه وتذوب في هواه حد الثمالة، تقدس علاقتها الروحية به، تحفظه كزوجة مطيعة في غيابه وتبث له معنى العطاء والحب، تعينه على دنياه وتشد من أزره في المحن وتطبطب كأخت حنون وتداوي كأم حانية، وتحب وتهوى، وترسم البسمة، وتجفف الدمع، وترقص كبهلوان على أنغام كلماته في الهاتف أخر الليل لتزيح الرماد عن ابتسامة ردمت تحت عناء يومه الشقي!

أليس كل هذا غباء؟! ولكنها لا تعرف، هل كان غباء منها فخانها ذكاؤها الأنثوي أم غباء قلبه الأناني الذي نسي لوهلة أو تناسى ذلك قاصدًا في تلك الغفلة من الزمان؟! إنها تذكرت ذاك اليوم الغابر، حينما فتحت بريده الإلكتروني لتجد ما لم تكن تتوقعه، جحظت عيناها واتقدت في قلبها نار مستعرة، إنها لعبة، نعم لعبة، مارستها فقط لتتأكد من ولاءه لها وحبه الطاهر الذي كانت تعتقد، ولكنها للأسف تعود مجددًا لتكتشف بلاهتها وسذاجتها في عالم الرجال، كانت تعرف بريده الإلكتروني وتعرف كلمة السر التي منحها إياها كنوع من إثبات حسن نيته وولاءه المطلق، فهو لا يرى غيرها ولا يهاتف سواها بالساعات ولم تأت أخرى لتزلزل كيانه الشعوري مثلما فعلت هي، إذًا فلما الخوف أو القلق لمجرد معرفتها بكلمة السر؟ إنه مجرد حساب إلكتروني ولو أراد خيانتها لفعل ذلك بطرق شتى ومن دون أن تشعر أو تعلم عن الأمر شيء، فهل نسيت ذكاءه

في التعامل؟ أو لعله نسي أن من تملك قلب جوهري يمكن أن يمنح كل ذلك العطاء لن تملك أيضًا عقل يحمل من الذكاء الكثير!
كانت أيضًا تعلمه بكل شيء يخصها ولم تمنع عنه أية معلومة أراد معرفتها في يوم ما، ولكن ها هي روح الاستكشاف تظهر في تعاملها وتطفو على سطح أخلاقها التي اعتادت على الثقة في أي شخص ما لم يثبت العكس فهو بريء حتى تثبت إدانته، فما بالك لو كان هذا الشخص من اختارته لتتابع معه مسيرة حياتها وتتمنى الاقتران به لأخر العمر، حتى لو كلفها ذلك بعض من سنوات شبابها وأخرى من وقت في انتظاره ومساندته؟!
ولكن هو من فعل ذلك، هو من علمها معنى الشك وزرع بداخلها صورة المحقق اللاهث خلف عميله يبحث عن ثغرات يتسلل من خلالها إلى غير المعلوم، هو من علمها كيف يكون دائمًا هناك شيء مخبأ، شيء مجهول يواريه شريكك في الحب، دومًا هناك شيء اسمه الخفاء! نعم، كل ذلك عندما كان يحاصرها بأسئلته الكثيرة، أين ذهبتي؟ لماذا عدت متأخرة عن الساعة التاسعة مساءً؟ ولعلمك كل هذا ممنوع بعد الخطبة وحتى قبل الزواج، لا تحادثي أقاربك من الذكور حتى وإن وجدتي بمكان معهم غصبًا عنك أو أُجبرتي على إلقاء السلام والتحية أو حتى الجلوس معهم بنفس المكان لظروف أسرية ولمناسبات عائلية، لا تقولي، لا تعملي، لا تذهبي، لا تفعلي، فكل ذلك من حقه كذكر، وبحق ذاك الحب الذي يكنه لها ويجعله يغار عليها من نسمة الهواء، ولكن في النهاية كانت كل الأشياء سواء، كلمات ليس إلا، وعبث لا محالة ووعود كاذبة!
فتحت بريده الإلكتروني، أحضرت سجل محادثاته القديمة، فتحته، هناك الكثير من المحادثات لأسماء غريبة وبعضها لرموز وأسماء فتيات كثيرات، فتحت نافذة لإحدى تلك المحادثات لترى محتواها.
" أنا كنت مبسوطة أوى إمبارح!"
" بجد؟"
" أيوة كنت مبسوطة جدا لما كنت ماشية جمبك وأنت بتوصلني، أنت عارف قد ايه بكون مرتاحة في وجودك، بس أنت يا تري حسيت بإيه؟"

" أكيد زيك!"
ما هذا؟ هل يعقل أن يصدق قلبها ما تراه عيناها، إنه يحادث فتاة أخرى ويقول لها ذلك وهي تخبره بفرط سعادتها وهي تسير بجواره؟ فتحت نوافذ أخرى لبعض المحادثات، لتجد حوار بينه وصديقة قديمة في الجامعة كانت تعلم قصتهما القديمة، وأخرى لفتيات لا تعرفهن، غاصت في أعماق صدمتها وهي تحملق بعين متسعة لا تستوعب ما تراه وحادثت نفسها في ذهول غير مصدقة، لا يعقل ذلك ولكن، ولكن لماذا؟ لماذا عرف غيرها؟ لماذا تحادثه بتلك اللهجة الحانية؟ حتى وإن كانت هي من تعجب به وتحاول اجتذابه فلماذا يترك لها مجالًا للحديث ويسير بجوارها في الطرقات غير عابئ بمشاعر مَن يعلم أنها ستحترق لو علمت ذلك الهراء؟ ألم تأت على خاطره ولو برهة من الزمان حينما كان يسير بجوارها ويسمع منها تلك الكلمات ناظرًا لها بنفس هاتين العينين اللتين ينظر إليها بهما ويترنم بعذوبتها وصفاء روحها التي امتلكها! يسير بجوارها باسمًا فاردًا قلاعه كنسر بري يحلق في سماء هوى معجباته في حين تقبع هي في المنزل لا تحادث غيره وتصون نفسها حتى تكون جديرة بالاقتران به أمام الله والجميع؟

هل يمكن أن تنسى تلك المرات العديدة التي كانت ترى بعينيه الإعجاب بأخريات؟ مقارنتها بغيرها ممن يلوّنون وجوههن ويكسين أجسادهن بقطع من قماش لا تسمن ولا تغني من جوع، أو صوره مع بعضهن بجرأة دون مراعاة لمشاعرها أو غيبتها، تلك الصورة التي وجدتها صدفة على هاتفه المحمول؟ هل يمكن أن تنسى كذبه البادي في بعض المواقف وادعاءاته الكاذبة وقصصه الوهمية؟ أم هل يمكن أن تنسى كلماته اللاذعة وقسوته المتزايدة؟

ربما قد انتهى الخلاف بينهما بالمصارحة والمواجهة كما اعتادا على ذلك أو بمعنى أدق ذلك المنهاج الذي وضعته للنجاة بعلاقتها به كما كانت تفعل كل مرة بعد أن ترى أخطائه التي تطفو على سطح شخصيته وتتضح مع مرور السنوات، لقد صاحت عليه في الهاتف وهي تبكي بعد ما رأته ليخبرها بعد توسلاته أن تسامحه وأن ذلك مجرد بضع كلمات لن تزيد في الأمر شيء، إنها مجرد فتاة عادية

تشاركه العمل في محل الصيانة وهو كان يعطف عليها ويقدم لها المساعدة، ولكنه في النهاية اكتشف أنها ليست بالبراءة التي تلمسها بها فانصرف عنها في الحال، توسلات واعتذارات مع شيء من الكبر ولكن الأمر انتهى كالعادة.
مر العام الأول والثاني بين الشابين علاقة شد وجذب، تحمل مشاعر متجانسة تذوب ما بين الاثنين وتجعل كل منهما يتشبث بالآخر أكثر من ذي قبل، هو رأى فيها إنسانة عوضه بها القدر عن قسوة حياته التي باتت مليئة بالصعاب، تحنو عليه وتحتضن آلامه وتسمعه بشغف حتى أنها تشاركه كل لحظات يومه المثقلة بالكثير من المتاعب والمآسي، أما هي فزاد تعلقها به وتملكها حبه حتى تغلل بأغوار قلبها الذي بات معلقًا بروحه وقلبه معًا، لا تشعر بالحياة إلا بوجوده ولا تجد أنوثتها إلا بسماع كلماته المدللة لها كل يوم، ولكن مع ذلك هناك بعضًا من الثقة قد تزحزحت بداخلها، وفي كل مرة يحدث خلاف بينهما تعود بذاكرتها لبعض سقطاته التي ارتكبها، تأخذ بعضًا من الوقت تنفض عنها ذاك الغبار الذي أحدثه العبث في أحداث مضت ولا فائدة من تذكرها.
ظلت الحياة على تلك الحال، شابة تعلقت بأحدهم وهو بادلها ذاك الشعور، هي تشحذ من همته وتشعل عقله نحو المستقبل وتمنحه الثقة التي سلبتها منه ظروف عائلته وتحطم أحلامه وغموض مستقبله، تنتظر اليوم الذي يأتي ويربطها برباط الحب الأبدي الزواج ويضع بأصبعها خاتمه ليتوجها ملكة على عرش حياته التي صنعاها معًا، بينما كان هو لاهثًا في دنياه، باحثًا عن كل لحظة لتحقيق النفس ولكن أحيانًا الدنيا تعيق أحلام أناس لترميهم أسفل تروسها القاسية.
قالت ندى وبعض العبرات تقطر من مآقيها وهي التي حاولت مرارًا أن توقفها دون جدوى حتى تحافظ على البقية المتبقية من بريق عينيها الذي بات منطفئًا وباهتًا: "فضلت جمبه سنين طويلة، مرت تلت سنين على تعارفنا وارتباطنا الروحي، ظروفه كانت صعبة جدًا ومع ذلك ما تأثرتش ولا تراجعت عن قراري أكون معاه لحد النهاية، تِعب وشِقي كتير وفضل فترة من عمره بجانب والده يخدمه وياخد باله منه، لحد ما توفي، أنا لسه فاكرة اليوم ده، فضلت أحاول

أكلمه مش بيرد عليا، ابعت له
رسايل بردو مش يتكلم، لحد ما فوجئت لقيته بيتصل بيا ومنهار في البكا وبيقولي بصوت موجوع: يا ندى، دهري وسندي، مات!" لعل كل تلك الأهوال التي مر بها وهي بدورها كانت تعرفها حق المعرفة جُعلت السبب الأول لتمسكها به حتى النهاية، مع وعد قطعته على نفسها في كل مرة تراه ينهار مع بداية مأساة جديدة في حياته، سوف تظل بجواره ولن تتخلى عنه حتى يحقق ما يتمنى أن يكون، أقسمت على نفسها القوية أن تكون وراء ذلك الطفل الذي تاه وسط ستة من الأخوة، والمراهق صاحب الحياة البائسة، والشاب الذي تحطمت آماله قبل أن تبدأ وباتت كلها أحلام سراب تبتعد كلما حاول الاقتراب منها ولم يتحقق له من تلك الأحلام إلا وجودها بجواره، تلك الفتاة التي لم يحلم يومًا أن يرزقه القدر بواحدة مثلها في الصفات والأخلاق والتفاني في الحب والإخلاص، في كينونتها الجوهرية، كما كان يصفها في كل مرة في حين تنظر له وتبتسم أو تسمع كلماته عبر الهاتف ويرفرف قلبها فرحًا. -"طب والمشاعر دى كان حد يعرفها؟"
تساءل الطبيب وهو يدون ملاحظة صغيرة في مفكرته ثم نظر إليها ينتظر الإجابة، اعتدلت في جلستها، ممددة على الشازلونج رافعة رأسها إلى أعلى وقالت وهي تبتلع ريقها وتشم بعض النسمات الباردة: " كان سر كبير جوانا، هم كبير بالنهار بكتمه عن كل الناس حتى نفسي اللي بتفكر فيه في كل لحظة ولساني اللي بيعشق ينطق اسمه وبيتمنى يصرخ بعلو صوته ويقول أنا ليا حبيب هو سكني وملاذي من وحدة دنيتي، بس كان عهد بينا يفضل سر حتى يقدر يقف على رجليه والموضوع يتم بسلام".
ثم تنهدت وهي تزفر نفسًا قويًا يعلو معه صدرها ويهبط:
-"بس السر بقا حمل كبير أوى شيلاه على كتافي اللي تعبت من كتر الحمول، إزاي الإنسان يقدر يعيش سنين وهو كاتم مشاعر جواه، إزاي يقدر يتحمل نظرات الناس اللي بتقوله في كل مرة أنت وحيد وفاشل وضعيف وهتفضل وحيد، إزاي يقدر يمشي ويكمل ويعيش وهو في كل خطوة شايف اتنين فرحانين، اتنين

ماشيين مشبكين ايديهم بحب، ولا اتنين بيضحكوا وهما بيبدأوا دنيتهم اللي رسموها مع بعض، في حين إنه لسه بينتظر على الشط سفينة الغايبين لحد ما دبلت ابتسامته وماتت ضحكته".

صمتت برهة وقد وضعت رأسها بين يديها ومالت إلى الأمام وهي ترتشف دموعها الهابطة إلى شفتيها المرتعشتين ثم رفعتها تهزها بعنف قليلًا وتقول: "أنا أحب! أصبر وأصبره، أضحك وأضحكه، أتألم وأكتم جوايا وابكي بالليل على مخدتي بعد ما أسمع خبر جديد عن فلانة أتجوزت والحلوة دى اتخطبت لحبيبها وعلانة، واللي حارب الدنيا ووقف قصاد أهله عشان يرتبط باللي حبها و، و، و، وأنا القديسة ندى، الراهبة في محراب حب بطلها المغوار اللي مستنياه ييجي يخلصها من حياتها، وأنا بكتم جوايا حبه وبحافظ عليه زي الشمعة اللي أخاف تمسها نسمة هوا تطفي نورها ودفئها اللي بيسري جوايا، خبيت مشاعري عن كل الناس واحتفظت بكل ضحكة وفرحة وكل ذكرى منه ومعاه في ذاكرتي أنا، بس شخص واحد حس بيا وعرف بمشاعري اللي جوايا، كان الشخص ده أمي، ورغم كل نصايحها ورفضها للموضوع إلا إن هي ساندتني وكانت بتدعي لي إن ربنا يكتب لي الخير، ويا ريت الزمان يرجع بيا، يا ريته يرجع، واسمع كلامك يا أمي!"

*****

(٩)

هل كان إيمانها القوي هو المانح لها لكل تلك الرؤى البعيدة؟ أم تراها حاستها السادسة التي مُنحت لامرأة ما زالت على فطرتها التي فطرها الله عليها رغم زواجها لمدة تزيد عن الثلاثين عامًا؟ أو ربما خبرتها التي اكتسبتها من تربيتها لأبنائها الثلاثة وزواجها من رجل قوي الشخصية لا يعرف كيفية التعبير عن مشاعره بطريقة لطيفة والتقرب إلى من يحيطون به، وكذلك كبر سنها الذي زحف إليها مع شيب خصلات شعرها الذهبية وعيناها الذابلتان واللتان حدهما خطوط صغيرة من الجانبين.

قد يكون سبب واحد أو اثنان أو قد يكون كل ما فات هو ما كان يجعلها دومًا تتنبأ بمستقبل ابنتها مع ذاك الشاب المجهول الذي رأت حرارة حبه تسرح بعينها الواسعة، فتحدث بهما شرارة من نور تنطفئ عند ذكر أي متقدم لها، ثم تعود لتتقد وتظهر من جديد بعد أن يرفض والدها ذلك المتقدم لعدم توافر الشروط الخاصة به، مع هروبها من كلمات والدتها المتسائلة والباحثة دومًا عن إجابة دون جدوى، وتلك الأحوال المزاجية المتقلبة لفتاتها الصغرى، ما بين فرحة تغمر ابتسامتها وانطلاقها نحو الحياة وأحيانًا أكثر ذبول، وحالة من العزلة والانطواء وبكاء متواصل لا تعرف له سببًا حينما كانت تدخل عليها بغتة حجرتها لتجدها متكومة كقطعة ثياب رثة تحت غطاء ثقيل لا يُرى منها سوى رعاش جسدها الباكي.

في تلك الليلة عزمت الأم أمرها على أن تعرف الحقيقة من ابنتها الكتوم، هذا السر الذي اخفته عنها لفترة لا تعرف مداها ولكنها لن تتركها هكذا ولن تدعها إلا بعد أن تعرف كل شيء عن الأمر، ربما بعض الأمور الغامضة المتعلقة بابنتها جعلتها تتوجس خيفة كشرودها لفترات طويلة والتجهم البادي عليها بعد أن تعرف بعض الأخبار عن قريناتها أو ذلك الوقت الذي تقضيه في الاختفاء لأحيان

كثيرة بحجرتها تدعي النوم بحجة الإرهاق، وأخيرًا وليس أخرًا، كثيرًا ما كانت تراها تمسك بهاتفها ليل نهار وتقبض عليه كطفل صغير يخشى عليه من الهرب، مع تلك المكالمات الغامضة في أوقات متفرقة، ولكن ربما كانت تلك الهدية التي رأتها حينما كانت تبحث عن شيء ما بحجرتها هو ما جعلها تأخذ القرار بمواجهتها في ذلك اليوم.

كيس صغير من الورق المقوى بداخله لفافة صغيرة محكمة مع بطاقة معايدة صغيرة

كتب عليها بخط غير مهندم بعض الكلمات: "كل سنة وأجمل وأرق إنسانة بخير، كل سنة وملاكي وروح قلبي جمبى ومعايا، وعقبال احتفالنا سوا يا نؤنؤ، عمر".

التقطت الأم البطاقة الصغيرة وقرأت الكلمات، ترفع حاجبيها وقد علتهما بعض الدهشة ثم مدت يدها وحملت اللفافة الصغيرة وأزاحت عنها ورقها الرقيق.

ربما ابتسامة علت وجهها عندما وجدتها لعبة صغيرة عبارة عن تمثالين صغيرين لولد وبنت، الولد يقف مبتسمًا على أرض خضراء تكسوها بعض الحشائش الصغيرة ويحكم بقبضة يده على زمام إحدى حبال أرجوحة معلقة بجزع شجرة كبيرة وعلى كرسيها الخشبي جلست فتاة صغيرة تبتسم هي الأخرى بغبطة بالغة بينما تترنح في الهواء. ـ"وقدرتي تخبي عليا كل ده يا ندى؟" قالت الأم وعلامات الغضب تعلو صوتها مع هدوء ما زال يسكن وجهها الحنون، أما الأخرى فدموعها سبقتها ومنعتها التحدث للحظات، تشيح بوجهها عن نظرات أمها القاتلة حتى استسلمت في النهاية، وكيف بإمكانها أن تكتم أكثر من ذلك أو تدعي الكذب!

ـ" أنا، أنا عارفة يا ماما إن حضرتك هتلوميني وهترفضي الموضوع، بس صدقيني أنا عمري ما عملت حاجة تغضبكم مني، وعمر إنسان كويس وبيتمني يرتبط بيا!" قالت كلماتها بصوت متقطع يشوبه بعض الخزي والخجل، دارت المناقشة فترة بينهما إلى أن تفهمت الأم الأمر بهدوء، ربما كان ذكاء منها أن تستوعب الأمر لتكتسب ثقة ابنتها المتيمة بحب شاب لا تعرف بعد كيف يفكر!

*****

الأعوام تمر، العام الأول، والثاني، حتى أتى العام الثالث لتنقلب كل الموازين وتتبدل الأحوال ومعه تفقد ندى تلك الجذوة التي طالما أشعلت فؤادها ولياليها بنيرانها الدافئة وتخلف وراءها بعضٍ من البرودة في المشاعر ورهبة من الآتي وشعور بالفرقة قد يحدث في أي لحظة، فكثير من الأشياء قد تغيرت وربما كان بداخلها شعور بأنها لن تعود.

إنه ذلك العام الذي فارق والده الحياة لتتغير أشياء ما بداخله أو تأخذ معها أشياء أخرى، وهو يرى مسؤولية بيت عائلته التي خلفها موت والده وعدم قدرة والدته المنهكة على تحمل هموم أبنائها الطائشين وسفر أخيه الأكبر بعيدًا عنه مع مشقة الحياة التي لاقاها وهو يفكر في أيامه القادمة ويتنقل من عمل لآخر ما بين محال صيانة وأخر لبيع الأدوات المنزلية والثالث بمكتب للديكورات وما زال يبحث عن عمل يناسب مؤهله الجامعي وهو شاب يطلب منه وظيفة ثابتة وشقة مجهزة ورصيد في البنك حينما يفكر ولو لحظة أن يتقدم لمن تمناها أن تشاركه الحياة.

وهو ذلك العام الذي عاد أخيه من السفر باحثًا عن عروس يقترن بها تناسب مواصفاته الجديدة، فشاب خريج لكلية مرموقة ويعمل بدولة خليجية فحتمًا سيبحث عن من تحمل نفس شهادته الجامعية، إنها حتمًا ولا بد أن تكون مهندسة وذلك هو أحد التفكيرات العقيم بمجتمع شرقي، وما زال البحث مستمر حتى وقع اختياره على إحداهن وحصلت الخطبة ومن بعدها الزواج عقب بضع شهور لا تتعدى السنة.

قبعت بغرفتها يحيطها الظلام من كل الأرجاء، راقدة في فراشها الذي تبعثر وتدلت أطرافه في كل اتجاه توحي بالفوضى من حولها، متكورة في وسطه تتدثر بغطاء من القطن الثقيل رغم حرارة طقس الصيف، ناظرة كعادتها نحو النافذة الزجاجية بعد أن فتحتها على مصراعيها لتنسل بعض النسمات الضعيفة إلى رئتيها المختنقتين، تداعب أنفاسها الحزينة وتزيح بعض دمعاتها التي ترقرقت من مقلياها وبللت وسادتها الخالية بقطراتها الملتهبة.

كيف حال الجميع؟ لا بد أنه حفل رائع والكل سعيد بزواج الابن الأكبر؟ وهو؟ تُرى كيف يبدو بحلته الجديدة؟ لا بد أن ارتدائه لها زاده بهاءً وتألقًا ومن المؤكد أن هناك الكثير من الفتيات اللاتي يلتففن حوله الآن يتمنين نظرة قبول أو رقم هاتفه.

كنت أتمنى أن أكون أول من تراه في زيه المتألق وسحره الذي أعرفه ولكن ربما كُتب علي أن أكون الأخيرة في كل شيء، والعروس؟! أتتوق شوقًا لرؤيتها وهي تهل بطلتها الأولى على المدعوين، ترقص في مرح مرتدية رداء العمر تتلألأ حبات كريستاله تحت ضوء القمر لتجعلها أميرة ليلتها الأولى، يجلس الجميع ليتابعونها في أبهى طلاتها، حتى العريس يرقص معها وتنفرج شفتاه عن أخرهما من شدة الفرح، فالآن فقط قد اكتملت فرحته بوجود من تشاركه الحياة. خيل إليها مشهد حفل العرس وهي تجلس وحيدة شاردة، كل تلك الأفكار تزاحمت بعقلها البائس وهي تلقي به على وسادتها البائسة هي الأخرى، جبينها المتعرق وقطرات التحسر الهابطة من عينيها كلها كانت تشهد على ما تلاقيه من فكر وألم، لقد مر أكثر من أسبوع ولم يهاتفها، حتى أنها حاولت أن تبعث له برسائل ولكن نادرًا ما كان يأتيها برد، إنه الآن بعرس أخيه، حفل زفاف أخيه الأكبر والذى تزوج من فتاة تصغره بأكثر من سبع سنوات حتى أنها تصغرها هي أيضًا، بينما جلست وحيدة تتذكر أيامها الماضية معه وتفكر متى ستأتي اللحظة التي تجمعهما معًا، متى ستكون عروس مثلها ترتدي أجمل فساتين الزفاف وترقص بين أحضانه، ناظرة لعينيه من دون خجل وتسكب بأذنيه أروع كلمات العشق؟ ثلاث سنوات إلى الآن وأنا أنتظره، عام تلو العام وأنا أجلس وأترقب هذا اليوم وفي النهاية تأتي من تمتلك مكاني في ذلك البيت وتكون زوجة الأخ الأكبر، حتى أنها تصغرني أنا ببضع أعوام، تكون أول من تخطو في ذلك البيت ووسط تلك الأسرة في حين أندب أنا حظي العاثر وأحترق من داخلي وأنا أرى السعادة تدق أبواب غيري وتسقطني من حساباتها الإنسانية!

إنني أعيش في الظلام، وهي تظهر في العلن، أنا سر دفين في طيات صدره وقلبه الذي يدعي عشقي، وهي تمتلك حب وود كل من حولها حتى والدته وإخوانه،

إنني أظل سنوات أحترق باسم الحب والوفاء وأدفن شبابي في مقبرة هواه وأخطو معه كل خطوة نحو هدفه، وهي تأتي في شهور معدودة وتكون خطيبة وزوجة في سن صغير، أي عدل هذا يا رب؟ هل هذا هو الإنصاف الذي يمنحه القدر للصابرين على المشاق؟ هل تلك هي مكافأة أَمّتُكَ القنوعة بقضائها وقدرها؟!
إلى متى سأظل هكذا مع من اخترته ليكون الوحيد الذي يسكن قلبي المغفل، قلب أحمق تربى على القيم المثالية الفانية ليُفني معه مشاعره الطفولية وتذبل زهرته العطرة؟ إنها خواطر ليس أكثر، أفكار تزاحمت لتزيد من معاناتها التي رافقتها حتى مطلع الفجر وتسرب ضوء من نهار الصباح عبر ثغرات ضئيلة من جانبي ضلفتي النافذة الخشبيتين وهي لا تزال تنظر نحوها، وتراقب حبات الندى تتلألأ على زجاجها البراق، وتسقط أخرى على أوراق زرعتها الخضراء لتزيدها بهجة وانتعاش، تلك الحبة الرقيقة التي تهطل من عنان سماء بعيدة يبعثها القدر لتلك النبة الضعيفة لتروي ظمأها نحو الحياة وتمنحها يومًا جديدًا وعمرًا جديدًا وأملًا جديدًا. تذكرت قصة معلمتها حينما أخبرتها قديمًا عن معنى اسمها، ندى!
تلك القطرة الصغيرة التائهة وسط ملايين من قطرات أخرى، تسبح وسط مياه البحر الناعمة وتجري بين عائلتها الكبيرة في مرح وسرور، تسيرها نسمة هواء تارة نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب، تداعبها دومًا يد القدر فتترك مستقبلها لظروف الطبيعة ومقدراتها تحملها على جناحيها دون أن يكون لها الحق في الاعتراض أو التدخل، مثلها مثل غيرها من ملايين القطرات المجهولة في غياهب القدر وظلمات البحار.
نسمة تأتي وأخرى تذهب، فتلك الفصول الأربعة كان لها الأمر الناهي والحكم القاطع في مصيرها، حتى أتى فصل الصيف بحرارته وسطوع شمس أشعلت الأرض
والبسيطة بحرارتها التي امتدت لمياه البحار والأنهار، اجهزت الشمس بسطوتها على
قطرات المياه وأجبرتها على ترك البحر والتبخر إلى عنان السماء، فتهاجر وتترك

خلفها أهلها ومحبيها، وتصبح القطرة نقطة ماء وسط ملايين قطرات المياه المتجمعة في سحابة ما وسط سماء تتخللها الظلمة والرياح العاتية، وأصوات الرعد، وأشعة البرق الأخاذة. وهنا يأتي الاختيار ويصنع القدر، تثور الطبيعة من جديد، يحل الشتاء فينير البرق جنبات السماء ويصفق الرعد في الفضاء فيملأ القلوب بالخوف والرهبة. تتجمع السحب بفعل شدة الرياح وتصطدم ببعضها البعض، وتعود قطرة الندى للحظة فراق جديدة، إنها الطبيعة مرة أخرى تجبرها على الذهاب، تنتفض السحب فتنفض عنها قطرات المياه لينفرط عقدها مرة أخرى، ولكن تأتي اللحظة الحاسمة، إنها لحظة صنع القدر، فإن كان الموت حتمًا فلا بد من الحياة، تخاطب القطرة نفسها، تفكر وتفكر قبل السقوط، إن كانت حياتي ستنتهي قريبًا فلا بد أن أهبها لكائن آخر، سأبحث عن ورقة شجر ذابلة، عصفور يثغر فاه من شدة الظمأ، ربما شق وسط أرض عطشى تحارب بذرة بين ثناياها أن تطفو على سطحها، أو زهرة برية تنتظر لحظة سقوطي لتطلق شذاها عبر ذرات الهواء، تفكر وتفكر وفي النهاية تسقط.
إن كل تلك القطرات التي تزاحمت على زجاج النوافذ، وبللت أوراق الأشجار ولامست الوجوه المارة في مطلع الصباح الباكر مخلفة وراءها ضباب كثيف، تختلف عن ندى الإنسانة الراقدة وسط فراشها الفوضوي، الأولى تروي وتبعث الحياة من جديد، والثانية قطرات دموع تروي وجنتيها الذابلتين لتستقر في النهاية على وسادتها الحزينة، وحيدة!

*****

(١٠)

كثيرًا ما قالوا أن السفر يغير من طباع الآدميين، يجعل الإنسان يعتاد على الوحدة والانفراد بنفسه، يمكن القسوة من القلب حينما يكون وحيدًا ونائيًا عن أحضان الوطن وعلى مقربة من الأهل والأحباب، ويجعل الغلظة هي السمة الأقوى لكل من سافر أو هاجر بعيدًا بحثًا عن غد ناجح، فتموت المشاعر ويفتر لهيبها وتكسو القلوب صدأ الوحشة القاتلة وتغدو أكثر غلظة وأقوى صلابة.
إنها الغربة بكل قسوتها، تلك الكلمة التي ربما اختزلتها أفواه القدماء في حكمة واحدة حملت العديد والعديد من المعاني المغمورة حينما قال أسلافنا: "البعيد عن العين بعيد عن القلب".
نعم، لم تكن منجمة ولم تكن ساحرة ولكنها رأت المستقبل بعين بصيرة، كأنه شريط لفيلم روائي قصير حمل أحداث متوالية لقصة حب نهايتها مأساوية.
لن تنسى ذلك اليوم ولو عاشت أبد الدهر، ستظل تتذكره طالما حييت، تلك الكلمات المودعة وتلك العبرات التي سالت بغزارة من عينين شعرتا بوحدتهما المحتومة، إنها تلك الدموع التي سقطت رغمًا عنها حين كانت تودعه في ذلك اليوم قبل أن يسافر إلى تلك الدولة العربية، فمنذ عامين وبعد وفاة والده بعام واحد وفترة من التخبط أرسل إليه أخيه بدعوة للبلد التي يعمل بها، سيسافر ويعيش معه لفترة من الزمان حتى يبحث عن عمل ويستقر في سكن خاص به، إنها فرصة جيدة ولن تعوض، إنه يريد أن يحقق نفسه سريعًا حتى يتمكن من التقدم لها. جلست أمام حاسوبها الشخصي فاتحة إياه على برنامج للمحادثات عبر الإنترنت، واضعة سماعات الأذن حول رأسها، على وجهها علامات اليأس والانزعاج وفي عينيها نظرة انكسار اعتادت عليها منذ فترة، أنصتت باهتمام ثم قالت بنبرة يملؤها الشجون: ـ "مالك يا عمر؟ فيه حاجة أنت مخبيها عليا؟"
كانت تخاطبه عبر الإنترنت، فمنذ أن سافر وهي كثيرًا ما تحاول أن تحادثه أو

تبعث له برسائل لتطمئن عليه، في حين دومًا ما كان يتحجج بانشغاله القوي بعمله الذي لا يرحم.

أتاها صوته عبر السماعة بلهجة باردة قائلًا: "مفيش يا ندى، هيكون ما لي يعنى؟"

تنهدت بقوة ورفعت رأسها إلى الأعلى، أغمضت عينيها واعتصرتهما بشدة كأنما تحاول أن تستمد العون والصبر من السماء ثم عاودت السؤال: "إيه يا عمر، أنا ليه حاسة إنك متغير، مش أنت عمر اللي عرفته من زمان، مش ده كلامك ولا دى لهفتك عليا، حاسة إنك مابقتش بتحبني زي الأول أو بتتهرب مني بقالك فترة؟!" قالت متأثرة في حين أجابها بعد لحظات من صمت، عساه لم يجد كلمات فخاطبها بصوتٍ مستنكرٍ وبلهجة عنيفة إلى حد ما، ربما يحاول أن يختلق خلافًا حتى ينهي النقاش كعادته أو يتهرب من شيء ما: "بردو زي كل مرة، بسمع منك نفس الكلام، هيكون متغير ما لي يعنى؟ ما أنا بتكلم معاكي أهو عادى!" ـ"عادى؟! أنت شايف إن كل دا عادى؟" سألت باندهاش داهم وجهها وصوتها المتقطع يغلبه البكاء: ـ "يوه، أيوة عادى، بقولك مخنوق وتعبان من الشغل أقول كمان ولا أغنيها لك؟"

لقد تغير كثيرًا، لم يعد مثل ما كان في الماضي، ماتت أشياء بقلبه وولدت مكانها أشياء أكثر قسوة، شعرت مع مرور الوقت أن شيء ما قد حدث، عادت بذاكرتها إلى يوم الوداع، هبطت من منزلها في الصباح الباكر قاصدة نفس الميدان الذي اعتادت على مقابلته هناك، وقفت ساندة بجسدها على السور الحديدي لكورنيش النيل تنظر لمياهه الراكدة وفي يدها حملت الهاتف بين كفها تخاطبه حتى تلاقت عيناها بنظراته الآتية من بعيد، حملت نفسها وذهبت لتجلس على الكرسي الخشبي. كان ينظر إليها من بعيد بحنين المشتاق وفي عينيه بريق يلمع مع ضوء شعاع أشعة شمس الصباح حين تهم بالاحتدام، ترقرقت دمعة من عيني كلٍ منهما، مع كلمات الوداع المحملة بالأشواق، وعدها بالعودة وهي أقسمتْ على انتظاره والوفاء له، ومضى كل منهما في طريقه عكس الآخر، كالغريبين!

تذكرت تلك اللحظات الماضية وهي تجلس أمام الحاسوب مشدوهة، هل حقًا الزمان يغير ما بالنفوس؟ هل الغربة تطمس ببغضها على القلوب فتكسوها بالقسوة والغلظة وتحولها لقطعة كبيرة من حجر صوان تتبلور من حبة رمل تلو الأخرى لتُكَوِّن قطعة صخرية لا تعرف معنى الرحمة ولا الشفقة! ربما ذاك الشعور الذي كانت تهابه وهي تنظر إليه يبتعد في ذلك اليوم لم يكن مجرد شعور أو انقباض في الصدر، ولكنه تنبؤ، شفافية في نفسها التي علمت الآتي وجلست تقرأه، قارئة فنجان كانت تتفرس طالعها عبر فنجان من قهوتها السوداء وقت الغروب!

قال الطبيب بينما كان يتحرك في الغرفة بهدوء واضعًا يديه خلف ظهره وهي جالسة أمامه على كرسيها الوثير:

ـ"تفتكري إن دا حب؟"

ـ"افتكر إن دا ضعف مني، وقوة منه!"

قالت بسرعة ومن دون تفكير في حين استدار إليها الطبيب وابتسم، ربما أيقن أمرين في وقت واحد، لقد أتت هاربة من تجربة كمريضة ولكنها في نفس الوقت طبيبة تعرف كيف تحلل مرضها وبدقة، لم تكن مريضة، إنما المرض هو ذاك الاضمحلال الأخلاقي الذي سكن في نفوس الآخرين وعشش في قلوبهم الدنيئة ليتركوها خلفهم من دون أن يرأفوا بها أو يلقوا بالًا لما أحدثوه داخل قلبها وقلوب مثيلاتها البريئات.

التفت إليها وقال: "إزاي ضعف منك وقوة منه، مش الحب قوة بردو؟"

زمت شفتيها وتنهدت بعمق ثم مررت كفيها على وجنتيها المتقدتين وقالت: "لما توصل لدرجة العشق في علاقتك بشخص يكون ضعف، لما تحبه أكتر من روحك يكون ضعف، لما تتحمل كل إهانة وتجريح وتعدى قسوة وملامة وإهمال مشاعرك وإحساسك وبردو تفضل تحب يبقى ضعف، لما تدعي ربنا إنك تكون لشخص واحد رغم قسوته وتغيره معاك وأنت شايفه بيبعد عنك كل يوم أكتر من اللي قبله يبقى ضعف!" رنا لها الطبيب باهتمام في حين تابعت بعد بضع لحظات من تأمل في الفراغ:

ـ"أنا كنت بضعف وهو كان بيزيد قوة ومع قوته بتزيد قسوته، في كل مرة يجرحني ويسبني أبكي وهو عارف إني منهارة، في كل ثانية كان عارف إني مش هقدر أتحمل بعاده وإنه أول شخص أحارب الدنيا عشان أكون معاه بس مع ذلك كان بيدوس أكتر، لحد ما مت، كنت بتنفس أيوة، بس بنص قلب ونص روح وجسد ميت!"

ربما الغربة التي جعلت منه شخصًا آخر، أو قد يكون عمله الذي يأخذ منه أغلب الوقت في يومه ولا يترك له سوى وقت للنوم وبضع لحظات يتناول فيها طعامه أخر الليل وهو يكاد يسقط من شدة التعب والإرهاق، لعلها الضغوط النفسية التي خلفتها أفكاره في كل لحظة عن الغد والتفكير في أمور متعددة تركت وراءها هم بالليل وغم بالنهار، كانت دائمًا ما تخلق له الأعذار، وتوجد له المبررات لتغيره معها، التغير الذي طرأ على لهجته في الحديث، الأوقات الكثيرة التي كانت تمر به دون أن يحادثها أو يرسل لها برسالة ليطمئن عليها، تواجده على الإنترنت بالساعات دون أن يحاول مخاطبتها أو الحديث معها على الرغم من الرسائل الكثيرة التي كانت تبثها له مع كلمات محملة بالحنين والرغبة في الاطمئنان عليه، كل ذلك حتى وإن حدث وخاطبها في الآونة الأخيرة لا يلبث أن يظل صامتًا كعادته، كأنما تاهت الأحاديث وماتت الكلمات على شفتيه الصلبتين . ولكن كل هذ التبدل، هل من الممكن أن يكون هناك الجديد في حياته؟ هل وجدت من استطاعت أن تشغل ذلك الفراغ في قلبه بعدما سافر بعيد عنها؟ إن لم تكن هناك من يستعيض بها عن من أحبته لكل تلك السنوات؟ فلماذا هذا التغير والتبلد في الأحاسيس والفتور في المشاعر؟

ولكنه الحب، الحب الذي جعلها مستسلمة كفريسة تحت أنياب مفترسها، حب جعل منه أكثر شراسة وقوة كأنما يتلذذ بضعفها الذي رآه بعينيها الباكيتين وصوتها المتوسل.

قال الطبيب بثقة، مجزمًا بمعرفة ما تبقى من حكايتها التي يرثى لها: "طبعا الموضوع انتهى على كدا بعد ما سافر واتغير في معاملته معاكي؟" ابتسمت ندى بخيبة أمل وهزت رأسها مستنكرة وقالت: "للأسف يادكتور، رغم توقعات

حضرتك، اتخطبنا". نظرت إليه بينما علت الدهشة وجهه وانتظر لتكمل حديثها متابعة: "نزل إجازة بعد سنتين، أتقدم لي واتخطبنا وأهلي وافقوا على الرغم من اعتراضهم على حاجات كتير وإنه لسه في بداية حياته، بس كانت فرحتي مكسورة، كنت بشوفه كأني بشوف شخص غريب، إنسان بشوفه لأول مرة، مش دى نظرة عينيه ليا، مش دى لهفته لما كان بيكلمني وقت ما كان قدرنا البعاد، مش دا اللي كان بيتمنى يقضي معايا باقي عمره، حتى أهله، لقيت قسوة من والدته ومعاملة جافة من إخواته، وكأن عمري اللي فنيته ضاع مع تذكرة طيران ذهاب بلا عودة". الطبيب متسائلًا وقد زم شفتيه وهز رأسه مع إغماضة قوية ورمشة كسولة: ـ "طب ازاى الموضوع انتهى على الرغم من ارتباطكم بالخطوبة؟" لمعت عيناها مرة أخرى، فركت كفيها ببعضهما البعض وتمتمت بصوت خفيض كأنما ضاعت أنفاسها: "انتهى لأن حاجات كتير انتهت وماتت، كانت أسوء فترة في حياتي، فجأة لقيت نفسي كنت عايشة في حلم، الخطوبة اللي كنت بتمناها أصبحت كابوس والارتباط اللي حلمت بيه سنين كان سجن لقلبي وجرح لكرامتي، حتى لحظات السعادة القليلة كانت تنتهي بسرعة مع كلمة يجرحنى بيها أو إهمال بالأيام". انقضت مدة إجازته السنوية، ربما لم تكن بالسعادة التي خيلت إليها ولكن لا بأس، فشهور قليلة وستصبح زوجته، ستكون بجواره لآخر العمر وسيقيم لها حفل زواج ساهر يحسدهما عليه كل المدعويين حينما يرون تألقها بفستان زفافها وذيله المتبختر وراءها وهي تتأبط ذراعه، ابتسامتها ستعبق أرجاء قاعة الحفل المزينة تحت أضواء قمر السماء الذي سيغدو متيقظًا يحتفل معهما بنهاية قصة الحب والوفاء الخالدة حتى يسلم مجلسه لخيوط ضوء الصباح، سترقص بين أحضانه الدافئة وتلمع أعين الحاضرين بعرس يتذكرونه لأيام وليالٍ ممتدة، حقًا ستكون ليلة العمر وستنعم بسعادة دومًا ما حلمت بها. لكن هي اعتادت على حقيقة واحدة، مبدأ جلي دارستها الحياة إياها عبر رحلة عمرها الطويلة في خضم لياليها وسنونها البعيدة، تصارع الرياح العاتية وتتشبث بقوة بشراع إيمانها وصبرها وكذلك ثقتها بغد مشرق، تبتسم وتنظر للسماء بعين مغمضة ووجه منير حتى تأتي الأخرى وتجهز

على ما بقي بداخل أعماقها من عزيمة وثبات، فدومًا ما كانت تأتي الرياح بما لا تشتي السفن! بات كل شيء واضح، هناك أشياء خافية عنها، هناك شخص قابع بجوارها على بعد خطوات من أناملها الصغيرة لكن نظراته تسافر بعيدًا عن جليسته، هناك إنسان كانت تعتقد بعزيمته القوية الساكنة بجسد رجل فتي تلاشى في لحظات ليصبح طفل عابث ينتظر إشارة من والدته لتخط له طريقه، هناك قلب حسبت براءته ورجل أقسمت بعفته وعيون تاهت مرارًا ومرارًا داخل بحر عينيها الطاهرتين ولم تدرك إنه سيأتي اليوم وتري أخريات يغصن ويمرحن بملابسهن السافرة وأجسادهن الوقحة ومشاعرهن المصطنعة وجمالهن الزائف بين مياه عينين رجل لم يكن يعرف معنى السباحة إلا في يم حدقتي من علمته معنى الطهر والوفاء والسعادة. هناك ظهر كل شيء، في حين اختفى كل شيء.

*****

(II)

"عمر! خلاص حلمنا هيتحقق، أنا خلاص حجزت!" هتفت بقوة مشاعر سعادة غمرت كامل حواسها وحركت كل ساكنة في خلايا جسدها المبتهج، جابت الغرفة ذهابًا وإيابًا تضحك تارة وتقفز تارة أخرى ثم تلقي بجسدها في مرح على فراشها الذي بات ريشًا من نعام يحتضن سكرات فرحها الهائمة، كانت حماستها ظاهرة لن تخفيها ظلمة الليل ولن تمنعها بوادر تلوح في الأفق وتنبئ عن فصل شتاء قارص، حملت الهاتف بين كفها الراقص وحادثته في سعادة قلما شعرت بمثلها منذ سنوات: "إمبارح فضلت أتصل بيك وابعت لك رسايل بس كالعادة قلت أكيد أنت خارج أو في الشغل، أو يمكن رجعت ونمت من التعب".
ـ"فعلا كنت تعبان ومرهق جدًا ورجعت كلت ونمت على طول". أحست ببعض البرودة التي انسلت من نبرة صوته وكلماته المقتضبة، ولكن لم تفتر عزيمتها ولم تتوقف حماستها نحو السعادة فتابعت الحديث وهي تهتف: ـ "ولا يهمك يا حبيبي، بكرة هنكون مع بعض على طول، أنا خلاص حجزت القاعة اللي قلت لك عليها، روحت أنا ومنى وحجزناها، بتطل على النيل، فاكرها؟" ابتلع ريقه وهمهم في تكاسل واضح وبعض من الضيق يظهر جليًا برده الباهت المعالم، ربما متعبًا من العمل فهو يعمل لفترة طويلة، أو عله يحتاج لبعض الراحة وقسطًا وفيرًا من النوم أو قد يكون التفكير المستمر في القادم، ربما وربما وعشرات من ربما، فدومًا كان له عذر لديها تقنع نفسها عن طريقه ببرودة حديثه وسكوته لأوقات طويلة وفترات البعاد الكثيرة المتخللة ببعض الرسائل الفاترة والمعتادة.
ـ"اه، أه فاكرها يا ندى!" ـ"كان نفسي تكون معايا وأنا بشوف القاعة وبدفع أول مبلغ، كنت هموت من الفرحة، جريت ع الكوشة وقعدت هناك وتخيلتك جنبي وبتبص لي، جريت ع المسرح ولفيته كتير ودمعت وأنا ببص من بعيد وبتخيل باب القاعة وهو بيتفتح عارف شفت ايه؟" ـ "ها، شوفتي إيه يعنى،

خير؟!" ـ"شفت نفسي بفستاني وأنا ماسكة ف دراعك وبنضحك لبعض، الزفة والكوشة والمسرح والمعازيم حتى رقصة السلو وأنا بين إيديك وبنرقص على أغنيتنا". كانت حماستها على غير العادة وبالمقابل فتور حديثه واللهجة الساخرة بكلماته كانت على غير العادة أيضًا، ولكن لا بأس فبعد الزواج سيعود لطبيعته السابقة وبقربها سيرجع لسابق عهده من الرومانسية والود وبعض خصال قتلتها الوحدة والسفر. قالت بنبرة أقل عزيمة من السابق وصوت قلق خافت: ـ "مالك يا عمر؟ انت مش مبسوط؟" زفر بقوة وتلعثم قليلًا ثم أجاب عقب لحظات من سكون: "لا مبسوط، بس..." عاد لصمته السابق ثم استطرد في بطء جعل الأخرى تزدرد ريقها وتنتظر، واضعة الهاتف على أذنها ومحملقة بسقف الغرفة تترقب في خوف من الآتي: "أنا أهلي ليهم رأي تاني، ودا رأيي أنا كمان!" شيء من سراج انطفأ بداخلها، لهيب شمعة كانت تدفئ وجدانها وتحيط جدران قلبها بنيران صديقة في ليالي الشتاء المثلجة، لقد اختفت في تلك اللحظة، دهست أو بمعنى أدق وئدت تحت رماد لبقايا شعور بالأمل.

ماذا؟ كانت لا تصدق ما تسمع فحماستها الظاهرة منذ دقائق ضاعت، ولكنها تابعت تسأل في استفسار، عل تعبيره قد خانه أو أن هناك شيء ما. ـ"رأي! رأي إيه يا عمر؟"

الأهل يعتبرون إقامة حفل عرس في مكان كهذا أمر ليس بالضرورة، تكاليف باهظة وأموال تُرمى بدون داعٍ، كما إنه ليس مستعد في الوقت الحالي فلماذا إذًا كل ذلك! حقًا ما يقول؟! هل بات اختيارها لقضاء ليلة عرس وسط الأصدقاء والأهل أمر تافه حتى لو كلفته زهيدة؟ تخليها عن أبسط الحقوق مقابل علاقة كلفتها الكثير من سنوات عمرها والزواج بدون سكن أو عش حب تفترشه بعد أن تقتني كل قطعة منه في تفنن وإبداع أمر وارد ومقبول، أما أمنيتها الوحيدة في قضاء ليلة عمرها وسط من تتمنى قربهم في هذا اليوم هو ما لا يقبل ولا يصح الحدوث؟! وهل صارت سنوات عمر أهدرتها تحت قدميه بدون مقابل هباء؟ هل أصبحت كل وعوده لها كذب؟ القلب الذي اختارته رفيقًا لها كل تلك السنوات بات لا يشعر بها أو بسعادتها التي ستمتد لساعات بسيطة، وهي التي

ذاقت أعوام من الشقاء والمعاناة تحافظ على سر حبها له في الخفاء!
الأمور تتطور والأحداث تتوالى، يوم وراء يوم وأسبوع تلاه آخر والخلافات تظهر بقوة والمشكلة تتفاقم وتزداد تعقيدًا، خاصة بعد تدخل أهله في الأحداث وابتعادهم دون مداواة للجرح الذي أحدثوه في الأمر، وعقب حوارات دارت بين والدها وخطيبها جعلت الأول يعترض على تلك القرارات الخاصة بابنته التي يتمنى لها يوم هنيئًا تحلم به كل قريناتها بينما يستشيط الآخر غضبًا ويهينها ويجرحها بالكلمات كلما تسنى له ذلك، إلى أن انتهى كل شيء في لحظة، كل تلك السنوات من الحب والوفاء والانتظار دفنت، كل وعود بالقرب والهناء تلاشت، كل الأشياء الجميلة انتهت برسائل وكلمات جارحة بقوة، خنجر مسموم يغمد بقسوة داخل قلب ضعيف مهزوم. لقد فر، هرب وتركها وحيدة تصارع الأحداث بمفردها، هي تبكي ألمًا وينزف قلبها حرقة، وهو يراقبها من بعيد تحترق كل ليلة وتذبل وتنصهر، تتذلل له أن يعود، تتوسل إليه ألا يترك حبهما الخالد وألا يمزق أوراق روايتهما الجميلة، ولكنه تركها، أغلق هاتفه وانصرف، أضافها لقائمة من يحظر عليهم محادثته أو إرسال رسالة تتكون من بضع حروف تنزف دمًا من قلب أنثى مزقه جبروت رجل بكل قسوة وغلظة، أرسل إليها برسالة أبكتها حد الإغماء يخبرها أنه لن يعود وأنه لا يريدها، لقد انتهت من حياته وصارت ذكرى مهلهلة لأنثى عرفها في الماضي.

*****

أسابيع مرت ربما شهور، لعله عام قد انطوى ولا زلت أتفكر، لا زلت أقرع قلبي بقبضة يدٍ لامست راحة رجل عاد إليها بخنجر مسموم وطعنها في ركن قلب كان سكناه لسنوات وأعوام، لا زلت أسأل نفسي بجنون امرأة تهيم ليلًا عارية القدمين تحت أمطار المساء علها تطهر بقايا رائحة غدر تفوح من بين نتوآت جسدها المتهالك. لا زلت أقرع الأبواب، وأمزق ثيابي الثمينة، وأحطم قناني عطوري المخملية وأضرم النيران بصحفي البائسة، كل ذلك لأنها فقط تذكرني بوجهك الباسم.
إنني أتساءل، ماذا فعلت بحق السماء؟ ماذا جنيت حتى تتركني بكل تلك

السهولة وتقتلني بيد باردة وقلب اندثرت فيه كل معاني الرأفة والرحمة حين يقتص من أعدائه؟ ولكن هل كنت حقًا عدوة لك يا عمر كي تفعل بي ما فعلت؟ كي تتركني وحيدة أنزف من قلبي ومن جسدي ومن صدري دمًا ونارًا وحرقة؟ أم كنت لك الأمس الذي تبغضه وأردت أن تطمسه في قبو ماضٍ يذكرك دومًا بأيام شقائك وفقرك؟!

لا زلت أتذكر كل وعودك الكاذبة وأبكي، وأنوح، وألعن، وأطلق صرخات معاتبة إلى الفضاء وأنا أفكر في كل ذكرياتي التي قضيتها بجوار من أذاقني معنى حرقة القلب وتركني عروس بائسة ترتدي ثياب العمر، تجلس وحيدة تذرف دموعًا ملتهبة من عينين ذاقتا طعم الغدر ومرارة الجبروت والقهر والفراق، تفترش الأرض بردائها المبلل بعبرات الانكسار تحت قبة السماء، وترفع ناظريها للعنان تطلب المدد من الرحمن، وتنتظر فارسها الهارب ليعود مع بزوع نهارٍ لغدٍ مجهول لا تدري كيف سيأتي وهي لا زالت وحيدة تنتظره، ولكن يطول الانتظار. هل كنت أستحق أن تأتي بعد كل تلك السنوات وتدير ظهرك لمن أدارت ظهرها لغيرك وتوارت خلفك في الخفاء تدفع من عزيمتك وتصلب ظهرك وتشحذ همتك؟ هل كنت رخيصة حقًا لا أحتاج لعناء من رجل اختزلت فيه كل الرجال ودفنت شبابي وحياتي تحت قدميه اللتين باتتا بيادة دهستني من دون أن تنظر من تدهس أو تفتك. أَغلقت هاتفك، أضفتني لقائمة من تمنعهم من التطفل على حياتك الناجحة، لفظتني خارج دنياك التي صنعتها برفقتي، بيديّ ودمي وابتسامتي، كأنما اجتثثت جذور هواي السرمدي من أرض فؤادك الخائن بعد أن نثرت بيديك بذور قلبي الصغير وهواي وأشواقي في تربة دنياك، ورويتها بماء كلماتك المعسولة لتغدو شجرة قوية الجذور صلبة البنيان، ثم تأتي وتقتلعها بقسوة فؤاد لا يعرف الحب، وتتركها طريحة البسيطة تواجه الرياح الغاشمة.

دعني أقل لك يا عشقي الكاذب، لم يعد لدي شيء، سلبتني كل شيء وتركتني بلا شيء، وعدت أتذكر طيفك الغادر وتمثال طفلين يترنحان في الهواء على أرجوحة دنيا زائفة، وجملة واحدة تدنو من أذنيّ كلما حن قلبي لقلبك الجائر: "مرحلة في حياتي، كِنتِ أنت، والآن قد انتهت!"

*****

لا زالت تقف في مكانها تحت القبة العالية ووسط القاعة الواسعة متصلبة القدمين ومتسمرة العينين على أولئك الأربعة الذين تراصوا خلف القضبان الحديدية، لا بد أن ذلك الإحساس الذي يسيطر عليها منذ اللحظة الأولى لم يكن مجرد شعور ينغز بقوة داخل صدرها المتعب، إنه شعور قوي لا أحد يعرف مغزاه سواها فقط، تنظر إليهم بعين جاحظة يطاير منها الشرر بعدما أيقنت صدق عاطفتها الأنثوية وحدسها الفطري وقلبها الذي صرخ بقوة حينما تذكر جروحه الدامية.

وما زالت على تلك الحال، إنها حال لم تتعد البضع دقائق من زمان ولكنها كانت بكل الدهر وكل السنين وكل العمر، نعم بكل العمر الذي قضته باحثة عن معنى مبهم اسمه الحب، بعينيها نار مستعرة وصدرها يعلو ويهبط من تسارع أنفاسها الملتهبة مع دقات كعب نعليها العاليين على الأرض الرخامية، تعلن عن بدء حرب ستستعر عقب ثوانٍ، لقد ثارت أنثى التنين بداخلها وانطلقت خارج كهفها تتأهب لإطلاق النيران من بين فكيها المشتعلتين، إلى أن التفتت من فورها ودارت بجسدها المهتز إلى القضاة وسارعت لتعتلي منصة الدفاع، ولكنها اليوم ليست في موقف دفاع، بل ستكون قاضيًا وحاكمًا يقتص للمظلومين ويعيد الحق لأصحابه الذين سلبت بقلوب ودماء باردة، وقفت في شموخ مواجهةً لجنة القضاء، وقد رفعت رأسها وتأهبت لإلقاء كلمة والكل يرنو إليها في سكون قاتل كأنما ينتظرون خطاب جمهوري أو قرارًا مصيري، ولكن قبل أن تشرع في الكلام بادر القاضي بسؤالها وقال بصوت يطوقه الوقار والهيبة:

ـ "سيدتي، لقد رأيناك تقفين منذ لحظات أمام قفص الاتهام وتتفحصين وجوه المتهمين، فالآن دعينا نسألك: هل تعرفين أحدًا منهم؟" انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساخرة وأومأت برأسها موافقة ثم ازدردت ريقها بصعوبة وقالت بصوت ينم عن شدة التأثر: ـ "نعم سيدي الرئيس، أعرفهم جميعًا حق المعرفة، وها قد حان الوقت لأقف هنا في مكاني وأقتص منهم جميعًا". نظر القاضي إليها وقد علت وجهه علامات الدهشة وقال: "تقتصين منهم؟! إننا لا نعرف سيدتي

لما جئتِ، وهل أنتِ في موقف الدفاع عن المتهمين أم ستقومين بدور شاهدة في القضية؟ "انتفض جسدها وعلت أنفاسها بتهدج وقالت كالتي تصرخ في صمت: "بل أنا المجني عليها سيادة القاضي".

تعالى الضجيج واللغط في قاعة المحاكمة وهتف الحاضرون باستنكار لا يصدقون تصريحها الأخير، يتهامسون تارة بهمسات وهمهمات وتارة أخرى بصوتٍ عالٍ يبعث على الضيق، مما جعل القاضي يعترض ويرفع يده بالمطرقة الخشبية ثم يهوي بها أمامه طالبًا من الحاضرين بصوت حازم التزام الصمت، ثم عاد إليها بنظره وقال مستنكرًا مائلًا برأسه قليلًا إلى الأمام نحوها: "أنتِ المجني عليها؟ كيف؟" استطردت تبتلع أنفاسها قبل أن تسقط دمعة وتهرول بسرعة عبر وجنتيها المتقدتين بالحمرة من شدة وطأة الموقف: "نعم يا سيادة القاضي أنا الضحية، بل أنا الزهرة البرية التي اقتطفت بقسوة من حديقة أنوثتها الطاهرة وهي ما زالت تتفتح على الدنيا لتستقبل حبات الندى مع بزوغ صباح شبابها البريء، تروي أوراقها الرقيقة بقطراتها المثلجة لتعلمها معنى الحياة، أنا الوردة البيضاء التي انتزعت أوراقها الصغيرة ورقة تلو الأخرى بأيدٍ قاسية وقلوب باردة، ثم ألقي بها دون تردد وحيدة على طريق الحياة الوعر لتدهس بأقدام بشرية لا تعرف معنى الرحمة". كانت تصيح بصوت متقطع وهي تنظر إلى هيئة القضاء وتشير بذراعها الأيمن إلى قفص الاتهام بقوة لم تعهدها من قبل ثم أردفت: "نعم يا حضرة القاضي أعرفهم حق المعرفة، فذكراهم ما زالت تعيش بكوابيس ليالي البائسة، ووجوههم حفرت بقلب عرف على يديهم معنى الجور والظلم، ولكني اليوم أدركت حكمة القدرة لوقوفي هنا في هذا الموقف، حتى تواتيني فرصة القصاص من هؤلاء الذئاب البشرية!"

انتقلت نظرات القاضي في دهشة ما بين مساعديه الجالسين عن يمينه ويساره، وتعالت الهمهمات مرة أخرى تعبق القاعة الضخمة، ثم همست الأصوات من جديد بعد أن طرح القاضي سؤاله التالي بوجه داهش يبحث عن جواب:

ـ "أتقولين ذئاب بشرية؟! لماذا أخترتِ مثل هذا التشبيه القوي؟ هل تدركين سيدتي أن هذا الاتهام وذاك الوصف لا يطلق إلا على من ارتكب جريمة اغتصاب

أو قتل، فهل تقدرين تبعات اتهامك لمثل تلك التهم؟!"
قبضت بإحكام على جانبي منصة الدفاع الخشبية، ربما تستمد بعضًا من قوتها وثباتها، رفعت رأسها التي ما زالت تنظر إلى منصة القضاة ثم هتفت في اتزان وثقة: "نعم يا حضرة القاضي أعلم ذلك، وأدرك ما أقول وما يتفوه به قلبي قبل شفتي، ولكن أريد أن أطرح على هيئة المحكمة سؤالًا هامًا وأتمنى أن أُمنح إجابة شافية يثلج لها صدري وتقرها عدالة السماء". تركت مكانها في لحظة وأسرعت بقوة خطوات غاضبة نحو قفص الاتهام وحدجت المرتمين وراءه ثم صاحت بصوت ترددت أصداءه في المكان حتى وصل لقبته العالية: "لماذا نحكم على من قتل أو اغتصب ونصفه بالذئب البشري؟ هل لأنه سلب حياة كائن حي أو قضى على مستقبل إنسانة لا ذنب لها سوى أنها أنثى وحكم عليها بالعار لأخر العمر؟ إن كان كذلك، فما بال عدالة المحكمة بمن سلب حياة بريئة بدون هوادة أو رحمة؟"
تعالت طبقات صوتها متسائلة يغلفها الصمت في القاعة وعيون الحاضرين الساهمة، تابعت تجوب المكان في ثقة لم تعهدها وتشير بيدها نحو القفص موجهةً حديثها نحو القضاة والحاضرين.
ـ"أليست دمار قلوب بريئة اغتصاب؟ أليس اقتحام حياة إحداهن عنوة وغزو قلبها النبتة الخضراء ثم تركه بدون تفسير اغتصاب؟ أليس حمل أنفس ملائكية إلى عنان السماء تحلق وتسافر عبر الأحلام ثم يقظتها فجأة على واقع مؤلم بعد أن تكسر أجنحتها وتنزف مشاعرها الرقيقة وتعجز قلوبها عن التحليق مرة أخرى نحو سماء الأحلام اغتصاب؟ أليست الوعود بالسعادة والمستقبل لطريق حاف بأزهار البنفسج وباقات الزنبق والياسمين باسم الحب والزواج وفي نهايته سرداب مظلم وعفن تلوح منه رائحة غدر وخيانة وتفترش أرضيته بأشواك بقايا أزهار اغتصاب؟ أليست كل كلمات الحب والوجد المغمسة بالشوق والهيام الكاذبة تسكب في أذان لم تعتد سماع ترانيم حب في محراب العاشقين وتقال بدون حساب أو جزاء اغتصاب؟!"
توقفت، التقطت أنفاسها المتسارعة ثم أردفت:

ـ"فليخبرني أحدكم، ما هو الحب؟ هل هو الوعد بالارتباط والقرب إلى أخر العمر، وفي النهاية نكتشف أنها كلمات خرقاء تطلق من أفواه لا تعرف معنى مسؤولية اقتحام قلوب البريئات وتركها دون تفكر كما فعل المدعو محمد؟ أم لحظات الحاجة والاحتياج العاطفي والإهمال الزوجي الذي يدفع بآخر للبحث عن من تعوضه عن رجولته المهملة ومتطلباته اللا نهائية ثم تركها بعد أن يفيق على كارثة تهدد حياته وأسرته الصغيرة، ليتذكر بغتة أن له حياة هو مسؤول عنها، دون أن يدرك الأذى النفسي الذي سببه باقتحامه لحياة إحداهن عنوة وجعله جزء منها رغمًا عنها كما فعل المدعو نادر؟ أم هو بضع كلمات ترمى بسذاجة على الأذان عبر ساعات الهيام والأشواق في الخفاء باسم الزواج الحلال والاستقرار والأمان وفي النهاية تسقط الأقنعة، لترى من خلفها ذئاب تعوي تحت ستار الليل، تلهث في توحش خلف فريسة جديدة كما فعل المدعو إبراهيم؟ أما هو الحب يا سيادة القاضي، الحب الكاذب الذي نهدر نحن النساء من أجله سنوات العمر والشباب، نبحث عن كيان من الألفة والطمأنينة والأمان، وجدار بشري يحمينا من تقدم العمر وقهر الشيخوخة حين يزحف بقهره على وجوهنا المرهقة وينهش أجسادنا المتهالكة ثم نستيقظ على أعظم خديعة عرفتها البشرية اسمها الحب كما فعل المدعو عمر؟

ألا يعد كل ذلك قهر وظلم واغتصاب وقتل؟ إن أردتم بعدالتكم أن تحاكمونا نحن معشر النساء على جريمة كوننا خلقنا نساء، فلتقتصوا لنا أولًا ممن حولوا نفوسنا الطيبة إلى شرر، وقلوب كانت تشدو بحدائق من الزهور والجمال والرقة لقطع من الفحم الأسود تحترق كلما زدات اشتعالًا. أين الثمن لسنوات عمرنا التي تهدر ثم نخان؟ أين الحق في مشاعرنا التي نبذلها ثم نترك وبإهمال؟ أين الوعود التي ننتظرها بعد عمر من الوفاء والحب والدعم ولا نلاقيها إلا بالغدر والهوان، أين العدالة يا سيادة القاضي، أين الرحمة والرأفة والحقوق المسلوبة؟ لا تزال تهتف وتصرخ والكل يسمع، الكل يرنو باهتمام وقلوب توقفت في خوف بفعل مرافعتها القوية وحجتها الثاقبة، ربما هذا الصدق المتربع داخل مقلتيها المتراقصتين بعبرات مترنحة تأبى الهبوط، وعزيمتها التي أعجزت الألباب

وأخرست الألسن، وربما شيء آخر، إنه القهر ومذاق الظلم الذي شعرت به يغص بداخلها بعد أن رأت هؤلاء الظالمين، اصطف الأربعة خلف القضبان والكل يعرف حكايته، الكل يوقن جريمته الإنسانية وجرمه غير الواضح (محمد ـ نادر ـ إبراهيم ـ عمر)، يكفيكم ما لقيتم من إهانة وانكسار ويكفيني عزة وفخر أن أكون هنا وأرفع رأسي شامخًا أمام البشر وتحت سماء العدالة.

عاد القاضي إليها يسأل: ـ "إذًا، فماذا تقترحين؟" قالت بعد أن هدأت نوبة حميتها وسكن صوتها: "إن كان هناك قانون لمحاربة المجرمين بشتى أنواع الجرائم من قتل وسلب ونهب واغتصاب وسفك دماء أرواح وبلدان، ولكن ماذا عن جرح النفوس الخفية، قتل الأرواح الإنسانية، ظلم المشاعر المغمورة داخل قلوب ساذجة، وذبح الأفئدة الفتية؟! ألا يعد كل ما ذكرته يا سيادة القاضي جرائم في حق البشرية؟! ومن ثم فإنني أطالب عدالة المحكمة وهيئة القضاء أجمع أن تسن قانون جديد يحافظ على الأنفس البريئة ويخول لسلطة القضاء محاكمة كل من تسول له نفسه بارتكاب جريمة جرح للمشاعر في حق أي إنسان سواء كان ذكر أو أنثى".

تعالت الصراخات والهتافات داخل القاعة، تحرك الجميع من أماكنهم باتجاهها وهي تقف في خوف لا تعرف كيف التصرف، الكل يحيطونها، والكل يسأل ويندد ويصرخ وبين كل ذلك صوت رنين هاتفها يهتز داخل جيب سترتها السوداء، تمد يدها بصعوبة وتخرج الهاتف ويدها تهتز بفعل الزحام، تنظر لشاشة الهاتف، وتهمس: أحمد؟!

ليس مجددًا، استيقظت من النوم على صوت رنين منبه الهاتف، فركت عينيها بخمول وارتمت ثانيةً على الفراش تجفف حبات العرق أعلى جبينها وتعود لتغمض عينيها قليلًا، حلم عجيب تلك المرة، محاكمة ومتهمين وقصاص، ولكن لما لا؟ لقد راقتها الفكرة كثيرًا، لماذا لا تقام محاكمات لعقاب المتهمين بجرح مشاعر الغير؟ وهل سيأتي اليوم الذي يصبح فيه التلاعب بالأحاسيس والمشاعر عقوبة إنسانية ودعوات تقام ومتهمين وقصاص للقلوب والنفوس؟! ربما آن الأوان حقًا أن تأتي تلك اللحظة، أن تمنحها الحياة فرصة جديدة للعيش والاستمرار، وكل

ذلك سوف يبدأ اليوم، فعقب ساعات ستبدأ قصة جديدة وتنتهي أخريات، قصة هي بطلتها الوحيدة ولا وجود لآخرين سواها، كانت تحدث نفسها بينما لا تزال ممددة على الفراش، تنظر للأعلى وتنصت لنغمات زقزقة عصافير الصباح وصوت البائعين وحركات المارة، وتبتسم، تبتسم من جديد وتفتح قلبها من جديد وتتنفس رئتاها هواءً نقيًا من جديد، ولكن ما المغزى من ظهوره ولو باتصال في نهاية الحلم؟

أخرجها رنين هاتفها مجددًا من توارد أفكارها، اسم ظهر على شاشته منحها ابتسامة أخرى، طال الرنين فأتاها صوت هادئ: ـ "صباح الخير، كاتبتنا ما زالت نائمة؟ هيا أستاذتي سوف نتأخر عن الميعاد"، ابتسمت في رضا وقالت بصوت هادئ: "باشمهندس أحمد، لا تقلق، ساعة واحدة وسأكون في المكان المطلوب".

*****

ملصق ضخم لصورة كتاب يحمل اسم (رسائل قطرة ندى) وضع بمحاذاة باب قاعة المركز الثقافي الكبير وصورة أخرى للكاتب مع لافتات تحمل اسمه وعنوان الكتاب، تتصدر كل ركن وكل حائط حجري من حوائط الرواق الكبير المفضي إلى القاعة الفسيحة، وقف الجميع يلتفون حول بعضهم جماعات وفرادى يتجاذبون أطراف الحديث، وآخرون يتبادلون المناقشات الأدبية والآراء الفكرية التي أسفرت عنها ندوة إطلاق كتاب جديد في عالم الأدب والفكر الشبابي، وفي نهاية القاعة كانت تجلس هناك تبتسم في سعادة لم تغمرها منذ أمد بعيد، شعور بنشوة الانتصار على الضياع والقهر، تمسك قلمًا بين أناملها الرشيقة وتخط إهداء لتلك الفتاة الواقفة أمامها: "مع خالص حبي وتمنياتي بقراءة ممتعة، ندى عبد القادر".

رفعت رأسها مبتسمة ومنحت الكتاب للأخرى التي بادلتها بابتسامة أكثر حرارة وعبارات إعجاب ممطرة، صافحتها وودعتها في لطف، لتلتقط عيناها نظرة أحدهم الذي وقف هناك يراقبها في الطرف الآخر من القاعة ويرمقها بنظرات عابرة وابتسامة هادئة فطغت على عينيه البريئتين إغماضة ساحرة، ودعت معجبة أخرى ووقفت تنظر لنظراته المصوبة إليها مباشرة، كان يقف في صلابة

وقامة مستقيمة، جسده رشيق فارع الطول وبنطاله الجينز مع سترته الرمادية وقميص وردي هادئ، مخبئًا كفيه داخل جيبي بنطاله في قوة، إنها المرة الأولى التي تلحظ ملامحه وتتفحصه بتمعن حتى وإن كان عن بعد، هو أيضًا كان لا يزال ينظر إليها في صمت، تلاقت نظراتهما للحظات حتى انفرجت شفتا كلٍ منهما عن ابتسامة تخبطت أحاسيسها على إثرها وأطرقت برأسها إلى الأرض في خجل، بينما أشاح هو بنظره في الاتجاه الآخر، انتهت الندوة وانصرف الجميع، حملت حقيبتها واتجهت إلى الباب حيثما وقف بينما ما يزال يراقب خطواتها في تأمل، حتى وصلت إليه وقالت بثقة والابتسامة لا تفارق وجهها: "وأخيرًا، شكرًا لك". تنفس بعمق وابتلع ريقه ثم قال ناظرًا لها بشغف: "شكرًا لكِ أنتِ". مشي بجوارها من باب القاعة حتى خرجا من الباب الرئيسي للمركز، يتبادلان الحوار والانطباعات حول الساعات الأخيرة من ندوة إطلاق روايتها الأولى، حتى رن هاتفها من جديد فأخرجته من حقيبة يدها ونظرت لبيانات المتصل، رقم تعرفه كالعادة ولكنها لن تجيب، ابتسمت وضغطت على زر إنهاء المكالمة، ثم عاودت وضعه في الحقيبة فسألها في تردد: "اتصال مهم؟" ابتسمت بثقة وقالت: "ليس مهمًا على الإطلاق، ولكن أعتقد قد حان الوقت لتغيير رقم هاتفي الخاص". رفع حاجبيه بسخرية وسأل وابتسامة تعلو شفتيه: "تُرى، هل سأمنح شرف معرفة رقم هاتف الكاتبة القديرة الجديد؟ أم سأعتبره تطفل من شخص متواضع مثلي؟" ابطأت خطواتها بهدوء، مالت برأسها في رقة ونظراتها إلى السماء ثم كورت شفتيها وقالت وابتسامة لا تغادرهما: "امممممممم، دعني أفكر!"

*****

قبل شهرين، الساعة السادسة والنصف مساءً بنفس العمارة المطلة على النيل، صمت بين الاثنين، وكل منهما يحدج الآخر بنظرة غامضة تبحث عن إجابة شافية لتساؤلات تدور في عقليهما، إلى أن انطلقت جملتها الأخيرة لتقطع هذا الصمت المبهم: "نعم، أنا!" أجابت بنبرة صوت مستكينة وملامح هادئة رغم التوتر البادي عبر كلماتها المترددة في الخروج من حنجرتها الرقيقة، قابعة على الكرسي الذي اعتادت على مكانه منذ فترة ليست بالبعيدة، بينما ظل يتابعها

بنظراته المبهمة متكئًا بمرفقيه كعادته على سطح المكتب، جالسًا من خلفه على نفس المقعد المبطن منذ دخوله إلى المكان. عادت نظراتها إلى الهبوط قليلًا وقالت بصوت خفيض يشوبه الخجل: "نعم، أنا صاحبة الرسائل!" تنبهت حواسه بعد سماع ما قالت، فثغر فاه قليلًا واتسعت حدقتاه البنيتان كأنما وجد كثيرًا من الإجابات عبر ردها الموجز والبسيط، ولكنه لم يؤثر الصمت وعاد يسأل: ـ "هذا يعني أنك من كتب هذه الرسائل! ولكن ما علاقة والدي بذلك؟" اعتدلت في جلستها بعد أن لملمت بعضًا من نفسها المضطربة بينما لا زالت نظراتها القلقة تنطلق في الفراغ، حتى أخذت القرار بالاسترسال في الحديث الذي بدا بصورته الدرامية:

ـ "نعم أنا ندى عبد القادر، كاتبة الرسائل، وصاحبة كل التجارب فيها، مررت بأزمة نفسية شديدة بعد تجربة خطبة وزواج كنت استعد لإتمامه كنهاية متوقعة لقصة حب تجاوزت الخمس سنوات، مررت بأربع تجارب أخذت مني الكثير كل تجربة أسوء من الأخرى، عانيت فيهم المعنى الحقيقي لظلم الرجل، قمعه وقسوته في معاملة المرأة، فالقسوة لم تكن يومًا إهانة جسدية بقدر كونها إهانة نفسية ومعنوية، مررت بلحظات يأس وألم وانهيار لحياتي، كل ذلك وأنا في طريقي للبحث عن حلمٍ واهٍ يتلخص في السعادة والاستقرار، في مجتمع نسي أن المرأة مخلوق سامي يستحق الاحترام والإنصاف والكرامة، مجتمع تناسى فيه رجاله دماثة الخلق والوفاء والشرف، كلما شعرت باقتراب تحقق الحلم المنتظر وجدتني ألهث في صحراء قاحلة عن سراب ليس له وجود، تعبت، أرهقت نفسيًا، ودخلت في مرحلة من الاكتئاب المستمر، حتى أقنعتني والدتي بضرورة استشارة طبيب نفسي ولهذا السبب جئت إلى هنا، وبدأت معرفتي بوالدك، الدكتور شريف". لم يرد أن يقطع حديثها، فقط ظل متأثرًا بروايتها ويستمع في صمت. ـ"وقف بجانبي، اهتم بي، ساندني، عاملني كابنته، احتواني وظل بجواري حتى استطعت الخروج من الأزمة بسلام". عادت تتنهد رافعة رأسها إلى الأعلى وابتسامة ظهرت على محياها، ـ" كان شخصًا لا ينسى، وترك بداخلي بصمة لن تمحى من قلبي أو ذاكرتي، عرف عني حبي للكتابة فشجعني عليها وحثني

على أن أبث آلامي في ورقات وكنوع من العلاج كما أخبرني، بينما لم أكن أدرك أنه بحكمته كان يدفعني إلى بداية جديدة أشق عبرها طريقي وأدرك كينونتي الحقيقية وقوتي الدفينة". شيء ما عبر نبرة صوتها الدافئة بث بداخله شعور قوي لم يشعر بلذته منذ زمن، كالحنين للحديث عن والده أو السعادة لسماع بعضٍ من أنبائه أو ربما! ـ "ولكنه توفي فجأة، تركني مثلما تركني والدي عندما رحل دون أن ينذرني، ومع ذلك أكن له بكل العرفان على معاونتي في استعادة حياتي، لم أستطع أن أنسى جلساتي الأسبوعية معه، أفكاره ومناقشاته، وصداقته التي باتت جزء من دنياي الخاوية، حتى فوجئت عند زيارتي الأخيرة بخبر وفاته ملصق على باب العيادة ولم أكن أصدق أن والدي الثاني قد توفي هو الآخر، ولكنني لم أنس يومًا وعدي له بإكمال مسيرة حياتي، واليوم وبالمصادفة كنت أمر تحت البناء فوجدت النور المنبعث من حجرة مكتبه وأيقنت بوجود أحد ما بالشقة، فأردت أن أصعد لأخذ ملف أوراقي وانصرف حتى وجدت الباب مفتوح". ابتسم في رضا، فلمع ضوء خافت انطلق من مقلتيه المشدوهتين تزامن مع صدور رزاز رقيق من حبات المطر تضرب برقة زجاج النافذة الكبيرة، شاهد حبات المطر وهي تسقط في دلال وابتسم، أطلق سراح زفرة هادئة احتبست منذ زمن في صدره، ثم عاد بنظره إليها وقال في انشراح وبصوت سكنه الدفء:
"إذًا، مرحبا بك، قطرة الندى!"

*****

ختامًا

إن كانت الشمس الحزينة قد توارى دفؤها،
فغدًا يعود الدفء يملأ بيتنا،
والزهر سوف يعود يرقص حولنا،
لا تدعي أن الهوى سيموت حزنًا بعدنا،
فالحب جاء مع الوجود وعاش عمرًا قبلنا،
وغدًا نحب كما بدأنا من سنين حبنا!
، فاروق جويدة.

(تمت بحمد الله)

فصلة
للنشر والتوزيع
Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub